

إِمْتَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ
بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ
لِلْإِمَامِ الْمُجَدِّدِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ
[رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى]

(١١١٥ - ١٢٠٦ هـ)

أَعَدَّهُ فَضِيلَةُ الشَّيْخِ
د. عُمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ خَيْرٍ (كَبُوشِيَّةٌ)
حَفِظَهُ اللَّهُ

تَقْدِيمُ فَضِيلَةِ الشَّيْخِ د. خَالِدُ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ
حَفِظَهُ اللَّهُ

اعْتَنَى بِهِ وَلِيدُ بْنُ الْفَكِيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله هدانا لهذا الذي كنا في ضلال عنده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من
 شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له
 ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
 لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله - ^{صلى الله عليه وسلم} -
 أما بعد فقد وقفت على شرح الألف الشيخ عمر محمد علي - المشهور
 بكنية - على كتاب التوحيد للشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب
 - رحمه الله - فألفيته شرحاً وافياً ، وقد استوعب شرح الكتاب
 كله مع سهولة في العبارة ولطابة في الأحكام واختصار غير مغل
 فجزاه الله خيراً وبارك في عمله - وفي نظري يصلح هذا الكتاب
 لتدريسه في المعاهد والدورح العلمية . والله ينفع به .
 وبالله التوفيق

قال عبد اللطيف محمد نور

١/٢٣
 ١٤٣٩ هـ

مُقَدِّمَةُ الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ : خَالِدِ عَبْدِ اللّٰطِيفِ :

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَمَا بَعْدُ فَقَدْ وَقَفْتُ عَلَى شَرْحِ الْأَخِ الشَّيْخِ عُمَرَ مُحَمَّدَ عَلِيٍّ - الْمَشْهُورِ بِكَبُوشِيَّةٍ - عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ لِلشَّيْخِ الْعَلَّامَةِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فَأَلْفَيْتُهُ شَرْحًا نَافِعًا ، وَقَدْ اسْتَوْعَبَ شَرْحَ الْكِتَابِ كُلِّهِ مَعَ سُهُولَةٍ فِي الْعِبَارَةِ وَإِبَانَةٍ عَنِ الْأَحْكَامِ وَاخْتِصَارٍ غَيْرِ مُجِلٍّ فَجَزَّاهُ اللَّهُ خَيْرًا وَبَارَكَ فِي عَمَلِهِ . وَفِي نَظَرِي يَصْلُحُ هَذَا الْكِتَابُ لِتَدْرِيسِهِ فِي الْمَعَاهِدِ وَالدُّوَرَاتِ الْعِلْمِيَّةِ . وَاللَّهُ يَنْفَعُ بِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ

خَالِدُ عَبْدِ اللّٰطِيفِ مُحَمَّدُ نُورٍ

١٤٣٩/١/٢٣ هـ

مُقَدِّمَةُ الشَّارِحِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ تَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ ، وَنَسْتَغْفِرُهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ، وَمَنْ يُضِلِلْ ، فَلَنْ يَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ .

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ^(١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا

كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ ^(٢).

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ

لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ ^(٣).

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْقَوْلُ السَّدِيدُ وَالرَّكْنُ الشَّدِيدُ الَّذِي يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْعَبِيدُ فِي كُرْبَاتِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْوَعِيدِ ، بِهِ السَّلَامَةُ مِنَ التَّيْرَانِ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ ، وَلَا يُخْلَدُ صَاحِبُهُ فِي النَّارِ مَهْمَا عَمِلَ ، مِنْ أَجْلِهُ أَرْسَلَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ وَأَنْزَلَ كُتُبَهُ أَجْمَعِينَ ، وَنَاخَ بِهِ نُوحٌ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَمَا ضَعُفَ وَلَا وِنَى ، وَشَهِدَ لَهُ قَوْمُهُ فَقَالُوا : قَدْ أَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ، وَالْقِي الْحُلِيلُ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - فِي النَّارِ لَمَّا صَدَعَ بِهِ وَحَدَّرَ مِنْ ضِدِّهِ ، فَكَانَتْ حَصِيصَتُهُ الَّتِي مَيَّزَهُ بِهَا قَوْمُهُ : سَمْعُنَا فَتَى يَذْكُرُهُمْ ، وَأُخْرِجَ الْكَلِيمُ - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - وَقَوْمُهُ مِنْ أَرْضِهِمْ مُشْرَدِينَ

(١) سورة آل عمران الآية: ١٠٢ .

(٢) سورة النساء الآية: ١ .

(٣) سورة الأحزاب الآية: ٧٠-٧١ .

لَمَّا قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، وَكَادَ الْيَهُودُ لِعِيسَى - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - مِنْ أَجْلِهِ فَرَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ، فَقَتَلُوا مَنْ أَلْفَى اللَّهَ شَبْهَهُ عَلَيْهِ ، وَأُخْرِجَ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - مِنْ مَكَّةَ وَهِيَ أَحَبُّ الْبِلَادِ إِلَيْهِ . فَلَمَّا كَانَ التَّوْحِيدُ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ الْعَلِيَّةِ وَالرُّتْبَةِ السَّنِيَةِ اخْتَصَّ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ وَفَضْلِهِ طَائِفَةً مِنَ الْأَوْلِيَاءِ لِيُنُوبُوا مَنَابَ الرُّسُلِ وَالْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا رَيْبَ أَنَّه لَا يَصْلُحُ لَهُذِهِ الْمُهَمَّةُ كُلُّ أَحَدٍ ، إِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ لِمَنْ اخْتَارَهُ اللَّهُ وَاجْتَبَاهُ ، فَقُلُوبُهُمْ لَا تَقْصُدُ إِلَّا إِيَّاهُ ؛ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ، تَعَلَّقَتْ هِمَّتُهُمْ بِرُؤْيَاهُ ، وَاشْتَغَلَتْ أَلْسِنَتُهُمْ بِذِكْرِهِ ، وَطَابَتْ أَعْمَالُهُمْ وَأَقْوَاهُمْ بِالْإِخْلَاصِ فِيهَا ، فَهُمْ أَرْحَمُ الْخَلْقِ بِالْخَلْقِ ، أَوْجَبَتْ شَفَقَتُهُمْ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْتَمِلُوا مِنْهُمْ الْاِذَى لِيُوصِلُوا إِلَيْهِمُ النَّدَى ، تَحَرَّقَتْ نُفُوسُهُمْ إِذَا عَلِمُوا مَنْ يَسْجُدُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، يَقْضُ مَضْجَعَهُمْ ، وَيُورِّقُ سُبَاتَهُمْ أَنْ يُسْتَعَاثَ بِغَيْرِ اللَّهِ ، يَبْذُلُونَ نُفُوسَهُمْ رَخِيصَةً حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَحْدَهُ ، مُتَّبِلِينَ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى :

﴿ وَقَتْلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً ﴾^(١) .

فَإِذَا ذُكِرَ هَؤُلَاءِ فَإِنَّ الْإِمَامَ مُحَمَّدَ بْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الزُّمَرَةِ الْأُولَى مِنْهُمْ وَيُذَكِّرُ مَعَهُ كِتَابَهُ (كِتَابُ التَّوْحِيدِ) الَّذِي اشْتَغَلَ بِهِ أَهْلُ التَّوْحِيدِ الْعُلَمَاءُ مِنْهُمْ وَطَلَبَةُ الْعِلْمِ ، فِيهِ مِنَ النَّفَائِسِ وَالْذُرَرِ مَا يَهْزُ فُؤَادَ أَهْلِ الْعِلْمِ طَرَبًا وَفَرَحًا ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يَفْهَمُ عَامَّةُ النَّاسِ الْمُرَادَ مِنْهُ بِلَا كَلْفَةٍ فَهُوَ سَهْلٌ مُتَنَبِّعٌ ، وَقَدْ ذَكَرْنَا أَشْيَاخَنَا أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - يُشَابِهُ الْإِمَامَ الْبُخَارِيَّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي تَرَاجُعِهِ ، وَرَأَيْنَا حِينَهَا أَنَّ هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ ، وَكُلُّ مَنْ يَسْمَعُ هَذِهِ الْعِبَارَةَ أَوْ يَقْرُوهَا يَظُنُّ هَذَا الظَّنَّ ، وَلَيْسَ لَهُ عُذْرٌ سِوَى أَنَّهُ جَهْلٌ هَذَا الْكِتَابَ وَمَا فَهَمَهُ وَلَا دَرَسَهُ ، فَبَيْنَهُ وَبَيْنَ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ حِجَابٌ يَكْشِفُهُ إِذَا جَلَسَ بَيْنَ يَدَيِ دَوَى الْأَلْبَابِ . وَقَدْ نَالَ الْكِتَابُ شَهْرَةً عَظِيمَةً بَيْنَ أَوْلِيَاءِ الشَّيْخِ وَأَعْدَائِهِ ، وَشَرَحَهُ أَهْلُ الْعِلْمِ شُرُوحَاتٍ كَثِيرَةً أَوْلَاهَا وَأَفْضَلُهَا كِتَابُ : (تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) لِسُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
الْحَفِيدِ ، وَلَكِنْ لِيُضَعِفَ الْهَمَمَ بَعْدَ النَّاسِ عَنْهُ لَا سِيَّما وَهُوَ مَبْسُوطٌ ، وَمَنْ طَالَعَ هَذَا الشَّرْحَ وَجَدَ فِيهِ
مِنَ الْفَوَائِدِ مَا فِيهِ ، وَقَدْ اسْتَعْنْتُ بِاللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَكْتُبَ شَرْحاً مُخْتَصِراً غَالِبَ مَادَّتِهِ مِنَ التَّيْسِيرِ ؛ لِأَنْتَفِعَ
بِنَفْسِي مِنْهُ ، وَيُقَرَّبَ لَأَمْثَالِي مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ هَذَا الشَّرْحَ النَّفِيسَ وَسَمِيئُهُ : (امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ
كِتَابِ التَّوْحِيدِ) رَاجِياً مِنَ اللَّهِ أَنْ يَنْفَعَ بِهِ كَمَا نَفَعَ بِأَصْلِهِ . وَلَا يَفُوتُنِي فِي هَذَا الْمَقَامِ أَنْ أَشْكُرَ شَيْخِي
الدَّكْتُورَ خَالِدَ بْنَ عَبْدِ اللَّطِيفِ لِنَفْضِهِ بِالْإِطْلَاعِ عَلَى هَذَا الشَّرْحِ مَعَ ضَيْقِ وَقْتِهِ وَكَثْرَةِ أَشْغَالِهِ وَتَفَضُّلِهِ
أَيْضاً بِتَقْرِيبِهِ ، وَهَذَا مِنْ سَمَاحَتِهِ وَتَوَاضُّعِهِ . رَفَعَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَبَارَكَ اللَّهُ فِيهِ وَفِي عِلْمِهِ
وَعَمَلِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ .

الشَّارِحُ

تَرْجَمَهُ الْإِمَامُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (١)

هُوَ أَبُو عَلِيٍّ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ الْوُهَيْبِيِّ التَّمِيمِيِّ.

مَوْلَدُهُ: وُلِدَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابِ فِي مَدِينَةِ الْعُيَيْنَةِ سَنَةَ ١١١٥ هـ .

أَسْرَتُهُ : نَشَأَ الشَّيْخُ فِي أَسْرَةٍ مَعْرُوفَةٍ بِالْعِلْمِ ، فَجَدُّهُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَلِيٍّ أَشْهَرُ الْعُلَمَاءِ فِي عَصْرِهِ ، وَعَمُّهُ إِبْرَاهِيمُ عَالِمٌ جَلِيلٌ، وَوَالِدُهُ كَانَ ذَا بَاعٍ طَوِيلٍ فِي الْفِقْهِ ، بَقِيَ قَاضِيًا مُدَّةً طَوِيلَةً فِي الْعُيَيْنَةِ .

نَشَأَتُهُ : كَانَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْذُ نُعُومَةِ أَطْفَارِهِ مُتَفَوِّقًا فِي الذِّكَاةِ ، وَقَدْ حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَعُمُرُهُ أَقَلُّ مِنْ عَشْرِ سِنِينَ ، ثُمَّ دَرَسَ الْفِقْهَ الْحَنْبَلِيَّ عَلَى وَالِدِهِ ، وَقَدْ أُعْجِبَ وَالِدُهُ بِذَكَائِهِ الطَّامِحِ وَمَوَاهِبِهِ ، بَلَغَ مَبْلَغَ الرِّجَالِ وَهُوَ ابْنُ اثْنَيْ عَشَرَ عَامًا ، وَرَوَّجَهُ أَبُوهُ فِي الْعَامِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ أَدَّى فَرِيضَةَ الْحَجِّ ، وَأَقَامَ شَهْرَيْنِ بِالْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ثُمَّ رَحَلَ وَاشْتَغَلَ بِطَلَبِ الْعِلْمِ حَتَّى أَنَّهُ كَانَ يَكْتُبُ عِشْرِينَ صَفْحَةً فِي جَلْسَةٍ وَاحِدَةٍ .

رَحْلَتُهُ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ : فَصَدَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْحِجَارَ وَهُوَ فِي الْعِشْرِينَ مِنْ عُمُرِهِ ، وَحَطَّ رَحْلَهُ بِالْمَسْجِدِ النَّبَوِيِّ ، وَأَخَذَ الْكُتُبَ السَّنَّةَ مَرَّتَيْنِ ، مَرَّةً عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ سَيْفِ النُّجْدِيِّ ، وَمَرَّةً عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ حَيَاةِ السِّنْدِيِّ . وَهُوَ فِي مَثَابِ الطَّلَبِ كَانَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُوَلَّعًا بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ ، وَكَانَ يُنْكِرُ مَا يَرَاهُ مِنَ الْبِدْعِ عِنْدَ الْحَجَرَةِ النَّبَوِيَّةِ ، ثُمَّ رَحَلَ إِلَى الْبَصْرَةِ فِي دِرَاسَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، فَدَرَسَ عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُجْمُوعِيِّ ، وَلَمَّا كَانَ نَهَاءً عَنِ الْمُنْكَرِ طَرَدَهُ أَشْقِيَاءُ الْبَصْرَةِ فِي وَقْتِ الظَّهْرِ ، فَخَرَجَ مِنْهَا وَلَقِيَهُ فِي الطَّرِيقِ رَجُلٌ اسْمُهُ أَبُو حُمَيْدَانَ ، فَأَوْصَلَهُ عَلَى حِمَارِهِ إِلَى مَدِينَةِ الرُّبَيْزِ ، وَكَانَ يُرِيدُ

(١) انظر كتاب: (محمد بن عبد الوهاب مصلح مظلوم ومفتري عليه)، تأليف الأستاذ: مسعود الندوي، ترجمة وتعليق: عبد العليم عبد

العظيم البستوي، مراجعة وتقديم الدكتور: محمد تقي الدين الهلالي، من مطبوعات وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد عام:

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
الشَّامَ طَلَبًا لِلْعِلْمِ لَكِنْ نَقَدَ الْمَالُ الَّذِي عِنْدَهُ فَرَجَعَ إِلَى حُرَيْمَاءَ وَهُوَ عَازِمٌ عَلَى نَشْرِ التَّوْحِيدِ وَاسْتِئْصَالِ
الْبِدْعِ.

أَبْرَزُ سِمَاتِ عَصْرِ الشَّيْخِ :

كَانَتْ بِلَادُ نَجْدٍ قَبَائِلَ وَدُوْبِلَاتٍ مُتَنَافِرَةً مُتَنَاحِرَةً ، وَكَانَ الْجَهْلُ مُتَفَشِيًّا وَالشِّرْكُ مُنْتَشِرًا ، وَالْحُرَافَةُ ضَارِبَةً
بِأَطْنَافِهَا فِي جَمِيعِ نَوَاحِي الْجَزِيرَةِ . وَكَانَتْ كُلُّ مَدِينَةٍ فِيهَا تَتَّبِعُ لِأَمِيرٍ . فَعَزَمَ الشَّيْخُ عَلَى تَوْحِيدِ الْبِلَادِ حَتَّى
يُسَاعِدَ ذَلِكَ فِي نَشْرِ الدَّعْوَةِ ، هَذِهِ الْافْكَارُ دَعَتْهُ إِلَى مُكَاتَبَةِ أَمِيرِ الْعَيْنَةِ عُثْمَانَ بْنِ مَعْمَرٍ وَلَمَّا وَجَدَ
الْأَمِيرَ مُسْتَعِدًّا انْتَقَلَ إِلَيْهِ بِنَفْسِهِ فَأَكْرَمَ الْأَمِيرُ الشَّيْخَ ، وَتَزَوَّجَ بِجَوْهَرَةٍ بِنْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْمَرٍ ، فَتَوَطَّطَتْ
الْعَلَاقَاتُ أَكْثَرَ ، وَقَالَ الشَّيْخُ لِلْأَمِيرِ : (إِنِّي لَا زُجُوَ إِنْ أَنْتَ قَمْتَ بِنَصْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَنْ يُظْهِرَكَ اللَّهُ
تَعَالَى ، وَتَمْلِكُ نَجْدًا وَأَعْرَابَهَا) . أَبْدَى عُثْمَانُ بْنُ مَعْمَرٍ الْمُوَافَقَةَ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ ثُمَّ إِنَّهُ تَرَاجَعَ لَمَّا كَاتَبَهُ
مُلُوكُ الْإِفْلِيمِ حِينَ سَمِعُوا بِدَعْوَةِ الشَّيْخِ ، وَكَانَ سَبَبُ سَمَاعِهِمْ أَنَّهُ هَدَمَ قُبَّةً يَقُولُونَ إِنَّهَا كَانَتْ عَلَى قَبْرِ
زَيْدِ بْنِ الْخِطَّابِ ، وَرَجَمَ زَانِيَةً مُحْصَنَةً ، كُلُّ ذَلِكَ كَانَ بِمُوَافَقَةِ الْأَمِيرِ عُثْمَانَ بْنِ مَعْمَرٍ ، فَأُخْذَتْ لَهُ
هَاتَانِ الْقِصَّتَانِ شُهْرَةً ، وَلَمَّا أَصْعَى عُثْمَانُ بْنُ مَعْمَرٍ لِمُلُوكِ الْإِفْلِيمِ تَرَدَّدَ كَثِيرًا فِي أَمْرِ الشَّيْخِ فَأَثَّرَ أَنْ
يَطْرُدَهُ مِنَ الْبَلَدِ ، وَقَدْ أَوْعَزَ إِلَيْهِ مُلُوكُ الْإِفْلِيمِ بِأَنْ يَقْتُلَهُ لَكِنَّهُ اكْتَفَى بِطَرْدِهِ ، وَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رِسَالَةً يَأْمُرُهُ
فِيهَا بِالْخُرُوجِ ، فَخَرَجَ الشَّيْخُ مَعَ جُنْدِيٍّ يُسَمَّى فَرِيدَ الطُّفَيْرِيِّ ، مَشَى الشَّيْخُ رَاجِلًا وَالْجُنْدِيُّ وَرَاءَهُ رَاكِبًا
وَهُوَ يُرَدِّدُ قَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴾ ^(١) تَوَجَّهَ الشَّيْخُ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى الدَّرْعِيَّةِ
وَنَزَلَ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ سُؤْلِيمٍ أَحَدِ أَعْيَانِهَا ، وَهُوَ هُنَاكَ فِي بَيْتِ ابْنِ سُؤْلِيمٍ كَانَ يَأْتِيهِ
أَخُوهُ مُحَمَّدُ بْنُ سُعُودٍ أَمِيرِ الدَّرْعِيَّةِ مُشَارِي وَنَنِيَّانَ ، وَصَارَ بَيْتُ ابْنِ سُؤْلِيمٍ هَذَا مَرْكَزًا لِدَعْوَةِ التَّوْحِيدِ ،
وَكَانَ النَّاسُ يُؤْمِنُونَهُ مُتَسَرِّينَ ، ثُمَّ عَزَمَ الشَّيْخُ عَلَى أَنْ يَتَّصِلَ بِالْأَمِيرِ فَكَلَّمَ إِخْوَتَهُ ، فَكَلَّمَا زَوْجَةَ الْأَمِيرِ
وَكَانَتْ امْرَأَةً ذَكِيَّةً مُتَدَبِّتَةً ، فَقَالَتْ لِلْأَمِيرِ : (إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ أَتَى إِلَيْكَ وَهُوَ غَنِيمَةٌ سَاقَهَا اللَّهُ لَكَ

(١) سورة الطلاق الآية : ٢ .

فَأَكْرَمَهُ وَعَظَّمَهُ وَاعْتَنَمَ نُصْرَتَهُ) ، وَلَمَّا اتَّقِيَا عَرَضَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ أَهَمَّ أَصُولِ دَعْوَتِهِ وَبَشَّرَهُ الْأَمِيرُ بِالنُّصْرَةِ لِكِنَّهُ اشْتَرَطَ شَرْطَيْنِ : الْأَوَّلُ : إِذَا قُمْنَا بِنُصْرَتِكَ وَفَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْبِلَادَ أَلَّا تَرْجُلَ عَنَّا .

الثَّانِي : أَلَّا يَمْنَعَنِي مِنْ أَخَذِ ضَرَائِبٍ كَانَ قَدْ وَضَعَهَا عَلَى الدَّرْعِيَّةِ ، فَبَايَعَهُ الشَّيْخُ عَلَى الشَّرْطِ الْأَوَّلِ وَقَالَ : (أَمَّا الثَّانِي فَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَفْتَحَ عَلَيْكَ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهَا) . فَاجْتَمَعَتِ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ وَالسَّيْفُ وَالسِّنَانُ فَظَهَرَتْ دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ الَّتِي تَجَنَّبِي بَعْضَ ثَمَارِهَا الْآنَ .

مُؤَلَّفَاتُ الشَّيْخِ : ١ - كِتَابُ التَّوْحِيدِ ، وَهُوَ الَّذِي نَحْنُ بِصَدَدِ شَرْحِهِ ، وَاسْمُهُ بِالْكَامِلِ (كِتَابُ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيد) . ٢ - كَشْفُ الشُّبُهَاتِ . ٣ - ثَلَاثَةُ الْأَصُولِ . ٤ - الْقَوَاعِدُ الْارْبَعَةُ . ٥ - شُرُوطُ الصَّلَاةِ وَأَرْكَانُهَا . ٦ - أَصُولُ الْإِيمَانِ . ٧ - فَضْلُ الْإِسْلَامِ . ٨ - الْكِبَائِرُ . ٩ - نَصِيحَةُ الْمُسْلِمِينَ . ١٠ - سِتَّةُ مَوَاضِعٍ مِنَ السِّيَرَةِ . ١١ - تَفْسِيرُ الْفَاتِحَةِ .

١٢ - مَسَائِلُ الْجَاهِلِيَّةِ . ١٣ - مُخْتَصَرُ السِّيَرَةِ ، وَغَيْرُهَا كَثِيرٌ .

تَمَازُ مُؤَلَّفَاتِ الشَّيْخِ بِمُعِيزَاتٍ كَثِيرَةٍ أَهَمُّهَا : ١ - سُهولةُ عِبَارَتِهَا ، ٢ - كَثْرَةُ أدْلِيَّتِهَا ، ٣ - أَهَمِيَّةُ مَوْضُوعَاتِهَا ، ٤ - اخْتِصَارُهَا .

ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ عَلَيْهِ : مِمَّنْ أَثْنَى عَلَى الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْإِمَامِ الصَّنْعَانِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (١) صَاحِبُ كِتَابِ سُبُلِ السَّلَامِ فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ (٢) يَقُولُ فِي مَطْلَعِهَا :

سَلامِي عَلَى نَجْدٍ وَمَنْ حَلَّ فِي نَجْدٍ *** وَإِنْ كَانَ تَسْلِيمِي مِنَ الْبُعْدِ لَا يُجْدِي

إِلَى أَنْ قَالَ :

وَتَأْنِيهُمَا الشَّيْخُ الْإِمَامُ مُحَمَّدٌ *** بَدَأَ فِي رُبَا نَجْدٍ ضِيَاءَ مُسْتَهْدِي

فَجَدَّدَ دِينَ اللَّهِ بَعْدَ دَنُورِهِ *** فَزَالَ ظِلَامُ الشَّرِكِ وَالْفِتْنَةِ الْمُرْدِي

(٢) ولد بصنعاء سنة ١٠٩٩هـ وتوفي في شعبان سنة ١١٨٢هـ، وكان إماماً جليلاً .

(٣) و هي تسعة وثلاثون بيتاً مذكورة بتمامها في كتاب " عنوان المجد في تاريخ نجد " ٩٥/١ في حوادث سنة ١٢٠٦هـ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 زُهْدُهُ وَتَعَبُّدُهُ: فَلَمَّا نَفَرْنَا تَرْجَمَةً مُجَدِّدٍ غَيْرَ مَجْرَى التَّأْرِخِ أَوْ مُصَلِّحٍ أَصْلَحَ اللَّهُ بِهِ الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ إِلَّا وَجَدْنَاهُ
 مُتَصِفًا بِصَفَتَيْنِ الْأُولَى أَنَّ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ اللَّيْلِ فَإِنَّ الْمُصَلِّحَ يُصْلِحُ شَأْنَهُ قَبْلَ إِصْلَاحِ الْآخَرِينَ فَيَقْوِي
 صِلَتَهُ أَوَّلًا بِمَنْ أَرَمَتِ الْأُمُورَ بِيَدِهِ سُبْحَانَهُ. فَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ بِقِيَامِ اللَّيْلِ حِينَ حَمَلَهُ دَعْوَةُ التَّوْحِيدِ
 فقال له :

﴿ قِرَ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝ (٢) يَضِفْهُ ۚ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ۝ (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا
 ثَقِيلًا ۝ (٥) ﴾ (١)

قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَسَنِ "كَانَ الشَّيْخُ
 — رَحِمَهُ اللَّهُ — مُتَعَبِدًا يُحْتَجِّي غَالِبَ اللَّيْلِ صَلَاةً وَقِرَاءَةً وَتَهَجُّدًا " (٢)
 وَ الْحَلَّةُ الثَّانِيَةُ مِنْ صِفَاتِ الْمُصَلِّحِينَ الْعِفَّةُ وَالزُّهْدُ فَإِنَّ النُّفُوسَ جُبِلَتْ عَلَى مَحَبَّةٍ مَنْ يُؤْثِرُهَا وَلَا يُنَافِسُهَا
 فِي مَحَبَّتِهَا وَقَدْ قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَبْدِ اللَّطِيفِ عَنِ الشَّيْخِ الْإِمَامِ "كَانَ مَعَ هَذَا مُتَعَفِّفًا مُتَوَرِّعًا لَا
 يَأْكُلُ مِنْ بَيْتِ الْمَالِ إِلَّا بِالْمَعْرُوفِ ، وَبَيْتُ الْمَالِ فِي يَدِهِ وَرَهْنُ تَصَرُّفِهِ ، وَكَانَ سَخِيًّا جَوَادًا " (٣)
 وَفَاةُ الشَّيْخِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — : وَافَتِ الْمَنِةُ الْإِمَامَ فِي شَوَّالٍ أَوْ ذِي الْقَعْدَةِ سَنَةِ ١٢٠٦ هـ . وَرثَاهُ الْإِمَامُ
 الشُّوْكَانِي (٤) — رَحِمَهُ اللَّهُ — فِي قَصِيدَةٍ مَطْلُوعُهَا (٥)

مَصَابٌ دَهَى قَلْبِي فَأَذْكِي غَلَائِلِي *** وَأَصْمِي بِسَهْمِ الْإِفْتِجَاعِ مَقَاتِلِي
 مَصَابٌ بِهِ الدُّنْيَا قَدْ اغْبَرَّ وَ جَهُّهَا *** وَقَدْ شِمِخَتْ أَعْلَامُ قَوْمِ أَسَافِلِ

(١) سورة المزمل.

(٢) مشاهير علماء نجد : ص ٢٧

(٣) المصدر السابق

(٤) هو مُجَدِّدُ بَنِ عَلِي الشُّوْكَانِي فقيه مجتهد من كبار علماء صنعاء اليمن، ولد بمجرة شوكان من بلاد خولان باليمن ونشأ بصنعاء، وولي
 قضاءها سنة ١٢٢٩ هـ ومات حاكمًا بها.

(٥) راجع كتاب أثر الدعوة الوهابية في جزيرة العرب، ص: ٨٠، ٧٩.

لَقَدْ مَاتَ طَوْدُ الْعِلْمِ قُطْبُ رَحَى الْعُلَا *** وَمَرَكَزُ إِذْرَاكِ الْفُضُولِ الْأَفَاضِلِ



قِصَّةُ مُدَرِّسٍ هِنْدِيٍّ مَعَ كِتَابِ التَّوْحِيدِ :

سَأَذْكُرُ فِي هَذَا الْمَقَامِ قِصَّةً تَدُلُّ عَلَى مَا ذَكَرْتُ فِي فَضْلِ هَذَا الْكِتَابِ وَأَنَّهُ يَأْخُذُ بِلَبِّ مَنْ طَالَعَهُ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ لِقُوَّةِ حُجَّتِهِ وَسَلَاسَةِ عِبَارَتِهِ ، لَكِنْ رُبَّمَا لَا يَظْهَرُ ذَلِكَ إِلَّا لِمَنْ مَارَسَ الْكِتَابَ دِرَاسَةً وَتَدْرِيسًا. قَالَ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ آلِ الشَّيْخِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَقْصُ الْآنَ قِصَّةَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْبَكْرِيِّ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ : كَانَ أَوَّلًا مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ عَلَى الشَّيْخِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّطِيفِ آلِ الشَّيْخِ - وَغَيْرِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ لَهُ أَنْ يَفْتَحَ مَدْرَسَةً فِي عَمَّانَ يُعَلِّمُ فِيهَا التَّوْحِيدَ مِنْ كَسْبِهِ الْخَاصِّ ، فَإِذَا فَرَّغَ مَا فِي يَدِهِ أَخَذَ بِضَاعَةً وَسَافَرَ إِلَى الْهِنْدِ ، وَرُبَّمَا أَخَذَ نِصْفَ سَنَةٍ فِي الْهِنْدِ . قَالَ الشَّيْخُ الْبَكْرِيُّ : كُنْتُ بِحَوَارِ مَسْجِدٍ فِي الْهِنْدِ ، وَكَانَ فِيهِ مُدَرِّسٌ إِذَا فَرَّغَ مِنْ تَدْرِيسِهِ لَعَنُوا ابْنَ عَبْدِ الْوَهَّابِ - يَعْنِي الشَّيْخَ مُحَمَّدًا - ، وَإِذَا خَرَجَ مِنَ الْمَسْجِدِ مَرَّ بِي وَقَالَ : أَنَا أَحَبُّ الْعَرَبِيَّةِ لَكِنْ أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهَا مِنْ أَهْلِهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ عِنْدِي مَاءً بَارِدًا ، فَأَهْمَنِي مَا يَفْعَلُ فِي دَرْسِهِ ، قَالَ : فَاخْتَلْتُ بِأَنْ دَعَوْتُهُ وَأَخَذْتُ (كِتَابَ التَّوْحِيدِ) وَنَزَعْتُ دِيبَاجَتَهُ وَوَضَعْتُهُ عَلَى رَفٍّ فِي مَنْزِلِي قَبْلَ مَجِيئِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَ قُلْتُ : أَتَأْتُنِي لِي أَنْ آتِيَ بِبَيْطِيحَةٍ ؟ فَذَهَبْتُ ، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِذَا هُوَ يَقْرَأُ وَيَهْتِفُ رَأْسَهُ ، فَقَالَ : لِمَنْ هَذَا الْكِتَابُ ؟ فَقُلْتُ : لَا أَدْرِي ، ثُمَّ قُلْتُ : أَلَا نَذْهَبُ لِلشَّيْخِ الْغَزَوِيِّ وَنَسْأَلُهُ - وَكَانَ صَاحِبَ مَكْتَبَةٍ ، وَلَهُ رَدُّ عَلَى جَامِعِ الْبَيَّانِ - فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ فَقُلْتُ لِلْغَزَوِيِّ : كَانَ عِنْدِي أَوْرَاقٌ سَأَلَنِي الشَّيْخُ مَنْ هِيَ لَهُ ؟ فَلَمْ أَعْرِفْ ، فَفَهَمَ الْغَزَوِيُّ الْمُرَادَ ، فَنَادَى مَنْ يَأْتِي بِكِتَابِ (مُجْمُوعَةِ التَّوْحِيدِ) فَأَتَى بِهَا فَقَابَلَ بَيْنَهُمَا فَقَالَ : هَذَا لِلْمُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ ، فَقَالَ الْعَالِمُ الْهِنْدِيُّ مُغَضَّبًا وَبَصَوْتٍ عَالٍ : الْكَافِرُ . فَسَكَنَّا وَسَكَتَ قَلِيلًا ، ثُمَّ هَدَأَ غَضَبُهُ فَاسْتَرْجَعَ ، ثُمَّ قَالَ : إِنْ كَانَ هَذَا الْكِتَابُ لَهُ فَقَدْ ظَلَمْنَاهُ ، ثُمَّ إِنَّهُ صَارَ كُلَّ يَوْمٍ يَدْعُو لَهُ وَيَدْعُو مَعَهُ تَلَامِيذُهُ لَهُ) (١)

ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ عَلَى كِتَابِ التَّوْحِيدِ : قَالَ الشَّيْخُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ كِتَابِ التَّوْحِيدِ : (كِتَابٌ فَرَّدَ فِي مَعْنَاهُ ، لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْهِ سَابِقٌ ، وَلَا حَقَّهُ فِيهِ لَاحِقٌ) (١) .
وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (قَدْ جَاءَ بِدِيعاً فِي مَعْنَاهُ مِنْ بَيَانِ التَّوْحِيدِ بِبَرَاهِينِهِ ، وَجَمَعَ جُمَلًا مِنْ أدَلَّتِهِ لِإيضاحه وَتَبَيُّنِهِ ، فَصَارَ عِلْمًا لِلْمُؤَحِّدِينَ ، وَحُجَّةً عَلَى الْمُلْحِدِينَ) (٢) .

قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ : (فَأَخْرَصَ - إِذَا - عَلَى تَعْلُمِ هَذَا الْكِتَابِ وَمُدَارَسَتِهِ ، وَعَلَى كَثْرَةِ مُدَاكَرَتِهِ ، وَفَهْمِ مَا فِيهِ مِنَ الْحِجَجِ وَالْبَيِّنَاتِ ؛ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ مَا تُودِعُهُ صَدْرُكَ ، بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ ، فَلَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ - إِنْ شَاءَ اللَّهُ - سَبَبًا عَظِيمًا مِنْ أَسْبَابِ النَّجَاةِ وَالْفَلَاحِ) (٣) .

وَقَالَ ابْنُ سَحْمَانَ :

قَدْ أَلَفَ الشَّيْخُ فِي التَّوْحِيدِ مُحْتَصَرًا	يَكْفِي أَخَا اللَّبِّ إِيضاحًا وَتَبَيَّنًا
مُضْمِنًا كُلَّ بَابٍ مِنْ تَرَاجِمِهِ	مِنْ النُّصُوصِ أَحَادِيثًا وَقُرْآنًا
فَاشْدُدْ يَدَيْكَ بِهَذَا الْأَصْلِ مُعْتَصِمًا	يُورِثُكَ فِي مَا سِوَاهُ اللَّهِ عِرْفَانًا
وَانْظُرْ بِقَلْبِكَ فِي مَبْنَى تَرَاجِمِهِ	تَلْقَ هُنَالِكَ لِلتَّحْقِيقِ عُنْوَانًا
وَلِلْمَسَائِلِ فَانْظُرْ تَلَفَّهَا حِكْمًا	يَزِدُّهُمْ مِنْهُمْ أَهْلُ الْعِلْمِ إِتْقَانًا

اشتمل الكتاب على تسعين آية من كتاب الله وعلى واحد وأربعين ومائة حديثا ليس فيها حديث مجمع على ضعفه وبعض الآثار

(١) تيسير العزيز الحميد، دراسة و تحقيق: زهير الشاويش.

(٢) فتح المجيد، ص: ٧، صححه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٣) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ١/ ٦٤.

أَهْمُ شُرُوحِ هَذَا الْكِتَابِ : ١ - شَرْحُ الشَّيْخِ سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ الْمُسَمَّى (تَيْسِيرُ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) لَكِنَّهُ لَمْ يُكْمَلْهُ وَبَقِيَ فِيهِ أَبْوَابٌ قَلِيلَةٌ ، ثُمَّ اخْتَصَرَهُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ بْنِ مُحَمَّدٍ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَأَكْمَلَهُ وَسَمَّاهُ (فَتَحُ الْمَجِيدِ شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) . ٢ - شَرْحُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ نَاصِرِ السَّعْدِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(١) الْمُسَمَّى (الْقَوْلُ السَّيِّدُ فِي مَقَاصِدِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) . ٣ - شَرْحُ الشَّيْخِ الْإِمَامِ ابْنِ بَازٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٢) الْمُسَمَّى (شَرْحُ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) . ٤ . شَرْحُ الشَّيْخِ الْعَلَامَةِ ابْنِ عُثَيْمِينَ رَحِمَهُ اللَّهُ ^(٣) الْمُسَمَّى (الْقَوْلُ الْمُفِيدُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) . ٥ . شَرْحُ الشَّيْخِ صَالِحِ بْنِ فَوْزَانَ الْقُوزَانِ حَفِظَهُ اللَّهُ الْمُسَمَّى (إِعَانَةُ الْمُسْتَفِيدِ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) . ٦ . شَرْحُ الشَّيْخِ صَالِحِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ آلِ الشَّيْخِ حَفِظَهُ اللَّهُ الْمُسَمَّى (التَّمْهِيدُ فِي شَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ) ، وَغَيْرُهَا مِنَ الشُّرُوحِ الَّتِي لَا تُحْصَى . وَكَتَابَتِي لِهَذَا الشَّرْحِ قَصْدِي مِنْهَا أَنْ تَكُونَ بَيْنَ يَدَيِّ مَادَّةٍ تُنَاسِبُ عَامَّةَ النَّاسِ وَ طَلَبَةَ الْعِلْمِ تَجْمَعُ بَيْنَ الْإِخْتِصَارِ وَالْإِسْتِيفَاءِ . ، وَإِنَّمَا كَتَبْتُهَا لَمَّا أُسْنِدَ إِلَيَّ تَدْرِيسُ هَذِهِ الْمَادَّةِ فِي بَعْضِ الْمَرَكَزِ الْعِلْمِيَّةِ فَوَجَدْتُ أَيْ بِحَاجَةٍ إِلَى مُخْتَصَرٍ يُنَاسِبُنِي أَدْرَسُ مِنْهُ تَسْهِيلاً عَلَى نَفْسِي وَعَلَى أُمْتَالِي مِنْ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَأَتَمَلَّ مَا قَالَ ابْنُ أَبِي الْعَزِّ فِي شَرْحِهِ (وَأَنْسَجُ عَلَى مَنْوَالِهِمْ ، مُتَطَقِّلاً عَلَيْهِمْ ، لَعَلِّي أَنْ أَنْظِمَ فِي سِلْكِهِمْ ، وَأَدْخَلَ فِي عِدَادِهِمْ ، وَأُخْشَرَ فِي زُمْرَتِهِمْ قَالَ تَعَالَى : ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾) .

(١) هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر آل سعدي من قبيلة تميم، ولد في بلدة عنيزة في القصيم له: كتاب (إرشاد أولي البصائر والألباب لمعرفة الفقه بأقرب الطرق وأيسر الأسباب) و(الدرة المختصرة في محاسن الإسلام) وغيرها، توفي في عام ١٣٧٦هـ.

(٢) عبد العزيز بن عبد الله آل باز، ولد في ذي الحجة سنة ١٣٣٠ هـ بمدينة الرياض، وكان بصيراً، ثم أصابه مرض في عينيه عام ١٣٤٦ هـ وضعف بصره، ثم فقده عام ١٣٥٠ هـ، عين في القضاء عام ١٣٥٧ هـ، أخذ العلم عن محمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف آل الشيخ والشيخ محمد بن عبد اللطيف توفي في عام ١٤٢٠ هـ.

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهبي التميمي، كان مولده في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المبارك عام ١٣٤٧ هـ في مدينة عنيزة، أبرز مشايخه، الشيخ العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي و الشيخ عبد الرزاق عفيفي و العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي والشيخ عبد العزيز بن ناصر بن رشيد والشيخ عبد الرحمن الإفريقي وغيرهم (رحمهم الله). توفي بمدينة جدة سنة ١٤٢١ هـ.

اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٦﴾ [سورة النساء] وَلَمَّا رَأَيْتِ النَّفْسَ مَائِلَةً إِلَى الْإِخْتِصَارِ، أَثَرَتْهُ عَلَى التَّطْوِيلِ وَالْإِسْهَابِ. (وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ). وَهُوَ حَسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ)



قَالَ الْإِمَامُ -رَحِمَهُ اللَّهُ-: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ).
ذَكَرَ هَذِهِ الْمُقَدِّمَةُ الشَّيْخُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ فِي شَرْحِهِ لِكِتَابِ التَّوْحِيدِ ^(١).

(بِسْمِ اللَّهِ) الْجَارُ وَالْمَجْرُورُ مُتَعَلِّقٌ بِفِعْلِ مَحْذُوفٍ مُنَاسِبٍ لِلْمَقَامِ . والباء للاستعانة والتبرك (اللَّهُ) الاسمُ العَظِيمُ هُوَ أَعْرَفُ الْمَعَارِفِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ مُشْتَقٌّ مِنْ آلِهِ ، يَأْلُهُ . والتَّأْلُهُ : التَّعْبُدُ . والإله هو المعبود مطلقاً والله علم على ذاته ولا يطلق على سواه ومعناه المعبود بالحق (الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) نَعْتَانِ لِلْأَسْمِ الْعَظِيمِ ، يَدُلُّ الْأَوَّلُ عَلَى سَعَةِ رَحْمَتِهِ ، وَالثَّانِي عَلَى تَعَدِّيْهَا وَوُضُوعِهَا لِلْمَخْلُوقِ . ابتداءً بالبسملة اقتداء بكتاب الله عز وجل واقتداء بالنبي ﷺ (الحمد لله) وَصَفَ اللَّهُ بِالْكَمَالِ مَعَ الْمَحَبَّةِ وَالْتِعَظِيمِ ، وللحمد سببان: فَيُحْمَدُ اللَّهُ لِكَمَالِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا ﴾ ^(٢) وَيُحْمَدُ لِإِنْعَامِهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ ^(٣) وَقَدْ اجْتَمَعَ فِي التَّوْحِيدِ سَبَبَا الْحَمْدِ ، فَهُوَ صِفَةُ كَمَالٍ لِرَبِّهِ الْمَتَعَالِ وَهَذَا ظَاهِرٌ كَمَا أَنَّهُ نِعْمَةٌ عَدِيمَةُ الْمِثَالِ . وَ قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ : " مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ مِنَ الْعِبَادِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ عَرَفَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " ^(٤) (وَالصَّلَاةُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) صَلَاةُ اللَّهِ عَلَى نَبِيِّهِ ثَنًاؤُهُ عَلَيْهِ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى كَذَا جَاءَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ.

(وَالِهِ) آلَ النَّبِيِّ ﷺ أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ، (وَسَلَّمَ) هَذَا دُعَاءٌ لَهُ بِالسَّلَامَةِ مِنَ الْآفَاتِ.



(١) فتح المجيد ص: ١٠ و ص: ١٤ صححه وعلق عليه: سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١١١

(٣) سورة الكهف الآية: ١.

(٤) مجموع رسائل ابن رجب ٧٤/٣ .

[١]

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

كِتَابٌ : مَصْدَرٌ كَتَبَ يَكْتُبُ كِتَابًا ، وَمَادَّةُ الْكَافِ وَالْتَاءِ وَالْبَاءِ يَدُورُ مَعْنَاهَا عَلَى الْجُمُعِ وَالضَّمِّ ؛ لِاجْتِمَاعِ الْحُرُوفِ وَمِنْ ثَمَّ اجْتِمَاعِ الْكَلِمَاتِ ثُمَّ اجْتِمَاعِ الْأَوْرَاقِ .

التَّوْحِيدُ لُغَةً : مَصْدَرٌ وَحَدَّ يُوَحِّدُ تَوْحِيدًا إِذَا اعْتَقَدَ وَحْدَانِيَّةَ الشَّيْءِ . وَشَرْعًا : هُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِمَا اخْتَصَّ بِهِ مِنْ رَبوبِيَّةٍ وَاسْتَحَقَّه مِنَ الْوَهِيَّةِ وَأَسْمَاءٍ وَصِفَاتٍ . فَهُوَ ثَلَاثَةُ أَنْوَاعٍ :

الأول : تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ : وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِأَفْعَالِ الرُّبُوبِيَّةِ أَيَّ : بِالْخَلْقِ وَالْمُلْكِ وَالتَّدْبِيرِ . وَدَلِيلُ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْخَلْقِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ^(١) ، وَدَلِيلُ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْمُلْكِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ ^(٢) ، وَدَلِيلُ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالتَّدْبِيرِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) .

الثاني : تَوْحِيدُ الْأُلُوهِيَّةِ : وَهُوَ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ . وَالْعِبَادَةُ : هِيَ الْخُضُوعُ لِلَّهِ بِفِعْلِ أَوَامِرِهِ وَاجْتِنَابِ نَوَاهِيهِ حُبَّةً وَتَعْظِيمًا .

الثالث : تَوْحِيدُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ : وَهُوَ إِفْرَادُهُ بِأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى وَصِفَاتِ كَمَالِهِ ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا بِأَنْ نَثَبَتْ لَهُ مَا أَثْبَتَهُ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ أَوْ أَثْبَتَهُ لَهُ رَسُولُهُ ﷺ فِي سُنَّتِهِ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ وَلَا تَعْطِيلٍ ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمْثِيلٍ ، عَلَى حَدِّ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ

(١) سورة الزمر ٦٢ .

(٢) سورة طه الآية: ٦ .

(٣) سورة الأعراف الآية: ٥٤ .

السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾، فَتَقَاتِ الْآيَةُ الْمُمَثِّلَةُ وَ لَمْ يَلْزَمْ مِنْ نَفْيِ الْمُمَثِّلَةِ نَفْيِ الصِّفَاتِ الثَّابِتَةِ لَهُ سُبْحَانَهُ ، وَهَذِهِ الْآيَةُ أَطْلَقَ عَلَيْهَا بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ دَسْتُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فِي بَابِ الصِّفَاتِ .

وَقَدْ اجْتَمَعَتْ أَنْوَاعُ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ (٢) لَمْ يَكْتُبِ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حُطْبَةً لِهَذَا الْكِتَابِ يُبَيِّنُ فِيهَا حَقِيقَةَ الْمَوْضُوعِ وَأَهَمِّيَّتَهُ وَلَكِنْ كُلُّ مَا أَوْزَدَهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ الَّذِي لَمْ يُتَرَجِّمْ لَهُ مِنْ أَدْلَةٍ تَشْتَمِلُ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَأَهَمِّيَّتِهِ وَحُكْمِهِ - وَسَيَأْتِي هَذَا مِنْ خِلَالِ الْكَلَامِ عَنِ الْأَدْلَةِ الَّتِي أَوْزَدَهَا .

و كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ لَيْسَتْ مَخْتَرَةً كَمَا يَظُنُّ مِنْ ضَعْفَتْ مَعْرِفَتِهِ بِالتَّوْحِيدِ فَهِيَ مَأْثُورَةٌ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنِ الصَّحَابَةِ رَضِوانَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ الْعَاصِمَ بْنَ وَائِلٍ نَذَرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ أَنْ يَنْحَرَ مِائَةً بَدَنَةً وَأَنَّ هِشَامَ بْنَ الْعَاصِي نَحَرَ حِصَّتَهُ خَمْسِينَ بَدَنَةً وَأَنَّ عَمْرًا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ أَمَا أَبُوكَ فَلَوْ كَانَ أَقْرَ بِالتَّوْحِيدِ فَصُمْتَ وَتَصَدَّقْتَ عَنْهُ نَفَعَهُ ذَلِكَ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَدْخُلُ قَوْمٌ مِنَ أَهْلِ التَّوْحِيدِ النَّارَ فَيَحْتَرِقُونَ إِلَّا ذَرَاتٍ وَجُوهُهُمْ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) مُسْتَخْرَجٌ أَبِي نَعِيمٍ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٣)] .

(مَا) نَافِيَةٌ ، (خَلَقْتُ) الْخَلْقُ هُوَ التَّقْدِيرُ وَالْمَرَادُ بِهِ هُنَا الْإِيحَادُ مِنَ الْعَدَمِ عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ سَابِقٍ . (الْجِنَّ) هُمْ عَالَمٌ غَيْبِي مَكْلُفٌ كَالْإِنْسِ ، وَمَادَّةُ الْجِيمِ وَالنُّونِ الْمُشَدَّدَةِ أَصْلُ حَقِيقَتِهَا الْأَسْتِسَارُ . (وَالْإِنْسُ) هُمْ الْبَشَرُ ، مِنْ أُنْسٍ يَأْنُسُ أَيُّ : أَلْفٌ يَأْلَفُ ، وَقِيلَ مِنْ : نَاسٌ يُنُوسُ أَيُّ : يَتَحَرَّكُ . (إِلَّا) حَرْفُ اسْتِسْنَاءٍ

(١) سورة الشورى الآية: ١٠٨ .

(٢) سورة مريم الآية: ٦٥ .

(٣) سورة الذاريات الآية: ٥٦ .

، وَالْأَسْتِثْنَاءُ مَعَ النَّفْيِ يُفِيدُ الْحَصْرَ ، وَتَقْدِيرُ الْكَلَامِ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ لَشَيْءٍ غَيْرِ الْعِبَادَةِ .
 (يَعْبُدُونَ) اللَّامُ : لِلتَّعْلِيلِ وفيه إثباتُ الحكمةِ والتعليلِ في أفعالِ الله تعالى ، وَمَعْنَى يَعْبُدُونَ : يَخْضَعُونَ
 لَهُ بِالتَّعَبُّدِ ، وَ قَدْ فَسَّرَهَا الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللهُ - فِي ثَلَاثَةِ الْأَصُولِ بـ (يُؤَخِّدُونَ) ، وَقَدْ نَقَلَهُ الْإِمَامُ
 البخاري في تفسير هذه الآية وَهُوَ تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ ؛ لِأَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوْحِيدِ ، فَفَعَلَ
 اللهُ الْأَوَّلَ وَهُوَ (الْخَلْقُ) لِيَفْعَلُوا هُمُ الثَّانِي وَهُوَ الْعِبَادَةُ بِشَرْطِهَا وَهُوَ التَّوْحِيدُ ؛ لِتَحْصُلَ لَهُمُ السَّعَادَةُ
 وَيَحْصُلَ مَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ لَهُمْ وَمِنْهُمْ . وَمِنْ الْآيَةِ تَظْهَرُ أَهْمِيَةُ التَّوْحِيدِ وَهِيَ : أَنَّهُ الْغَايَةُ مِنْ خَلْقِ الْجِنَّ
 وَالْإِنْسِ وَأَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِالتَّوْحِيدِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ . بَلْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا يُفِيدُ أَنَّ الدُّنْيَا إِنَّمَا قَامَتْ
 مِنْ أَجْلِ التَّوْحِيدِ لَذَا فَإِنَّ السَّاعَةَ تَقُومُ يَوْمَ أَنْ تَخْلُقَ الْأَرْضُ مِنْهُ فَعَنْ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ
 : " لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى لَا يُقَالَ فِي الْأَرْضِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ^(١) " :

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللهُ - : [وَقَوْلُهُ : ﷺ] وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْبِ اعْبُدُوا اللهَ
 وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ^(٢) . [وَلَقَدْ) اللَّامُ : مَوْطِئَةٌ لِلْقَسَمِ ، وَقَدْ : حَرْفُ تَحْقِيقٍ ، فَالْخَبَرُ مُؤَكَّدٌ
 بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتٍ هِيَ : الْقَسَمُ الْمَحْذُوفُ ، وَاللَّامُ ، وَقَدْ . (بَعَثْنَا) أَي : أَرْسَلْنَا ، (فِي كُلِّ أُمَّةٍ) الْأُمَّةُ
 هُنَا بِمَعْنَى الْجَمَاعَةِ . (رَسُولًا) الرَّسُولُ : هُوَ إِنْسَانٌ ذَكَرَ خُرُؤُ أَوْحِيَ إِلَيْهِ بِشَرْعٍ مُسْتَقِيلٍ وَأُمِرَ بِتَبْلِيغِهِ وَأُرْسِلَ
 إِلَى قَوْمٍ وَقَعَتْ مِنْهُمْ الْمُخَالَفَةُ فِي أَصْلِ الدِّينِ . (أَنَّ) تَفْسِيرِيَّةٌ . (اعْبُدُوا) أَمْرٌ بِعِبَادَةِ اللهِ . (وَاجْتَنِبُوا
 الطَّاغُوتَ) الْاجْتِنَابُ : هُوَ تَرْكُ مَعَ الْبُعْدِ ، أَي : كُنْ فِي جَانِبٍ ، وَلِيَكُنَّ الطَّاغُوتُ فِي جَانِبٍ آخَرَ
 فففيه تركُ أسبابِ الشِّرْكِ وفيه معنى قصدِ مجانبَةِ الطَّاغُوتِ وهنا تنبيه : فَإِنْ كُلُّ مَنْ عْبَدَ غَيْرَ اللهِ فَقَدْ عْبَدَ
 الطَّاغُوتَ أَمَا بِالنِّسْبَةِ لِلْمَعْبُودِ فَإِنَّهُ يَكُونُ طَاغُوتًا إِذَا كَانَ لَا إِرَادَةَ لَهُ كَالْأَحْجَارِ أَوْ لَهُ إِرَادَةٌ وَرَضِيَ أَنْ

(١) رواه أحمد

(٢) سورة النحل الآية: ٣٦ .

امتناع أهل التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

يعبد مع الله أما إذا لم يرض فإنه لا يسمى طاغوتا كالأنبياء^(١) والطاغوت لغة: من الطغيان وهو مجاوزة الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكِ فِي الْجَارِيَةِ﴾^(٢). وَشَرَعًا: هُوَ كُلُّ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتَبَوِّعٍ أَوْ مَطَاعٍ^(٣). وَاشْتَمَلَتِ الْآيَةُ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ وَهُمَا: الْأَمْرُ بِعِبَادَتِهِ، وَالنَّهْيُ عَنِ عِبَادَةِ غَيْرِهِ، فَالْأَمْرُ يَسْتَلْزِمُ الْإِثْبَاتَ وَالنَّهْيُ يَنْضَمُّ النَّفْيَ، وَالْإِثْبَاتُ وَالنَّفْيُ رُكْنَا التَّوْحِيدِ، وَالنَّفْيُ وَحْدَهُ عَدَمٌ، وَالْإِثْبَاتُ وَحْدَهُ لَا يَمْنَعُ الْمُشَارَكَةَ، وَهَذِهِ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ، فَمَنْ نَفَى الْإِلَهَةَ الْبَاطِلَةَ وَالْإِلَهَ الْحَقَّ وَمَنْ يَثْبُتَ أُلُوهِيَّةَ مُطْلَقًا فَهُوَ مُلْحَدٌ، وَمَنْ أَثْبَتَ أُلُوهِيَّةَ اللَّهِ وَمَنْ يَنْفِي الْإِلَهَةَ الْبَاطِلَةَ فَهُوَ مُشْرِكٌ، وَمَنْ أَثْبَتَ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَنَفَى الْإِلَهَةَ الْبَاطِلَةَ فَهُوَ مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ. وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ: أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْعَايَةُ مِنْ بَعَثَةِ الرُّسُلِ وَأَنَّ التَّوْحِيدَ رِسَالَةُ جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ عِبَادَةَ اللَّهِ لَا تَتِمُّ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِالطَّاغُوتِ، وَ أَنَّ دِينَ الْأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ وَهُوَ التَّوْحِيدُ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ

إِحْسَانًا﴾^(٤)].

هذه الآية أول ثماني عشرة آية ابتدأها بالتوحيد واختتمها بالتوحيد فقال (وَقَضَى) أَي: وَصَّى وَأَمَرَ، وَفِيهِ أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ وَصِيَّةُ اللَّهِ تَعَالَى، وَالْقَضَاءُ هُنَا شَرْعِي قَدْ يَقَعُ وَقَدْ لَا يَقَعُ، أَمَّا الْقَضَاءُ الْكُوفِيُّ فَإِنَّهُ لَا يَتَحَلَّفُ. (رُبُّكَ) ضَمِيرُ الْخِطَابِ يَعُودُ إِلَى النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِيهَا: أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرْبُوبٌ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ، وَالْإِضَافَةُ هُنَا إِضَافَةٌ تَشْرِيفٍ. (أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ) اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْجُمْلَةُ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ وَهُمَا: النَّفْيُ وَالْإِثْبَاتُ. فَاشْتَمَلَتِ الْآيَةُ عَلَى بَيَانِ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

(١) أفدته من شرح الشيخ صالح السندي.

(٢) سورة الحاقة الآية: ١١.

(٣) إعلام الموقعين ٤٠/١.

(٤) سورة الإسراء الآية: ٢٣.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وَقَوْلُهُ : ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ^(١)] .

اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ أَيْضًا ؛ لِأَنَّ الْأَمْرَ مُسْتَلَزِمٌ لِلْإِثْبَاتِ ، وَالنَّهْيَ مُتَضَمِّنٌ لِلنَّفْيِ ، وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةِ الْحَقِّقِ الْعَشْرَةِ وَقَدْ افْتَتَحَهَا سُبْحَانَهُ بِحَقِّهِ ، فَفِيهَا أَنَّ التَّوْحِيدَ أَكْبَرُ الْحَقِّقِ وَأَوْهَلُ وَقَوْلُهُ (شَيْئًا) نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعْمُ كُلَّ شَيْءٍ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وَقَوْلُهُ : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ ^(٢) الْآيَاتِ]

(قُلْ) (الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) . (تَعَالَوْا) (أَيُّ : اقْبَلُوا ، (أَتْلُ) (أَيُّ : أَقْرَأُ ، (مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) (مَا) مَوْضُوعَةٌ أَيْ الَّذِي حَرَّمَهُ عَلَيْكُمْ رَبُّكُمْ . (أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا) : أَوَّلُ الْمُحَرَّمَاتِ وَ أَكْبَرُهَا الشِّرْكُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَهُوَ : مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللَّهِ . وَتُعْرَفُ هَذِهِ الْآيَةُ بِآيَةِ الْوَصَايَا الْعَشْرَةِ ، وَ أَوَّلُ وَصِيَّةٍ مِنْهَا النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾ ^(٣) الْآيَةَ ^(٤)] .

(ابْنُ مَسْعُودٍ) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ بْنِ عَافِلٍ بْنِ حَبِيبٍ الْهَذَلِيُّ ، شَهِدَ بَدْرًا وَالْخَنْدَقَ وَبَيْعَةَ الرِّضْوَانِ ، مَاتَ سَنَةَ ٣٢ هـ . (مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ) وَفِي هَذَا الْإِسْلُوبِ تَشْوِيقٌ لِلْمُسْتَمِعِ ، وَرَفْعٌ لِلْهِمَّةِ حَتَّى يَتَدَبَّرَ هَذِهِ

(١) سورة النساء الآية: ٣٦ .

(٢) سورة الأنعام الآية: ١٥١ .

(٣) سورة الأنعام الآية: ١٥٣ .

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٤٣١/٥) ، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٠٦٠/٩٣/١٠) .

الآيَاتِ (إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ) وَفِي الْأَثَرِ: جَوَازُ الْإِحْبَارِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِاسْمِهِ الْعَلَمِ بِخِلَافِ نِدَائِهِ. (الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ) أَيُّ: تَوْفِيقُهُ، فَلَمْ تَتَّعَيَّرْ وَلَمْ تَتَبَدَّلْ، أَيُّ أَمَّا آخِرُ مَا وَصَّى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَهَذَا الْأَثَرُ أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ وَالطَّبْرَانِيُّ وَقَدْ ضَعَّفَ إِسْنَادَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي تَحْقِيقِ سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ وَافْتَنَهُ دَاوُدُ بْنُ يَزِيدَ الْأَوْدِيِّ وَطَرِيقُهُ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّهُمْ يَتَسَاهَلُونَ فِي التَّصْحِيحِ فِي التَّفْسِيرِ لَا سِيَّمَا إِنْ ثَبَتَ الْمَعْنَى مِنْ وَجْهِ صَحِيحٍ كَمَا هُنَا وَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْفَوَائِدِ: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ النَّبِيِّ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ، وَفِيهِ عِظَمُ هَذِهِ الْآيَاتِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! أَفَلَا أَبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَكَلَّمُوا. أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ^(١)]

(مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هُوَ ابْنُ جَبَلٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ أَوْسٍ الْخَزْرَجِيِّ، بَدْرِيُّ مِنَ الْقُرَاءِ، مَاتَ بِطَاعُونَ عَمَاسٍ. فِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: تَوَاضَعُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِكُونِهِ يَرْكَبُ الْحِمَارَ وَيَرْدُفُ عَلَيْهِ وَيَتَكَلَّمُ مَعَ رَدِيفِهِ. وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ الْإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ وَفِيهِ فَضِيلَةُ مُعَاذٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَفِيهِ أَنَّ إِخْرَاجَ الْقَائِدَةِ عَلَى طَرِيقَةِ السُّؤَالِ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ مِنَ الْقَائِمَةِ ابْتِدَاءً لِأَنَّ فِيهَا اسْتِثَارَةً لِدَهْنِ الْمُتَلَقِّي وَلَفَتْ انْتِبَاهَهُ. وَفِيهِ: حُسْنُ تَعْلِيمِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَحَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ هُوَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ أَنْ يُعَامِلُوهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد - باب اسم الفرس والحمار (٢٨٥٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب الدليل على أن من مات

على التَّوْحِيدِ دخل الجنة (٣٠)

بِهِ وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ هُوَ مَا يَجِبُ أَنْ يعاملهم بِهِ ، وَهُوَ حَقٌّ أَوْجَبَهُ اللَّهُ عَلَى نَفْسِهِ تَفَضُّلاً ، إِذْ لَيْسَ لِلْعِبَادِ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ بَلْ هُوَ أَوْجَبَ الْأَمْرَ الْعَظِيمَ الشَّانِ
كَلاَ وَلَا عَمَلٌ لَدَيْهِ ضَائِعٌ إِنْ كَانَ بِالْإِخْلَاصِ وَالْإِحْسَانِ
إِنْ عُدُّوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعْمُوا فَبِفَضْلِهِ وَ الْحَمْدُ لِلْمَنَّانِ

وَفِي الْحَدِيثِ حُسْنُ أَدَبٍ مُعَاذٍ حَيْثُ لَمْ يَتَكَلَّمْ بِمَا لَا يَعْلَمُ ، وَ فِيهِ : مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ : (اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) فِي حَيَاتِهِ ، فِي الْأُمُورِ الشَّرْعِيَّةِ ، أَمَّا بَعْدَ مَمَاتِهِ فَجَرَى لِسَانُ الْعُلَمَاءِ عَلَى قَوْلِهِمْ (اللَّهُ أَعْلَمُ) . وَلَا يُقَالُ فِي الْأُمُورِ الدُّنْيَوِيَّةِ (اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ) ، قَوْلُهُ: (حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً) فَحَقُّ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ التَّوْحِيدُ ، قَوْلُهُ (وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يَعْبُدَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً) الْحَقُّ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ عَدَمُ تَعْدِيهِمْ أَصْلًا إِذَا كَمَّلَ تَوْحِيدُهُمْ ، وَعَدَمُ تَحْلِيدِهِمْ فِي النَّارِ إِذَا نَقَصَ تَوْحِيدُهُمْ بِالذُّنُوبِ . قَوْلُ مُعَاذٍ : (أَفَلَا أَبَشِّرُ النَّاسَ ؟) فِيهِ : اسْتِثْنَانُ الْمُتَعَلِّمِ شَيْخِهِ فِي إِشَاعَةِ مَا خَصَّهُ بِهِ مِنْ عِلْمٍ ، وَفِيهِ : اسْتِحْبَابُ بَشَارَةِ الْمُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ . قَوْلُهُ : (لَا تُبَشِّرُهُمْ فَيَتَكَلَّبُوا) فِيهَا : جَوَازُ كِتْمَانِ الْعِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ ، وَتَخْصِيصُ بَعْضِ الطُّلَابِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ ، وَفِيهِ أَنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَصْلُحُ لِكُلِّ النَّاسِ وَإِنْ كَانَ صَالِحًا فِي نَفْسِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُعْتَقَدِ لِعَدَمِ قَابِلِيَةِ الْحَلِّ . وَالْخَوْفُ مِنَ الْإِتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ . قَالَ الْوَزِيرُ أَبُو الْمُظَفَّرِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (لَا يَكْتُمُهَا إِلَّا عَنْ جَاهِلٍ يَحْمِلُهُ جَهْلُهُ عَلَى سُوءِ الْأَدَبِ بِتَرْكِ الخِدْمَةِ وَالطَّاعَةِ ، أَمَّا الْاِكْتِنَاسُ الَّذِينَ إِذَا سَمِعُوا بِمِثْلِ هَذَا اِزْدَادُوا فِي الطَّاعَةِ ، وَرَأَوْا أَنَّ زِيَادَةَ النِّعَمِ تَسْتَدْعِي زِيَادَةَ الطَّاعَةِ فَلَا وَجْهَ لِكِتْمَانِهَا عَنْهُمْ) .^(١) وَفِيهِ أَنَّ التَّوْحِيدَ عَاصِمٌ مِنَ الْعَذَابِ ، إِمَّا عَصَمَةً مِنَ الدُّخُولِ إِذَا تَمَّ وَكُمْلَ وَإِمَّا عَصَمَةً مِنَ الْخُلُودِ إِذَا نَقَصَ بِالذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي .

(١) ذَكَرَهُ عَنْهُ ابْنُ مَفْلَحٍ فِي الْأَدَبِ الشَّرْعِيَّةِ ١/٤٧١ .

[٢]

بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ عَنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ وَأَهَمِّيَّتِهِ فَتَنَاسَبَ أَنْ يُعْطَبَ ذَلِكَ بِمَا يُرْعَبُ فِيهِ ؛ وَ هَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ عَنْ حَقَائِقِ الْأَشْيَاءِ قَبْلَ أَنْ يَتَكَلَّمُوا عَنْ فَضَائِلِهَا ، كَمَا أَنَّهُمْ لَا يَتَكَلَّمُونَ عَنِ الْفَضَائِلِ فَقَطُّ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : أَيُّ : هَذَا بَابٌ فِي بَيَانِ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَتَكْفِيرِهِ ^(١) الذُّنُوبِ ، فَيَكُونُ عَطْفٌ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ عَلَى الْفَضْلِ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ ؛ لِأَهَمِّيَّةِ الْخَاصِّ وَجَلَالَتِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ

الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ ^(٢)]

(آمَنُوا) أَيُّ : وَخَدُّوا ، (وَلَمْ يَلْبِسُوا) أَيُّ : لَمْ يَخْلُطُوا ، (إِيمَانَهُمْ) تَوْحِيدَهُمْ ، (بِظُلْمٍ) أَيُّ : بِشِرْكَ . وَظُلْمٌ نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعْمُ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، (الْأَمْنُ) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، (وَهُمْ مُهْتَدُونَ) أَيْضاً فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ . وَفِي الْآيَةِ أَنَّ التَّوْحِيدَ سَبَبٌ عَظِيمٌ لِلْأَمْنِ وَالْهُدَايَةِ جَاءَ فِي الصَّحِيحِينَ : مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ (لَمَّا نَزَلَتْ { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ أَئِنَّا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ قَالَ لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ { لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ } بِشِرْكَ أَوْ لَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ { يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ }) ^(٣) . فَفَسَّرَ النَّبِيُّ ﷺ آيَةَ الْأَنْعَامِ بِآيَةِ لُقْمَانَ ، أَيُّ : أَنَّ الْمُرَادَ بِالظُّلْمِ الشِّرْكَ . وَ فَضْلُ التَّوْحِيدِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ظَاهِرٌ وَهُوَ أَنَّ أَهْلَهُ هُمْ أَهْلُ الْأَمْنِ وَالْهُدَايَةِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَيَكْمُلُ لَهُمُ الْأَمْنُ وَتَتِمُّ لَهُمُ الْهُدَايَةُ بِكَمَالِ التَّوْحِيدِ وَتَمَامِهِ ، وَيَنْقُصَانِ بِنَقْصِهِ .

(١) هذا على أنَّ (ما) مصدرية ولا يجوز تقديرها موصولة فإنه يقتضي أن التوحيد لا يكفر كل الذنوب أفاده الشيخ العيصي .

(٢) سورة الأنعام الآية : ٨٢ .

(٣) أخرجه البخاري ، باب قول الله تعالى ﴿ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ رقم : (٤٧٧٦) ، ومسلم ، باب صدقي الإيمان وإخلاصه ، برقم : (٣٤٢) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) ^(١). أَخْرَجَاهُ.]

(عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ) هُوَ عِبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ بْنِ قَيْسِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيُّ ، أَحَدُ الثُّقَبَاءِ ، مَاتَ سَنَةَ ٣٤ هـ. (مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أَيُّ : نَطَقَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ عَالِمًا بِمَعْنَاهَا عَامِلًا بِمُقْتَضَاهَا. وَمَعْنَاهَا : لَا مَعْبُودَ حَقًّا إِلَّا اللَّهُ. وَلَا يَجُوزُ تَقْدِيرُ الْخَبَرِ (مَعْبُودٌ) أَوْ (مَوْجُودٌ) ؛ لِأَنَّ هَذَا يَسْتَلْزِمُ الْوَحْدَةَ وَالْإِتِّحَادَ وَالْحُلُولَ ، وَيُكَذِّبُهُ الْوَاقِعُ فَإِنَّ الْأَلَهَةَ سِوَى اللَّهِ مَوْجُودَةٌ وَمَعْبُودَةٌ ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ مَعْبُودٌ بِالْحَقِّ وَغَيْرُهُ عَبْدٌ بِالْبَاطِلِ وَلَيْسَ مَعْنَاهَا لَا خَالِقَ إِلَّا اللَّهُ لِأَنَّ هَذَا مَعْنَاهُ إِفْرَادُ اللَّهِ بِالْخَلْقِ وَهَذَا الْمَعْنَى لَمْ يُنَازَعْ فِيهِ أَحَدٌ إِلَّا مُكَابَرَةً إِذْ هُوَ مَوْجُودٌ فِي فِطْرَةِ النَّاسِ وَإِنَّمَا أُزِيلَتْ الرَّسْلُ مِنْ أَجْلِ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ قَوْلُهُ (وَحْدَهُ) تَأْكِيدٌ لِلْإِثْبَاتِ. (لَا شَرِيكَ لَهُ) تَأْكِيدٌ لِلنَّفْيِ . قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ هَذَا تَأْكِيدٌ بَعْدَ تَأْكِيدٍ نَبِيَّةٍ عَلَى مَقَامِ التَّوْحِيدِ (وَأَنَّ مُحَمَّدًا) لَا يَكْفِي فِي دُخُولِ الْإِسْلَامِ أَنْ تَشْهَدَ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ فَقَطُّ بَلْ لَا بَدَّ أَنْ تَقْتَرِنَ مَعَهَا الشَّهَادَةَ بِرِسَالَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. قَوْلُهُ: (عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ) وَصَفَ النَّبِيَّ ﷺ نَفْسَهُ بِوَصْفَيْنِ تَضَمَّنَا الرَّدَّ عَلَى أَهْلِ الْإِفْرَاطِ وَأَهْلِ التَّفْرِيطِ ، فَنَفِي وَصْفِهِ بِالْعَبُودِيَّةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ عَبْدَهُ وَغَلَا فِيهِ ، وَفِي وَصْفِهِ بِالرِّسَالَةِ رَدٌّ عَلَى مَنْ جَحَدَ رِسَالَتَهُ وَكَفَرَ بِهِ ، فَ مُحَمَّدٌ ﷺ عَبْدٌ لَا يُعْبَدُ وَرَسُولٌ لَا يُكَذَّبُ. قَوْلُهُ: (أَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) فِي قَوْلِهِ: (عَبْدُ اللَّهِ) رَدٌّ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ ابْنُ اللَّهِ ، وَفِي قَوْلِهِ: (وَرَسُولُهُ) رَدٌّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُ ابْنُ زَنَا وَكَفَرُوا بِرِسَالَتِهِ . (وَكَلِمَتُهُ) أَيُّ : كَانَ وَخُلِقَ بِكَلِمَةِ (كُنْ) ، وَكُلُّ مَخْلُوقٍ إِنَّمَا وُجِدَ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ ، وَإِنَّمَا حُصَّ بِهَا عِيسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَلَقَهُ مَعَ عَدَمِ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرَةِ . (وَرُوحٌ مِنْهُ) أَيُّ الرُّوحِ الْمَخْلُوقَةِ مِنَ اللَّهِ وَ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ - بَابُ قَوْلِهِ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ (٣٤٣٥)، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ - بَابُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ دَخَلَ الْجَنَّةَ (٢٨).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

مِنْ: هُنَا ابْتِدَائِيَّةٌ كَمَا نَقُولُ : الْإِزْرَاقُ مِنَ اللَّهِ. (وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ) الْجَنَّةُ : دَارُ الْمُتَّقِينَ ، وَالنَّارُ : دَارُ الْكَافِرِينَ ، وَهُمَا مَخْلُوقَتَانِ الْآنَ لَا تَفْنِيَانِ ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَهُوَ أَحَدُ أَرْكَانِ الْإِيمَانِ السَّتَةِ. (أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) يَذْكُرُ أَهْلُ الْعِلْمِ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنِيَيْنِ لَا تَعَارِضَ بَيْنَهُمَا الْأَوَّلُ : أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى حَسَبِ عَمَلِهِ ، بِمَعْنَى : أَنَّ مَنْزِلَتَهُ وَدَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ تَكُونُ بِحَسَبِ عَمَلِهِ. وَ الثَّانِي : أَنَّهُ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَطْعاً وَلَوْ كَانَ لَهُ سَيِّئَاتٌ ، إِمَّا ابْتِدَاءً إِذَا عَفَا اللَّهُ عَنْهُ ، أَوْ انْتِهَاءً إِذَا أَخَذَهُ اللَّهُ بِذَنْبِهِ . وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ وَهُوَ أَنَّ مَالَ الْمُوَحِّدِ إِلَى الْجَنَّةِ يَقِينًا. قَالَ النَّوَوِيُّ^(١) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا حَدِيثٌ عَظِيمٌ الْمَوْقِعِ وَهُوَ مِنْ أَجْمَعَ الْأَحَادِيثِ الْمُشْتَمِلَةِ عَلَى الْعُقَائِدِ ، فَإِنَّهُ ﷺ جَمَعَ فِيهِ مَا يُخْرِجُ عَنْ جَمِيعِ مِلَلِ الْكُفْرِ عَلَى اخْتِلَافِ عَقَائِدِهِمْ وَتَبَاغِدِهِمْ ، فَاخْتَصَرَ ﷺ عَلَى مَا يَبَيِّنُ جَمِيعَهُمْ)^(٢).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهُمَا فِي حَدِيثِ عَثْبَانَ:] (فَإِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجَهَ اللَّهِ)^(٣)

(عَثْبَانٌ) هُوَ ابْنُ مَالِكٍ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْعَجْلَانِ الْأَنْصَارِيِّ، مَاتَ فِي خِلَافَةِ مُعَاوِيَةَ وَهُوَ مِنْ بَنِي سَالِمِ بْنِ عَوْفٍ ، كَانَ يُصَلِّي بِقَوْمِهِ فَضَعُفَ بَصَرُهُ ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَتْ الْأَمْطَارُ وَ سَالَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْتِيَ مَسْجِدَهُمْ فَشَقَّ عَلَيْهِ الذَّهَابُ إِلَيْهِمْ فَطَلَبَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يُخْرِجَ إِلَيْهِ وَيُصَلِّيَ لَهُ فِي مَوْضِعٍ مِنْ بَيْتِهِ لِيَتَّخِذَهُ مُصَلًى ، فَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَمَعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - فَصَلَّى بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَكَعَتَيْنِ ، وَجَلَسُوا عَلَى طَعَامٍ صَنَعُوهُ لَهُمْ فَجَعَلُوا يَتَذَكَّرُونَ فَذَكَرُوا رَجُلًا اسْمُهُ مَالِكُ بْنُ الدُّعْشَمِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هُوَ مُتَأَفِّقٌ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَلَا تَرَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا

(١) يحيى بن شرف بن مري النووي، محيي الدين، الحافظ، له (شرح مسلم) و(شرح المذهب)، توفي سنة ٦٧٦ هـ.

(٢) شرح النووي على مسلم، ١/٢٢٧ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة- باب المساجد في البيوت (٤٢٥) ومسلم في كتاب المساجد- باب الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر (٣٣).

[2] بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

اللَّهُ يُرِيدُ بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ قَالَ الرَّجُلُ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، إِنَّا نَرَى وَجْهَهُ وَنَصِيحَتَهُ إِلَى الْمُتَافِقِينَ فَذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْحَدِيثَ . قَوْلُهُ : (حَرَّمَ عَلَى النَّارِ) أَيُّ : مَنَعَ ، وَالْتَحَرِيمُ إِمَّا تَأَمَّماً فَلَا يَدْخُلُهَا ابْتِدَاءً ، وَإِمَّا تَحْرِيمًا تَأْقِصًا أَيُّ : يُحَرِّمُ عَلَيْهِ الْخُلُودَ فِيهَا بِفَضْلِ تَوْحِيدِهِ . (يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ) أَيُّ : مُخْلِصًا فِي قَوْلِهَا ، مُعْتَقِداً مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنْ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْعِبَادَةِ وَتَرْكِ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ . وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّهُ لَا يَكْفِي مُجَرَّدُ قَوْلِهَا ، بَلْ لَا بَدَّ مِنْ عِلْمٍ بِمَعْنَاهَا وَعَمَلٍ بِمُقْتَضَاهَا ، فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِعَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ : أَنَّ الْإِيمَانَ نُطْقٌ بِاللِّسَانِ فَقَطْ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ؛ لِأَنَّ ظَاهِرَهُ يَمْنَعُ مِنْ خُلُودِ مُرْتَكِبِ الْكَبِيرَةِ فِي النَّارِ . وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُعْطَلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ بِإِثْبَاتِ صِفَةِ الْوَجْهِ ، وَفِيهِ زِيَارَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَصْحَابَهُ وَتَوَاضُعُهُ مَعَهُمْ . وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ اتِّخَاذِ مَسْجِدٍ فِي الدَّارِ . وَفِيهِ الْحَذَرُ مِنْ مُجَالَسَةِ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْمَعَاصِي . وَفِيهِ الذَّبُّ عَنْ عَرِضِ الْإِحْوَانِ ، وَفِيهِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْمُسْلِمِ السَّلَامَةُ ، وَفِيهِ أَنَّ وَجْهَةَ الرَّجُلِ مَعَ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْفِسْقِ مِنْ مَوَارِدِ الشُّبُهَاتِ الَّتِي يَنْبَغِي عَلَى الْمُسْلِمِ الْحَذَرُ مِنْهَا لِيَسْلَمَ لَهُ عِرْضُهُ وَدِينُهُ لِأَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَنْكَرْ أَصْلَ اسْتِدْلَالِهِمْ لَا تَهَامِيهِمْ لَهُ بِسَبَبِ وَجْهَتِهِ مَعَ الْمُتَافِقِينَ ، وَمَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ التَّوْحِيدَ يُحَرِّمُ دُخُولَ النَّارِ إِذَا تَمَّ وَكَمُلَ وَيُحَرِّمُ أَصْلُهُ الْخُلُودَ فِيهَا إِذَا نَقَصَ بِالْبِدْعِ أَوْ الْكِبَائِرِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ (قَالَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا رَبِّ ! عَلَّمَنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ قَالَ قُلْ يَا مُوسَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قَالَ يَا رَبِّ ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرُهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) فِي كِفَّةٍ ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»^(١) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالْحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.]

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٦٧٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٢١٨) والحاكم في «المستدرک» (١٩٣٦) وضعفه الألباني في «ضعيف الترهيب والترهيب» (٩٢٣)

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رحمه الله - : (فِيهِ عِنْدَهُمْ جَمِيعاً دَرَجَاتُ أَبُو السَّمْحِ عَنْ أَبِي الْهَيْثَمِ ، وَهُوَ عَنْهُ ذُو مَنَاقِيرِ)
فهو ضعيف الإسناد لَكِنْ أَخْرَجَ الْبُخَارِيُّ فِي الْأَدَبِ الْمُفْرَدِ مَا يَشْهَدُ لَهُ ^(١) لذلك حسنه العلامة ابن
باز - رحمه الله - فَأَذْكَرُ الشَّاهِدَ مِنْهُ هُنَا لِتَمَامِ الْفَائِدَةِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا ﷺ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ الْوَصِيَّةَ أَمْرُكَ
بِائْتِنَيْنِ وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ أَمْرُكَ بِإِلَهِ إِلَّا إِلَهُ اللَّهِ فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي
كَفَّةٍ وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كَفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرْضِينَ السَّبْعَ
كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً فَصَمْتُهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ... " الحديث ") ^(٢) .

قَوْلُهُ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ : (أَذْكَرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ) يَشْهَدُ لَهُذِهِ الْجُمْلَةُ مَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ عَنْ عَبْدِ
اللَّهِ بْنِ عَمَرَ : (إِنَّ أَفْضَلَ دُعَاءٍ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ ، وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالتَّيْبُونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) ، وَوَجْهٌ أَنَّهَا ذِكْرٌ أَنَّ فِيهَا شَهَادَةً
لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ ، وَوَجْهٌ أَنَّهَا دُعَاءٌ أَنَّ قَائِلَهَا يَرْجُو ثَوَابَهَا وَفِي ثَنَائِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَرُّضٌ لَهُ بِالْحَاجَةِ وَالْإِفْتِقَارِ .
قَوْلُهُ : (رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) أَيُ : بِالنَّظَرِ إِلَى الْحَقَائِقِ وَالْمَعَانِي فَإِنَّ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ أَصْدَقُ وَأَعْظَمُ
وَأَثْقَلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ فَهِيَ تَرْجَحُ بِسَيِّئَاتِ قَائِلِهَا وَذُنُوبِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ الْبُطَاقَةِ : (إِنَّ اللَّهَ سَيَخْلِصُ رَجُلًا
مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سَجَلًا كُلُّ سَجَلٍ مِثْلُ مَدِّ الْبَصَرِ ثُمَّ
يَقُولُ : أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا ؟ أَظْلَمَكَ كَتَبْتِي الْخَافِظُونَ ؟ فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ : أَفَلَاكَ عُذْرٌ ؟
فَيَقُولُ : لَا يَا رَبِّ فَيَقُولُ : بَلَى إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً فَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ فَتُخْرِجُ بِطَاقَةً فِيهَا :
أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ فَيَقُولُ : احْضُرْ وَزَنَّاكَ فَيَقُولُ : يَا رَبِّ مَا هَذِهِ
الْبُطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجَلَاتِ فَقَالَ : إِنَّكَ لَا تَظْلَمُ قَالَ : فَتُوضَعُ السِّجَلَاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبُطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ

(١) الأدب المفرد للإمام البخاري برقم: (٥٦٦).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» برقم: (٦٥٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة برقم: (١٣٤).

[2] بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

فَطَاشَتْ السَّجَّالَاتُ وَتَقَلَّتِ الْبِطَاقَةُ فَلَا يَثْقُلُ مَعَ اسْمِ اللَّهِ شَيْءٌ^(١). وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْقَوَائِدِ : التَّنْبِيهُ عَلَى رُجْحَانِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ بِجَمِيعِ الْمَحْلُوقَاتِ مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخْفُ مِيزَانُهُ، وَفِيهِ : النَّصُّ عَلَى أَنَّ الْأَرْضِيْنَ سَبْعُ كَالسَّمَاوَاتِ ، وَفِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ : إِبْثَابُ الْمِيزَانِ ، وَأَنَّ لَهُ كَفَّتَيْنِ أَمَّا حَدِيثُ الْبَابِ فَهُوَ عَلَى سَبِيلِ الْفُرْضِ ، وَفِيهِ : أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُوَ الصَّحَائِفُ ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ هُوَ الْعَبْدُ نَفْسُهُ ، وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ الَّذِي يُوزَنُ الْأَعْمَالُ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا يَكُونُ فِي حَالٍ ، وَفِي حَدِيثِ الْبِطَاقَةِ أَنَّ التَّوْحِيدَ أَثْقَلُ شَيْءٍ. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِلْتَرْمِذِيِّ وَحَسَنَهُ عَنْ أَنَسٍ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئًا ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَا تَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ^(٢)] .

(أَنَسٌ) هُوَ ابْنُ مَالِكٍ بْنِ النَّضْرِ أَنْصَارِيٌّ خَزَرَجِيٌّ خَدَمَ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ ، دَعَا لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : (اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَأَدْخِلْهُ الْجَنَّةَ) قَالَ أَنَسٌ : (فَلَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْنِ وَأَنَا أَرْجُو الثَّالِثَةَ^(٣)). (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى) هَذَا حَدِيثٌ إِلَاهِي لَفْظُهُ وَمَعْنَاهُ مِنَ اللَّهِ ، (لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئًا) قُرَابُ الْأَرْضِ : مَا يَمْلُؤُهَا أَوْ مَا يُقَارِبُ مَلَأَهَا ، (ثُمَّ لَقَيْتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا) أَيِ : مِتَّ مُوَحَّدًا . وَهَذَا قَيْدٌ عَسِيرٌ لَكِنَّهُ يَسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ وَهُوَ السَّلَامَةُ مِنَ الشِّرْكِ قَلِيلُهُ وَكَثِيرُهُ كَبِيرُهُ وَصَغِيرُهُ قَوْلُهُ : (لَا تَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةٌ) إِمَّا أَنْ يُقَالَ هُوَ فِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُوَحَّدًا تَائِبًا مِنْ ذُنُوبِهِ ، وَإِمَّا أَنْ يُقَالَ : هُوَ فِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ مُوَحَّدًا وَلَمْ يَثْبُتْ مِنْ ذُنُوبِهِ لَكِنْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَهَذَا لَا يَكُونُ لِكُلِّ مَذْنِبٍ إِمَّا بِحَسَبِ الْمَشِيئَةِ فَمَنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَمَنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ. لِقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فَالْآيَةُ مُقَيَّدَةٌ لِلْحَدِيثِ بَلْ هِيَ مُقَيَّدَةٌ لِعُمُومِ نصوص الوعيد. وَفِي الْحَدِيثِ مِنْ

(١) أخرجه الترمذي في «سننه»، باب ما جاء في من يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، برقم: (٢٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في مشكاة المصابيح برقم: (٥٥٥٩) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في كتاب الدعوات - باب في فضل التوبة والاستغفار وما ذكر من رحمة الله، و قال: «حديث حسن» (٣٥٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٠).

(٣) مسند عبد بن حميد برقم: (١٢٦٠).

الْفَوَائِدُ: إِنَّبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَفِيهِ: سَعَةُ فَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَفِيهِ : أَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أَعْظَمِ
 أَسْبَابِ تَكْفِيرِ الذُّنُوبِ ، قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (لَيْسَ شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ لَهُ مِنَ الْأَثَارِ
 الْحَسَنَةِ وَالْفَضَائِلِ الْمُتَنَوِّعَةِ مِثْلُ التَّوْحِيدِ ، فَإِنَّ خَيْرَيِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ ثَمَرَاتِ التَّوْحِيدِ وَفَضَائِلِهِ ، وَمِنْ
 أَجَلِ فَوَائِدِهِ أَنَّهُ يَمْنَعُ مِنَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ ، وَأَنَّهُ شَرْطٌ فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ ، وَمِنْهَا: أَنَّهُ يُحَرِّرُ الْعَبْدَ
 مِنْ رِقِّ الْمَخْلُوقِينَ، وَهَذَا هُوَ الْعِزُّ الْحَقِيقِيُّ وَالشَّرَفُ الْعَالِي، فِي كَوْنِهِ مُتَعَبِّدًا لِلَّهِ، وَمِنْهَا أَنَّ اللَّهَ تَكْفَّلَ
 لِأَهْلِهِ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
 وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾^(١)

وَمِنْهَا : أَنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنْ أَهْلِهِ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّا لَنُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ
 خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴾^(٢)

وَمِنْهَا أَنَّ اللَّهَ مَنَّ عَلَيْهِمْ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنِثَى
 وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾^(٣) (٤)



(١) سورة غافر الآية: ٥١ .

(٢) سورة الحج الآية: ٣٨ .

(٣) سورة النحل الآية: ٩٧ .

(٤) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ٢٤ ، دراسة وتحقيق: شيخنا أ.د. المرتضى الزين أحمد، -بتصرف- .

بَابٌ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : لَمَّا تَكَلَّمَ الْإِمَامُ فِي فَضْلِ التَّوْحِيدِ الثَّابِتِ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ ، ارْتَقَى إِلَى فَضْلِ أَحْصَ مِنْهُ وَهُوَ فَضْلُ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ وَمَعْنَى تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ تَخْلِيصُهُ وَتَصْفِيَّتُهُ مِنْ شَوَائِبِ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ وَ الْبِدْعِ وَالْكَبَائِرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ ^(١) ، وَلَأَهْلِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ فَضْلٌ زَائِدٌ عَلَى عَامَّةِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فَإِنَّهُمْ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

فَلِوَاحِدٍ كُنْ وَاحِدًا فِي وَاحِدٍ *** أَغْنِي سَبِيلَ الْحَقِّ وَالْإِيمَانِ

فَأَهْلُ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ هُمْ أَوْلِيَاؤُهُ وَهُمْ مَنْ كَانَ اللَّهُ فِي قَلْبِهِ فَلَا يَسْكُنُ وَلَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا لَهُ وَبِهِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنْ

الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(٢) .]

مُنَاسَبَةُ هَذِهِ الْآيَةِ لِلْبَابِ : أَنَّ اللَّهَ ذَكَرَ شَيْئًا مِنْ صِفَاتِ إِبْرَاهِيمَ الَّذِي بَلَغَ أَعْلَى دَرَجَاتِ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ مِنْ دَوَامِ الطَّاعَةِ وَحُسْنِ الْإِتِّبَاعِ وَقُوَّةِ التَّوَكُّلِ وَالرَّجَاءِ وَالْبَرَاءَةِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ^(٣) ، فَقَالَ اللَّهُ : (كَانَ أُمَّةً) أَيَّ : إِمَامًا ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْإِمَامَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا بِالْصَّبْرِ وَالْيَقِينِ ، كَمَا أَنَّ لِلْإِمَامِ مِنَ الْحَسَنَاتِ مَا لَيْسَ لِعَبْدِهِ ، فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ تَبِعَهُ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا . قَوْلُهُ : (قَانِتًا) الْفُنُوتُ : هُوَ دَوَامُ الطَّاعَةِ . قَوْلُهُ : (اللَّهُ) هَذَا تَنْبِيْهُ لِإِخْلَاصِهِ فِي طَاعَتِهِ . قَوْلُهُ : (حَنِيفًا) الْحَنِفُ هُوَ الْمَيْلُ ، وَالْحَنِيفُ

(١) و السّلامه من المعاصي بإجتنابها ما استطاع وبالتوبة والندم مما وقع منها وعدم الإصرار عليها ولأن العبد لا ينفك من الخطأ فمن حقق التوحيد لا ينفك عن التوبة ما أخطأ. أفاده الشيخ العصيمي - حفظه الله -

(٢) سورة النحل الآية : ١٢٠ .

(٣) هذه الجملة من لطائف شيخ أبي عبد الله خالد بن عبد اللطيف - حفظه الله -

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
شَرْعاً : هُوَ الْمُقْبِلُ عَلَى اللَّهِ الْمُعْرِضُ عَمَّنْ سِوَاهُ . قَوْلُهُ : (وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) أَي : فَارَقَهُمْ عَقِيدَةً
وَعَمَلًا وَقَوْلًا وَوَلَاءً وَمَنْزِلًا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَرِيَهُمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾^(١)]

جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي سِيَاقِ الْمَدْحِ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ ، فَمَدَحَهُم بِالسَّلَامَةِ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ كَبِيرِهِ
وَصَغِيرِهِ جَلِيلِهِ وَخَفِيئِهِ وَمَا أَعَزَّ هَذِهِ السَّلَامَةَ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ خُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ ،
فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكُوكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ
وَلَكِنِّي لُدِغْتُ قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثُ
حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصِيبِ أَنَّهُ قَالَ: (لَا رُقِيَةَ إِلَّا مِنْ
عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) قَالَ قَدْ أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ
قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ
مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ فَتَنَظَرْتُ فَإِذَا
سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ ثُمَّ
نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاصَ النَّاسَ فِي أَوْلِيكَ- فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وَلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ فَخَرَجَ
عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ: " هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَكْتُؤُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى

(١) سورة المؤمنون الآية: ٥٩ .

رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ “ فَقَامَ عُكَاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ فَقَالَ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ فَقَالَ: “ أَنْتَ مِنْهُمْ “ ثُمَّ

قَامَ رَجُلٌ آخَرٌ فَقَالَ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ فَقَالَ: “ سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةُ ”^(١).

(حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ) أَبُو الْهَذِيلِ السُّلَمِيُّ ثِقَةٌ اخْتَلَطَ فِي آخِرِ عُمْرِهِ. (سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ) الْإِمَامُ الْفَقِيهُ
مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، مِنْ أَجَلَّةِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَتَلَهُ الْحَجَّاجُ عَامَ ٩٥ هـ (كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ)
فِيهِ الْجُلُوسُ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ. (فَقَالَ أَيُّكُمْ رَأَى الْكُوكَبَ الَّذِي انْقَضَ الْبَارِحَةَ؟) (الْكُوكَبُ)
النَّجْمُ ، (انْقَضَ) أَيُّ : سَقَطَ ، (الْبَارِحَةَ) أَقْرَبُ لَيْلَةٍ مَضَتْ ، (فَقُلْتُ أَنَا ثُمَّ قُلْتُ : أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ
فِي صَلَاقَةٍ). (أَمَا) بِالْتَّخْفِيفِ أَيُّ : حَقًّا ، وَفَائِدَتُهَا التَّنْبِيهُ . وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : بُعْدُ السَّلَفِ
عَنِ الرِّيَاءِ ، وَبُعْدُهُمْ عَنْ حُبِّ الْمَدْحِ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا ، وَالتَّشْبُعُ بِمَا لَمْ يُعْطُوا ، (وَلَكِنِّي لِدُعْتِ) اللَّدْعَةُ :
هِيَ إِصَابَةُ ذَوَاتِ السُّمُومِ ، (قَالَ : فَمَا صَنَعْتَ ؟ قُلْتُ : ارْتَقَيْتُ) أَيُّ : طَلَبْتُ مَنْ يَرْقِيَنِي ،
قَالَ : فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ ؟) فِيهِ : طَلَبُ الْحِجَّةِ وَالِدَّلِيلِ ، (قُلْتُ حَدِيثٌ) أَيُّ حَمَلَنِي عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُ
(حَدَّثَنَا الشَّعْبِيُّ) هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَّاحِيلٍ مِنْ أَيْمَةِ التَّابِعِينَ (قَالَ وَمَا حَدَّثَكُمْ ؟ قُلْتُ : حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ
بْنِ الْحَصْبِ) هُوَ الْأَسْلَمِيُّ صَحَابِيُّ جَلِيلٌ. (أَنَّهُ قَالَ : (لَا رُقِيَّةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ) ذَكَرَهُ مَوْفُوفًا عَلَى
بُرَيْدَةَ ، وَقَدْ نَبَتَ الْحَدِيثُ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ^(٢). (لَا رُقِيَّةَ) خَبَرُ (لَا) مُخْدُوفٌ ،
وَالْتَّقْدِيرُ : لَا رُقِيَّةَ أَنْفَعُ وَأَوْلَى ، (مِنْ) سَبَبِيَّةٌ (عَيْنٍ) الْعَيْنُ : هِيَ النَّظَرَةُ (حُمَةٍ) الْحُمَةُ : بِالْتَّخْفِيفِ هِيَ
إِصَابَةُ ذَوَاتِ السُّمُومِ ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصَرَ بَلْ الْمُرَادُ أَنَّ الرُّقِيَّةَ فِي هَذَيْنِ أَنْفَعُ مِنْ غَيْرِهِمَا (قَالَ قَدْ
أَحْسَنَ مَنْ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ) وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ فَقَدْ أَحْسَنَ ، وَفِيهِ
النِّسَاءُ عَلَى الْمُحْسِنِ (وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ) كَانَ هَذَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الطب (٥٧٥٢)، ومسلم في كتاب الإيمان

(٢) أخرجه أحمد في المسند برقم: (٢٣٢١)، وصححه العلامة الألباني في المشكاة برقم: (٤٥٥٧).

الْعَرْضُ فِي لَيْلَةِ الْإِسْرَاءِ كَمَا فِي رِوَايَةِ التِّرْمِذِيِّ^(١)، (فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ) الرَّهْطُ: هُمُ الْجَمَاعَةُ مِنْ ثَلَاثَةِ إِلَى عَشْرَةٍ، (وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ) وَفِي الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: قَلَّةُ أَتْبَاعِ الْأَنْبِيَاءِ، وَأَنَّ الْحَقَّ لَا يَتَعَلَّقُ بِالْكَثَرَةِ، وَأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّتَائِجِ. وَفِي هَذَا الْعَرْضِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ إِذْ كَذَبَهُ قَوْمُهُ، قَوْلُهُ: (إِذْ رَفَعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أَمْتِي) فِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْعَيْبَ، قَوْلُهُ: (فَقِيلَ لِي هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ) فِيهِ: كَثَرَةُ أَتْبَاعِ مُوسَى - عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ السَّلَامُ -، (فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي هَذِهِ أُمَّتُكَ) فِيهِ: كَثَرَةُ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ ﷺ، قَوْلُهُ: (وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ) وَأَخْرَجَ أَحْمَدُ وَابْنُ مَاجَهٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: (وَعَدَنِي رَبِّي أَنَّهُ يُدْخِلُ الْجَنَّةَ مَنْ أَمْتِي سَبْعِينَ أَلْفًا بَلَا حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَتِّيَّاتٍ مِنْ حَتِّيَّاتِ رَبِّي)^(٢). وَفِي رِوَايَةِ أَحْمَدَ "فَرَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا"^(٣) (ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ فَخَاضَ النَّاسَ فِي أَوْلَيْكَ) أَيُّ: فِي صِفَتِهِمْ لَا فِي تَعْيِينِهِمْ، وَفِيهِ: الْمُبَاحَثَةُ فِي الْعِلْمِ. (فَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) فِيهِ: جَوَازُ الْاجْتِهَادِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي غِيَابِهِ لَا بِحَضْرَتِهِ إِلَّا إِذَا سَأَلَهُمُ النَّبِيُّ فَلَهُمْ أَنْ يَجْتَهِدُوا فِي حَضْرَتِهِ، وَفِيهِ: فَضْلُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - (وَقَالَ بَعْضُهُمْ فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ) فِيهِ: فَضْلُ مَنْ وُلِدَ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ، (فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ) فِيهِ: الرُّجُوعُ لِأَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ لَا اجْتِهَادَ مَعَ وُجُودِ النَّصِّ. (فَقَالَ: هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ) أَيُّ: لَا يَطْلُبُونَ الرُّقِيَّةَ؛ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى اللَّهِ وَعَظِيمِ تَعَلُّقِهِمْ بِاللَّهِ، لَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي كَرَاهَةَ التَّدَاوِي لِأَنَّ الْاِسْتِرْقَاءَ سَبَبٌ حَفِيٌّ فَالتَّعَلُّقُ فِيهِ يَكُونُ بِالرَّاقِي بِخِلَافِ التَّدَاوِي فَإِنَّهُ أَمْرٌ مَحْسُوسٌ فَلَا تَعَلُّقَ فِيهِ بِالطَّبِيبِ غَالِبًا (وَلَا يَكْتَوُونَ) فِيهِ: كَرَاهَةُ الْكَيْ، قَالَ

(١) رواه الترمذي برقم الحديث ٢٤٤٦

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٢٧٦)، وأحمد برقم: (٢١٢٧١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٢١٧٩).

(٣) هذه الرواية عند أحمد فقط وفيها راو لم يسم.

[٣] بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

ابن القيم : فَقَدْ تَضَمَّنَتْ أَحَادِيثُ الْكَيِّ أَرْبَعَةَ أَنْوَاعٍ ، أَحَدُهَا : فِعْلُهُ ^(١) ، وَالثَّانِي : عَدَمُ مَحَبَّتِهِ لَهُ ، وَالثَّلَاثُ : التَّنَاءُ عَلَى مَنْ تَرَكَهُ ، وَالرَّابِعُ : النَّهْيُ عَنْهُ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ فِعْلَهُ يَدُلُّ عَلَى جَوَازِهِ ، وَعَدَمُ مَحَبَّتِهِ لَهُ لَا يَدُلُّ عَلَى الْمَنْعِ مِنْهُ . وَأَمَّا الشَّاءُ عَلَى تَارِكِهِ ، فَيَدُلُّ عَلَى أَنَّ تَرَكَهُ أَوَّلَى وَأَفْضَلُ . وَأَمَّا النَّهْيُ عَنْهُ ، فَعَلَى سَبِيلِ الْأَخْتِيَارِ وَالْكَرَاهَةِ ، أَوْ عَنِ النَّوعِ الَّذِي لَا يُجْتَنَبُ إِلَيْهِ ، بَلْ يُفْعَلُ خَوْفًا مِنْ حُدُوثِ الدَّاءِ .. وَاللَّهُ أَعْلَمُ ^(٢) . وَالْكَيِّ لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ بِكُلِّ أَنْوَاعِهِ بَلْ مِنْهُ مَا لَا يَنَافِي التَّوَكُّلَ وَإِنَّمَا كَرِهَ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّعْذِيبِ قَالَ الْمَنَاوِي : " وَقَدْ سَبَقَ أَنَّ الْكَيِّ لَا يَتْرَكَ مطلقاً وَلَا يَسْتَعْمَلُ مطلقاً بَلْ عِنْدَ تَعْيِينِهِ طَرِيقاً لِلشَّقَاءِ وَعَدَمُ قِيَامِ غَيْرِهِ مَقَامَهُ مَعَ مَصَاحِبَةِ اعْتِقَادِ أَنَّ الشِّفَاءَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّوَكُّلَ عَلَيْهِ وَقَالَ ابْنُ قَتِيبَةَ : الْكَيِّ نَوْعَانِ كَيِّ الصَّحِيحِ لئَلَّا يَعْتَلَّ بِهَذَا الَّذِي قِيلَ فِيهِ مِنْ اكْتَوَى لَمْ يَتَوَكَّلْ لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَدْفَعَ الْقَدَرَ وَالْقَدَرَ لَا يَدْفَعُ . وَالثَّانِي كَيِّ الْجَرْحِ إِذَا فَسَدَ وَالْعَضْوِ إِذَا قُطِعَ فَهُوَ الَّذِي شَرَعَ التَّدَاوِي فِيهِ فَإِنْ كَانَ لِأَمْرٍ مُحْتَمَلٍ فَخِلَافِ الْأَوَّلَى لِمَا فِيهِ مِنْ تَعْجِيلِ التَّعْذِيبِ بِالنَّارِ لِأَمْرٍ غَيْرٍ مُحَقَّقٍ " ^(٣) (وَلَا يَنْطَلِقُونَ) التَّطَيُّرُ : هُوَ زَجْرُ الطَّيْرِ ثُمَّ الْعَمَلُ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الزَّجْرِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ تَشَاوُمٍ بَرِّيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ أَوْ مَعْلُومٍ (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) هَذَا هُوَ الْأَصْلُ الْجَامِعُ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ وَهُوَ صِدْقُ الْإِلْتِمَاعِ إِلَيْهِ وَالْاعْتِمَادُ بِالْقَلْبِ عَلَيْهِ ، وَهُوَ غَايَةُ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : (وَاعْلَمْ أَنَّ مُبَاشَرَةَ الْأَسْبَابِ أَمْرٌ فِطْرِيٌّ لَا يَنْفَكُ أَحَدٌ عَنْهُ وَلَا يُنَافِي التَّوَكُّلَ) وَالْاعْتِمَادُ عَلَى الْأَسْبَابِ فَقَطُّ دُونَ الْأَسْتِعَانَةِ بِاللَّهِ قَدْخٌ فِي التَّوَكُّلِ ، وَتَرْكُ مُبَاشَرَةِ الْأَسْبَابِ قَدْخٌ فِي الْعَقْلِ (فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصَنٍ) بِتَشْدِيدِ الْكَافِ وَخَفِيفِهَا - الْأَسَدِيِّ بِدَرِيٍّ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ ، اسْتَشْهَدَ فِي حُرُوبِ الرِّدَّةِ . (فَقَالَ : اذْغُ اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ مِنْهُمْ) هَلْ يُشْرَعُ طَلَبُ الدُّعَاءِ مِنَ الْإِخْوَانِ اسْتِدْلَالًا بِهَذِهِ الْوَاقِعَةِ ، الْأَوَّلَى أَنَّ يُقَالَ تَرَكَهُ أَوَّلَى ؛ لِأَنَّهُ لَا يَخْلُو مِنْ نَوْعِ الْيَتَاتِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ ، وَقَدْ يَدْخُلُ عَلَى الْمَسْئُولِ نَوْعٌ غُرُورٍ خَاصَّةً إِذَا تَكَرَّرَ عَلَيْهِ السُّؤَالُ . وَمَنْ تَقَوَّمَ بِهِ

(١) المراد أن النبي صلى الله عليه وسلم كوى سعد بن معاذ في أكمحله . رواه مسلم . والأكل عرق وسط الذراع يُفصد ويُحقن .

(٢) زاد المعاد (٦٣/٤) .

(٣) فيض القدير (٨٢/٦) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

حَاجَةٌ حَتَّى يَطْلُبَ مِنْ غَيْرِهِ الدُّعَاءَ فَهُوَ مُضْطَرٌّ إِلَى تِلْكَ الْحَاجَةِ ، وَالْأَضْطِرَّاءُ مِنْ أَسْبَابِ الْإِجَابَةِ ،
فَلْيُخْلَصِ التَّصَرُّعُ إِلَى اللَّهِ. (فَقَالَ : أَنْتَ مِنْهُمْ) فِيهِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ ، وَفِيهِ مَنْقَبَةٌ عَظِيمَةٌ
لِعُكَاشَةِ ، (سَبَقَكَ بِهَا عُكَاشَةٌ) فِيهِ جَوَازُ اسْتِعْمَالِ الْمَعَارِضِ ، وَفِيهِ حُسْنُ خُلُقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ،
وَفِيهِ سَدُّ الذَّرَائِعِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَتَسَلَّلَ الطَّلَبُ إِلَى مَنْ لَيْسَ بِأَهْلٍ فَيَطْلُبُ ذَلِكَ ، وَفِيهِ أَنَّ تَرْكَ الْإِسْتِرْقَاءِ
وَالْتَّطْيِيرِ وَالْكَيْ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ، وَفِيهِ أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُخْشَرُ مَعَ نَبِيِّهَا. قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (لَيْسَ
تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ بِالتَّمَيُّنِ وَلَا بِالِدَّعَاوَى إِنَّمَا بِمَا وَقَرَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الْأَخْلَاقُ الْجَمِيلَةُ ، وَالْأَعْمَالُ
الصَّالِحَةُ الْجَلِيلَةُ ^(١))



(١) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ٢٩-بتصرف-.

[٤]

بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ وَهِيَ أَنَّ الْخَوْفَ مِنَ الشِّرْكِ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ ، فَيَكُونُ الْبَابُ السَّابِقُ أَعَمَّ وَهَذَا أَحْصَى مِنْهُ ، فَلَا يَكْفِي أَنْ يَعْرِفَ الْعَبْدُ التَّوْحِيدَ وَيَعْمَلُ بِهِ ، إِذْ لَا بُدَّ مِنْ مَعْرِفَةِ الشِّرْكِ وَالْخَوْفِ مِنْهُ .

وَالشِّرْكُ لَعَنٌ : هُوَ النَّصِيبُ ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ ﴾ ^(١) .
وَشَرْعًا : هُوَ مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خَصَائِصِ اللَّهِ ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ^(٢) إِذْ نُسَوِّيَكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(٣) ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَابِنْ مَسْعُودٍ لَمَّا قَالَ لَهُ أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ : (أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وَهُوَ خَلْقُكَ) ^(٤) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقول الله عز وجل: ﴿ إِنْ أَلَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ

لِمَنْ يَشَاءُ] ^(٤) .

قال بعضُ أهلِ العلمِ هذه الآيةُ أرجى آيةٍ في كتابِ الله لأهلِ التَّوْحِيدِ وَهِيَ أَعْظَمُ الْآيَاتِ تَخْوِيفًا مِنَ الشِّرْكِ (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ) الْمَغْفِرَةُ : هِيَ السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ ، وَهَذَا النَّفْيُ الْمُتَسَلِّطُ عَلَى الْمَصْدَرِ الْمَوْوَلِ يَعُمُّ كُلَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، فَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَقُولُ : إِنَّ الْآيَةَ خَاصَّةٌ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ : الْآيَةُ بَاقِيَةٌ عَلَى عُمُومِهَا . وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عُثَيْمِينَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

(١) سورة سبأ الآية: ٢٢ .

(٢) سورة الشعراء الآية: ٩٧-٩٨ .

(٣) أخرجه البخاري باب قتل الولد خشية أن يأكل معه ، برقم: (٥٦٥٥) ومسلم ، باب كَوْنِ الشِّرْكِ أَفْبَحَ الذُّنُوبِ وَبَيَانِ أَعْظَمِهَا

يَعْدُوهُ ، برقم: (٢٦٧) .

(٤) سورة النساء الآية: ٤٨ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 وَشَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْمُحَقِّقُ فِي هَذِهِ الْمَسَائِلِ ، اخْتَلَفَ كَلَامُهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ ، فَمَرَّةً قَالَ :
 الشِّرْكَ لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ وَلَوْ كَانَ أَصْغَرَ ، وَمَرَّةً قَالَ : الشِّرْكَ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللَّهُ هُوَ الشِّرْكَ الْأَكْبَرُ . وَعَلَى
 كُلِّ حَالٍ ؛ فَيَجِبُ الْحَذَرُ مِنَ الشِّرْكِ مُطْلَقاً ؛ لِأَنَّ الْعُمُومَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ دَاخِلاً فِيهِ الْأَصْغَرُ ؛ لِأَنَّ
 قَوْلَهُ : " أَنْ يُشْرِكَ بِهِ " أَنْ وَمَا بَعْدَهَا فِي تَأْوِيلِ مَصْدَرٍ ، تَقْدِيرُهُ : إِشْرَاكاً بِهِ ؛ فَهُوَ نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ
 التَّنْفِيهِ ، فَتَفِيدُ الْعُمُومَ . ^(١) وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ أَنَّ مِنْ مُوجِبَاتِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ ، أَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُهُ
 ، وَأَنَّ مَا عَدَاهُ تَحْتَ الْمَشِيعَةِ ، وَإِنَّمَا كَانَ الشِّرْكَ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ ؛ لِأَنَّهُ أَفْبَحُ قَبِيحٍ وَأَظْلَمُ ظُلْمٍ ، إِذْ مَضْمُونُهُ
 تَنْقُصُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَصَرَفُ خَالِصِ حَقِّهِ لِعَظِيمِهِ ، وَعَدْلُ غَيْرِهِ بِهِ وَعَدَمُ الْمَغْفَرَةِ لِلشِّرْكِ فِي مَنْ لَقِيَ اللَّهَ
 بِهِ أَمَّا مَنْ تَابَ مِنْهُ فَلَيْسَ دَاخِلاً فِي الْآيَةِ فَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ
 أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ

[سورة الزمر] ﴿٥٣﴾

(وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ) أَيُ : مَا دُونَ الشِّرْكِ ، وَفِيهَا رَدٌّ عَلَى الْخَوَارِجِ وَالْمُعْتَزِلَةِ ؛ لِأَنَّهُمْ جَزَمُوا
 بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ الْكِبَائِرَ وَفِي قَوْلِهِ : (لِمَنْ يَشَاءُ) أَيُ أَنَّ الْمَغْفِرَةَ مُتَعَلِّقَةٌ بِالْمَشِيعَةِ ، فَفِيهَا رَدٌّ عَلَى
 الْمُجَرِّئَةِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ لَا يَغْفِرُ مَا دُونَ الشِّرْكِ ؛ لِأَنَّهُمْ زَعَمُوا أَنَّهُ لَا يَضُرُّ مَعَ الْإِيمَانِ ذَنْبٌ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَاجْتَنِبْهُ وَبَيْنَ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ

﴾ ^(٢)] .

(١) القول المفيد على كتاب التَّوْحِيدِ ، ١١٤ ، الناشر : دار ابن الجوزي .

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٣٥ .

أَيُّ : اجْعَلْنِي وَبَنِيَّ فِي جَانِبٍ ، وَاجْعَلْ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ فِي جَانِبٍ آخَرَ . وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ التِّيمِيُّ يَقُولُ : (مَنْ يَأْمُرُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ ، حِينَ يَقُولُ : رَبِّ (وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (١) . قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : (مَا تَمَّ إِلَّا غُرُورُ أَهْلِ الْغُرُورِ ، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ مِنَ الْخَلِيلِ يُوجِبُ لِصَاحِبِ الْقَلْبِ الْحَيِّ أَنْ يَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ ؛ وَلِهَذَا الْمَعْنَى أَوْرَدَ الْإِمَامُ هَذِهِ الْآيَةَ تَحْتَ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ ؛ لِأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَلِيلُ الرَّحْمَنِ ، وَإِمَامُ الْمُوَحِّدِينَ قَدْ كَسَرَ الْأَصْنَامَ بِيَدَيْهِ ، وَهُوَ قُدُّوهُ الْخَفَاءِ ، فَمَنْ لَمْ يَخَفِ الشِّرْكَ ، فَهَذَا لِحُفْلِهِ بِنَفْسِهِ أَوْ لِحُفْلِهِ بِالشِّرْكِ ، وَالَّذِي أَوْجَبَ الْخَوْفَ لِلْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ انْتِشَارُ الشِّرْكِ فِي النَّاسِ ؛ لِقَوْلِهِ ﴿ إِنَّهُمْ أَضَلُّوا كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٦] كَمَا أَنَّ الطَّيِّبَ الْعَاقِلَ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْوَبَاءِ الْمُنْتَشِرِ فِي النَّاسِ وَإِنْ كَانَ هُوَ الَّذِي يُدَاوِيهِمْ فَيَتَّخِذُ جَمِيعَ سُبُلِ الْحَيْطَةِ وَالْحَذَرِ سَلَمًا لِلَّهِ مِنَ الشِّرْكِ صَغِيرِهِ وَكَبِيرِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الْحَدِيثِ : (أَخَوْفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ ، فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ "الرِّيَاءُ") (٢)] .

أورد الإمام هذا الحديث مختصراً وقد أخرجه الإمام أحمد عن مُحَمَّدِ بْنِ لَبِيدٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ) قَالُوا : وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : (الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُرِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ أَذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا فَاَنْظُرُوا هَلْ يَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً) .

قوله : (إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ) فِيهِ : شَقَقَهُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَمَّتِهِ ، وَقَوْلُهُ : (أَخَوْفُ) اسْمٌ تَفْضِيلٌ ، فَفِيهِ : أَنَّهُ يَخَافُ عَلَيْنَا أَشْيَاءَ أُخْرَى ، لَكِنَّ خَوْفَهُ عَلَيْنَا مِنَ الشِّرْكِ أَشَدُّ ؛

(١) جامع البيان في تأويل القرآن للطبري، ص: ١٧/١٧، ط ١، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م. ت: أحمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة.
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠/٣)، وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الرياء و السمعة (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٣٣٣).

لِعَقْلَةِ النَّاسِ عَنْهُ وَلِحَقَائِهِ وَلِعَظِيمِ حَظِّهِ ، وَقَلَّةِ التَّنْبِهِ لَهُ وَ " مَا " نَكِيرَةٌ بِمَعْنَى شَيْءٍ ، فَالتَّقْدِيرُ أَخَوْفُ شَيْءٍ أَخَافُهُ عَلَيْكُمْ الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ وَأَمْرٌ خَافَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ يَنْبَغِي عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَخَافَهُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ الْخَوْفُ عَلَى الصَّالِحِينَ مِنَ الشِّرْكَ . (الشَّرْكَ الْأَصْغَرُ) وَفِيهِ : أَنَّ الشِّرْكَ نَوْعَانِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ وَبَيْنَهُمَا فَرْقٌ ذَكَرَهَا أَهْلُ الْعِلْمِ وَهِيَ أَنَّ الْأَكْبَرَ مُحِيطٌ لْجَمِيعِ الْأَعْمَالِ وَالْأَصْغَرُ مُحِيطٌ لِلْعَمَلِ الَّذِي يَقَارَنُهُ فَقَطْ وَمِنْهَا أَنَّ الْأَكْبَرَ يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ بِخِلَافِ الْأَصْغَرِ وَمِنْهَا أَنَّ الْأَكْبَرَ يُوجِبُ الْخُلُودَ فِي النَّارِ بِخِلَافِ الْأَصْغَرِ وَمِنْهَا أَنَّ الْأَكْبَرَ يُحْرِمُ صَاحِبَهُ مِنَ الشَّفَاعَةِ بِخِلَافِ الْأَصْغَرِ (فَسُئِلَ عَنْهُ فَقَالَ : الْرِيَاءُ) هَذَا تَعْرِيفٌ لِلشِّرْكَ الْأَصْغَرِ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِهِ ؛ لِأَنَّ الشِّرْكَ الْأَصْغَرَ أَعْمٌ مِنَ الرِّيَاءِ ، إِذْ هُوَ كُلُّ مَا سَمَّاهُ الشَّرْعُ شِرْكَاً وَذَلِكَ التَّنْصُوصُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ بِأَكْبَرَ ، أَوْ لَمْ يُسَمِّهِ الشَّرْعُ شِرْكَاً لَكِنَّهُ كَانَ وَسِيلَةً إِلَى الْأَكْبَرِ ، وَيَشْمَلُ أَيْضاً يَسِيرَ الرِّيَاءِ وَشِرْكَ الْأَلْفَاظِ وَالطَّيْرَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ .

وَصُورُ الشِّرْكَ لَا تَخْرُجُ عَنْ أَمْرَيْنِ أُولَهُمَا صَرْفُ طَاعَةٍ لغيرِ اللَّهِ مِنْ قَصْدٍ وَنَحْوِهِ وَالثَّانِي نَقْصٌ فِي اعْتِقَادِ تَفَرُّدِ اللَّهِ بِالنَّفْعِ وَالضَّرِّ

قَوْلُهُ: (الرِّيَاءُ) مَصْدَرٌ رَأَى يَرَائِي ، رِيَاءٌ وَرِثَاءٌ : إِذَا قَصَدَ رُؤْيَا النَّاسِ بِعَمَلِهِ . وَيَنْقَسِمُ الرِّيَاءُ إِلَى قِسْمَيْنِ : رِيَاءُ الْمُسْلِمِ . وَرِيَاءُ الْمُنَافِقِ . فَرِيَاءُ الْمُنَافِقِ يَكُونُ فِي أَصْلِ الدِّينِ ، أَيُّ : إِنَّمَا قَالَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ رِيَاءً . أَمَّا رِيَاءُ الْمُسْلِمِ فَيَكُونُ فِي أَحَادِ الْعَمَلِ وَهُوَ نَوْعَانِ :

- أَنَّ يَكُونَ فِي أَصْلِ الْعَمَلِ بِمَعْنَى أَنَّهُ لَمْ يَأْتِ بِالْعَمَلِ إِلَّا رِثَاءَ النَّاسِ فَهَذَا مُحِيطٌ لِلْعَمَلِ ؛ لِلْحَدِيثِ الْإِلَهِِيِّ : (قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَعْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكَ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ) ^(١) .

(١) أخرجه مسلم، باب مَنْ أَشْرَكَ فِي عَمَلِهِ غَيْرَ اللَّهِ بِرَقْم: (٧٦٦٦)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

- أَنْ يَكُونَ طَارِئًا أَيْ : أَنَّهُ أَنْشَأَ الْعَمَلَ لِلَّهِ ثُمَّ طَرَأَ عَلَيْهِ الرِّيَاءُ بَعْدَ ، وَلِلْمُسْلِمِ مَعَهُ حَالَتَانِ : الْأُولَى :
أَنْ يُدَافِعَهُ ، فَلَا يَضُرُّهُ حِينَئِذٍ . الثَّانِيَةُ : أَنْ يَسْتَرْسِلَ مَعَهُ ، وَهَذَا يَخْتَلِفُ بِحَسَبِ الْعِبَادَةِ : - فَإِنْ
كَانَتْ الْعِبَادَةُ يُبْنَى أَوَّلُهَا عَلَى آخِرِهَا فَتَبْطُلُ الْعِبَادَةُ كُلُّهَا كَمَنْ صَلَّى رُكْعَةً لِلَّهِ ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهِ الرِّيَاءُ فِي
الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ فَتَبْطُلُ الصَّلَاةُ كُلُّهَا - أَمَّا إِذَا كَانَتْ الْعِبَادَةُ مُنْفَصِلَةً فَيَبْطُلُ مَا نَشَأَ عَنِ الرِّيَاءِ
كَالْصَّدَقَةِ كَمَنْ تَصَدَّقَ بِعِشْرِينَ دِينَارًا خَالِصَةً لِلَّهِ ثُمَّ تَصَدَّقَ بِعِشْرِينَ رِيَاءً فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ الْأُولَى وَلَا
يُقْبَلُ الثَّانِيَةَ ^(١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَنْ مَاتَ
وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً دَخَلَ النَّارَ) وَقُلْتُ أَنَا : مَنْ مَاتَ وَهُوَ لَا يَدْعُو لِلَّهِ نِدَاءً دَخَلَ الْجَنَّةَ ^(٢)
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.]

(مَنْ) اسْمُ شَرْطٍ يُفِيدُ الْعُمُومَ جُمْلَةً (وَهُوَ يَدْعُو) جُمْلَةً حَالِيَّةٌ ، وَلَمَّا كَانَ الْعَبْدُ لَا يَعْلَمُ مَتَى يَمُوتُ فَقَدْ
وَجَبَ عَلَيْهِ مُلَازِمَةُ التَّوْحِيدِ ، (يَدْعُو) الدُّعَاءُ نَوْعَانِ : دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدُعَاءُ عِبَادَةٍ ، وَإِنَّمَا سُمِّيَتِ الْعِبَادَةُ
دُعَاءً لِأَنَّ كُلَّ عِبَادَةٍ تَتَضَمَّنُ الدُّعَاءَ بِلِسَانِ الْحَالِ أَوْ الْمَقَالِ (مِنْ دُونِ اللَّهِ نِدَاءً) أَيْ : غَيْرَ اللَّهِ (النِّدَاءُ
(هُوَ الشَّيْبِيُّ ، وَلَيْسَ لِلَّهِ نِدَاءٌ لَكِنَّ هَذَا فِي اعْتِقَادِ مَنْ يَدْعُو وَإِنَّمَا دَعَا غَيْرَ اللَّهِ لِاعْتِقَادِهِ فِي مَنْ يَدْعُوهُ أَنَّهُ
نِدَاءٌ لِلَّهِ فِي صِفَاتِهِ . (دَخَلَ النَّارَ) خَالِدًا إِذَا كَانَ اتِّخَاذُهُ لِلنِّدَاءِ شِرْكَاً أَكْبَرَ ، وَلَا يُخْلَدُ فِي النَّارِ إِذَا كَانَ اتِّخَاذُهُ
لِلنِّدَاءِ شِرْكَاً أَصْغَرَ ؛ كَشِرْكِ الْأَلْفَاظِ . فَمِنْ مُوجِبَاتِ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ أَنَّهُ يَوْجِبُ دُخُولَ النَّارِ وَكَلَامَ
ابْنِ مَسْعُودٍ هُوَ مَفْهُومُ الْحَدِيثِ وَفِيهِ بَشَارَةٌ لِكُلِّ مَنْ مَاتَ عَلَى التَّوْحِيدِ وَأَنَّ مَنْ مَاتَ عَلَيْهِ سَيَدْخُلُ
الْجَنَّةَ قَطْعًا.

(١) أفاده العلامة ابن عثيمين في القول المفيد.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب قوله : { وَمَنْ النَّاسُ مِنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا } (٤٤٩٧) واللفظ له ، ومسلم في
كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل النار (٩٢).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (مَنْ لَقِيَ اللَّهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا؛ دَخَلَ النَّارَ) ^(١)].

(جَابِرٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) هُوَ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَرَامٍ الْأَنْصَارِيُّ السُّلَمِيُّ مِنَ الْمُكْثَرِينَ مِنَ الْحَدِيثِ قَوْلُهُ: (مَنْ) (شَرْطِيَّةٌ تُفِيدُ الْعُمُومَ) (لَقِيَ اللَّهَ) أَيُّ : مَاتَ، وَجُمْلَةُ (لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا) حَالِيَّةٌ، (دَخَلَ الْجَنَّةَ) فَيَشْمَلُ هَذَا الدُّخُولُ كُلَّ مُوَحِّدٍ، لَكِنَّ الدُّخُولَ نَوْعَانِ : فِيمَا أَنْ يَدْخُلَهَا ابْتِدَاءً إِذَا سَلِمَ مِنَ الْكِبَائِرِ وَالْإِصْرَارِ عَلَى الصَّغَائِرِ، وَ إِمَّا أَنْ يَدْخُلَهَا بَعْدَ دُخُولِهِ النَّارِ فَيُعَذَّبُ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِ إِنْ لَمْ يَغْفِرَ اللَّهُ وَ يَغْفِرَ لَهُ. (وَمَنْ لَقِيَهِ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ؛ دَخَلَ النَّارَ) هَذَا عَامٌّ فِي كُلِّ مَنْ أَشْرَكَ، وَلَوْ أَشْرَكَ مَعَ اللَّهِ أَشْرَفَ الْخَلْقِ فَإِنَّهُ سَيَدْخُلُ النَّارَ وَيَخْلُدُ فِيهَا إِنْ كَانَ شِرْكُهُ أَكْبَرَ، أَمَّا إِنْ كَانَ شِرْكُهُ أَصْغَرَ فِيمَا أَنْ تَكُونَ لَهُ حَسَنَاتٌ مَاحِيَةٌ أَوْ كَثِيرَةٌ رَاحِحَةٌ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ، فَلَا يَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ وَإِمَّا أَلَّا تَكُونَ لَهُ حَسَنَاتٌ مَاحِيَةٌ وَلَا رَاحِحَةٌ وَلَا يَغْفِرَ اللَّهُ عَنْهُ فَيَدْخُلُ فِي هَذَا الْعُمُومِ، وَهَذَا يَمَّا يُوجِبُ الْخَوْفَ مِنَ الشِّرْكِ فَعَلَى الْمَرْءِ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَسْلَمَ مِنَ الرِّيَاءِ أَنْ يُكْثِرَ مِنْ هَذَا الدُّعَاءِ: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَشْرَكَ بِكَ وَأَنَا أَعْلَمُ ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا أَعْلَمُ ^(٢)) وَفِي حَدِيثِ الْبَابِ قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ لِأَنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَهُمَا إِلَّا الْمَوْتُ. وَفِي النُّصُوصِ غَيْرُ مَا ذَكَرْتُ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا يَغْتَرُّ بِنَفْسِهِ مَهْمَا بَلَغَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ بَلْ يَغْتَرِفُ بِعِزِّهِ وَفَقْرِهِ وَتَفْصِيرِهِ ؛ لِأَنَّهُ إِنْ لَمْ يَعْصِمْهُ اللَّهُ فَهُوَ عَلَى خَطَرٍ .



(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل النار (٩٣).

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، باب فضل الدعاء، برقم: (٢٦٦).

بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا عَرَفَ التَّوْحِيدَ وَ فَضْلَهُ وَحَقَّقَهُ وَخَافَ مِنَ الشِّرْكِ فَقَدْ كَمَّلَ بِذَلِكَ ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَسْعَى فِي تَكْمِيلِ غَيْرِهِ ، ، وَمَنْ اجْتَمَعَتْ فِيهِ هَذِهِ الْفَضَائِلُ كَانَ أَهْلًا بِأَنْ يَدْعُو إِلَى اللَّهِ . بَلْ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ أَلَّا يَرْضَى الْعَبْدُ بِوُجُودِ الشِّرْكِ ، فَيَسْعَى إِلَى إِزَالَتِهِ بِالدَّعْوَةِ إِلَى التَّوْحِيدِ بَلْ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ أَلَّا تَرْضَى بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ فَضْلًا أَنْ تَرْضَى بِالشِّرْكِ فَقَدْ قَالَ زُهَيْرُ بْنُ نَعِيمٍ «وَدِدْتُ أَنْ جَسَدِي قَرْضٌ بِالْمُقَارَضِ وَأَنْ هَذَا الْخَلْقُ أَطَاعُوا اللَّهَ» رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحَلِيقَةِ قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فَإِنَّ أَعْظَمَ مَا عُبدَ اللَّهُ بِهِ نَصِيحَةُ خَلْقِهِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ (بَابُ الدُّعَاءِ) أَيُّ : بَابُ الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ^(١)] .

(قُلْ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَالتَّقْدِيرُ : يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (هَذِهِ) اسْمُ إِشَارَةٍ وَإِنَّمَا يُشَارُ بِهِ إِلَى الْمُحْسُوسِ ، فَبِهِ : وَضُوحُ دَعْوَتِهِ، (سَبِيلِي) وَالسَّبِيلُ هُوَ الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ الَّذِي يُمْكِنُ لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يَسْلُكَهُ وَفِيهَا: أَنَّ السَّبِيلَ وَاحِدٌ وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ، وَهَذَا سَبِيلُ النَّبِيِّ ﷺ وَسَبِيلُ اتِّبَاعِهِ أَيْضًا ، وَفِي قَوْلِهِ: (أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ) تَنْبِيْهُ إِلَى الْإِحْلَاصِ (عَلَى بَصِيرَةٍ) عَلَى عِلْمٍ فَتَضَمَّنَ سَبِيلُ الْأَنْبِيَاءِ ثَلَاثَةَ أُمُورٍ هِيَ الْعِلْمُ وَالدَّعْوَةُ وَالْإِحْلَاصُ، مَتَى مَا تَخَلَّفْتَ وَاحِدَةً كَانَتْ نَقْصًا وَمُخَالَفَةً لِسَبِيلِ النَّبِيِّينَ. فَاتَّبَاعُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَتْرَكُونَ الدَّعْوَةَ إِلَى التَّوْحِيدِ وَلَا يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ بِجَهْلٍ ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : الَّذِينَ

(١) سورة يوسف الآية: ١٠٨ .

يَدْعُونَ إِلَى اللَّهِ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةٍ يُفْسِدُونَ وَيُقَدِّرُونَ أَنَّهُمْ يُصْلِحُونَ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ السِّنْدِي - حفظه الله - عَلَيْكَ يَادَاعِيَةَ التَّوْحِيدِ أَنْ تَكُونَ عَلِيماً رَحِيماً حَكِيماً كَرِيماً سَلِيماً وَفِي قَوْلِهِ : (وَسُبْحَانَ اللَّهِ) أَيِ : تَنَزَّهَ اللَّهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَأَعْظَمُهَا الشَّرْكَ. وَفِي قَوْلِهِ : (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) هَذِهِ بَرَاءَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنَ الشَّرْكَ وَأَهْلِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:] (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ؛ قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ " أَخْرَجَاهُ.]

قَوْلُهُ (لَمَّا) ظَرَفَ بِمَعْنَى حِينَ ، (بَعَثَ مُعَاذًا) أَيِ : أَرْسَلَهُ ، (الْيَمَنِ) الْفُطُرُ الْمَعْرُوفُ ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : مَشْرُوعِيَّةُ إِرْسَالِ الدُّعَاةِ إِلَى اللَّهِ ، وَفِيهِ فَضِيلَةُ مُعَاذٍ ، وَفِيهِ الْعَمَلُ بِحَبْرِ الْوَاحِدِ فِي الْعَقَائِدِ وَالْأَحْكَامِ . (قَالَ لَهُ إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةً أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) وَفِيهِ : التَّدَرُّجُ فِي الدَّعْوَةِ وَأَنْ يَبْدَأَ بِالْأَهَمِّ فَالْمُهَمِّ . وَفِيهِ الْعِلْمُ بِحَالِ الْمَدْعُوِّ قَبْلَ دَعْوَتِهِ ، قَوْلُهُ : (شَهَادَةُ) الشَّهَادَةُ لَا تُسَمَّى شَهَادَةً إِلَّا إِذَا اعْتَقَدَ بِقَلْبِهِ وَنَطَقَ بِلسَانِهِ ، فَإِنْ نَطَقَ بِلسَانِهِ وَلَمْ يَعْتَقِدْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ أَقْرَبَ قَلْبَهُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِلسَانِهِ فَهُوَ جَاهِلٌ (وَفِي رِوَايَةٍ : إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللَّهَ) الْمَقْصُودُ مِنْ إِيرَادِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ التَّنْبِيهُ إِلَى أَنَّ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ وَجُوبُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ . قَوْلُهُ : (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ) أَيِ : انْقَادُوا ، قَوْلُهُ (فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الصَّلَاةَ أَعْظَمُ وَاجِبٍ بَعْدَ التَّوْحِيدِ وَأَنَّ الْمُطَالَبَةَ بِسَائِرِ الْفَرَائِضِ لَا تَكُونُ إِلَّا بَعْدَ التَّوْحِيدِ، لِأَنَّهُ شَرْطٌ وَأَنَّ الْكُفَّارَ مُحَاطَبُونَ بِفُرُوعِ الشَّرِيعَةِ

وَمَا لَا تَصِحُّ إِلَّا بِهِ وَهُوَ التَّوْحِيدُ ، وَأَنَّ صَلَاةَ الْوُثْرِ لَيْسَتْ بِوَاجِبَةٍ . قَوْلُهُ : (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ)
 أَي : انْقَادُوا ، قَوْلُهُ (فَأَعْلِمَهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فَقَرَائِهِمْ)
 الصَّدَقَةُ هُنَا هِيَ الزَّكَاةُ ، وَهِيَ فَرِيضَةُ الصَّلَاةِ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ وَهِيَ ثَالِثُ الْأَرْكَانِ . وَفِي
 الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الزَّكَاةَ إِنَّمَا تَحِبُّ عَلَى الْعَنِيِّ ، وَأَنَّ مَنْ مَلَكَ النَّصَابَ فَهُوَ عَنِيٌّ ، وَأَنَّ الزَّكَاةَ
 وَاجِبَةٌ فِي مَالِ الصَّيِّ وَالْمَجْنُونِ ، وَأَنَّ الْإِمَامَ هُوَ الَّذِي يَتَوَلَّى قَبْضَ الزَّكَاةِ وَصَرَفَهَا ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ لِأَهْمِيَّةِ
 صِنْفِ الْفُقَرَاءِ مِنْ بَيْنِ الْأَصْنَافِ الثَّمَانِيَةِ ، وَأَنَّ مَصْرَفَ الزَّكَاةِ يَكُونُ فِي الْبَلَدِ الَّذِي فِيهِ الْمَالُ إِلَّا إِذَا
 اكْتَفَى الْفُقَرَاءُ فِيهِ ، وَأَنَّهُ لَا يُجُوزُ دَفْعُ الزَّكَاةِ لِعَنِيٍّ وَلَا كَافِرٍ إِلَّا إِذَا كَانَ الْعَنِيُّ مُجَاهِدًا أَوْ عَامِلًا فِي جَمْعِ
 الزَّكَاةِ . قَوْلُهُ : (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ) قَوْلُهُ : (وَكَرَائِمَ) مَنْصُوبٌ عَلَى التَّخْذِيرِ
 ، وَهِيَ : جَمْعُ كَرِيمَةٍ ، وَهِيَ النَّفِيسَةُ مِنَ الْأَمْوَالِ ، فَكَمَا لَا يَأْخُذُ الْعَامِلُ الْكَرِيمَةَ فَلَا يَخْرُجُ صَاحِبُ الْمَالِ
 الدَّيْنَةَ ، وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ أَنَّ أَحَدَ الْعَامِلِ لِلْكَرِيمَةِ بَدُونِ إِذْنِ ظُلْمٍ وَفِيهِ وَجُوبُ الْعَدْلِ عَلَى الْوَلَاةِ . قَوْلُهُ
 : (وَآتَقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ) (اتَّقِ) اجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ دَعْوَةِ الْمَظْلُومِ
 وَقِيَاةً بِالْعَدْلِ وَتَرْكِ الظُّلْمِ . وَالتَّقْوَى وَالْعَدْلُ يَقْيَانِ مَنْ رَزَقَهُمَا الشُّرُورُ (فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ
 حِجَابٌ) أَي : أَنَّ الْأَمْرَ الْخَطِيرَ وَالشَّأْنَ الْعَظِيمَ أَنْ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ لَا يَحْجِزُهَا مِنَ اللَّهِ حَاجِزٌ فَهِيَ
 مُسْتَجَابَةٌ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ كَافِرٍ فَقَدْ أَخْرَجَ أَحْمَدُ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - ، قَالَ رَسُولُ
 اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : " اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ ، وَإِنْ كَانَ كَافِرًا ، فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهَا حِجَابٌ " .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ
 خَيْبَرَ : (لَأَعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ " ، فَبَاتَ
 النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ ، أَنَّهُمْ يُعْطَاهَا ، فَلَمَّا أَصْبَحُوا ، عَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ
 يُعْطَاهَا فَقَالَ " أَيْنَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ؟ " فَقِيلَ هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ ، فَأَتِي بِهِ ، فَبَصَقَ فِي
 عَيْنَيْهِ ، وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ كَأَنَّمَا لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ ، حَتَّى تَنْزِلَ

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ، لَأَنْ
يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ (١) (يَدُوكُونَ) أَيُّ يَخُوضُونَ.]

(سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) هُوَ سَهْلُ بْنُ سَعْدٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ خَالِدِ الْأَنْصَارِيِّ الْخَزْرَجِيُّ -
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - (خَيْرٌ) هُوَ حِصْنٌ لِلْيَهُودِ شِمَالِي الْحِجَازِ، (لَأَعْطِيَنَّ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثِ
مُؤَكَّدَاتِ الْقَسَمِ الْمَحذُوفِ وَاللَّامِ وَتَوْنِ التَّوَكُّيدِ. (الرَّايَةُ) مَا يَتَّخِذُهُ أَمِيرُ الْجَيْشِ عَلَامَةً عَلَى مَكَانِهِ،
رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ (وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ: فَضِيلَةُ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ
- حَيْثُ أَثْبَتَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَحَبَّتَهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَحُبَّهُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ لَهُ، وَالثَّانِيَةُ أَعْظَمُ مِنَ
الْأُولَى، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى النَّوَاصِبِ وَالْخَوَارِجِ الَّذِينَ يَبْغُضُونَ عَلِيًّا ﷺ، وَفِيهِ رَدٌّ عَلَى الْمُعْطَلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ
الَّذِينَ يَنْفَوْنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةَ الَّتِي تَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ تَعَالَى، فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ يُحِبُّ أَحَدًا مَا لِسَبَبٍ وَيَبْغُضُهُ
لِآخَرٍ. وَلَيْسَ فِي إثْبَاتِ هَذِهِ الصِّفَةِ وَهِيَ مَحَبَّةُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ لِعَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - نَفْيُهَا عَنْ
غَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ خِلَافًا لِلشَّيْعَةِ، وَمَنْ أَخَذَ بِمَقْهُومِ الْمُخَالَفَةِ مِنْ هَذَا الْحَبَرِ فَقَدْ أَخَذَ بِمَقْهُومِ اللَّقْبِ
وَهُوَ أَضْعَفُ الْمَفَاهِيمِ. قَوْلُهُ: (يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: بِشَارَةِ النَّصْرِ، وَفِيهَا: عِلْمٌ
مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ. قَوْلُهُ: (فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ، أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا) أَيُّ: بَاتُوا يَتَحَدَّثُونَ تِلْكَ
اللَّيْلَةَ فِي مَنْ تُدْفَعُ إِلَيْهِ الرَّايَةُ، وَفِيهِ: حِرْصُ الصَّحَابَةِ عَلَى الْخَيْرِ، قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ
عَنْهُ - : (مَا أَحْبَبْتُ الْإِمَارَةَ إِلَّا يَوْمَئِذٍ - قَالَ - فَتَسَاوَرْتُ لَهَا رَجَاءً أَنْ أُدْعَى لَهَا) (٢). فَلَمَّا أَصْبَحُوا،
عَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا) أَيُّ: ذَهَبُوا مُبَكِّرِينَ وَحَالَهُمْ أَنْ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ
يُؤَمِّلُ فِي أَنْ يَكُونَ هُوَ الَّذِي يَنَالُهَا وَفِي هَذَا أَنَّ الْأَوْلِيَاءَ لَا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ كُلَّهُمْ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية والسير - باب فضل من أسلم على يديه رجل (٣٠٠٩) ومسلم في كتاب فضائل الصحابة - باب

من فضائل علي ابن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

(٢) أخرجه مسلم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، برقم: (٦٣٧٥).

الأولياء الصالحين قوله: (فَقَالَ " أَتَيْنَ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ ؟ ") فيه : سؤال الإمام عن رعيته في مجامع الخير ، (فَقِيلَ : هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ) فيه إصابة الأولياء بالأوجاع والأمراض فكيف يطلب منهم الشفاء ! وَعِنْدَ مُسْلِمٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الْأَكْوَعِ قَالَ : قَالَ فَأَتَيْتُ عَلِيًّا فَجِئْتُ بِهِ أَقْوَدُهُ ^(١) . (فَبَرَأَ) أي : عوفي ، وَعِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ : (فَلَمَّا بَعَثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى حَبِيرٍ قُلْتُ إِنِّي أَرَمْتُ فَتَقَلَّ فِي عَيْنِي فَمَا وَجَدْتُ بَرْدًا وَلَا حَرًّا بَعْدَ وَلَا رَمَدًا عَيْنَايَ) ^(٢) . وفي هذه الجملة من الفوائد : الإيمان بالقدر لأنها حصلت لمن لم يسع إليها وفاتت من حرص عليها ، وفيها بركة دعاء النبي ﷺ . قوله : (فَقَالَ : انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ) قوله : (انْفُذْ) أي : امض ، (عَلَى رِسْلِكَ) أي : على تمهل . وأوصاه بالترسل ؛ لأن اليهود أصحاب عذر ، وفيه : ترك العجلة والطيش ورفع الأصوات التي لا حاجة لها عند القتال ، فإن الهدوء يدل على الشجاعة والعزيمة (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) الصمير يعود إلى أهل حبيب ، والإسلام هو الاستسلام لله وحده وهذا معنى كلمة التوحيد ؛ لأن من استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا ، ومن استسلم في عبادته لله ولغيره فهو مشرك وهذا موضع الشاهد وفيه مشروعية الدعوة قبل القتال ، وإن كانوا قد دُعُوا مِنْ قَبْلُ فَيَكُونُ مِنْ بَابِ إِقَامَةِ الْحُجَّةِ وَكَمَالِ الْمَعْدِرَةِ فَهُوَ مُسْتَحَبٌّ وَإِلَّا فَوَاجِبٌ . وفيه أَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ الْعَايَةُ مِنَ الْجِهَادِ . (وَأَخْبِرُهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ) أي إذا أجابوا للإسلام فأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله في الإسلام من صلاة وزكاة ونحوها ، وعند مسلم من رواية أبي هريرة قَالَ لَهُ « امْشِ وَلَا تَلْتَفِتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّهُ عَلَيْكَ » . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ فَسَارَ عَلَى شَيْئًا ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلْتَفِتْ فَصَرَخَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلَى مَاذَا أَقَاتِلُ النَّاسَ قَالَ « فَأَتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ » فهذه أصرح في موضع الشاهد (فَوَاللَّهِ ، لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا) فيه : مشروعية القسم وإن لم يستقسم ، و (رَجُلًا) : لا مفهوم لها فهديته المرأة كذلك ،

(١) أخرجه مسلم، باب غزوة ذي قرد وغيرها، برقم: (٤٧٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط، برقم: (٣٧٩٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

خَيْرٌ لَكَ مِنْ حِمْرِ النَّعَمِ (الْهَدَايَةُ هُنَا هِدَايَةُ تَوْفِيقٍ ، بِكَ : الْبَاءُ سَبَبِيَّةٌ أَيْ : بِسَبَبِكَ ، وَحِمْرٌ - بَضْمٌ فَسُكُونٌ - النَّعَمُ - يَفْتَحُ النُّونَ - أَيْ : الْإِبِلُ الْحُمْرَاءُ وَكَانَتْ مِنْ خَيْرِ أَمْوَالِ الْعَرَبِ وَمَا زَالَتْ ، فَفِيهِ فَضْلُ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ. قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ: - (تَشْبِيهُ أُمُورِ الْآخِرَةِ بِأَعْرَاضِ الدُّنْيَا إِنَّمَا هُوَ لِلتَّقْرِيبِ مِنَ الْأَفْهَامِ، وَإِلَّا فَدَرَّةٌ مِنَ الْآخِرَةِ الْبَاقِيَةِ خَيْرٌ مِنَ الْأَرْضِ بِأَسْرِهَا، وَأَمَثَالُهَا مَعَهَا لَوْ تُصَوِّرَتْ) ^(١) وَ قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مُبِينًا خَطَرَ تَرْكِ وَاجِبِ الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ : (قَالَ تَعَالَى ﴿ فَانْقُوا لِلَّهِ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ^(٢) وَرَحِمَ اللَّهُ مَنْ أَعَانَ عَلَى الدِّينِ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ ، وَإِنَّمَا الْهَلَاكُ فِي تَرْكِ مَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْعَبْدُ ، مِنَ الدَّعْوَةِ إِلَى هَذَا الدِّينِ) ^(٣)



(١) شرح النووي على مسلم، ١٥ / ١٧٨، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢

(٢) سورة التغابن الآية: ١٦.

(٣) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ٣٧.

بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ

مُنَاسِبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ عَنِ الدَّعْوَةِ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَمُنَاسِبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَشَهَادَةَ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ شَيْءٌ وَاحِدٌ فَمَنْ دَعَا إِلَى التَّوْحِيدِ فَقَدْ دَعَا إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : التَّفْسِيرُ مِنَ الْفَسْرِ وَهُوَ التَّوْضِيحُ وَالْكَشْفُ ، وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَنِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . فَالْعَطْفُ هُنَا عَطْفُ تَفْسِيرٍ ؛ لِأَنَّ التَّوْحِيدَ هُوَ شَهَادَةُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ . وَالشَّهَادَةُ تَتَضَمَّنُ أَمْرَيْنِ : التُّطْقَ ، وَاعْتِقَادَ الْمَنْطُوقِ بِهِ . لَا إِلَهَ : إِلَهَ : اسْمُ (لَا) ، وَهُوَ بِمَعْنَى الْمَالُوهِ أَيِ : الْمَعْبُودُ ، وَخَبَرُ (لَا) مَحْذُوفٌ ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ نُقَدِّرَهُ مُوجُودًا لُجُودِ الْإِلَهَةِ الْبَاطِلَةِ مَعَ اللَّهِ ، وَلَئِنَّهُ يَتَضَمَّنُ الْحُلُولَ ، كَمَا لَا يَجُوزُ أَنْ نُقَدِّرَهُ مَعْبُودٌ لِأَنَّ الْإِلَهَةَ مَعْبُودَةٌ مَعَ اللَّهِ لَكِنَّهَا مَعْبُودَةٌ بِالْبَاطِلِ . فَالصَّحِيحُ فِي تَقْدِيرِ خَبَرِ (لَا) حَقٌّ ، بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَبَى مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَبَى اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ ^(١) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ

الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾] ^(٢)

بَيَّنَّ اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ لِهَذِهِ الْآيَةِ عَجَزَ الْإِلَهَةِ الْبَاطِلَةِ وَأَنَّهَا لَا تَمْلِكُ إِزَالََةَ الضَّرِّ وَلَا تَحْوِيلَهُ فَقَالَ: ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ ^(٣) [سورة الإسراء] ثُمَّ بَيَّنَّ فِي الْآيَةِ الَّتِي أوردَهَا الْإِمَامُ أَنَّ هَذِهِ الْإِلَهَةَ الَّتِي عُبدت مَعَ اللَّهِ تَتَعَبَّدُ اللَّهُ تَعَالَى وَتُقَرُّ لَهُ

(١) سورة الحج الآية: ٦٢ .

(٢) سورة الإسراء الآية: ٥٧ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 بِالْعُبُودِيَّةِ وَتَتَنَافَسُ فِي تَحْقِيقِهَا. فَقَالَ: (أَوْلَيْكَ) مُبْتَدَأٌ يُشِيرُ بِهِ لِلْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ مَعَ اللَّهِ بِالْبَاطِلِ.
 (الَّذِينَ) بَدَلْ ، وَجُمْلَةٌ (يَدْعُونَ) صَلَوةُ الْمُؤْصُولِ ، وَالْعَائِدُ مَحْذُوفٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ
 ، وَالْحَبْرُ (يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ) أَي : يَطْلُبُونَ . (الْوَسِيلَةُ) قِيلَ : مَعْنَاهَا الْقُرْبَةُ ، فَمَعْنَى الْآيَةِ :
 أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ عِبَادٌ يَطْلُبُونَ التَّقَرُّبَ مِنَ اللَّهِ فَكَيْفَ تَعْبُدُونَ الْعِبَادَ ؟ فَفِيهَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى
 ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وَقِيلَ الْوَسِيلَةُ بِمَعْنَى
 الْحَاجَةِ ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عَنَتَرَةَ ^(١)

إِنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ *** أَنْ يَأْخُذُوكَ تَحْلِي وَتَحْضِي
 وَالتَّقْدِيرُ عَلَى هَذَا : أَوْلَيْكَ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ يَطْلُبُونَ حَاجَتَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَكَيْفَ تَقْتَرُونَ إِلَى الْفَقِيرِ
 الْمُحْتَاجِ ؟ وَهُنَا تَنْبِيْهُ وَهُوَ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَنْفِ عَنِ هَذِهِ الْآلِهَةِ الصَّلَاحَ لِكُونِهِمْ عِبْدًا مَعَ اللَّهِ وَإِنَّمَا نَهَاهُمْ أَنْ
 يَعْبُدُوهَا ، وَبَرَّهَنَ لَهُمْ أَنَّهَا لَا تَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ فَقَطْ لِأَنَّ الْكَلَامَ عَنِ التَّوْحِيدِ هُوَ الْمَقْصُودُ أَصَالَةٌ وَالْكَلَامُ
 عَنْ عَدَمِ صَلَاحِ الْآلِهَةِ الْبَاطِلَةِ لَيْسَ مَقْصُودًا أَصَالَةٌ وَرَبَّمَا يَكُونُ سَبَبًا لِعَدَمِ قَبُولِ التَّوْحِيدِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قوله: ﴿وَلَمَّا قَالَ ابْرَهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٣٦)
 إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (٣٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِيهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٣٨)] ^(٢)

(إِبْرَاهِيمُ) أَبُو الْأَنْبِيَاءِ. وَإِمَامُ الْمُؤَحِّدِينَ (لِأَبِيهِ) فِيهِ : الْبَدَاءَةُ بِالْأَقْرَبِينَ فِي الدَّعْوَةِ ؛ لِأَنَّ أَوَّلِي الْقُرْبَى أَوَّلَى
 بِالْمَعْرُوفِ ، وَلِأَنَّ اسْتِجَابَتَهُمْ سَبَبٌ فِي اسْتِجَابَةِ غَيْرِهِمْ . (إِنِّي بَرَاءٌ) بَرَاءٌ فَعَالٌ مِنْ تَبَرُّأً ، أَي : تَخَلَّى
 وَتَرَكَ ، وَالْبَرَاءَةُ هُنَا تَعْنِي : الْكُفْرَ بِكُلِّ مَعْبُودٍ لَهُمْ ، إِلَّا الَّذِي (فَطَرَنِي) أَي : خَلَقَنِي . وَفِيهِ : أَنَّ قَوْمَ
 إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيَعْبُدُونَ غَيْرَهُ ، هَذَا إِذَا قُلْنَا إِنَّ الْأَسْتِثْنَاءَ مُتَّصِلٌ وَهُوَ الْأَصْلُ ، وَيَجُوزُ أَنْ

(١) هُوَ عَنَتَرَةُ بْنُ شَدَادٍ بْنِ عَمْرٍو بْنِ مَعَاوِيَةَ بْنِ قِرَادٍ الْعَبْسِيُّ : أَشْهُرُ فَرَسَانِ الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ، وَمِنْ شِعْرَاءِ الطَّبَقَةِ الْأُولَى ،

واجْتَمَعَ فِي شَبَابِهِ بِأَمْرِئِ الْقَيْسِ الشَّاعِرِ ، وَشَهِدَ حَرْبَ دَاخِسٍ وَالْغَبْرَاءَ (الْأَعْلَامُ لِلزُّرْكَلِيِّ : ٩١/٥ ، مَعْجَمُ الْمُؤَلِّفِينَ : ١٤/٨) .

(٢) سُورَةُ الزَّخْرَفِ الْآيَةُ : ٢٦-٢٨ .

يَكُونُ مُنْقَطِعًا ، إِذَا كَانُوا لَا يَعْبُدُونَ اللَّهَ . وَيَعْبُدُونَ الْأَلِهَةَ الْبَاطِلَةَ فَقَطْ (إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ) تَعْنِي : لَا إِلَهَ (إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) تَعْنِي إِلَّا اللَّهَ ، (فَإِنَّهُ سَيَهْدِين) فِيهَا : أَنَّ التَّوْحِيدَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ الْهُدَايَةِ . (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ) أَي : جَعَلَ كَلِمَةَ التَّوْحِيدِ بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ أَي لَا يَزَالُ التَّوْحِيدُ فِي دُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ وَإِنَّمَا تَبْقَى كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ فِي الدَّرِيَّةِ بِوَصِيَّةِ الْأَبَاءِ بِهَا الْأَبْنَاءِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿ اَتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا إِلَّا إِلَهُ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ^(١)] .

(أَحْبَارُهُمْ) جَمْعُ حَبِيرٍ وَهُوَ الْعَالِمُ . (وَرُهْبَانُهُمْ) جَمْعُ رَاهِبٍ وَهُوَ الْعَابِدُ . (أَرْبَابًا) جَمْعُ رَبٍّ وَهُوَ السَّيِّدُ . فَجَعَلُوا الْأَحْبَارَ أَرْبَابًا ؛ لِأَنَّهُمْ يُجْلُونَ لَهُمُ الْحَرَامَ فَيَحْلُونَهُ وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمُ الْحَلَالَ فَيَحَرِّمُونَهُ ، وَجَعَلُوا الرُّهْبَانَ أَرْبَابًا يَعْبُدُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَجَعَلُوا الْمَسِيحَ أَيْضًا إِلَهًا يَعْبُدُونَهُ مَعَ اللَّهِ (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا) أَي : لَمْ يُؤْمَرُوا بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ . (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أَي : تَنَزَّاهُ عَنِ الشِّرْكِ كَائِنًا مَنْ كَانَ فَهَؤُلَاءِ قَدْ عَبَدُوا الْعُلَمَاءَ وَالصَّالِحِينَ وَالرُّسُلَ فَأَنْكَرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عِبَادَتَهُمْ لَهُمْ وَسَمَّاهَا شِرْكًا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ ^(٢)] .

(وَمِنَ النَّاسِ) أَي : بَعْضُهُمْ ، (أَنْدَادًا) جَمْعُ نِدٍ ، وَهُوَ النَّظِيرُ أَوْ الشَّيْبُ ، (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) أَي : يُحِبُّونَ آلِهَتَهُمْ كَمَا يُحِبُّونَ اللَّهَ ، فَأَثْبَتَ لَهُمْ مَحَبَّةَ اللَّهِ (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا) وَالَّذِينَ وَحَدُوا (أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) ؛ لِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ خَالِصَةً لِلَّهِ لَا يَشُوهُهَا شِرْكٌ ؛ وَلِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ فَائِمَّةٌ عَلَى بُرْهَانٍ صَحِيحٍ وَالْبُرْهَانُ هُوَ تَفَرُّدُهُ بِالْكَمَالِ

(١) سورة التوبة الآية: ٣١ .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٦٥ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
وَالنَّعَمَ . وَهَذَانِ هُمَا الْبَاعِثُ عَلَى الْمَحَبَّةِ فَإِنَّ الْأَتْصَافَ بِالْكَمَالِ يَدْعُو إِلَى مَحَبَّةٍ مَنْ اتَّصَفَ بِهِ فَكَيْفَ
إِذَا انْضَمَّ إِلَى ذَلِكَ أَنَّهُ مُتَفَرِّدٌ وَمُتَفَضِّلٌ بِالنَّعَمِ وَالْعَطَاءِ . وَفِي الْآيَةِ أَنَّهُمْ يُجِبُونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ فَدَلَّ
عَلَى أَنَّهُمْ يُجِبُونَ اللَّهَ حُبًّا عَظِيمًا وَلَمْ يَدْخُلْهُمْ ذَلِكَ فِي الْإِسْلَامِ ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يُخْلِصُوا مَحَبَّتَهُمْ لَهُ فَكَيْفَ يَمَنْ
أَحَبَّ النَّدَّ أَكْثَرَ مِنْ حُبِّ اللَّهِ ، وَكَيْفَ يَمَنْ لَا يُحِبُّ إِلَّا النَّدَّ!

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ ؛ أَنَّهُ قَالَ : (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَكَفَرَ بِمَا
يَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ؛ حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ) (١)] .

(وَفِي الصَّحِيحِ) اصْطِلَاحُ الْمُؤَلَّفِ فِي قَوْلِهِ : (فِي الصَّحِيحِ) أَنَّ الْحَدِيثَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَوْ فِي أَحَدِهِمَا .
عَنْ طَارِقِ بْنِ أَشْيَمَ بْنِ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيِّ قَالَ : (مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) . وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ : (مَنْ وَحَدَّ
اللَّهُ) (٢) ، فَفِي الْجَمْعِ بَيَّنَّ الرَّوَاتِبِينَ أَنَّ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ هُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ ، وَهَذَا مَقْصُودُ الْإِمَامِ بِالْبَابِ
(وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فِيهِ أَنَّ قَوْلَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مَعَ عَدَمِ الْكُفْرِ بِالْأَلْهَةِ الْبَاطِلَةِ لَا يَكْفِي وَلَا
يَعْصِمُ دَمَهُ وَمَالَهُ ، قَوْلُهُ : (حُرِّمَ مَالُهُ وَدَمُهُ) ؛ لِأَنَّهُ حِينَئِذٍ صَارَ مُسْلِمًا ، (وَحَسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ) أَيِ
: أَنَّنَا نَقْبَلُ مِنْهُ عِلَاقَتَهُ ، وَلَا تَبَحُّثُ عَنِ السَّرَائِرِ ، فَإِنْ كَانَ صَادِقًا فَلَهُ الْجَنَّةُ وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا فَتَعْصِمُ
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ دَمَهُ وَمَالَهُ فِي الدُّنْيَا وَلَهُ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ فِي الْآخِرَةِ . قَالَ الشَّيْخُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَسَائِلِهِ :
(هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُظَ بِهَا عَاصِمًا لِلدِّمِ وَالْمَالِ ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةً
مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا ، بَلْ وَلَا الْإِفْرَارَ بِذَلِكَ ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللَّهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ لَا
يَحْرُمُ مَالَهُ وَدَمَهُ حَتَّى يُضَيَّفَ إِلَى ذَلِكَ الْكُفَرُ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ لَمْ يَحْرُمِ مَالَهُ
وَدَمَهُ ، فَيَا هَذَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا ، وَيَا لَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهَا وَحُجَّةً مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازَعِ)

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢٣) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد ١٥٨٧٥ .

أ.هـ. وَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ مُجَرَّدَ التَّلَفُّظِ بِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ لَا يَكْفِي بَلْ لَا بُدَّ مِنْ فَهْمٍ لِمَعْنَاهَا وَعَمَلٍ بِمَقْتَضَاهَا

تنبيه: الأصل أن كل من قال لا إله إلا الله مسلم لكن إذا أتى بما يناقضها فلا ينفعه مجرد التلفظ قال الإمام: (وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب) أي : أن الكتاب كله في تفسير التوحيد ومعنى لا إله إلا الله وما يضاد ذلك مما يتنافى أصل التوحيد أو يتنافى كماله.



[٧]

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْخَلْقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوِهَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ هَذَا مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ فِي الْبَابِ السَّابِقِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : لُبْسُ الْخَلْقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوِهَا مِنَ الْوَدَعَةِ وَالْحَبَّةِ السَّوْدَاءِ لِرَفْعِ الْبَلَاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ أَوْ لِدَفْعِهِ قَبْلَ نُزُولِهِ مِنَ الشِّرْكِ ، وَقَدْ يَكُونُ شِرْكَاً أَكْبَرَ وَقَدْ يَكُونُ شِرْكَاً أَصْغَرَ بِحَسَبِ اعْتِقَادِ اللَّابِسِ

توطئة:

هَذَا الْبَابُ يَتَوَقَّفُ فَهْمُهُ عَلَى مَعْرِفَةِ أَحْكَامِ الْأَسْبَابِ وَهِيَ كَالآتِي :

الأول : أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَجْعَلَ شَيْئاً سَبَباً إِلَّا مَا ثَبَتَ أَنَّهُ سَبَبٌ شَرْعاً أَوْ قَدراً ، وَ يَتَبَيَّنُ كَوْنُ الشَّيْءِ سَبَباً شَرْعاً بِالذَّلِيلِ وَقَدراً بِالتَّجَرُّبَةِ الْمُسْتَقَرَّةِ وَضَابِطُهَا (اتِّصَالُ السَّبَبِ بِالْمُسَبَّبِ ، وَظُهُورُ تَأْثِيرِ السَّبَبِ فِي الْمُسَبَّبِ) ^(١) .

الثاني : أَلَا يَعْتَمِدُ الْعَبْدُ عَلَيْهَا بَلْ يَعْتَمِدُ عَلَى مَنْ جَعَلَهَا أَسْبَاباً مَعَ قِيَامِهِ بِالْمَشْرُوعِ ، فَهِيَ مَهْمَا عَظُمَتْ وَقَوِيَتْ مُرْتَبِطَةٌ بِقَدْرِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ أَبْقَى أَثَرَهَا وَإِنْ شَاءَ مَنَعَ أَثَرَهَا ، لِئَلَّا يَعْتَمِدَ عَلَيْهَا الْعِبَادُ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ الْأَمْرَ بِيَدِ اللَّهِ . إِذَا عُلِمَ هَذَا فَمَنْ لَبَسَ الْخَلْقَةَ أَوْ الْحَيْطَ قَاصِداً بِذَلِكَ رَفْعَ الْبَلَاءِ بَعْدَ نُزُولِهِ أَوْ دَفْعَهُ قَبْلَ نُزُولِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ شِرْكَاً أَكْبَرَ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّهَا تَدْفَعُ أَوْ تَرْفَعُ الْبَلَاءَ بِنَفْسِهَا ، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّافِعُ الرَّافِعُ لِلْبَلَاءِ وَلَكِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءُ سَبَبٌ يَسْتَدْفَعُ بِهِ الْبَلَاءُ فَقَدْ جَعَلَ مَا لَيْسَ سَبَباً شَرْعاً وَلَا قَدراً سَبَباً ، فَيَكُونُ قَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ الْأَصْغَرَ ، وَالْحَالُ أَنَّ الشَّرْعَ قَدْ نَهَى عَنْهَا فَهِيَ لَيْسَتْ أَسْبَاباً مَشْرُوعَةً ، أَمَّا الْقَدَرُ فَلَمْ يُعْلَمْ مِنْهُ كَوْنُهَا سَبَباً يَخْصُلُ بِهِ الْمَقْصُودُ .

(١) أفاده الشيخ عبدالعزيز الرئيس في الشريط رقم ٢ من شرحه لكتاب التوحيد.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ^(١)] .

أَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةِ: (وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) هَذِهِ هِيَ طَرِيقَةُ الْقُرْآنِ وَهِيَ الْأَسْتِدْلَالُ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ ، فَيَسْأَلُهُمْ عَمَّا يَقْرُونُ بِهِ مِنْ تَفَرُّدِهِ بِخَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لِيُخْتَجَّ بِهِ عَلَيْهِمْ فِي إِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: (قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ) أَي : أَخْبِرُونِي ، عَنْ (مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ) أَي : عَنِ الَّذِينَ تَدْعُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ . (إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ) أَي : إِنْ قَدَّرَ اللَّهُ لِي الْإِصَابَةَ بِالضَّرِّ : (هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ) هَلْ تَسْتَطِيعُ هَذِهِ الْأَلِهَةُ أَنْ تَدْفَعَ الضَّرَّ قَبْلَ نُزُولِهِ أَوْ تَرْفَعَهُ بَعْدَ نُزُولِهِ . وَالْأَسْتِفْهَامُ هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ ^(٢) قَوْلُهُ (أَوْ أَرَادَنِيَ بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ) أَيْضاً : اسْتِفْهَامٌ بِمَعْنَى النَّفْيِ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهُ جَوَابَهُمْ لِظُهُورِهِ وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ يَرِدْكَ بَخِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ . وَإِنَّمَا جَاءَ هُنَا بِطَرِيقَةِ الْأَسْتِفْهَامِ تَقْرِيراً لِلْحَصْمِ . (قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ) أَي : إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَلِهَةُ لَا تَدْفَعُ الضَّرَّ وَلَا تَرْفَعُهُ وَلَا تُجْلِبُ الْخَيْرَ وَلَا تَمْنَعُهُ فَاللَّهُ وَحْدَهُ كَافِيَنِي . قَوْلُهُ : (عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ) أَي : فِي جَلْبِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الضَّرِّ . وَوَجْهُ الْأَسْتِدْلَالِ بِالْآيَةِ أَنَّ مَنْ يَلْبَسُ الْحُلَقَةَ وَالْحَيْطَ إِنَّمَا يَلْبَسُهُمَا لِتَعَلُّقِ قَلْبِهِ بِهِمَا فِي دَفْعِ الضَّرِّ وَجَلْبِ الْخَيْرِ . وَقَدْ بَرَهَنَ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ بُطْلَانَ التَّعَلُّقِ بِغَيْرِهِ بُرْهَانًا عَقْلِيًّا وَذَلِكَ بِتَقْرِيرِ مَنْ تَعَلَّقَ بِهَا أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ لَا يَكْشِفُ ضَرًّا أَرَادَهُ اللَّهُ

(١) سورة الزمر الآية: ٣٨ .

(٢) سورة يونس الآية: ١٠٧ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
وَلَا يُنْسَبُ رَحْمَةُ اللَّهِ فَلِمَاذَا التَّعَلُّقُ بِسِوَاهُ... وَفِي الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَلَكِنَّ الشَّرَّ لَا
يُنْسَبُ إِلَيْهِ ؛ لِأَنَّهُ يُقَدِّرُ الشَّرَّ لِلْخَيْرِ وَيُقَالُ الشَّرُّ فِي مَقْدُورَاتِهِ لَا فِي تَقْدِيرِهِ فَيُقَدِّرُ الْمَرَضَ لِيَكْفَرَ
سَيِّئَاتِ الْعَبْدِ وَيَرْفَعَ دَرَجَاتِهِ، فالمرض وإن كان شرا إلا أن المراد منه الخير وفي الحديث (وَالشَّرُّ لَيْسَ
إِلَيْكَ) رَوَاهُ الْحَاكِمُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ
حَلَقَةً مِنْ صُفْرِ، فَقَالَ "مَا هَذِهِ" ؟ قَالَ مِنَ الْوَاهِنَةِ فَقَالَ "انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ
لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ؛ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا" ^(١) . رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ] الصفر هو النحاس (من
الواهنة) من سببية والواهنة مرض والوهن هو الضعف حديثُ عِمْرَانَ هَذَا ضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -
وَقَالَ فِيهِ عِلَّتَانِ ^(٢) الْأُولَى : عَنْ عَنَّةِ الْمُبَارَكِ بْنِ فُضَالَةَ وَهُوَ مُدْلِسٌ . وَالثَّانِيَةُ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَ
عِمْرَانَ

. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا : (مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً؛ فَلَا أَمَّ اللَّهُ لَهُ،
وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللَّهُ لَهُ) ^(٣) .] قَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (عِلَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ جَهَالَةُ خَالِدِ
بْنِ عُبَيْدٍ الْمَعَارِيِّ) ^(٤) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي رِوَايَةٍ ^(٥) (مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ) ^(٦)]

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٤٥/٤)، وابن ماجه في كتاب الطب- باب تعليق التمايم (٣٥٣١) وضعفه الألباني في «السلسلة
الضعيفة» (١٠٢٩)،

(٢) انظر الضعيفة برقم: (١٠٢٩).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٤/٤).

(٤) انظر السلسلة الضعيفة حديث برقم ١٢٦٦.

(٥) إيراد الإمام لهذا الحديث يشعر بأنه رواية من الحديث السابق وليس كذلك بل هو حديث مستقل.

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٦/٤)، وصححه الألباني.

[٧] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْحَلَقَةِ وَالْحَيْطِ وَنَحْوَهُمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

رواه أحمد وأحمد والحاكم لكن أورده الإمام مختصراً وهو عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَقْبَلَ إِلَيْهِ رَهْطٌ فَبَايَعَ تِسْعَةً وَأَمْسَكَ عَنْ وَاحِدٍ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايَعْتَ تِسْعَةً وَتَرَكْتَ هَذَا قَالَ: إِنَّ عَلَيْهِ تَمِيمَةً فَأَدْخَلَ يَدَهُ فَقَطَعَهَا فَبَايَعَهُ وَقَالَ: مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ). قَوْلُهُ: (مَنْ عَلَّقَ) يَشْمَلُ مَنْ عَلَّقَهَا عَلَى نَفْسِهِ أَوْ عَلَى غَيْرِهِ . وَفِي رِوَايَةِ الْحَاكِمِ: (مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً)^(١) عَلَّقَهَا مُتَعَلِّقاً بِهَا قَلْبُهُ فِي طَلَبِ الْخَيْرِ وَدَفْعِ الشَّرِّ . وَ التَّمِيمَةُ قَالَ الْخَطَّابِيُّ: (حَرَزَةٌ كَانُوا يُعَلِّقُونَهَا يَرُونَهَا أَنَّهَا تَدْفَعُ عَنْهُمْ الْآفَاتِ ، وَاعْتِقَادُ هَذَا الرَّأْيِ جَهْلٌ وَضَلَالَةٌ ؛ إِذْ لَا مَانِعَ وَلَا دَافِعَ غَيْرُ اللَّهِ تَعَالَى).^(٢)

وَقَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ: (التَّمَائِمُ حَرَزَاتٌ كَانَتْ الْعَرَبُ تُعَلِّقُهَا عَلَى أَوْلَادِهَا يَتَّقُونَ بِهَا الْعَيْنَ فِي زَعْمِهِمْ فَأَبْطَلَهَا الْإِسْلَامُ).^(٣)

(فَقَدْ أَشْرَكَ) إِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا تَدْفَعُ الشَّرَّ أَوْ تَجْلِبُ الْخَيْرَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَهُوَ شِرْكٌ أَكْبَرُ ، وَإِنْ كَانَ يَعْتَقِدُ أَنَّهَا سَبَبٌ فِي ذَلِكَ وَالْوَاقِي هُوَ اللَّهُ فَتَكُونُ مِنْ بَابِ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَابِنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُدَيْفَةَ (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَيْطٌ مِنَ الْحُمَى ، فَقَطَعَهُ وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (٤)] .

أَثَرُ حُدَيْفَةَ هَذَا ، رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ، مِنْ طَرِيقِ عَزْرَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَعْوَرِ ، وَلَا يُعْرِفُ لِعَزْرَةَ سَمَاعٌ مِنْ حُدَيْفَةَ^(٥) ، وَ يُؤْخَذُ مِنَ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ أَثَبَّتَ لَهُمُ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ وَوَصَفَهُمُ بِالشِّرْكِ لِأَنَّهُمْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَآمَنُوا

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرک» برقم: (٧٥٠١) ، وقال الذهبي في التلخيص: صحيح.

(٢) معالم السنن ٢٢٠/٤ .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ١٩٧/١ . قال الألباني رحمه الله بعد نقله كلام ابن الأثير هذا في الضعيفة: " قلت: ولا تزال هذه

الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين ومثلها الحزرات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة يعلقونها على المرأة! وبعضهم يعلق نعلًا في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها! وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان! كل ذلك لدفع العين زعموا، وغير ذلك مما عمَّ وطمَّ بسبب الجهل بالتوحيد، وما ينافيه من الشراكيات والوثنيات التي ما بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها، فإلى الله المشتكى من جهل المسلمين اليوم، وبعدهم عن الدين ."

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٢٠٨/٧) .

(٥) انظر تهذيب الكمال ٥١/٢٠ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

بِعِزِّهِ . أَيُّ لَمْ يَأْتُوا بِرُكْنِ الْكُفْرِ بِالطَّاعُوتِ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَا يَنْبُتُ لَهُ التَّوْحِيدُ حَتَّى يَأْتِيَ بِالرُّكْنَيْنِ مَعَ الْإِيمَانِ
بِاللَّهِ وَالْكَفْرِ بِالطَّاعُوتِ .

تَنْبِيْهُ : لَا مَنَاعَ مِنَ الْأَسْتِدْلَالِ بِالْآيَاتِ الَّتِي تَتَكَلَّمُ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ كَمَا فَعَلَ
الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .



[٨]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ وَهِيَ أَنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ مِنْ جِنْسٍ مَا يُسْتَدْفَعُ بِهِ الْبَلَاءُ. فَهَذَا الْبَابُ أَعْمُ مِنَ الْبَابِ السَّابِقِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْأَدْلَةِ فِي حُكْمِ الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ . وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حُكْمَهَا لِأَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدًا ، وَإِنَّمَا يَخْتَاجُ إِلَى تَفْصِيلِ يُفْهَمُ مِنَ الْأَدْلَةِ الَّتِي أَوْرَدَهَا . وَالرُّقَى : جَمْعُ رُقِيَةٍ وَهِيَ مَجْمُوعُ الْقِرَاءَةِ وَالتَّفِيلِ عَلَى الْمَرِيضِ . وَالتَّمَائِمِ : جَمْعُ تَمِيمَةٍ ، وَيَشْمَلُ كُلَّ مَا يُعْلَقُ وَيُعْتَقَدُ أَنَّهُ يَدْفَعُ الضَّرَّ أَوْ يَجْلِبُ الْخَيْرَ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ I : (أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا " أَنْ لَا يَبْقَيْنَ فِي رَقَبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةً مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً إِلَّا قُطِعَتْ) (١)] .

(أَبُو بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيُّ) صَحَابِيُّ شَهِدَ الْحَنْدَقَ ، (فَأَرْسَلَ رَسُولًا) هُوَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ . (أَنْ لَا يَبْقَيْنَ) - يَفْتَحُ الْمُنَاةَ التَّحْتِيَّةَ أَوْ الْفُوقِيَّةَ - وَقِلَادَةٌ : فَاعِلٌ . قَوْلُهُ : (مِنْ وَتَرٍ) الْوَتَرُ : وَاحِدُ الْأَوْتَارِ ، وَهُوَ مَا يَكُونُ فِي الْقَوْسِ ، وَكَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا اخْلَوْلَقَ الْوَتَرُ - يَعْنِي : صَارَ قَدِيمًا - قَلَدُوهُ الدَّوَابَّ ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّهُ يَكْفِي الْعَيْنَ ، (مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةً) شَكَّ الرَّاوي ، وَالْأَرْجَحُ ؛ الْأَوَّلُ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (.. قَلَدُوهَا وَلَا تُقَلِّدُوهَا الْأَوْتَارَ) (٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ مَرْفُوعًا ، فَالْرُّحْصَةُ فِي الْقِلَادَةِ ثَابِتَةٌ كَالْمُسْتَعْمَلِ زِمَامًا فَلَا

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب ما قيل في الجرس ونحوه في أعناق الإبل (٣٠٠٥)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب كراهية قلادة الوتر في رقبة البعير (٢١١٥).

(٢) أخرجه أبو داود، باب إكرام الخيل وارتباطها والمُسْحَ عَلَى أَكْفَالِهَا، برقم: (٢١٩٠)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم: (٢٥٥٣).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
بِأَسْ بِه إِلا مَا صَاحَبَهُ اعْتِقَادٌ ، وَفِي الْحَدِيثِ : أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكَبِيرِ الْقَوْمِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَحْوَاهُمْ دِينًا وَدُنْيَا ، لَا سِيَّمَا
مَا يَتَعَلَّقُ بِالْإِعْتِقَادِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (
إِنَّ الرُّقْيَ وَالْتَّمَائِمَ وَالتَّوَلَةَ شِرْكَ) ^(١) . رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاوُدَ .]

الرُّقْيُ : (ال) فِي الرُّقْيِ عَهْدِيَّةٌ أَيْ رُقِيَ الْجَاهِلِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى السِّحْرِ أَوْ الْأَسْتِعَانَةِ بِالْحَيِّ أَمَّا مَا
لَا يَشْتَمِلُ عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ النَّصُّ بِإِبَاحَتِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : (لَا بِأَسَ بِالرُّقْيِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ
شِرْكَ) ^(٢) . أَمَّا الرُّقْيَةُ الْجَائِزَةُ فَيَشْتَرُطُ فِيهَا ثَلَاثَةُ شُرُوطٍ : نَقْلُهَا ابْنُ حَجَرٍ فِي الْفَتْحِ فَقَالَ " وَقَدْ أَجْمَعَ
الْعُلَمَاءُ عَلَى جَوَازِ الرُّقْيِ عِنْدَ اجْتِمَاعِ ثَلَاثَةِ شُرُوطٍ أَنْ يَكُونَ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى أَوْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ
وَبِاللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ أَوْ بِمَا يَعْرِفُ مَعْنَاهُ مِنْ غَيْرِهِ وَأَنْ يَعْتَقِدَ أَنَّ الرُّقْيَةَ لَا تَوْثُرُ بِذَاتِهَا بَلْ بِذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى " ^(٣) .
وَالْتَّمَائِمُ أَيْضًا (ال) فِيهَا عَهْدِيَّةٌ وَالْمُرَادُ تَمَائِمُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَهِيَ الْمَشْتَمَلَةُ عَلَى سِحْرِ وَاسْتِغَاثَةِ بَعْضِ أَهْلِ
أَمَّا التَّمَائِمُ الَّتِي مِنَ الْقُرْآنِ فَمُخْتَلَفٌ فِي جَوَازِهَا . قَالَ فِيهَا ابْنُ سَعْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فَالْأَوَّلَى تَرْكُهَا
لِأُمُورٍ ؛ لِعَدَمِ وُجُودِهَا عَنِ الشَّارِعِ ، وَلِكُونِهَا يَتَوَسَّلُ بِهَا إِلَى غَيْرِهَا مِنَ الْمُحَرَّمَ ، وَلِأَنَّ الْعَالِبَ عَلَى
مُعَلَّقِهَا أَلَّا يَحْرَمَهَا وَيَدْخُلُ بِهَا الْمَوَاضِعَ الْقُدْرَةَ) ^(٤) وَزَادَ بَعْضُهُمْ أَنَّ الْجَهْلَةَ يَتَعَلَّقُونَ بِكَاتِبِ التَّمِيمَةِ .
وَقَالَ ابْنُ سَعْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فَافْهَمْ هَذَا التَّفْصِيلَ وَإِيَّاكَ أَنْ تَحْكُمَ عَلَى الرُّقْيِ بِحُكْمٍ وَاحِدٍ مَعَ
تَفَاوُثِهَا فِي أَسْبَابِهَا وَغَايَاتِهَا) ^(٥) .

وَأَمَّا التَّوَلَةُ فَهِيَ شِرْكَ مُطْلَقًا ؛ لِأَنَّهَا ضَرَبٌ مِنَ السِّحْرِ كَمَا سَيَأْتِي

(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الطَّبِّ - بَابُ فِي تَعْلِيقِ التَّمَائِمِ (٣٨٨٣) ، وَابْنُ مَاجَهٍ فِي كِتَابِ الطَّبِّ - بَابُ تَعْلِيقِ التَّمَائِمِ (٣٥٣٠) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (١٦٣٢) .

(٢) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ ، بَابُ لَا بِأَسَ بِالرُّقْيِ مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكَ ، بِرَقْمٍ : (٤٠٧٩) .

(٣) فَتْحُ الْبَارِي (١٠ / ١٣٥) .

(٤) الْقَوْلُ السَّدِيدُ فِي مَقَاصِدِ التَّوْحِيدِ ، ص : ٥١ .

(٥) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وَكُلَّ إِلَيْهِ) ^(١) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.]

عَنْ عِيسَى أَحْيَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ (أَبِي مَعْبِدِ الْجُهَنِيِّ) أَعُوذُهُ وَبِهِ حُمْرَةٌ فَقُلْنَا: أَلَا تَعَلَّقُ شَيْئًا؟ قَالَ: الْمَوْتُ أَقْرَبُ مِنْ ذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكُلَّ إِلَيْهِ. (تَعَلَّقَ) أَي: تَعَلَّقَ شَيْئًا مُتَعَلِّقًا بِهِ قَلْبُهُ فِي جَلْبِ نَفْعٍ أَوْ دَفْعِ ضَرٍّ. وَ (شَيْئًا) نَكْرَةً فِي سِيَاقِ الشَّرْطِ تُفِيدُ الْعُمُومَ فَتَشْمَلُ جَمِيعَ مَا يُعَلَّقُ لِدَفْعِ الْبَلَاءِ قَبْلَ نَزْوِهِ أَوْ رَفْعِهِ بَعْدَ نَزْوِهِ فَيَعْمُ النَّصُّ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِهَا لِأَنَّ تَرْكَ الْإِسْتِفْصَالِ فِي مَقَامِ الْإِحْتِمَالِ يُنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْعُمُومِ فِي الْمَقَالِ (وَكُلَّ إِلَيْهِ) أَي: تَخَلَّى اللَّهُ عَنْهُ وَتَرَكَ أَمْرَهُ وَحَفَظَهُ إِلَى هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي تَعَلَّقَ بِهِ قَلْبُهُ، فَمَا ظَنُّكُمْ بِمَنْ وَكُلَّ أَمْرَهُ إِلَى خِرْقَةٍ أَوْ وَرَقَةٍ أَوْ وَدْعَةٍ؟ وَمَنْ تَعَلَّقَ بِاللَّهِ كَفَاهُ حَاجَتُهُ وَمَوْتُهُ. فَمَا بَالُ النَّاسِ يَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ بَلْ لَا خَيْرَ إِلَّا مِنْهُ وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْقَوَائِدِ: وَجُوبُ التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ، وَتَرْكُ التَّوَكُّلِ عَلَى غَيْرِهِ، وَأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُخْذُولٌ. وَفِيهِ حَذَرُ السَّلَفِ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْعَرِ فَهُوَ أَمْرُ الْمَوْتِ أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْهُ. وَفِيهِ تَرْكُ السَّلَفِ لِلتَّمَائِمِ كُلِّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ غَيْرِهِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ: (التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَحَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَحَّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ)]

قَوْلُ الْإِمَامِ (رَحَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ) إِذَا كَانَ الْمُرَادُ بِالسَّلَفِ هُنَا الصَّحَابَةُ فَالصَّحِيحُ أَنَّهُ لَمْ يَنْبُتْ عَنْهُمْ، فَأَثَرُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو هُوَ مَا رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو نُعَيْمٍ ^(٢) عَنْهُ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٠/٤) والترمذي في كتاب الطب - باب ماجاء في كراهية التعليق (٢٠٧٢) وحسنه الألباني في «غاية المرام» برقم: (٢٩٧).

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» رقم الحديث (٦٦٩٦) وأبو نعيم في معرفة الصحابة برقم ٥٩٠٩

كَلِمَاتٍ نَقُولُهُنَّ عِنْدَ النَّوْمِ مِنَ الْفَرَجِ: «بِسْمِ اللَّهِ، أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ، مِنْ غَضَبِهِ وَعِقَابِهِ، وَشَرِّ عِبَادِهِ، وَمِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ، وَأَنْ يَخْضُرُونَ» قَالَ: فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو: «يُعَلِّمُهَا مَنْ بَلَغَ مِنْ وَلَدِهِ أَنْ يَقُولَهَا عِنْدَ نَوْمِهِ، وَمَنْ كَانَ مِنْهُمْ صَغِيرًا لَا يَعْقِلُ أَنْ يَحْفَظَهَا كَتَبَهَا لَهُ فَعَلَّقَهَا فِي عُنُقِهِ»

و كِلَاهُمَا إِنَّمَا رَوَاهُ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ إِسْحَاقَ وَقَدْ عَنَعَنَ وَهُوَ مَعْرُوفٌ بِالتَّدْلِيلِ فَاَلْمَوْقُوفِ ضَعِيفٍ وَ الْحَدِيثِ الْمَرْفُوعِ رَوَاهُ ابْنُ السَّيِّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ وَلَيْسَ فِي سَنَدِهِ ابْنُ إِسْحَاقَ لَدُنْكَ حَسَنُ الْأَبْيَانِ الْمَرْفُوعِ مِنْهُ فَقَطْ أَمَّا أَثَرُ عَائِشَةَ فَلَيْسَ صَرِيحًا فِي الْمَسْأَلَةِ إِذْ لَيْسَ فِيهِ ذِكْرٌ لِلْقُرْآنِ وَهُوَ مَا رَوَاهُ الْحَاكِمُ ^(١) عَنْهَا قَالَتْ « لَيْسَتْ التَّمِيمَةُ مَا تُعَلَّقُ بِهِ بَعْدَ الْبَلَاءِ إِنَّمَا التَّمِيمَةُ مَا تُعَلَّقُ بِهِ قَبْلَ الْبَلَاءِ » هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُجَرِّجَاهُ " فَتَبَيَّنَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَنْبُتْ عَنِ الصَّحَابَةِ فَلَا أَصْلُ أَنْ نَسْتَشْفِيَ بِالْقُرْآنِ بِالْكَفِيَّةِ الَّتِي وَرَدَتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ الْكَرَامِ ^(٢) . وَ أَمَّا مَنْ بَعْدَهُمْ فَأَبُو جَعْفَرٍ الْبَاقِرُ وَأَحْمَدُ فِي إِحْدَى الرِّوَايَتَيْنِ عَنْهُ جَاءَ أَنَّهُمْ رَخَّصُوا فِيهَا لِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ ﴾ ^(٣) . وَلَمْ يَتَعَرَّضُوا لِكَيْفِيَّةِ ذَلِكَ ، هَذَا تَقْرِيرُ كَلَامِهِمْ . وَالْآيَةُ قَدْ نَزَلَتْ عَلَى نَبِينَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَلَمْ يَثْبُتْ عَنْهُ أَنَّهُ تَعَلَّقَ آيَةً أَوْ عَلَّقَهَا عَلَى غَيْرِهِ كَمَا لَمْ يَثْبُتْ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَصْحَابِهِ تَعْلِيْقُ شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِلِ التَّابِتِ عَنْهُمْ النَّهْيُ لَذَا قَالَ الْإِمَامُ (وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخَّصْ فِيهِ، وَبَجَعْلُهُ مِنَ الْمُنْهَيِّ عَنْهُ، مِنْهُمْ ابْنُ مَسْعُودٍ) كَابِنِ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابِهِ وَهُوَ مَقْهُومُ كَلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَكِيمِ السَّابِقِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ: (وَالرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشَّرِّ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَةِ).]

(١) أخرجه الحاكم في المستدرک برقم (٧٥٠٦)

(٢) وقد عدَّ بعض أهل العلم وضع المصحف في البيت أو السبابة لغرض الحفظ من الشرور من تعليق التمايم أفدتها من شرح العلامة

الشيخ العصيمي - حفظه الله - .

(٣) سورة الإسراء الآية: ٨٢ .

(وَحَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ) يُرِيدُ حَدِيثَ مُسْلِمٍ: (... لَا بَأْسَ بِالرَّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ)^(١).

(فَقَدْ رَحَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحَمَةِ) يُرِيدُ حَدِيثَ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحَصْبِ عِنْدَ أَحْمَدَ وَهُوَ قَوْلُهُ لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ - وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَلَيْهِ

- قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ: (وَالْتَوَلَّى: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُجَبِّبُ الْمَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ).] وَعَلَيْهِ فَالتَوَلَّى ضَرْبٌ مِنَ السِّحْرِ فَهِيَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ زُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (يَا زُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ حَيْثَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ)^(٢).]

(زُوَيْفِعُ) هُوَ ابْنُ ثَابِتٍ الْأَنْصَارِيُّ. (لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ) فِيهِ: عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّبَوُّةِ، فَقَدْ مَاتَ زُوَيْفِعُ سَنَةَ ٥٦ هـ أَوْ ٥٣ هـ يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ لَعَلَّ حَرْفَ تَرْجٍ فَيَكُونُ مِنْ رَجَاءِ النَّبِيِّ ﷺ اللَّهُ أَنْ يُطَوَّلَ عُمرُ زُوَيْفِعٍ، وَقَدْ كَانَ ذَلِكَ. (فَأَخْبِرِ النَّاسَ) دَلِيلٌ عَلَى وَجُوبِ إِخْبَارِ النَّاسِ، وَهَذَا عَامٌّ فِي مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا اِحْتِاجَ إِلَيْهِ النَّاسُ. (عَقَدَ حَيْثَهُ) فُسِّرَ عَلَى وَجْهِهِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْعَلُونَهُ فِي الْحَرْبِ، وَهُوَ مِنْ عَادَةِ الْأَعَاجِمِ، قَالَ أَبُو السَّعَادَاتِ (كَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ تَكْثِيرًا وَعُجْبًا)^(٣) وَقِيلَ: مِنْ فِعْلِ أَهْلِ التَّحْنُثِ، وَقِيلَ: النَّهْيُ عَنْهُ فِي الصَّلَاةِ، وَقِيلَ: يَتَّقَى بِهِ الْعَيْنَ، وَكُلُّ هَذِهِ الْأَوْجُهَةِ مُحْتَمَلَةٌ وَالْمِهِمُّ أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنْهُيٌّ عَنْهُ عِلْمُنَا الْعِلَّةَ أَوْ جَهْلُنَاهَا. (أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ، لِأَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ التَّمَائِمِ (أَوْ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ) وَالاسْتَنْجَاءُ: إِزَالَةُ أَثَرِ الْخَارِجِ مِنَ السَّبِيلَيْنِ. رَجِيعُ الدَّابَّةِ: رَوْثُهَا قَوْلُهُ: (أَوْ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، بَابُ لَا بَأْسَ بِالرَّقَى مَا لَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ.، بِرَقْمٍ: (٥٨٦٢).

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (١٠٨/٤). وَالنَّسَائِيُّ وَأَبُو دَاوُدَ وَقَالَ الْأُبَايُ إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ

(٣) النِّهَايَةُ (٢٧٠/٣)

عَظِيمٌ) وَقَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِلْحِجْرِ: (لَكُمْ كُلُّ عَظِيمٍ ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْمًا وَكُلُّ بَعْرَةٍ عَلَفَ لِدَوَابِّكُمْ). فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -ﷺ-: (فَلَا تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ) ^(١). قَوْلُهُ: (فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ). هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ ، فَمِنْ السَّلَفِ مَنْ يَرَى أَنَّهَا لَا تُفَسَّرُ ، حَتَّى يُؤَوَّلَ الْوَعِيدُ فِي قُلُوبِ سَامِعِيهِ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ يَرَى التَّفْصِيلَ فِي ذَلِكَ بِحَسَبِ الْمَقَامِ. وَافْتِرَانُ الْفِعْلِ بِالْبَرَاءَةِ مِنَ الْفَاعِلِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ مِنْ كِبَائِرِ الذُّنُوبِ أَوْ مِنَ الشِّرْكِ . وَهَذِهِ الْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا هُوَ كَبِيرٌ ، وَمِنْهَا مَا هُوَ شَرٌّ أَصْغَرُ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: (مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ) ^(٢). رَوَاهُ وَكِيعٌ.]

هَذَا الْأَثَرُ فِيهِ لَيْثٌ بُنُ أَبِي سُلَيْمٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ ، لَكِنْ مَعْنَاهُ صَحِيحٌ. وَفِيهِ : فَضْلُ قَطْعِ التَّمَائِمِ وَأَنَّهُ كَعَتَقِ الرَّقَبَةِ ، وَالْمُرَادُ مُجَرَّدُ التَّشْبِيهِ فِي التَّحَرُّرِ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ لِغَيْرِ اللَّهِ لَا فِي الْأَجْرِ ، وَوَجْهُ الشُّبْهِ أَنَّ عَتَقَ الْعَبْدِ إِنَّمَا هُوَ عَتَقَ مِنْ رِقٍّ مَشْرُوعٍ ، وَقَطَعَ التَّمِيمَةَ عَتَقَ مِنْ رِقٍّ غَيْرِ مَشْرُوعٍ فَيَكُونُ هَذَا أَعْظَمَ مِنْ عَتَقِ الرَّقَبَةِ .

وَهُنَا تَنْبِيهُ وَهُوَ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ قَطْعُهَا إِنْ لَمْ يَقْطَعْ الشِّرْكَ مِنْ قَلْبِهِ كَمَا لَا بَدَ مِنْ النِّظَرِ فِي الْمَقَاسِدِ وَالْمَصَالِحِ قَبْلَ قَطْعِهَا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ: (كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ) ^(٣).]

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، بَابُ الْجَهْرِ بِالْقِرَاءَةِ فِي الصُّبْحِ وَالْقِرَاءَةِ عَلَى الْحِجْرِ، بِرَقْمٍ: (١٠٣٥).

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢٣٩٣٩/٣٧٥/٧).

(٣) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ (٢٣٩٣٣/٣٧٤/٧).

(كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ ^(١) - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فَلَا تَعَارُضَ
بَيْنَ هَذَا النَّقْلِ وَنَقْلِهِ السَّابِقِ فَرَحَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَحَّصْ فِيهِ - وَقَدْ صَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ
- رَحِمَهُ اللَّهُ - هَذَا الْأَثَرُ فِي تَعْلِيْقِهِ عَلَى الْكَلِمِ الطَّيِّبِ ، وَالْكَرَاهَةُ عِنْدَهُمْ تَعْنِي التَّحْرِيمَ.



(١) قال ابن حجر: (ما وجد إبراهيم يقول: كانوا إلا وهو يريد أصحاب ابن مسعود) أفاده شيخنا أبو عبد الله خالد بن عبد اللطيف
حفظه الله.

[٩]

بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَخَوَّهَمَا

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ هَذَا الْبَابَ مُكَمَّلٌ لِلْبَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ ؛ لِأَنَّ التَّبَرُّكَ بِالشَّجَرِ وَالْحَجَرِ هُوَ طَلَبُ الْبَرَكَةِ مِنَ الشَّجَرِ وَالْحَجَرِ وَخَوَّهَمَا. تَبَرَّكَ أَي : طَلَبَ الْبَرَكَةَ مِنْهُمَا ، وَالْبَرَكَةُ : هِيَ ثُبُوتُ الْخَيْرِ الْإِلَهِيِّ فِي الشَّيْءِ وَزِيَادَتُهُ ، وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ : (... الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ) ^(١). وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَخَوَّهَمَا ، أَي : بَابُ حُكْمِ مَنْ طَلَبَ مِنْهُمَا الْبَرَكَةَ ، وَلَمْ يَذْكُرْ حُكْمَهُ لِلتَّفْصِيلِ فِيهِ لِأَنَّ التَّبَرُّكَ مِنْهُ مَا هُوَ مَشْرُوعٌ وَمِنْهُ مَا هُوَ مَمْنُوعٌ وَقَدْ عَقَدَ هَذَا الْبَابُ فِي ذِكْرِ أَمْثَلَةٍ مِنَ التَّبَرُّكِ الْمَمْنُوعِ.

وَالتَّبَرُّكَ الْمَشْرُوعُ : يَكُونُ بِمَا ثَبَتَ أَنَّهُ مُبَارَكٌ ، وَيَكُونُ بِالْكَفَيْفَةِ الَّتِي شَرَعَتْ لِلتَّبَرُّكِ بِهَذَا الشَّيْءِ . وَقَدْ جَاءَ فِي الشَّرْعِ ذَوَاتٌ وَهَيْئَاتٌ وَأَزْمَنَةٌ وَأَمَكِنَةٌ مُبَارَكَةٌ ، فَمِنْ الذَّوَاتِ الْمُبَارَكَةِ : ذَاتُ النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّخْلَةُ وَالْمُسْلِمُ. فَالْمُسْلِمُ وَالتَّخْلَةُ قَالَ عَنْهُمَا النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ لَمَا بَرَكْتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ) ^(٢).

وَهُنَاكَ هَيْئَاتٌ مُبَارَكَةٌ كَالْجَمَاعَةِ وَالتَّرِيدِ وَالسَّحُورِ فَيَكُونُ بِالْحَرَصِ عَلَى هَذِهِ الْهَيْئَةِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (الْبَرَكَةُ فِي ثَلَاثَةِ الْجَمَاعَةِ وَالتَّرِيدِ وَالسَّحُورِ) ^(٣). وَمِنْ الْأَزْمَنَةِ الْمُبَارَكَةِ : لَيْلَةُ الْقَدْرِ ، وَيَوْمُ عَرَفَةَ ، وَيَوْمُ

عَاشُورَاءَ وَخَوَّهَمَا ، فَأَمَّا لَيْلَةُ الْقَدْرِ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ ﴾ ^(٤) ، وَأَمَّا يَوْمُ عَرَفَةَ وَعَاشُورَاءَ فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - ﷺ - « ... صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ » ^(٥). وَمِنْ

(١) أخرجه البخاري، باب شرب البركة والماء المبارك، برقم: (٥٣١٦).

(٢) أخرجه البخاري، باب أكل الجمار، برقم: (٥١٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، برقم: (٧٥٢٠)، وصححه العلامة الألباني في السلسلة برقم: (١٠٤٥).

(٤) سورة الدخان الآية: ٣.

(٥) أخرجه مسلم، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس، برقم: (٢٨٠٣).

الْأُمْكِنَةُ الْمُبَارَكَةُ : الْبَيْتُ الْحَرَامُ ، وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ ، فَأَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ فَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ^(١). وَقَالَ فِي بَيْتِ الْمَقْدِسِ ﴿إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَيْنَا حَوْلَهُ﴾ ^(٢). وَ إِذَا ثَبَتَ كَوْنُ الشَّيْءِ مُبَارَكًا فَإِنَّ أَخْذَ الْبَرَكَةِ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الشَّرْعُ ، فَأَخْذُ الْبَرَكَةِ مِنَ الْقُرْآنِ يَكُونُ بِتَدْبِيرِهِ وَالْعَمَلِ بِمَا فِيهِ وَالْإِسْتِشْفَاءُ بِهِ ، وَأَخْذُ الْبَرَكَةِ مِنْ ذَاتِ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ ثَبَتَتْ كَيْفِيَّتُهَا بِمَا جَاءَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ الصَّحَابَةَ كَانُوا يَتَدَاْفَعُونَ عَلَى وَضُوئِهِ ^(٣) وَبُصَاقِهِ وَغَرَقِهِ كَمَا جَاءَ عِنْدَ مُسْلِمٍ أَنَّ أُمَّ سُلَيْمٍ كَانَتْ تَسْلُتُ عَرَفَةَ فِي طَبِيعِهَا ^(٤) وَهَذَا خَاصٌّ بِهِ ﷺ لِأَنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَفْعَلُوهُ مَعَ غَيْرِهِ فَهَذَا يُعَدُّ إِجْمَاعًا مِنَ الصَّحَابَةِ عَلَى تَرْكِ التَّبَرُّكِ بِغَيْرِهِ. ^(٥)

تَنْبِيْهُ : مَنْ يَدَّعِي بَقَاءَ بَعْضِ آثَارِ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ شَعْرٍ وَأَنِيَّةٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ يُطَالَبُ بِالسَّنَدِ الصَّحِيحِ لِإثْبَاتِ ذَلِكَ . وَبَرَكَةُ الْمُسْلِمِ تَكُونُ بِالْإِنْتِفَاعِ مِنْ عِلْمِهِ وَالتَّعَاوُنِ مَعَهُ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ، وَبَرَكَةُ النَّحْلَةِ تَكُونُ بِأَكْلِ ثَمَرِهَا وَالْإِنْتِفَاعِ بِهَا وَنَحْوِ ذَلِكَ ، وَلِكُلِّهِ الْقَدْرُ بِقِيَامِهَا ، وَعَرَفَةُ وَعَاشُورَاءُ بِصِيَامِهَا ، وَأَمَّا الْبَيْتُ الْحَرَامُ وَبَيْتُ الْمَقْدِسِ فَيَكُونُ بِالصَّلَاةِ فِيهِمَا وَيَخْتَصُّ الْبَيْتُ الْحَرَامُ بِالطَّوَافِ بِهِ وَالتَّزَامِ الْمُلْتَزِمِ وَمَسْحِ الرِّكَنِ الْيَمَانِيِّ وَتَقْبِيلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكْتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ ^(١١) وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةِ الْآخَرَىٰ

﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ﴾ ^(١٢) تِلْكَ إِذَا قَسَمْتُ صَبْرِي ^(١٣) إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ

(١) سورة آل عمران الآية: ٩٦.

(٢) سورة الإسراء الآية: ١.

(٣) أخرجه البخاري، باب شرب البركة والماء المبارك، برقم: (٥٣١٦).

(٤) أخرجه مسلم، باب طيب عرق النبي ﷺ - والتبرك به، برقم: (٦٢٠١).

(٥) الاعتصام للشاطبي (٣٠٣/٢).

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى

﴿١﴾

(أَفَرَأَيْتُمْ) الْهُمَزُةَ لِلْأَسْتِفْهَامِ، وَهُوَ هُنَا لِلْأَسْتِخْفَافِ وَالْإِخْفَارِ، وَالْفَاءُ: عَاطِفَةٌ، وَالرُّؤْيَةُ هُنَا عِلْمِيَّةٌ، وَجَاءَ هَذَا الْأَسْتِفْهَامُ بَعْدَ آيَاتٍ دَلَّتْ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ الْمُطْلَقَةِ لِيُذَكِّرَ الْعَاقِلُ الْفَرْقَ الْكَبِيرَ بَيْنَ اللَّهِ جَلٍّ وَعَلَا الَّذِي اتَّصَفَ بِكُلِّ كَمَالٍ يَلِيْقُ بِهِ وَبَيْنَ هَذِهِ الْأَلْهَةِ النَّاقِصَةِ مِنْ كُلِّ وَجْهِ (الْلَاثُ) إِذَا قُرِئَ - بِتَخْفِيفِ اللَّامِ وَالتَّاءِ - فَهُوَ مَأْخُوذٌ مِنْ لَفْظِ الْجَلَالَةِ، وَإِذَا قُرِئَ - بِتَشْدِيدِ اللَّامِ وَالتَّاءِ - فَهُوَ رَجُلٌ كَانَ يَلُتُّ السَّوِيْقَ لِلْحُجَّاجِ، وَعَلَى كَيْلَا الْمَعْنِيَيْنِ فَهُوَ صَنَمٌ مِنَ الْحَجَرِ، (وَالْعَزَى) مُؤَنَّثٌ أَعَزَّ فَهِيَ مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْعَزِيزِ، وَهِيَ ثَلَاثُ شَجَرَاتٍ مِنْ شَجَرِ السَّمُرِ (وَمَنَاةٌ) قِيلَ: مُشْتَقَّةٌ مِنَ الْمَنَانِ، وَقِيلَ: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِكَثْرَةِ مَا يُمْنَى عَلَيْهَا مِنَ الدِّمَاءِ، وَهِيَ صَخْرَةٌ (أَلَكُمُ الدِّكْرُ وَلَهُ وَالْأُنْثَى) هَذَا اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ، فَقَدْ كَانُوا يَنْزَعُونَ عَنِ الْبَنَاتِ وَيَقُولُونَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ (تِلْكَ إِذَا قِسَمَةٌ ضِيْرَى) أَي: جَائِزَةٌ (إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ) إِنْ نَافِيَةٌ، (مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ) وَالسُّلْطَانُ هُنَا: هُوَ الْحُجَّةُ وَالْبُرْهَانُ، وَسُمِّيَتْ الْحُجَّةُ سُلْطَانًا؛ لِأَنَّهَا تَقُوْدُ الْقُلُوبَ وَتَقْهَرُهَا لِقَبُولِ الْحَقِّ. (إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ) الظَّنُّ الَّذِي يَتَّبِعُونَهُ أَنَّ هَذِهِ الْأَصْنَامَ آلِهَةٌ تَنْفَعُهُمْ، وَمُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِلْبَابِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَطْلُبُونَ الْبَرَكَةَ مِنْ هَذِهِ الْأَحْجَارِ وَالْأَشْجَارِ، فَتَقَرَّرَ بِهَذِهِ الْآيَاتِ أَنَّ طَلَبَ الْبَرَكَةِ مِنَ الْمَخْلُوقِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى) أَيِ التَّوْحِيدِ الْقَائِمِ عَلَى الْبُرْهَانِ الصَّحِيحِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا هُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " اللَّهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ! قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ) لَتَرْكِبَنَّ سَنَنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ)^(١). رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.]

(أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيُّ) وَهُوَ الْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ، (وَنَحْنُ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ) أَي: قَرِيبٌ عَهْدُنَا بِالْكُفْرِ، وَهَذَا كَالْأَعْتِدَارِ لَهُمْ (وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا) الْعُكُوفُ: هُوَ الْمَلَازِمَةُ عَلَى وَجْهِ التَّعْظِيمِ وَالْقُرْبَةِ، (وَيَنْوُطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ) أَي: يُعَلِّقُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا وَنَصْرَتِهَا، وَمِنْ النُّوْطِ بِمَعْنَى التَّعْلِيقِ.

(فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا هُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) قَالُوا هَذَا حِرْصًا عَلَى الْبَرَكَةِ وَطَلْبًا لَهَا ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَقْدِمُوا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى رَجَعُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَبِيهِ ، الرُّجُوعُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فِي طَلَبِ الْبَرَكَةِ ، وَفِيهِ أَنَّ الْمُتَنَقِّلَ مِنَ الْبَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ لَا يُؤْمِنُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ الْبَاطِلِ. (اللَّهُ أَكْبَرُ!) أَيِ اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ وَفِي رِوَايَةٍ: (سُبْحَانَ اللَّهِ). أَيِ تَنَزَّاهُ اللَّهُ عَنِ الشَّرِيكِ ، وَمَعْنَى الْجُمْلَتَيْنِ: تَعْظِيمُ اللَّهِ وَتَنْزِيهُهُ عَنِ الشَّرِكِ ، وَفِيهِ: مَشْرُوعِيَّةُ التَّسْبِيحِ أَوْ التَّكْبِيرِ عِنْدَ التَّعَجُّبِ. (إِنَّهَا السُّنَنُ!) أَي: الطَّرِيقُ الْمَسْلُوكَةُ مِنْ قَبْلُ، (قُلْتُمْ - وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ -) الْوَائِدُ: وَاو الْقَسَمُ ، وَالْمُرَادُ: أَنَّ نَفْسَهُ بِيَدِ اللَّهِ مَلَكًا فَبِيَدِهِ إِمَاتَتُهَا وَإِحْيَاؤُهَا وَتَدْبِيرُهَا وَتَصْرِيفُهَا ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ: الْقَسَمُ عَلَى الْفَتْوَى إِنْ تَأَكَّدَ مِنْ إِصَابَةِ الْحَقِّ ، وَفِيهِ الْقَسَمُ وَإِنْ لَمْ يُسْتَقْسَمْ ، وَفِيهِ اثْبَاتُ صِفَةِ الْيَدِ

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن- باب ما جاء لتركن سنن من كان قبلكم (٢١٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠١).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الله تعالى ، وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَبْدٌ مَمْلُوكٌ لِلَّهِ ، وَفِيهِ اسْتِحْضَارُ عَظَمَةِ اللَّهِ عِنْدَ الْقَسَمِ .
قَوْلُهُ (كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ بَٰجِلُونَ) . أَي : أَنَّ
طَلَبَهُمْ لِسِدْرَةِ يَتَبَرَّكُونَ بِهَا ، وَيَعْكُفُونَ عِنْدَهَا كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِإِلَهِهِ ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ :
أَفَةُ الْجَهْلِ وَأَنَّهُ سَبَبٌ لِلشِّرْكِ ، وَ أَنَّ الْمَقَاصِدَ الْحَسَنَةَ لَا تُغَيِّرُ الْحُكْمَ الشَّرْعِيَّ ، وَأَنَّ الْأَعْتِبَارَ بِالْحَقَائِقِ لَا
بِالْأَلْفَاظِ ؛ لِأَنَّهُمْ طَلَبُوا شَيْئاً يُعْظَمُونَهُ وَيَتَبَرَّكُونَ بِهِ ، فَهُوَ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ ، فَتَسْمِيَةُ عِبَادِ الْقُبُورِ
لِعِبَادَتِهِمْ تَوْسُلاً وَحُبَّةً لِلصَّالِحِينَ لَا يُخْرِجُهَا عَنْ كَوْنِهَا شِرْكَاً ، فَإِذَا كَانَ اتِّخَاذُ الشَّجَرَةِ لِلْعُكُوفِ عِنْدَهَا
وَتَعْلِيْقِ السِّلَاحِ بِهَا اتِّخَاذاً لِإِلَهِ مَعَ اللَّهِ ، فَكَيْفَ بِمَا أَحْدَثَ النَّاسُ مِنَ الْأَسْتِغَاثَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ صِرَاحَةً ! وَأَنَّ
مَا يَفْعَلُهُ النَّاسُ الْيَوْمَ مِنَ التَّمَسُّحِ وَالتَّبَرُّكِ بِالشَّجَرِ وَالْأَحْجَارِ وَالْقُبُورِ هُوَ عَيْنُ الشِّرْكِ . (لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ
كَانَ قَبْلَكُمْ) أَي : طُرُقَ وَمَنَاجِيحَ ، وَهَذَا خَبَرُ الْمُرَادِ مِنْهُ الْإِنْشَاءُ أَي : النَّهْيُ وَالْخَبَرُ - أَيْضاً - . وَفِي
الْجُمْلَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ وَأَنَّ التَّبَرُّكَ غَيْرُ الْمَشْرُوعِ بِالشَّجَرِ وَالْأَحْجَارِ يَقْدَحُ فِي كَلِمَةِ
التَّوْحِيدِ إِنْ لَمْ يَنْقُضْهَا ، وَ أَنََّّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هَذَا فَعَيَّرُهُمْ أَوَّلَى بِالْجَهْلِ ، وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ حَدِيثَ
الْعَهْدِ بِالإِسْلَامِ يَعْذِرُ بِالْجَهْلِ وَكَذَا مَنْ هُوَ فِي حَكْمِهِ لِأَنَّهُمْ طَلَبُوا شَجَرَةً يَتَبَرَّكُونَ بِهَا وَ التَّبَرُّكَ بِغَيْرِ اللَّهِ
فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ وَمَعَ ذَلِكَ لَمْ يَحْكُمْ عَلَيْهِمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْكَفْرِ بِمُجَرَّدِ
طَلَبِهِمْ ، فَعَذَرَهُمْ بِجَهْلِهِمْ .



[١٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الذَّبْحَ لِغَيْرِ اللَّهِ تَقَرُّبًا مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الَّتِي وَعَدَ الْإِمَامُ بِالْكَلَامِ فِيهَا . وَ
مَعْنَى التَّرْجَمَةِ : أَي : بَابُ مَا جَاءَ فِي حُكْمِ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا . وَ اعْلَمْ أَنَّ الذَّبْحَ يَقَعُ طَاعَةً وَيَقَعُ
عَادَةً ، وَمُرَادُهُ هُنَا الذَّبْحُ الَّذِي يَقَعُ تَقَرُّبًا : وَهُوَ إِزَاقَةُ الدَّمِ لِلَّهِ بِطَرِيقَةٍ شَرْعِيَّةٍ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ
الْمَقْصُودَ فِي ذَبْحِ التَّقَرُّبِ إِزَاقَةُ الدَّمِ فَيَقُومُ بِقَلْبِ الدَّابِحِ تَأْلِيَةً وَتَعْظِيمًا لِلْمَذْبُوحِ لَهُ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِاللَّهِ بَيْنَمَا
الْمَقْصُودُ فِي غَيْرِهِ مِنَ الذَّبْحِ اللَّحْمُ . وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمَامُ الْحُكْمَ مَعَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ وَهُوَ أَنَّهُ شِرْكٌ ، لِيُمَرِّنَ
الطَّالِبَ عَلَى اسْتِنْبَاطِ الْحُكْمِ مِنَ الدَّلِيلِ بِنَفْسِهِ ، وَهُنَاكَ فَرْقٌ أَيْضًا بَيْنَ الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَبَيْنَ الْإِهْلَالِ
بِاسْمِ غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ ، وَكِلَاهُمَا شِرْكٌ ، لَكِنْ الْأَوَّلُ فِي التَّعْبُدِ وَالْقَصْدِ ، وَالثَّانِي فِي التَّسْمِيَةِ وَالْإِسْتِعَانَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ

الْعَالَمِينَ ﴾ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)] .

(قُلْ) الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (إِنَّ صَلَاتِي) الصَّلَاةُ لُغَةً : الدُّعَاءُ ، وَشَرْعًا : عِبَادَةٌ ذَاتُ
أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ مُفْتَتَحَةٌ بِالتَّكْبِيرِ مُحْتَمَّةٌ بِالتَّسْلِيمِ ، وَصَلَاتِي مُفْرَدٌ مُضَافٌ يُفِيدُ الْعُمُومَ (وَنُسُكِي) النُّسُكُ
يُطْلَقُ عَلَى التَّعْبُدِ وَعَلَى الذَّبْحِ ، وَفِي عِبَادَةِ الذَّبْحِ : تَعَلُّقُ الْقَلْبِ بِحُسْنِ الثَّوَابِ ، وَالتَّحَلُّصُ مِنَ الشَّحِّ
(وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي) أَي : حَيَاتِي ، فَالصَّلَاةُ وَالنُّسُكُ لِلَّهِ قَصْدًا وَتَعْبُدًا ، وَالْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ لِلَّهِ مُلْكًا وَتَصَرُّفًا
وَوَهْيًا لَهُ مِنَ الْعَبْدِ قَصْدًا وَتَعْبُدًا (اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) الرَّبُّ هُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ ، فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ
رُكْنُ الْإِثْبَاتِ (لَا شَرِيكَ لَهُ) فِيهَا : رُكْنُ النَّفْيِ فَاشْتَمَلَتْ الْآيَةُ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ ، (وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ) أَي
: بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِحْلَاصِ الْمَفْهُومُ مِنَ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ ، (وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) إِسْلَامُ كُلِّ نَبِيٍّ مُتَقَدِّمٌ عَلَى

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
أُمْتِهِ ، وَيُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَوْلَهُمْ فَضْلاً ، أَوْ الْمُرَادُ أَنَّهُ : أَوَّلُ مَنْ يُبَادِرُ لِامْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ .. وَفِي الْآيَةِ أَنَّ
الذَّبْحَ عِبَادَةً لِلَّهِ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْوَجْهُ الْأَوَّلُ : أَمْرُ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَبَيِّنَ أَنْ ذَبْحَهُ اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ بِقَوْلِهِ (
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ) ، وَالْوَجْهُ الثَّانِي : قَرْئُهُ بِالصَّلَاةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾] ^(١)

الْفَاءُ : تَعْلِيلِيَّةٌ ، أَي : صَلِّ وَانْحَرْ شُكْرًا لِنِعْمَةِ الْكَوْثَرِ ، وَفِي الْأَمْرِ بِالصَّلَاةِ وَالنَّحْرِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ
الْمَأْمُورَ بِهِ عِبَادَةٌ ، فَصَرَّفَ وَاحِدٍ مِنْهَا لِغَيْرِ اللَّهِ يَكُونُ شَرَكًا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ عَلِيٍّ I قَالَ : حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ : (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ
ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُخْدِثًا ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ) ^(٢)
رَوَاهُ مُسْلِمٌ .]

(عَلِيٍّ) هُوَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ، ابْنُ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ ، مِنَ السَّابِقِينَ شَهِدَ بَدْرًا وَبَيْعَةَ
الرِّضْوَانِ ، أَحَدُ الْعَشْرَةِ وَرَابِعُ الْخُلَفَاءِ ، قَتَلَهُ الْخَارِجِيُّ الْأَشْقَى عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مُلْجَمٍ سَنَةَ ٤٠ هـ .
قَوْلُهُ : (حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) أَي : أَرْبَعُ جُمَلٍ وَفِيهِ الْقَصْدُ وَالْإِقْتِصَارُ فِي الْوَصِيَّةِ ؛ لِأَنَّ
الْكَلَامَ الْمُخْتَصَرَ أَوْقَعَ فِي النَّفْسِ وَأَسْهَلَ فِي الضَّبْطِ . قَوْلُهُ : (لَعَنَ اللَّهُ) اللَّعْنُ مِنَ الْمَحْلُوقِ : السَّبُّ ،
وَمِنْ الْخَالِقِ : الطَّرْدُ وَالْإِبْعَادُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَمِلُ الْخَبَرَ وَتَحْتَمِلُ الدَّعَاءَ . قَوْلُهُ : (مَنْ ذَبَحَ
لِغَيْرِ اللَّهِ) تَقَرُّبًا وَتَعْظِيمًا ، أَوْ إِهْلَالًا وَتَسْمِيَةً ، وَافْتِرَاءُ الْفِعْلِ بِاللَّغْنِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَالذَّبْحُ
لِغَيْرِ اللَّهِ شَرُّهُ أَكْبَرُ . قَوْلُهُ : (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ) وَهَذَا يَشْمَلُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ مُبَاشَرَةً أَوْ تَسَبُّبًا فِي
ذَلِكَ وَهَذَا هُوَ الْغَالِبُ فَنَبِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مِنْ الْكِبَائِرِ شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيْهِ » .
قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ يَشْتُمُ الرَّجُلُ وَالِدَيْهِ قَالَ « نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ وَيَسُبُّ أُمَّهُ فَيَسُبُّ

(١) سورة الكوثر الآية: ٢ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي - باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله (١٩٧٨) .

أَمَّهُ «^(١) وفيه : دليلٌ عَلَى قَاعِدَةِ الْمُتَسَبِّبِ يُنْزَلُ مِنْزِلَةُ الْمُبَاشِرِ ، وَكَثِيرٌ مَا يَأْتِي فِي الشَّرْعِ افْتِرَانُ حَقِّ اللَّهِ بِحَقِّ الْوَالِدَيْنِ ؛ لِأَنَّ اللَّهَ خَالِقُ الْعَبْدِ ، وَالْوَالِدَانِ سَبَبٌ فِي وُجُودِهِ . (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحَدِّثًا) آوَى : حَمَى وَنَصَرَ ، وَ الْمُحَدِّثُ : يَشْمَلُ الْعَاصِي وَالْمُبْتَدِعَ . قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : هَذِهِ الْكَبِيرَةُ تَخْتَلِفُ مَرْتَبَتُهَا بِاخْتِلَافِ مَرَاتِبِ الْحَدِيثِ نَفْسِهِ ، فَكُلَّمَا كَانَ الْحَدِيثُ أَكْبَرَ كَانَتْ الْكَبِيرَةُ أَعْظَمَ (لَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الْأَرْضِ)

وَأَمَّا الْمُرَادُ بِمَنَارِ الْأَرْضِ فِيهِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ : الْأَوَّلُ قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَالْمُرَادُ بِمَنَارِ الْأَرْضِ - يَفْتَحُ الْمِيمَ - عِلَامَاتُ حُدُودِهَا) ^(٢) . أَي : قَدَّمَ الْعِلَامَاتِ وَالْحُدُودَ وَأَخَّرَهَا لِيَأْخُذَ حَقَّ غَيْرِهِ ، وَفِيهِ حَدِيثٌ : « مَنْ افْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا طَوَّقَهُ اللَّهُ إِثْمًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ » ^(٣) الثَّانِي : أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ : أَعْلَامُ الْحَرَمِ ؛ لِأَنَّ الْحَرَمَ لَهُ أَحْكَامٌ تَخْصُهُ ، الثَّالِثُ : أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْعِلَامَاتُ الَّتِي عَلَى الطُّرُقِ ، فَيَحْصُلُ بِتَغْيِيرِهَا ضَلَالُ النَّاسِ عَنْ بُلْدَانِهِمْ . وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْحَدِيثِ عَلَيْهَا جَمِيعًا إِذْ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهَا ، وَفِي الْحَدِيثِ : دَلِيلٌ عَلَى جَوَازِ لَعْنِ الْفُسَّاقِ بِأَوْصَافِهِمْ لَا بِأَعْيَانِهِمْ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شَهَابٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (" دَخَلَ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ " قَالُوا : وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنْمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا ، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا : قَرِّبْ قَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أَقْرَبُ قَالُوا لَهُ : قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فَقَرَّبَ ذُبَابًا ، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ ، فَدَخَلَ النَّارَ وَقَالُوا لِلْآخَرِ : قَرِّبْ

(١) أخرجه البخاري، باب لا يسب الرجل والديه، برقم: (٥٦٢٨)، ومسلم، باب بَيَانِ الْكِبَائِرِ وَأَكْبَرِهَا، برقم: (٢٧٣).

(٢) شرح النووي على مسلم، (١٣ / ١٤١)

(٣) أخرجه مسلم، باب تَحْرِيمِ الظُّلْمِ وَعَصْبِ الْأَرْضِ وَغَيْرِهَا، برقم: (٤٢١٧).

فَقَالَ مَا كُنْتُ لِأَقْرَبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ" (١). رَوَاهُ أَحْمَدُ.]

قَالَ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَفِي الْحَدِيثِ عِدَّةٌ عَلَلٍ : الأول : طَارِقُ بْنُ شَهَابٍ مُخْتَلَفٌ فِي صُحْبَتِهِ، وَالثَّانِيَةُ : عَنْعَةُ الْأَعْمَشِ وَهُوَ مُدَلِّسٌ ، وَالثَّالِثَةُ : أَنَّ الْإِمَامَ أَحْمَدَ رَوَاهُ مُوقُوفًا عَنْ طَارِقٍ عَنْ سَلْمَانَ ، فَهُوَ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ) (٢). وقد صحَّ إسناده موقوفًا وقد قال النبي ﷺ " حَدِّثُوا عَنْ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ وَلَا حَرَجَ وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَدِّدًا، فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ » رواه البخاري وفيه مِنَ الْفَوَائِدِ مَعْرِفَةُ عَظَمَةِ قُبْحِ الشِّرْكِ فِي قُلُوبِ أَهْلِ التَّوْحِيدِ فَانْظُرْ كَيْفَ صَبَرَ عَلَى الْقَتْلِ وَلَمْ يُؤَافِقْهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِمَّا أَخْذًا بِالْعِزَّةِ أَوْ يَقَالُ إِنَّ الْإِكْرَاهَ لَيْسَ عِذْرًا فِي شَرِيعَتِهِمْ فَالْأَوَّلُ امْتَنَعَ مِنَ الشِّرْكِ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُ مَا يُقَرِّئُهُ لِلصَّنَمِ وَالثَّانِي امْتَنَعَ مِنَ الشِّرْكِ لِأَنَّهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقْرُبَ لغيرِ اللَّهِ شَيْئًا وَفِي الْحَدِيثِ قُرْبُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ.



(١) أخرجه أحمد في الزهد (ص ١٦) وأبو نعيم في «الحلية» (٢٠٣/١) موقوفًا على سلمان الفارسي.

(٢) الضعيفة برقم : (٥٨٢٩) - بتصرف -.

[١١]

باب لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (مَا أَحْسَنَ اتِّبَاعَ هَذَا الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ ، فَالَّذِي قَبْلَهُ مِنَ الْمَقَاصِدِ ، وَهَذَا مِنَ الْوَسَائِلِ ، ذَاكَ مِنْ بَابِ الشَّرْكَ الْأَكْبَرِ وَهَذَا مِنْ وَسَائِلِ الشَّرْكَ)^(١) . أ.هـ. فَحَرَّمَ الشَّرْعُ الذَّبْحَ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ سَدًّا لِلذَّرِيعَةِ ، وَقَطْعًا لِمُشَاهِدَةِ الْكُفَّارِ ، وَبُعْدًا عَنْ مَوَاطِنِ الرَّئِبِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾^(٢)] .

وَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْآيَةِ مِنْ جِهَةِ الْقِيَاسِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا مَنَعَ اللَّهُ رَسُولَهُ ﷺ مِنَ الْقِيَامِ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ الْمُؤَسَّسِ عَلَى هَذِهِ الْمَقَاصِدِ الْحَبِيشَةِ ، وَهِيَ الْمَذْكُورَةُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَهِيَ ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ [سُورَةُ التَّوْبَةِ: ١٠٧] مَعَ أَنَّهُ لَا يَقُومُ فِيهِ إِلَّا اللَّهُ ، فَكَذَلِكَ الْمَوَاضِعُ الْمُعَدَّةُ لِلذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ لَا يُذْبَحُ فِيهَا الْمُؤَجَّدُ لِلَّهِ ؛ لِأَنَّهَا قَدْ أُسِّسَتْ عَلَى مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَالشَّرْكَ بِهِ .

إشْكَالٌ يَرِدُ عَلَى هَذَا الدَّلِيلِ وَهُوَ : أَنَّهُ قَدْ جَاءَ عَنْ بَعْضِ الصَّحَابَةِ أَنَّهُمْ صَلُّوا فِي كَنَائِسِ النَّصَارَى ، كَعُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَغَيْرِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَفِي الْبُخَارِيِّ بَابُ الصَّلَاةِ فِي الْبَيْعَةِ وَهِيَ مَعْبُدُ الْيَهُودِ وَكَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ : « يُصَلِّي فِي الْبَيْعَةِ إِلَّا بَيْعَةً فِيهَا تَمَاتِيلُ » فَالْجَوَابُ : أَنَّ الصُّورَةَ فِي الذَّبْحِ لِلَّهِ وَالذَّبْحِ لِغَيْرِهِ وَاحِدَةٌ لَا تُمَيِّزُ بَيْنَهُمَا فِي الظَّاهِرِ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الْمَقَاصِدُ ، وَكَذَلِكَ الصُّورَةُ فِي صَلَاةِ النَّبِيِّ ﷺ فِي مَسْجِدِ الضَّرَارِ وَصَلَاةِ الْمُنَافِقِينَ أَيْضًا وَاحِدَةٌ ، وَأَمَّا صَلَاةُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْكَنِيسَةِ وَصَلَاةُ النَّصَارَى

(١) انظر القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ ، ص : ٦٠ .

(٢) سُورَةُ التَّوْبَةِ آيَةُ : ١٠٨ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
فَمُخْتَلَفَةٌ لَا يَخْتَلِطُ فِيهَا الْأَمْرُ عَلَى النَّاطِرِ ، فَيَقْرَنُ بَيْنَهَا النَّاطِرُ مِنْ أَوَّلٍ وَهَلَّةٍ كَمَا أَنَّ فِي الصَّلَاةِ فِي
الْكَنَائِسِ وَالْبَيْعِ إِزْغَامٌ لِأَهْلِ الشِّرْكِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ I قَالَ: (نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبَوَانَةٍ ،
فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ)؟ فَقَالَ: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟) قَالُوا: لَا قَالَ (فَهَلْ كَانَ
فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟) قَالُوا: لَا فَقَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرِ فِي
مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ) ^(١). رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.]

(ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ) ثَابِتُ بْنُ الضَّحَّاكِ بْنِ خَلِيفَةَ الْأَشْهَلِيِّ ، صَحَابِيُّ مَشْهُورٌ مَاتَ سَنَةَ ٦٤ هـ .
نَذَرَ رَجُلٌ (النَّذْرُ لُغَةً : هُوَ الْإِثْرُ ، وَشَرْعًا : هُوَ إِجْبَابُ الْمُكْلَفِ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا يُوجِبُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ) ،
بِوَانَةٍ (اسم مَوْضِعٍ . (فَسَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ) فِيهِ : الرَّجُوعُ إِلَى أَهْلِ الْعِلْمِ قَبْلَ التَّبَسُّطِ بِالْفِعْلِ .) فَقَالَ : هَلْ
كَانَ فِيهَا وَثْنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟ قَالُوا: لَا) فِيهِ : الْمَنْعُ مِنَ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ فِي الْمَكَانِ وَثْنٌ
وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ إِلَّا إِذَا نُسِيَتْ وَأُزِيلَتْ مَعَامُ الشِّرْكِ (قَالَ : فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ ؟ قَالُوا : لَا
(الْعِيدُ : مِنَ الْعَوْدِ مَكَانًا أَوْ زَمَانًا ، وَسُؤَالَ النَّبِيِّ ﷺ الْأَوَّلُ : عَنِ الشِّرْكِ ، وَسُؤَالُهُ الثَّانِي : عَنْ وَسَائِلِهِ
، وَفِيهِ : الْإِسْتِفْصَالُ فِي مَقَامِ الْإِحْتِمَالِ . (فَقَالَ : أَوْفِ بِنَذْرِكَ) فِيهِ : وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ
النَّذْرُ نَذْرَ طَاعَةٍ ، وَفِيهِ أَنَّ تَخْصِصَ بُقْعَةٍ مَا بِالنَّذْرِ مِمَّا لَا بَأْسَ بِهِ إِذَا خَلَا مِنَ الْمَوَانِعِ ، وَفِيهِ : أَنَّ
الذَّبْحَ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ مِنْ ذَرَائِعِ الشِّرْكِ وَوَسَائِلِهِ . قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (إِنَّ
الْمُؤْمِنَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَفْعَلَ الطَّاعَةَ فِي مَكَانٍ مِنْ أَمَاكِنِ الْجَاهِلِيَّةِ وَالشِّرْكِ إِلَّا إِذَا غُيِرَ هَذَا الْمَكَانُ ،
وَرَأَلَتْ عَنْهُ آثَارُ الْجَاهِلِيَّةِ وَنُسِيَتْ فَلَا بَأْسَ ، كَمَا أَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِهَدمِ اللَّاتِ وَبَنَاءِ مَسْجِدِ مَكَانِهِ ، فَهَذَا
يَجُوزُ التَّعْبُدُ فِيهِ) ^(٢) وفيه حديث طَلْقِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ خَرَجْنَا وَقَدَّا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَايَعَنَاهُ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأيمان والنذور - باب ما يؤمر به من الوفاء بالنذر (٣٣١٣)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود».

(٢) شرح كتاب التوحيد، ص: ٤٢، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض، - الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

وَصَلَّيْنَا مَعَهُ وَأَخْبَرَنَا أَنْ بَارِضَنَا بَيْعَةً لَنَا فَاسْتَوْهَبْنَاهُ مِنْ فَضْلِ طَهُورِهِ فَدَعَا بِمَاءٍ فَتَوَضَّأَ وَتَمَضَّمْضَ ثُمَّ صَبَّهُ فِي إِدَاوَةٍ وَأَمَرَنَا فَقَالَ اخْرُجُوا فَإِذَا أَتَيْتُمْ أَرْضَكُمْ فَاكْسِرُوا بِعَيْتِكُمْ وَأَنْضَحُوا مَكَانَهَا بِهَذَا الْمَاءِ وَاتَّخَذُوهَا مَسْجِدًا فَلْنَا إِنَّ الْبَلَدَ بَعِيدٌ وَالْحَرُّ شَدِيدٌ وَالْمَاءُ يَنْشَفُ فَقَالَ مُدَّوهُ مِنَ الْمَاءِ فَإِنَّهُ لَا يَرِيدُهُ إِلَّا طَبِيبًا فَخَرَجْنَا حَتَّى قَدِمْنَا بَلَدَنَا فَكَسَرْنَا بِعَيْتِنَا ثُمَّ نَضَحْنَا مَكَانَهَا وَاتَّخَذْنَاهَا مَسْجِدًا. فَنَادَيْنَا فِيهِ بِالْأَذَانِ قَالَ وَالرَّاهِبُ رَجُلٌ مِنْ طَبِيبٍ فَلَمَّا سَمِعَ الْأَذَانَ قَالَ دَعْوَةُ حَقٍّ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ تَلْعَةً مِنْ تِلَاعِنَا فَلَمْ نَرَهُ بَعْدُ^(١) قَوْلُهُ (فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرِ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ) فِي الْحَدِيثِ : دَلِيلٌ عَلَى تَحْرِيمِ نَذْرِ الْمَعْصِيَةِ وَفِيهِ أَنَّ الْمَعْصِيَةَ قَدْ تُؤْتَرُ فِي الْأَرْضِ وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ . قَوْلُهُ : (وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ) ، لِأَنَّ الْعَبْدَ لَيْسَ لَهُ حَقُّ التَّصَرُّفِ فِيمَا لَا يَمْلِكُ ، وَفِي الْبَابِ قِيَاسُ الْمَسْأَلَةِ الْمَشْكَالَةِ عَلَى الْوَاضِحَةِ ، وَالْمَسْأَلَةُ الْمَشْكَالَةُ هُنَا : هِيَ الذَّبْحُ لِلَّهِ فِي مَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَالْمَسْأَلَةُ الْوَاضِحَةُ : هِيَ نَهْيُ اللَّهِ نَبِيِّهِ أَنْ يُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِ الْمُنَافِقِينَ مَعَ أَنَّهُ لَا يُصَلِّيَ فِيهِ إِلَّا لِلَّهِ . - وَفِي الذَّبْحِ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ عِدَّةُ مَقَاسِدَ : أَوَّلًا : التَّشْبُهُ بِالْمُشْرِكِينَ ، ثَانِيًا : التَّغْيِيرُ بِالْجَاهِلِينَ ، ثَالِثًا : تَكْثِيرُ سَوَادِ الْمُشْرِكِينَ ، رَابِعًا : قَدْ يَقَعُ فِي نَفْسِ الذَّابِحِ شَيْءٌ بِأَنَّ هَذَا الْمَكَانَ مُبَارَكٌ أَوْ لَهُ مَيِّزَةٌ عَلَى غَيْرِهِ ، خَامِسًا : قَدْ يُسَاءُ الظَّنُّ بِمَنْ يَقَعُ مِنْهُ ذَلِكَ.



(١) رواه أبوداود والنسائي وصححه الألباني.

[١٢]

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ فَهَذَا أَيْضاً مِنْ تَفْصِيلِ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ فِيمَا سَبَقَ . النَّذْرُ لُغَةً : هُوَ الْإِجَابُ ، وَشَرْعاً: إِجَابُ الْمُكَلَّفِ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَا يُوجِبُهُ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَ النَّذْرُ قِسْمَانِ : الْأَوَّلُ : نَذْرُ تَبَرُّرٍ ، وَهُوَ عَقْدُ النَّذْرِ بَلَا قَيْدٍ كَأَن يَقُولَ اللَّهُ عَلَيَّ أَن أَفْعَلَ كَذَا ، الثَّانِي : نَذْرُ مُجَازَاةٍ ، وَهُوَ عَقْدُ النَّذْرِ بِقَيْدٍ فَيَقُولُ لِنَفْسِي حَصَلَ كَذَا فَعَلْتُ كَذَا مِنْ أَنْوَاعِ الطَّاعَةِ وَ عَقْدُ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ . وَوَجْهُ الْكَرَاهَةِ : أَنَّ الْعَبْدَ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَا يُعْطِيهِ إِلَّا إِذَا فَعَلَ وَأَنَّهُ لَا يَفْعَلُ اللَّهُ إِلَّا إِذَا أَعْطَاهُ هَذَا بِالنِّسْبَةِ لِنَذْرِ الْمُجَازَاةِ ، أَمَا نَذْرُ التَّبَرُّرِ فَإِنَّ الْعَبْدَ قَدْ أَوْجَبَ عَلَى نَفْسِهِ مَا لَيْسَ بِوَاجِبٍ لَكِنَّ الْوَفَاءَ بِالنَّذْرِ وَاجِبٌ ، لِذَلِكَ مَدَحَ اللَّهُ الْمُؤَفِّينَ وَمَنْ يَمْدَحُ التَّائِذِينَ ، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ

مُسْتَطِيرًا﴾^(١)، وَهَذِهِ الْآيَةُ فِي مَدْحِ الْأَبْرَارِ ، فَالْوَفَاءُ بِالنَّذْرِ عِبَادَةٌ يُحِبُّهَا اللَّهُ ، وَصَرَفُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ إِشْكَالٌ وَحَلُّهُ وَهُوَ كَيْفَ تَقُولُونَ عَقْدُ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ وَصَرَفُهُ لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ ؟ الْجَوَابُ أَنَّ يُقَالُ إِنَّ عَقْدَ النَّذْرِ عَهْدَ بَيْنِ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْمَعْبُودِ بِعِبَادَةٍ فِي الْمُسْتَقْبَلِ بِقَيْدٍ أَوْ بِلَا قَيْدٍ فَإِنْ كَانَ هَذَا الْعَهْدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَسَيِّدِهِ الَّذِي خَلَقَهُ كَرِهَ عَقْدَ النَّذْرِ لَمَّا سَبَقَ ذِكْرُهُ وَإِنْ كَانَ هَذَا الْعَهْدُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ شِرْكٌ أَكْبَرُ لِأَنَّهُ وَعْدٌ بِالْعِبَادَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ^(٢)].

(١) سورة الإنسان الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٠٧.

(مَا) شَرْطِيَّةٌ. وَوَجْهُ الاستِدْلَالِ بِهَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ اللَّهَ قَرَنَ النَّذْرَ بِالنَّفَقَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَالنَّذْرُ وَعْدٌ بِالطَّاعَةِ كَمَا أَنَّ النَّفَقَةَ طَاعَةٌ فَإِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ وَعْدٌ بِالطَّاعَةِ فَصَرَفُهُ لِعَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ. قَوْلُهُ: (فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ) هَذَا حُضْرٌ عَلَى النَّفَقَةِ وَالْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ ، وَأَنَّ اللَّهَ سَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ لِعِلْمِهِ بِطَاعَتِكُمْ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

(مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهْ) ^(١)

(وَفِي الصَّحِيحِ) الْحَدِيثُ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هِيَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، الصَّديقَةُ بِنْتُ الصَّديقِ الْمُبَرَّاءِ مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ ، مِنْ أَفْضَلِ النِّسَاءِ ، وَفِي تَفْضِيلِهَا عَلَى حَدِيثَةٍ خِلَافٍ . قَوْلُهُ: (مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ فَلْيُطِعهُ) فِيهِ : وَجُوبُ الْوَفَاءِ بِالنَّذْرِ إِذَا كَانَ نَذْرُ طَاعَةٍ ، وَفِيهِ : دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ نَذْرَ الطَّاعَةِ عِبَادَةٌ. (وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهْ) النَّذْرُ إِجَابٌ ، وَالْمَعْصِيَةُ مُحَرَّمَةٌ فَكَيْفَ يُوجِبُ عَلَى نَفْسِهِ مُحَرَّمًا؟! وَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : قَوْلُهُ (لَا نَذَرَ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ وَكَفَّارَتُهُ كَفَّارَةُ يَمِينٍ) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَهْلُ السُّنَنِ ، أَيُ : مَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ فَلَا يَعْصِهْ وَعَلَيْهِ كَفَّارَةُ يَمِينٍ.



(١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور - بالنذر في الطاعة (٦٦٩٦).

[١٣]

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ الْإِسْتِعَادَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّهُ مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ الْإِمَامُ فِي الْبَابِ السَّادِسِ ، وَ الْإِسْتِعَادَةُ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الدُّعَاءِ فَهِيَ : طَلَبُ الْعَوْذِ أَيْ : الْإِحْتِمَاءِ وَالْعِصْمَةِ مِنْ شَيْءٍ تَخَافُهُ بَمَنْ يَعِصُمُكَ مِنْهُ ، وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنَّ " الدُّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ " رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ الْإِسْتِعَادَةَ دُعَاءٌ ، فَصَرَفُهَا لِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ ، وَأَيْضاً يَمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِسْتِعَادَةَ عِبَادَةٌ أَمَرَ اللَّهُ بِهَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾^(٢)].

سَبَبُ نَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ : أَنَّ الْعَرَبَ كَانُوا إِذَا نَزَلُوا وَادِيًا قَالُوا : نَعُوذُ بِسَيِّدِ هَذَا الْوَادِي مِنْ سَفَهَاءِ قَوْمِهِ . رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فَزَادُوهُمْ قِيلَ : الْوَاوُ تَعُوذُ إِلَى الْجِنِّ ، وَقِيلَ : تَعُوذُ إِلَى الْإِنْسِ ، وَالْخِلَافُ أَيْضاً فِي ضَمِيرِ النَّصْبِ هَلْ يَعُوذُ إِلَى الْإِنْسِ أَوْ الْجِنِّ ؟ قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (كَلا الْمَعْنَيْنِ حَقٌّ)^(٣) ، فَعَلَى الْمَعْنَى الْأُولَى زَادَتْ الْجِنُّ الْإِنْسَ خَوْفاً وَتَعَباً بِتَسْلُطِهَا عَلَيْهَا بِسَبَبِ الشِّرْكِ بِهَا ، وَعَلَى الثَّانِي زَادَتْ الْإِنْسُ الْجِنَّ اسْتِكْبَاراً وَطُغْيَاناً ، وَفِي الْآيَةِ : بَيَانُ مَقَاسِدِ الْإِسْتِعَادَةِ بِغَيْرِ اللَّهِ وَعَوَاقِبُهَا الْوَحِيمَةُ وَمَعَبِّتُهَا الْأَلِيمَةُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

(١) سورة الأعراف الآية: ٢٠٠.

(٢) سورة الجن الآية: ٦.

(٣) شرح كتاب التَّوْحِيدِ، ص: ٤٤.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا فَقَالَ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرَحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ) (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .]

(خَوْلَةُ بِنْتِ حَكِيمٍ) هِيَ بِنْتُ حَكِيمِ بْنِ أُمَيَّةَ السُّلَمِيَّةِ يُقَالُ لَهَا : أُمُّ شَرِيكِ ، وَكَانَتْ تَحْتَ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ ، قِيلَ : إِنَّهَا الْوَاهِبَةُ - الَّتِي وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ - ﷺ - (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا) يَشْمَلُ كُلَّ نَازِلٍ وَكُلُّ نَزُولٍ عَلَى سَبِيلِ الْإِقَامَةِ الطَّارِئَةِ أَوْ الدَّائِمَةِ . (فَقَالَ أَعُوذُ) أَي : أَلْتَجِئُ وَاعْتَصِمُ (بِكَلِمَاتِ اللَّهِ) الْمُرَادُ هُنَا كَلِمَاتُهُ الْكَوْنِيَّةُ لِحَدِيثِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ خَبْشٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ « أَتَانِي جَبْرِيلُ فَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ! قُلْ ، قُلْتُ : وَمَا أَقُولُ ؟ قَالَ : قُلْ أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ الَّتِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَذَرَأَ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِّ مَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمِنْ شَرِّ مَا يَعْجُجُ فِيهَا وَمِنْ شَرِّ مَا ذَرَأَ فِي الْأَرْضِ وَبَرَأَ وَمِنْ شَرِّ مَا يُخْرِجُ مِنْهَا وَمِنْ شَرِّ فِتَنِ اللَّيْلِ وَالتَّهَارِ وَمِنْ شَرِّ كُلِّ طَارِقٍ يَطْرُقُ إِلَّا طَارِقًا يَطْرُقُ بِخَيْرٍ يَا رَحْمَنُ » رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالطَّبْرَانِيُّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ .

فَإِنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ اللَّائِي لَا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ وَلَا فَاجِرٌ هِيَ الْكَلِمَاتُ الْكَوْنِيَّةُ أَمَا كَلِمَاتُ اللَّهِ الشَّرْعِيَّةُ فَإِنَّ الْفَاجِرَ يَتَجَاوِزُهُنَّ ، (مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ) أَي : مِنْ شَرِّ كُلِّ مَخْلُوقٍ (لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ) شَيْءٌ : نَكِرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعْمُ ، وَاسْتَدَلَّ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى الْمَعْتَزِلَةِ بِهَذَا الْحَدِيثِ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ؛ لِأَنَّ الْإِسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكٌ ، مِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ عَدَمَ الْإِسْتِعَاذَةِ بِالْمَخْلُوقِ كَانَتْ مُحَلُّ اتِّفَاقٍ بَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْمَعْتَزِلَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ .

قَالَ الْقُرْطُبِيُّ (٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا خَبَرٌ صَحِيحٌ ، وَقَوْلُ صَادِقٍ عَلِمْنَا صِدْقَهُ دَلِيلًا وَبَحْرِيَّةً ، فَإِنِّي مُنْذُ سَمِعْتُ هَذَا الْخَبَرَ عَمِلْتُ عَلَيْهِ فَلَمْ يَضُرَّنِي شَيْءٌ إِلَى أَنْ تَرَكْتُهُ فَلَدَعْتَنِي عَقْرَبٌ بِالْمَهْدِيَّةِ لَيْلًا ، فَتَفَكَّرْتُ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء - باب في التعوذ من سوء القضاء ودرك الشقاء (٢٧٠٨) .

(٢) أحمد بن عمر بن إبراهيم ، أبو العباس الأنصاري القرطبي : فقيه مالكي ، من رجال الحديث يعرف بابن المزين كان مدرسا بالإسكندرية وتوفي بها ومولده بقرطبة ، من كتبه المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ٥٧٨ - ٦٥٦ هـ الإعلام للزركلي ١٨٦/١

امْتَنِعْ أَهْلَ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
فِي نَفْسِي فَإِذَا بِي نَسِيتُ أَنْ أَتَعَوَّدَ بِتِلْكَ الْكَلِمَاتِ فَقُلْتُ لِنَفْسِي - دَاماً هَا وَمَوْجِئاً - مَا قَالَهُ ﷺ
لِلرَّجُلِ الْمَلْدُوغِ: "أَمَا إِنَّكَ لَوْ قُلْتَ حِينَ أُمْسَيْتَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ
تَضُرَّكَ".^(١) وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ عَمَلُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْعِلْمِ ، وَذَمُّهُمْ أَنْفُسَهُمْ وَأَنَّ كُلَّ مُصِيبَةٍ تُصِيبُ الْعَبْدَ إِنَّمَا
عَلَيْهِ أَنْ يُحَاسِبَ نَفْسَهُ وَلِيَعْلَمَ أَنَّهُ مِنْ قَبْلِهَا أُوتِيَ.



(١) المفهم ٣٦/٧.

[١٤]

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَعِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُو غَيْرَهُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّهُ أَيْضاً مِنَ التَّفْصِيلِ الَّذِي وَعَدَ بِهِ فِي الْبَابِ السَّادِسِ . قَوْلُهُ (مِنَ الشِّرْكِ) أَيُّ : الْأَكْبَرِ ، (أَنْ يَسْتَعِيثَ بِغَيْرِ اللَّهِ) الْاسْتِعَاثَةُ : هِيَ طَلَبُ الْعَوْثِ ، فَهِيَ دُعَاءٌ فِي حَالِ الشَّدَةِ وَالْكَرْبِ . فَيَكُونُ عَطْفُ الدُّعَاءِ عَلَى الْاسْتِعَاثَةِ مِنْ بَابِ عَطْفِ الْعَامِّ عَلَى الْخَاصِّ ، وَالدُّعَاءُ نَوْعَانِ : دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ وَدُعَاءُ عِبَادَةٍ ، وَ إِمَّا يَكُونُ الدُّعَاءُ وَ الْاسْتِعَاثَةُ بِالْمَخْلُوقِ شِرْكَاً إِذَا كَانَتْ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ . وَتَقْدِيرُ التَّرْجَمَةِ الْاسْتِعَاثَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ وَدُعَاءُ غَيْرِهِ مِنَ الشِّرْكِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (١٠٦)] وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا

رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿ (١)] .

(وَلَا تَدْعُ) لَا : نَاهِيَةٌ وَالنَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ ، بَلْ هُوَ شِرْكٌ ، (مِنْ دُونِ اللَّهِ) أَيُّ : غَيْرِ اللَّهِ ، (مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ) هَذِهِ صِفَةٌ كَاشِفَةٌ تَأْتِي لِبَيَانِ الْوَاقِعِ لَا لِلْقَيْدِ ، فَكُلُّ مَنْ يُدْعَى مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَ النَّفْعَ ، وَفَائِدَتُهَا زِيَادَةُ التَّشْنِيعِ . أَيُّ كَيْفَ تَدْعُو الَّذِي لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلْقِ عِنْدَهُ مِنَ النَّفْعِ وَالضَّرِّ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، بَلْ كُلُّهُمْ فَقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ (فَإِنْ فَعَلْتَ) الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَحَاشَاهُ أَنْ يَفْعَلَ ؛ لِأَنَّهُ مَعْصُومٌ مِنَ الْخَطَا ، وَدُعَاءُ غَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ بَلْ هُوَ بَجْرُدٍ مِنَ الْعَقْلِ ، فَالْمَرَادُ تَحْذِيرُ أَمْتِهِ مِنْ ذَلِكَ .

(فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ) وَفِي الْآيَةِ : أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ دَعَا غَيْرَ اللَّهِ لَصَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ ، الظَّالِمُونَ : هُمْ الْمُشْرِكُونَ ؛ لِأَنَّ الظُّلْمَ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ (١) ، وَالشِّرْكُ صَرْفُ الْعِبَادَةِ إِلَى مَنْ لَا

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
يَسْتَحِقُّهَا ، وَبَعْدَ أَنْ نَهَى اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يَدْعُو غَيْرَهُ وَبَزَهْنَ لَهُ أَنَّ غَيْرَهُ لَا يَمْلِكُ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا. قَالَ لَهُ:
(وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ) إِلَى آخِرِهَا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (بَيَانٌ لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ وَالنَّفْعَ وَالضَّرَّ إِنَّمَا هُوَ رَاجِعٌ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا يُشَارِكُهُ فِي ذَلِكَ أَحَدٌ ، فَهُوَ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهُ ، لَا شَرِيكَ لَهُ) (٢).
وَهُوَ الْعَفْوُ الرَّحِيمُ : الْمَغْفِرَةُ هِيَ : السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ لِمَا مَضَى . وَالرَّحْمَةُ : أَنْ يُوقِفَكَ إِلَى تَرْكِ السَّيِّئَاتِ
فِيمَا بَقِيَ.

قال الإمام - رحمه الله - [قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا

فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٣).]

قَوْلُهُ (إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا) هَذَا بَيَانٌ لِقَوْلِ كُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ .
فَاتَّبِعُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ (أَي : إِذَا كَانَتْ لَا تَمْلِكُ الرِّزْقَ فَلَا تَطْلُبُوهُ مِنْهَا بَلْ اطْلُبُوا الرِّزْقَ مِنَ اللَّهِ الَّذِي
يَمْلِكُهُ . : لِأَنَّهُ الْعِنْيُ وَغَيْرُهُ فَقِيرٌ مُؤْصِفٌ بِالنَّقْصِ فَلَا يَصْلُحُ لِلْعِبَادَةِ ، وَلَا تَصِحُّ عِبَادَةُ اللَّهِ إِلَّا بِتَرْكِ
عِبَادَةِ غَيْرِهِ ، وَفِي الْأَمْرِ بِالْعِبَادَةِ بَعْدَ بَيَانِ أَنَّ الرِّزْقَ يُطْلَبُ مِنْهُ وَحْدَهُ اسْتِدْلَالٌ بِالرُّبُوبِيَّةِ عَلَى الْأُلُوهِيَّةِ)
وَاشْكُرُوا لَهُ (هَذَا أَمْرٌ بِالشُّكْرِ وَبِالْإِحْلَاصِ فِيهِ وَالشُّكْرُ : هُوَ اغْتِرَافُ الْقَلْبِ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِالنِّعْمَةِ
وَتَنَاءُ الْعَبْدِ عَلَيْهِ بِاللِّسَانِ ، وَاسْتِعْمَالُهُ نِعْمَةَ اللَّهِ فِي طَاعَتِهِ .

قال الإمام - رحمه الله - [وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ

الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴾ (٤).]

(١) لسان العرب ١٢/٣٧٣.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/٣٠٠.

(٣) سورة العنكبوت الآية: ١٧.

(٤) سورة الأحقاف الآية: ٥-٦.

[١٤] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَعِيْثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوْهُ غَيْرُهُ

(وَمَنْ أَضَلُّ) الْأَسْتِفْهَامُ هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَهُوَ قَدْ تَجَرَّدَ مِنَ الْعَقْلِ وَالْدِينِ ، ثُمَّ بَيَّنَّتِ الْآيَاتُ صِفَاتِ هَؤُلَاءِ الْمَدْعُوِّينَ : الْأُولَى : أَنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُونَ لِمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، الثَّانِيَةُ : أَنَّهُمْ غَافِلُونَ عَنْ هَذَا الدُّعَاءِ ، الثَّالِثَةُ : أَنَّهُمْ يَكُونُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْدَاءً لِعَابِدِيهِمْ ، الرَّابِعَةُ : أَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ عِبَادَةَ عَابِدِيهِمْ وَيَكْفُرُونَ بِهَا ، وَفِي الْآيَةِ تَسْمِيَةُ الدُّعَاءِ عِبَادَةً.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ

خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَيْ لَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَكَّرُونَ ﴾]^(١)

هَذَا اخْتِجَاجٌ عَلَى الْمُشْرِكِينَ بِنَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ تَوْحِيدِ الْأُلُوْهِيَّةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ عَلَى الْأَنْوَاعِ الَّتِي لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ، وَالْمَعْنَى : إِذَا كَانَتْ هَذِهِ الْأَلْهَةُ لَا تُجِيبُكُمْ فِي حَالَةِ الْإِضْطِرَارِ وَالشَّدَّةِ فَلَا يَصْلُحُ أَنْ تَجْعَلُوهَا آلِهَةً مَعَ اللَّهِ فِي حَالَةِ الرَّخَاءِ وَالْإِخْتِيَارِ ، وَالْأَسْتِفْهَامُ فِي الْآيَةِ تَقْرِيرِي فَاللَّهُ أَمَرَ نَبِيَهُ ﷺ أَنْ يَسْأَلَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الَّذِي يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ وَيَكْشِفُ الْبَلَاءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ لِلَّذِينَ قَبْلَكُمْ وَلَمْ يَذْكُرْ جَوَابَهُمْ لَوْضُوحَهُ وَفِيهَا إِقْرَارُ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِلَّا اللَّهُ ، وَأَعْجَبُ مِنْهُ أَنَّ عَبْدَةَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ لَا يَقْرَأُونَ بِذَلِكَ وَقَدْ وَقَعَ اسْتِيقَاطُ الْفَطْرِ بِالشَّدَائِدِ لِعِكْرَمَةِ بَنِي أَبِي جَهْلٍ كَمَا عِنْدَ النَّسَائِيِّ فِي قِصَّةِ إِسْلَامِهِ (وَأَمَّا عِكْرَمَةُ فَزَكَبَ الْبَحْرَ فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ أَخْلَصُوا فَإِنَّ آلهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا فَقَالَ عِكْرَمَةُ وَاللَّهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّنِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا إِنَّ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتَيْتَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ فَلَا جِدْنَهُ عَفْوًا كَرِيمًا فَجَاءَ فَأَسْلَمَ)

(١) سورة النمل الآية: ٦٢ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَى الطَّبْرَايُ بِإِسْنَادِهِ (أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي
الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ قَوْمُوا بِنَا نَسْتَعِثُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ إِنَّهُ
لَا يُسْتَعَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَعَاثُ بِاللَّهِ)^(١)]. أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ بِلَفْظٍ قَرِيبٍ مِنْ هَذَا وَ قَالَ الْأَلْبَانِي فِيهِ عِلَّتَانِ:
الْأُولَى : فِي سَنَدِهِ الْحَارِثُ بْنُ يَزِيدَ وَهُوَ مُبْهَمٌ ، الثَّانِيَةُ: فِي سَنَدِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ لُحَيْعَةَ.



(١) أوردته الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/٢٤٦).

[١٥]

بَاب

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَيْشُرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴾ (١١١)]

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١١﴾] .

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْمُؤَلِّفَ ذَكَرَ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ أَنْوَاعًا مِنَ الشِّرْكِ ، وَهَذَا يَشْرَعُ فِي ذِكْرِ الْبَرَاهِينِ الدَّالَّةِ عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ وَوُجُوبِ التَّوْحِيدِ . قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا شُرُوعٌ فِي بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ وَأَدْلَتِهِ ، فَالتَّوْحِيدُ لَهُ مِنَ الْبَرَاهِينِ النَّقْلِيَّةِ وَالْعَقْلِيَّةِ مَا لَيْسَ لِعَبْدِهِ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ التَّوْحِيدَ بَيْنَ - تَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ وَتَوْحِيدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ - مِنْ أَكْبَرِ بَرَاهِينِهِ وَأَضَحِّمَهَا ، فَالْمُتَّقِرُّ بِالْخَلْقِ وَالتَّذْوِيرِ ، وَالْمُتَوَحِّدُ فِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ هُوَ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ سِوَاهُ . وَكَذَلِكَ مِنْ بَرَاهِينِ التَّوْحِيدِ مَعْرِفَةُ أَوْصَافِ الْمَخْلُوقِينَ ، فَهَذَا دَلِيلٌ عَقْلِيٌّ فِطْرِيٌّ ، كَمَا أَنَّ دَلِيلًا سَمْعِيًّا نَقْلِيًّا عَلَى وَجُوبِ تَوْحِيدِ اللَّهِ وَأَنَّهُ الْحَقُّ ، وَعَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ فَنُعُوثُ الْبَارِي تَعَالَى وَصِفَاتُ عَظَمَتِهِ وَتَوْحُّدُهُ فِي الْكَمَالِ الْمُطْلَقِ أَكْبَرُ بُرْهَانٍ عَلَى أَنَّهُ لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ إِلَّا هُوَ . وَكَذَلِكَ صِفَاتُ الْمَخْلُوقَاتِ كُلِّهَا ، وَمَا هِيَ عَلَيْهِ مِنَ النِّقْصِ وَالْحَاجَةِ وَالْفَقْرِ إِلَى رَبِّهَا فِي كُلِّ شَأْنٍ ، وَأَنَّ لَهَا مِنَ الْكَمَالِ ، إِلَّا مَا أَعْطَاهَا رَبُّهَا مِنْ أَعْظَمِ الْبَرَاهِينِ عَلَى بُطْلَانِ إِِلَهِيَّةِ شَيْءٍ مِنْهَا) . (٢) انْتَهَى

قَوْلُهُ : (أَيْشُرِكُونَ) الِهْمَزَةُ : لِلْإِسْتِفْهَامِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّوْبِيخُ وَالتَّعْنِيفُ ، قَوْلُهُ : (مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا) فِيهِ بَيَانٌ لِعَجْزِ آلِهَتِهِمْ ، قَوْلُهُ : (وَهُمْ يُخْلَقُونَ) وَهَذَا بَيَانٌ لِقُفْرِهَا ، (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا) بَيَانٌ لِعَجْزِهَا عَنْ نُصْرَةِ عَابِدِيهَا ، قَوْلُهُ : (وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ) هَذِهِ غَايَةُ فِي الْعَجْزِ فَهِيَ لَا تَدْفَعُ الضَّرَّ عَنْ نَفْسِهَا فَضْلًا عَنْ غَيْرِهَا ، فَهَذَا بُرْهَانٌ ظَاهِرٌ عَلَى بُطْلَانِ الشِّرْكِ بِاللَّهِ ، وَهُوَ يَشْمَلُ كُلَّ مَعْبُودٍ مَعَ اللَّهِ بَرًا كَانَ أَوْ فَاجِرًا .

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩١-١٩٢ .

(٢) القول السديد ص ٦٤-٦٥ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحْمَةُ اللَّهِ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾] .

هَذَا بَيَانٌ لِحَالِ الْمَعْبُودِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَالَّذِي يُدْعَى يَنْبَغِي أَنْ يَتَّصِفَ بِثَلَاثِ صِفَاتٍ هِيَ : الْمَلَكُ وَالسَّمْعُ وَالْقُدْرَةُ ، فَإِنْ انْتَفَى أَحَدُ هَذِهِ الْأَوْصَافِ فَلَا يُدْعَى ، فَكَيْفَ إِذَا انْتَفَتْ ثَلَاثُهَا ! فَقَوْلُهُ (وَمَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ) هَذَا نَفْيٌ لِلْمَلِكِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا (الْقِطْمِيرُ هُوَ اللَّفَافَةُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى نَوَاقِ التَّمْرِ) (١) وَقَوْلُهُ : (إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ) هَذَا نَفْيٌ لِلسَّمْعِ ، وَقَوْلُهُ : (وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ) هَذَا نَفْيٌ لِلْقُدْرَةِ . (وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ) بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ - سُبْحَانَهُ - خُذْلَانَ الْأَلِهَةِ لِعَابِدِيهَا فِي الدُّنْيَا عَقَّبَ - سُبْحَانَهُ - بَبَيَانِ خُذْلَانِهَا لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ فَبَيَّنَّ أَنَّهَا تَجْحَدُ هَذِهِ الْعِبَادَةَ وَسَمَّاها اللَّهُ شِرْكَاً قَوْلُهُ : (وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ) أَي : لَا يُخْبِرُكَ عَنْ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ وَمَالَاتِهَا وَمَا تَصِلُ إِلَيْهِ إِلَّا الْخَبِيرُ بِهَا ، قَالَ قَتَادَةُ - رَحْمَةُ اللَّهِ - : (يَعْني : نَفْسُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، فَإِنَّهُ أَخْبَرَ بِالْوَاقِعِ لَا مَحَالَةٍ) (٢) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحْمَةُ اللَّهِ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ : (شُجَّ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ فَقَالَ كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟ فَزَلَّتْ : ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٤)] .

(شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ) قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ : (الشُّجُّ يَكُونُ فِي الرُّأْسِ خَاصَّةً) (١) وَالَّذِي شَجَّهُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ ، (وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ) - بَفَتْحِ الرَّاءِ - وَهِيَ السِّنُّ الَّتِي تَلِي الشَّيَا ، (وَكُسِرَتْ) أَي : لَمْ

(١) سورة فاطر الآية: ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ط ٢٠ ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ٦ / ٥٤١ ، ت : سامي بن محمد سلامة.

(٣) المصدر السابق

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٢٨ .

تُفْلَعُ مِنْ أَصْلِهَا ، وَهَذَا فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً ، وَلِهَذَا الْقَائِدَةُ سَأَلَ الْإِمَامُ هَذَا الْحَدِيثَ ، وَفِيهِ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ ، وَقَدْ قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَفِي هَذَا وَقُوعُ الْأَسْقَامِ وَالْإِبْتِلَاءِ بِالْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ)^(٢) ، وَقَالَ الْقَاضِي^(٣) - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فِيهِ مَا ابْتَلَى بِهِ الْأَنْبِيَاءُ وَأَهْلَ الْفَضْلِ لِيَنَالُوا جَزِيلَ الْأَجْرِ ، وَيَسْهَلُ عَلَى أُمَّهَاتِهِمْ وَعَوِيْرِهِمْ مَا أَصَابَهُمْ ، وَيَتَأَسَّوْا بِهِمْ ، وَلِيُعْلَمَ أَنََّّهُمْ مِنْ الْبَشَرِ تُصِيبُهُمْ مَحْنُ الدُّنْيَا ، وَيَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِهِمْ مَا يَطْرَأُ عَلَى أَجْسَامِ الْبَشَرِ لِيَتَحَقَّقُوا أَنََّّهُمْ مَخْلُوقُونَ مَرْبُوبُونَ ، وَلِكِنِّي لَا يَدْخُلُ اللَّبْسُ فِي الْمَفْعُولِ بِسَبَبِ مَا ظَهَرَ عَلَى أَيْدِيهِمْ مِنَ الْعَجَائِبِ وَالْآيَاتِ مَا يُشَكِّكُ فِي بَشَرِيَّتِهِمْ ، وَيُلَبِّسُ الشَّيْطَانُ مِنْ أَمْرِهِمْ مَا لَبَسَ بِهِ عَلَى النَّصَارَى وَأَشْبَاهِهِمْ)^(٤) فِي الْحَدِيثِ حَاجَةُ النَّبِيِّ إِلَى حِفْظِ رَبِّهِ وَكَلَاءَتِهِ سُبْحَانَهُ . قَوْلُهُ : (فَقَالَ كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ ؟) الْأَسْتِفْهَامُ هُنَا لِلْإِسْتِيعَادِ ، فَاسْتَبَعَدَ فَلَاخَهُمْ ، فَانْزَلْتُ ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أَي : لَيْسَ لَكَ الْحُكْمُ عَلَى عَاقِبَةِ عِبَادِهِ ، وَهَذَا الْخِطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَكَيْفَ بَعِيْرِهِ ، وَفِيهِ الْحَذَرُ مِنْ آفَاتِ اللِّسَانِ ، وَمِنْ ذَلِكَ الْحُكْمُ عَلَى عَوَاقِبِ النَّاسِ ، فَكَمْ مِنْ بُغَاةٍ اهْتَدَوْا ، وَكَمْ مِنْ هُدَاةٍ بَعَوْا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِيهِ : (عَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا " أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ اَللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا بَعْدَ مَا يَقُولُ سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمَدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ " فَأَنْزَلَ اللَّهُ

(١) النهاية ٤٤٥/٢

(٢) شرح النووي على مسلم، (١٤٨ / ١٢)

(٣) القاضي عياض: ابن موسى بن عياض اليحصبي، أبو الفضل سبتي الدار والميلاد أخذ عن أبي رشد، وابن الحاج، وابن عتاب، وأجازه المازري، والطروشني وابن العربي، وأخذ عنه ابن عطية وابن زرقون، ومن مصنفاته: التنبيهات المستنبطة على المدونة، جمع فيه غرائب من ضبط الألفاظ وتحرير المسائل، إكمال المعلم في شرح مسلم، والشفاء وغير ذلك ولد سنة ٤٦٧ هـ وتوفي سنة ٥٤٤ هـ.

(٤) إكمال المعلم (١٦٤/٦)

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(١). وَفِي رِوَايَةٍ: (يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو

وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾^(٢))

(ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا) : هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْخَطَّابِ، شَهِدَ لَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاحِ، وَهُوَ مِنَ الْمُكْتَرَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الْحَدِيثِ. (أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرُّكْعَةِ الْآخِرَةِ مِنَ الْفَجْرِ) : فِي هَذَا بَيَانٌ مَوْضِعِ قُنُوتِ النَّوَازِلِ (اللَّهُمَّ الْعَنِ فُلَانًا وَفُلَانًا) اللَّعْنُ هُوَ الطَّرْدُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، وَفِي هَذِهِ الرِّوَايَةِ جَاءَ بِالْمَلْعُونِينَ عَلَى جِهَةِ الْإِنْبَهَامِ: وَصَرَّحَ بِهِمْ فِي الرِّوَايَةِ الْآخَرَى هُمْ: صَفْوَانَ بْنُ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرِو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَثَلَاثَتُهُمْ قَدْ أَسْلَمُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وَعَلَيْهِ فَإِنَّ سَبَبَ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ دُعَاؤُهُ عَلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، وَلَا تَعَارِضَ فَإِنَّ سَبَبَ النُّزُولِ قَدْ يَتَعَدَّدُ لِلآيَةِ الْوَاحِدَةِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: (أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) قَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ الَّذِينَ شَهِدُوا أُحُدًا مَعَ الْكُفَّارِ كَخَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ ، وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ شِهَابِ الزُّهْرِيِّ . وَفِي الْحَدِيثِ : قُنُوتُ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الْأَوْلِيَاءِ فَهُمْ يَفْتَقِرُونَ إِلَى اللَّهِ فَكَيْفَ يُلْجَأُ إِلَيْهِمُ النَّاسُ ؟!

وطريق الجمع - كما قال الحافظ - رحمه الله - بين الحديثين أن يقال: إن الآية نزلت في الأمرين معا، فيما له من الأمر، وفيما نشأ عنه من الدعاء عليهم.

قَالَ الْإِمَامُ - رحمه الله - [وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ] قَالَ: (قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَنْزَلَ عَلَيْهِ:

(وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ)^(٣) فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ (أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا)! اسْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ، لَا أَغْنِي

(١) أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم} {٤٥٥٩}.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي - باب {ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم} {٤٠٧٠}.

(٣) سورة الشعراء الآية: ٢١٦.

عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ! لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ! لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ! سَلِّبِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أَغْنِي عَنْكَ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا^(١)

(أَبُو هُرَيْرَةَ) هُوَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ صَخْرٍ، الدَّوْسِيُّ، أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ حِفْظًا لِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. (قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : (صَعَدَ عَلَى الصَّفَا)^(٢) وَفِيهِ : مُبَادَرَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِامْتِنَالِ أَمْرِ اللَّهِ، (وَأَنْذِرُ) الْإِنْذَارُ هُوَ الْإِعْلَامُ مَعَ التَّخْوِيفِ، (عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ) الْعَشِيرَةُ هِيَ الْقَبِيلَةُ، وَقَدْ أَمَرَهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا أَنْ يُنْذِرَ جَمِيعَ النَّاسِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَنْ أَنْذِرَ النَّاسَ﴾^(٣). وَلَا تَعَارِضَ بَيْنَ الْآيَتَيْنِ لَكِنَّ اسْتِجَابَةَ الْأَقْرَبِينَ سَبَبٌ فِي اسْتِجَابَةِ غَيْرِهِمْ، كَمَا أَنَّ أَوَّلِي الْقُرْبَى أَوَّلِي الْمَعْرُوفِ، (فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا) الْمَعْشَرُ هُمْ: الْجَمَاعَةُ. قَوْلُهُ: (اشْتَرَوْا أَنْفُسَكُمْ) وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي يَشْتَرِي، وَالسِّلْعَةُ هِيَ النَّفْسُ، وَالثَّمَنُ الْجَنَّةُ، وَالْمَشْتَرِي هُوَ اللَّهُ، وَالْمَعْنَى: انْقِدُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ كَمَا هُوَ فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ. قَوْلُهُ (لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا) أَيُّ: لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ.

قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَإِذَا كَانَ أَشْرَفُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ لَا يَمْلِكُ نَفْعَ نَفْسِهِ وَأَقْرَبَ الْخَلْقِ إِلَيْهِ وَأَمْسِيَهُ بِهِ رَحِمًا، فَكَيْفَ بَغْيُهُ؟!، فَتَبًّا لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَسَاوَى بِهِ أَحَدَ الْمَخْلُوقِينَ، لَقَدْ سَلَبَ عَقْلُهُ بَعْدَ أَنْ سَلَبَ دِينَهُ ... فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ الْخَلْقَ اضْطَرَّتْهُ هَذِهِ الْمَعْرِفَةُ إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ .. وَانْصَرَفَ تَعَلُّقُهُ بِالْمَخْلُوقِينَ خَوْفًا وَرَجَاءً وَطَمَعًا، وَاللَّهُ أَعْلَمُ)^(٤).

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ - بَابُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ} (٢٠٥).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ بِرَقْمٍ: (٤٥٨٩).

(٣) سُورَةُ يُونُسَ الْآيَةُ: ٢.

(٤) الْقَوْلُ السَّيِّدُ فِي مَقَاصِدِ التَّوْحِيدِ، ص: ٦٨.

امتناع أهل التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
وفي الحديث من الفوائد : الحثُّ على الاجتهاد والعمل وترك البطالة والاعتماد على الأنساب ، وفيه
تركُّ التَّعلُّقِ بالأشخاص ، وفيه أنَّ الانسَابَ إلى النَّبِيِّ ﷺ شرفٌ إذا كانَ معه عملٌ صالحٌ.



[١٦]

باب

قال الإمام - رحمه الله - [قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ^ط قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ^ط] ^(١).

مُنَاسَبَةُ هَذَا الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ السَّعْدِيُّ (وَهَذَا أَيْضًا بُرْهَانٌ عَظِيمٌ آخِرٌ عَلَى وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَبَطْلَانِ الشِّرْكَ ، وَهُوَ ذِكْرُ التَّصْوِصِ الدَّالِّ عَلَى كِبَرِيَاءِ الرَّبِّ وَعَظَمَتِهِ الَّتِي تَتَضَاعَلُ وَتَضْمَحِلُّ عِنْدَهَا عَظَمَةُ الْمَخْلُوقَاتِ فَالْمَخْلُوقَاتُ بِأَسْرِهَا خَاضِعَةٌ لِحَالِهِ ، مُعْتَرِفَةٌ بِعَظَمَتِهِ وَتَجَدِّهِ خَاضِعَةٌ لَهُ خَائِفَةٌ مِنْهُ ، فَمَنْ كَانَ هَذَا شَأْنُهُ فَهُوَ الرَّبُّ الَّذِي لَا يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ وَالْحَمْدَ وَالشَّاءَ وَالشُّكْرَ وَالتَّعْظِيمَ وَالتَّالَةَ إِلَّا هُوَ). (حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ) الْفَزَعُ : هُوَ الْخَوْفُ ، وَعَنْ : تَفِيدُ التَّجَاوُزَ ، أَيْ : حَتَّى إِذَا جَاوَزَ الْفَزَعُ قُلُوبَهُمْ . (قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ) أَيْ : قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ، فَفِيهِ : أَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْعَيْبَ ، وَفِيهِ : إِتِّبَاطُ صِفَةِ الْقَوْلِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . (قَالُوا الْحَقُّ) أَيْ : قَالُوا : قَالَ اللَّهُ الْحَقُّ ، (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) (الْعَلِيُّ) : فِي ذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَهُوَ مُتَّصِفٌ بِعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ وَالذَّاتِ ، أَمَّا عُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ وَالْقَدْرِ فَقَدْ أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ ، وَأَمَّا عُلُوُّ الذَّاتِ فَقَدْ أَثْبَتَهُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَخَالَفَ فِيهِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزِّلَةُ وَالْأَشَاعِرَةُ . (الْكَبِيرُ) : الْكَبِيرُ فِي ذَاتِهِ وَذُو الْكِبَرِيَاءِ وَهِيَ الْعَظَمَةُ الَّتِي لَا يُدَانِيهَا شَيْءٌ ، فَلَا أَعْظَمَ مِنْهُ سُبْحَانَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ I عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ؛ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ ، كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ : ﴿ حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ﴾ ^ط قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ^ط] فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقٌ

السَّمْعِ، وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةٍ، فَيَقُولُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ (١).

(إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ) يَكُونُ هَذَا الْقَضَاءُ بِالْقَوْلِ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢).

(فِي السَّمَاءِ) فِيهِ: إِثْبَاتُ الْعِلْوِ لِلَّهِ، (ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ) (خُضْعَانًا) - يَفْتَحَتَيْنِ أَوْ بَضَمٍ فُسْكُونٍ - وَهُوَ مَفْعُولٌ لِأَجْلِهِ: أَيُّ: لَا تَثْبُتُ أَفْعِدْتُهُمْ حِينَمَا يَسْمَعُونَ كَلَامَهُ، وَتَتَبَدَّى لَهُمْ عَظَمَتُهُ. (كَأَنَّهُ سِلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ) الصَّفْوَانُ: هُوَ الْحَجَرُ الْأَمْلَسُ، وَلَيْسَ الْمُرَادُ هُنَا تَشْبِيهُ صَوْتِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - بِصَوْتِ السِّلْسَلَةِ عَلَى الصَّفْوَانِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَشْبِيهُ لِسَوْتِ السَّمَاءِ إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا صَرِيحًا فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: - «إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ بِالْوَحْيِ سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاءِ لِلْسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السِّلْسَلَةِ عَلَى الصَّفَا فَيُصْعِقُونَ فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جَبْرِيلُ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ جَبْرِيلُ فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ». قَالَ: «فَيَقُولُونَ: يَا جَبْرِيلُ مَاذَا قَالَ قَالَ رَبُّكَ فَيَقُولُ: الْحَقُّ فَيَقُولُونَ: الْحَقُّ الْحَقُّ» (٣).

(يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) أَيُّ: يَخْلُصُ إِلَيْهِمْ جَمِيعًا، (فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ) أَيُّ: يَسْمَعُ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَتَكَلَّمُ بِهَا الْمَلَائِكَةُ. وَمُسْتَرَقُّ السَّمْعِ: هُوَ الشَّيْطَانُ، وَسَمَاءُ مُسْتَرَقُّ السَّمْعِ؛ لِأَنَّهُ يَخْتَلِسُ الْكَلَامَ اخْتِلَاسًا،

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب قوله: {إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين} (٤٧٠١).

(٢) سورة البقرة الآية: ١١٧.

(٣) أخرجه أبو داود، باب في القرآن، رقم: (٤٧٤٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ ^(١) قَوْلُهُ: (وَمُسْتَرْقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ) أَي: يَرْكُبُ بَعْضُهُ بَعْضًا ، (وَصَفَهُ سُفْيَانٌ) أَي: ابْنُ عَيْنَةَ.

(بِكَفِّهِ ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) حَرَفَهَا أَي: أَمَلَهَا ، وَبَدَّدَ أَي: فَرَّقَ بَيْنَهَا ، (فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ) أَي: الْمُسْتَرْقُ الْأَقْرَبُ إِلَى السَّمَاءِ (فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْأَحَرُّ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوْ الْكَاهِنِ) وَفِيهِ: أَنَّ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ مُصَدِّرُهَا وَاحِدٌ وَهُوَ الشَّيْطَانُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿هَلْ أَنتُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ^(٢) تَنَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٣٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ^(٣).

(فَرُبَّمَا أَذْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا) الشَّهَابُ: هُوَ جُزْءُ النَّجْمِ ، وَقَدْ كَانَتْ الشَّيَاطِينُ تَسْتَرْقُ السَّمْعَ قَبْلَ الْبُعْثَةِ فَلَمَّا بُعِثَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شُدِّدَ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ ، فَلَمَّا مَاتَ النَّبِيُّ ﷺ صَارَتْ تَسْتَمِعُ فَيَقْذِفُ اللَّهُ عَلَيْهَا الشَّهَابَ ، فَإِمَّا أَنْ يُدْرِكَهَا أَوْ لَا ، بِحَسَبِ حِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ. قَوْلُهُ: (وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ) وَهَذَا مِنْ ابْتِلَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِعِبَادِهِ ، وَلَوْ شَاءَ مَا اسْتَرْقُوا كَلِمَةً قَوْلُهُ: (فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةٌ كَذِبَةٍ) فَاعِلٌ يَكْذِبُ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ تَقْدِيرُهُ هُوَ ، يَعُودُ إِلَى الْكَاهِنِ ، وَقَدْ جَاءَ صَرِيحاً عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي قَوْلِهِ "فَتُوحِيهِ إِلَى الْكُفَّانِ فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مِائَةٌ كَذِبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ" قَوْلُهُ: (مِائَةٌ كَذِبَةٍ) هَذَا عَلَى سَبِيلِ الْمُبَالَغَةِ لَا الْحُضْرِ، (فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟) قَوْلُهُ: (كَذَا وَكَذَا) الْأُولَى كِنَايَةٌ عَنِ التَّارِيخِ ، وَالثَّانِيَةُ كِنَايَةٌ عَنِ الْحَدِيثِ ، (فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ)، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: قَبُولُ النَّفُوسِ لِلْبَاطِلِ وَحُبُّهَا لَهُ ، إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ

(١) سورة الصافات الآية: ١٠.

(٢) سورة الشعراء الآية: ١٢١-١٢٣.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
، وَفِيهَا أَنَّ الْبَاطِلَ إِذَا كَانَ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الْحَقِّ أَخْطَرُ مِنَ الْبَاطِلِ الْمُخْصِ ؛ لِمَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ اللَّبْسِ عَلَى
ضَعْفَاءِ الْعِلْمِ وَالْإِيمَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ I قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ
تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ ؛ أَخَذَتِ السَّمَوَاتُ مِنْهُ رَجْفَةً (أَوْ قَالَ رِعْدَةً شَدِيدَةً) خَوْفًا
مِنْ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَوَاتِ ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سُجَّدًا ، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ
رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيَكَلِّمُهُ اللَّهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى الْمَلَائِكَةِ ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ ، سَأَلَهُ
مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ " قَالَ الْحَقُّ ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا
قَالَ جِبْرِيلُ ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (١)] .

هَذَا الْحَدِيثُ أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّةِ وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي التَّوْحِيدِ وَأَبُو زُرْعَةَ فِي تَارِيخِهِ (٢) وَقَدْ ضَعَفَهُ
الْأَلْبَانِيُّ وَقَالَ فِيهِ عِلَّتَانِ : الْأُولَى : نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ الْخَزَاعِيُّ شَيْخُ الْبُخَارِيِّ - وَلَمْ يَزِرْ لَهُ الْبُخَارِيُّ إِلَّا
مَقْرُونًا ؛ لِأَنَّهُ كَانَ سَيِّءَ الْحِفْظِ مَعَ جَلَالَتِهِ - . الثَّانِيَةُ : فِيهِ الْوَلِيدُ بْنُ مُسْلِمٍ وَهُوَ مَدْلَسٌ (٣) . لَكِنَّ لِكَثِيرٍ
مِنْ أَلْفَاظِهِ مَا يَشْهَدُ لَهَا وَهُوَ بِمَعْنَى الْحَدِيثِ السَّابِقِ .



(١) أَخْرَجَهُ مُحَمَّدُ بْنُ نَصْرِ الْمَرْوَزِيُّ فِي «تَعْظِيمِ قَدْرِ الصَّلَاةِ» وَذَكَرَهُ الْهَيْثَمِيُّ فِي «مَجْمَعِ الزَّوَائِدِ» (٢١٣/٧) ،

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي السُّنَّةِ : (٥١٥) ، وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي التَّوْحِيدِ بِرَقْمٍ : (١٩٧) ط : "دَارُ الْأَثَارِ" ، وَأَبُو زُرْعَةَ فِي تَارِيخِهِ (٦٢١/١) .

(٣) ضَعَفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي تَخْرِيجِ السُّنَنِ لِابْنِ أَبِي عَاصِمٍ (٢٢٧/١) - بِتَصْرِفٍ - .

[١٧]

بَابُ الشَّفَاعَةِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ - حَفْظُهُ اللَّهُ - : (وَإِيزَادُ هَذَا الْبَابِ بَعْدَ الْبَابَيْنِ قَبْلَهُ مُنَاسِبٌ جَدًّا) ^(١) وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَقَامَ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ عَلَى التَّوْحِيدِ ، وَبُطْلَانِ الشِّرْكِ ، ثُمَّ عَقَدَ الْمُؤَلِّفُ هَذَا الْبَابَ لِيَدْحَضَ شُبُهَةَ الْقَوْمِ ، وَأَقْوَى حُجَجِهِمُ الشَّفَاعَةَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا مُشْرِكُو هَذَا الزَّمَانِ اقْتِدَاءً بِسَلَفِهِمْ . قَالَ تَعَالَى ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [سورة يونس]

وَالشَّفَاعَةُ لَعَنَهُ : مِنْ شَفَعَ يَشْفَعُ إِذَا جَعَلَ الْوَاحِدَ اثْنَيْنِ ، وَشَرَعًا : هِيَ التَّوَسُّطُ لِلْغَيْرِ بِجَلْبِ الْخَيْرِ أَوْ دَفْعِ الضَّرِّ .

وَهِيَ قِسْمَانِ : الْأُولَى : الشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ وَهِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ ، وَالثَّانِيَةُ : الشَّفَاعَةُ الْمُثْبِتَةُ : وَهِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللَّهِ . وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبِتَةُ سِتَّةُ أَنْوَاعٍ ، يَخْتَصُّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْهَا بِنِثَاثَةٍ مِنْهَا ، وَثَلَاثَةٌ لِسَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ ، فَأَمَّا الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ فَالْأُولَى الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى وَهِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ وَتَكُونُ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ حِينَ يَسْتَشْفِعُونَ بِهِ لِيَقْضِيَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ وَفِيهَا : حَدِيثُ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلُ وَهُوَ فِي الْبُحَارِيِّ وَمُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

وَالثَّانِيَةُ : شَفَاعَتُهُ ﷺ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَدْخُلُوهَا . وَاسْتَدَلَّ لَهَا بِحَدِيثِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : " آتَى بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأُسْتُفْتَحُ فَيَقُولُ الْخَازِنُ : مَنْ أَنْتَ ؟ فَأَقُولُ : مُحَمَّدٌ ، فَيَقُولُ : بَكَ أُمِرْتُ ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ " ^(٢)

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ص: ٢٩١/١.

(٢) رواه مسلم ١٩٧.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 الثَّلَاثَةُ: شَفَاعَتُهُ فِي عَمِهِ أَبِي طَالِبٍ بِتَخْفِيفِ الْعَذَابِ عَنْهُ . كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُجْعَلَ فِي ضَحَضٍ مِنَ النَّارِ يَبْلُغُ كَعْبِيهِ يَغْلِي
 مِنْهُ أُمُّ دِمَاجِهِ » يَعْنِي أَبَا طَالِبٍ . مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ الْعَامَّةُ: فَالْأُولَى: شَفَاعَتُهُمْ فِي رَفْعِ دَرَجَاتِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَذِكْرَهَا الْمُفَسِّرُونَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ
 تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ

أَمْرٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ ^(١) . وَرَوَى ابْنُ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ إِلَى ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ قَالَ
 : (إِنَّ اللَّهَ لَيَرْفَعُ ذُرِّيَّةَ الْمُؤْمِنِ إِلَيْهِ فِي دَرَجَتِهِ ، وَإِنْ كَانُوا دُونَهُ فِي الْعَمَلِ) وَالثَّانِيَةُ : شَفَاعَتُهُمْ فِي مَنْ
 اسْتَحَقَّ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَلَّا يَدْخُلَهَا . اسْتَدَلَّ لَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِحَدِيثِ الشَّفَاعَةِ الطَّوِيلِ وَفِي
 بَعْضِ رَوَايَاتِهِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ " وَبَيَّيْتُكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصِّرَاطِ يَقُولُ رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ حَتَّى تَعَجَزَ أَعْمَالُ
 الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا قَالَ وَفِي حَافَتِي الصِّرَاطِ كَلَالِيْبٌ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ
 بِأَخْذِ مَنْ أُمِرْتُ بِهِ فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ وَالشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ دُعَاؤُهُ مَعَ قَوْلِهِ اللَّهُمَّ سَلِّمْ
 سَلِّمْ ثُمَّ بَعْدَ ذَلِكَ ذَكَرَ مِنْهُمْ نَاجٍ وَالثَّالِثَةُ : شَفَاعَتُهُمْ فِي مَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنْ أَهْلِ التَّوْحِيدِ أَنْ يُخْرَجَ مِنْهَا
 ، فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَمِنُوا ،
 فَمَا مُجَادَلَةٌ أَحَدِكُمْ لِصَاحِبِهِ فِي الْحَقِّ يَكُونُ لَهُ فِي الدُّنْيَا بِأَشَدِّ مُجَادَلَةٍ لَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِرَبِّهِمْ ، فِي إِخْوَانِهِمُ
 الَّذِينَ ادْخَلُوا النَّارَ قَالَ: يَقُولُونَ: رَبَّنَا ! إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَحْجُونَ مَعَنَا ،
 فَأَدْخَلْتَهُمُ النَّارَ قَالَ : فَيَقُولُ : اذْهَبُوا فَأَخْرِجُوا مَنْ عَرَفْتُمْ ، فَيَأْتُونَهُمْ ، فَيَعْرِفُونَهُمْ بِصُورِهِمْ ، لَا تَأْكُلُ
 النَّارُ صُورَهُمْ ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقِيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ النَّارُ إِلَى كَعْبِيهِ ،
 فَيُخْرِجُونَهُمْ ، فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ! أَخْرَجْنَا مِنْ أَمْرَتِنَا . ثُمَّ يَقُولُ : أَخْرِجُوا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزُنْ دِينَارٍ مِنْ

(١) سورة الطور الآية: ٢١ .

الإِيمَانِ ، ثُمَّ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ وَزُنْ نِصْفِ دِينَارٍ مِنَ الْإِيمَانِ ، حَتَّى يَقُولَ : مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - قَالَ أَبُو سَعِيدٍ : فَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْ بِهَذَا فَلْيَقْرَأْ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [سُورَةُ النَّسَاءِ] قَالَ : فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ! قَدْ أَخْرَجَنَا مِنْ أَمْرِنَا ، فَلَمْ يَبْقَ فِي النَّارِ أَحَدٌ فِيهِ خَيْرٌ . قَالَ : ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ : شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ وَشَفَعَ الْأَنْبِيَاءُ وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَبَقِيَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ . قَالَ : فَيَقْضَى قَبْضَةٌ مِنَ النَّارِ - أَوْ قَالَ : قَبْضَتَيْنِ - نَاسًا لَمْ يَعْمَلُوا لِلَّهِ خَيْرًا قَطُّ ، قَدْ احْتَرَفُوا حَتَّى صَارُوا حَمَمًا . قَالَ : فَيُؤْتَى بِهِمْ إِلَى مَاءٍ يُقَالُ لَهُ : مَاءُ الْحَيَاةِ فَيُصَبُّ عَلَيْهِمْ ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي حِمِلِ السَّيْلِ ، فَيَخْرُجُونَ مِنْ أَجْسَادِهِمْ مِثْلَ اللُّؤْلُؤِ ، فِي أَعْنَاقِهِمُ الْخَاتَمُ : عَتَقَاءُ اللَّهِ ، قَالَ : فَيُقَالُ لَهُمْ : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، فَمَا تَمَنِّيْتُمْ أَوْ رَأَيْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ ، عِنْدِي أَفْضَلُ مِنْ هَذَا . قَالَ : فَيَقُولُونَ : رَبَّنَا ! وَمَا أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ ؟ قَالَ : فَيَقُولُ : رِضَائِي عَلَيْكُمْ ، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا " . أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَالنَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾

لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ^(١)]

قَوْلُهُ : (وَأَنْذِرْ بِهِ) الْإِنْذَارُ : هُوَ إِعْلَامٌ مَعَ التَّخْوِيفِ ، وَ (بِهِ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْقُرْآنِ ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ ﴾ ^(٢) . (الَّذِينَ) اسْمُ مَوْصُولٍ فِي مَحَلِّ نَصْبٍ مَفْعُولٌ بِهِ لِأَنْذَرَ ، (أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ) الْمَصْدَرُ الْمَوْصُولُ مَفْعُولٌ بِهِ لِيَخَافُوا ، وَالتَّقْدِيرُ : وَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ الَّذِينَ يَخَافُونَ الْحَشَرَ ، وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلَاءِ بِالْإِنْذَارِ ؛ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْتَفِعُونَ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَالْآيَاتِ الَّتِي فِيهَا الْإِنْذَارُ الْعَامُّ قَوْلُهُ : (لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ حَالِيَّةٌ ، (وَلِيٌّ) أَي : نَاصِرٌ

(١) سورة الأنعام الآية: ٥١ .

(٢) سورة ق الآية: ٤٥ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 ، أَي: لَيْسَ لَهُمْ شَفِيعٌ وَلَا نَاصِرٌ غَيْرُ اللَّهِ ، (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) لَعَلَّ : هُنَا حَرْفُ تَعْلِيلٍ ، أَي: أُنذَرُهُمْ مِنْ
 أَجْلِ أَنْ يَتَّقُوا رَبَّهُمْ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴾ ^(١)]

وَقَبْلَ هَذِهِ الْآيَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا
 وَلَا يَعْقِلُونَ ﴾ ^(٢) . (أَمْ) هُنَا مُنْفَصِلَةٌ بِمَعْنَى بَلْ ، أَي: بَلْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ، (قُلْ أُولَئِكَ)
 لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ) الْأَسْتِفْهَامُ هُنَا إِنكَارِي تَوْيِيحِي ، أَي: كَيْفَ يَطْلُبُونَ مِنْهُمْ مَا لَا يَمْلِكُونَ
 ، (وَلَا يَعْقِلُونَ) أَي: لَا يَعْقِلُونَ طَلَبَكُمْ ، فَهُمْ غَافِلُونَ عَنْهُ . ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ
 جَمِيعًا ﴾ ^(٣) أَي: لَا تَفْعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، فَهُوَ الَّذِي يَمْلِكُهَا وَحْدَهُ فَاطْلُبُوهَا مِنْ يَمْلِكُهَا

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ ^(٤)]

الْأَسْتِفْهَامُ هُنَا إِنكَارِي بِمَعْنَى النَّفْيِ ، أَي: لَا أَحَدٌ يَتَّبِدِي الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ لَهُ ، وَهَذَا
 مِنْ تَمَامِ سُلْطَانِهِ وَعَظِيمِ مَلَكُوتِهِ . وَذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَحَدَ شَرْطِي الشَّفَاعَةِ وَهُوَ: الْإِذْنُ لِلشَّافِعِ ، وَلَا
 يَكُونُ هَذَا الْإِذْنُ إِلَّا بَعْدَ الرِّضَا عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَكَرَّمْنَا مَلَائِكَةَ السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ

بَعْدَ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبَرِئُوا ﴾ ^(١)]

(١) سورة الزمر الآية: ٤٤ .

(٢) سورة الزمر الآية: ٤٣ .

(٣) سورة الزمر الآية: ٤٤ .

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٢٥ .

(وَكَمْ) كَمْ : حَبْرِيَّةٌ تُفِيدُ التَّكْثِيرَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (إِذَا كَانَ هَذَا فِي حَقِّ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ فَكَيْفَ تَرْجُونَ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ شَفَاعَةَ هَذِهِ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ عِنْدَ اللَّهِ) ^(٢) . أ. هـ . وَاشْتَمَلَتْ الْآيَةُ عَلَى شَرْطِي الشَّفَاعَةِ الْمُثَبَّتَةِ وَهِيَ : الْإِذْنُ لِلشَّافِعِ . وَالرِّضَا عَنِ الْمَشْفُوعِ لَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْفَالِ ذَرْوْ فِي السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴾ (٢٣) وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أِذِنَ لَهُ. ^(٣)] .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ : (وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ الْأَسْبَابَ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ جَمِيعَهَا فَالْمُشْرِكُ إِذَا تَوَخَّاهُ مَعْبُودُهُ لِمَا يَحْصُلُ لَهُ مِنَ النَّفْعِ ، وَالنَّفْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَنْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ : إِمَّا مَالِكٌ لِمَا يُرِيدُ عَابِدُهُ مِنْهُ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرِيكًا لَهُ كَانَ مُعِينًا لَهُ وَظَهِيرًا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِنْدَهُ فَفَنَقَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ نَفِيًا مَرْتَبًا مُنْتَقِلًا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى فَفَنَقَى الْمَلِكَ وَالشَّرِكَهَ وَالْمُظَاهَرَةَ وَالشَّفَاعَةَ الَّتِي يَطْلُبُهَا الْمُشْرِكُ وَأَثَبَتْ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِلْمُشْرِكِ وَهِيَ الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ ، فَكَفَى بِهَذِهِ الْآيَةِ نُورًا وَبُرْهَانًا وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْحِيدِ وَقَطْعًا لِأَصُولِ الشِّرْكِ وَمَوَادِّهِ لِمَنْ عَقَلَهَا وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ أَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ وَتَضَمُّنِهِ لَهُ وَيَطْنُونَهَا فِي نَوْعٍ وَ قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعْقِبُوا وَارِثًا فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الْقُرْآنِ ، وَلَعَمْرُ اللَّهِ إِنْ كَانَ أَوْلَيْكَ قَدْ خَلَوْا فَقَدْ وَرِثَهُمْ مَنْ هُوَ مِثْلُهُمْ أَوْ شَرٌّ مِنْهُمْ أَوْ دُونُهُمْ وَتَنَاوَلُ الْقُرْآنُ لَهُمْ كَتَنَاوَلِهِ لِأَوْلَيْكَ ^(٤) .

(١) سورة النجم الآية: ٢٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٣٠٧/٤ .

(٣) سورة سبأ الآية: ٢٢ - ٢٣ .

(٤) مدارج السالكين: ٣٤٣/١ ، دار الكتاب العربي - بيروت ، ط ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ ، ت : مُحَمَّدٌ حَامِدُ الْفَقِي .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [(قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ^(١)) : "نَفَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنفَى أَنْ يَكُونَ لغيرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ^(٢) ، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَطْنُهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يَسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ ^(٣) . وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ I : (مَنْ أَسْعَدَ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ" ^(٤)) فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ، وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ، فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ". انْتَهَى كَلَامُهُ رَحِمَهُ اللَّهُ]

(أَبُو الْعَبَّاسِ) هُوَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الْحَلِيمِ بْنِ عَبْدِ السَّلَامِ بْنِ تَيْمِيَّةَ الْحَرَّانِيِّ ، مَاتَ أَعْرَبَ لَا رَغْبَةً عَنِ السُّنَّةِ لَكِنْ انْشَغَالًا بِالْعِلْمِ وَالْجِهَادِ ، وَقَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (اجْتَمَعَتْ بِابْنِ تَيْمِيَّةَ فَرَأَيْتُ رَجُلًا كُلَّ الْعُلُومِ بَيْنَ يَدَيْهِ يَأْخُذُ مِنْهَا مَا يَشَاءُ وَيَدَعُ مَا يَشَاءُ) ، وَلَدُ سَنَةِ : ٦٦١ هـ ، وَمَاتَ سَنَةَ ٧٢٨ هـ .

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٧٧/٧).

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٢٨.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التَّوْحِيدِ - باب قول الله تعالى: {لِمَا خَلَقْتُ بَيْنَ يَدَيْ} (٧٤١٠)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها (١٩٣)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب الحرص على الحديث (٩٩).

(نَعَى اللَّهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ، فَنَعَى أَنْ يَكُونَ لِعِيزِهِ مُلْكٌ) أي: مِلْكٌ تَامٌ، (أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ) أي: نصيبٌ يعني: شريكٌ، (أَوْ يَكُونَ عَوْنًا لِلَّهِ) أي: مساعدًا وظهيرًا، (وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ ، فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ)

الشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ أَوْ هِيَ الَّتِي لَا تَشْتَمِلُ عَلَى شَرْطِي الشَّفَاعَةِ الْمُنَبَّتَةِ.

وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ (أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ - لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوْلًا - ثُمَّ يُقَالُ لَهُ ازْغِرْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ، وَسَلَّ نُعْطُ، وَاشْفَعْ تُشْفَعُ)، وهذا الخبرُ ثابتٌ في الصحيحين^(١). قال الإمام (وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: (مَنْ أَسْعَدُ النَّاسَ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ "مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ"). وهذا الخبرُ - أيضاً - ثَابِتٌ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -^(٢). وأسعد الناس بشفاعتك معناها من الذي يسعد بشفاعتك.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (فَتَأْمَلْ هَذَا الْحَدِيثَ كَيْفَ جَعَلَ الْأَسْبَابَ الَّتِي تَنَالُ بِهَا شَفَاعَتُهُ تَجْرِيدَ التَّوْحِيدِ عَكْسَ مَا عِنْدَ الْمُشْرِكِينَ ، أَنَّ الشَّفَاعَةَ تَنَالُ بِاتِّخَاذِهِمُ الشُّفَعَاءَ وَعِبَادَتِهِمْ ، وَمُؤَالَاتِهِمْ ، فَقَلَبَ النَّبِيُّ ﷺ مَا فِي زَعْمِهِمُ الْكَاذِبِ ، وَأَخْبَرَ أَنَّ سَبَبَ الشَّفَاعَةِ تَجْرِيدُ التَّوْحِيدِ فَحِينَئِذٍ يُؤَدُّنُ لِلشَّافِعِ أَنْ يَشْفَعَ)^(٣). قال الإمام: (فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِحْلَاصِ بِإِذْنِ اللَّهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ) (وَحَقِيقَتُهُ) أي: حقيقة أمر الشَّفَاعَةِ، (أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِحْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكَرِّمَهُ، وَيَنَالُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا

(١) هذا الحديث المذكور قطعة من حديث الشفاعة الطويل، أخرجه البخاري برقم: (٧٥١٠)، ومسلم برقم: (١٩٣).

(٢) أخرجه البخاري.

(٣) مدارج السالكين، ٣٤١/١، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٣ - ١٩٧٣، تحقيق: محمد حامد الفقي.

امتناع أهل التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ
الْإِحْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ. أ. هـ.



قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(١)].

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَيَّنَّ فِي الْبَابِ السَّابِقِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا يَمْلِكُ الشَّفَاعَةَ ، وَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَمْلِكُ هِدَايَةَ الْخَلْقِ ، مَعَ أَنَّهُ أَفْضَلُهُمْ وَأَعْظَمُهُمْ جَاهًا عِنْدَهُ فَإِذَا نَفَى اللَّهُ عَنِ نَبِيِّهِ ﷺ مَلِكَ الْهِدَايَةِ فَغَيْرُهُ مِنْ بَابِ أُولَى . قَوْلُهُ : (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ) صَرِيحٌ فِي نَفْيِ مُلْكِ النَّبِيِّ ﷺ لِهِدَايَةِ الْقُلُوبِ ، قَوْلُهُ : (وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) وَكُلُّ فِعْلٍ يُفْرَنُ بِالْمَشِيئَةِ ، يَكُونُ ذَلِكَ عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ^(٢) عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ؛ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ فَقَالَ لَهُ أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ "لَا تَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنُحِ عَنْكَ". فَأَنْزَلَ اللَّهُ عِزَّ وَجَلَّ: ﴿مَّا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ﴾^(٣)]. وَأَنْزَلَ فِي

أَيِّ طَالِبٍ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٤)].

(١) سورة القصص الآية: ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: (١٣٦٠، ٣٨٨٤) ومسلم برقم: (٢٤).

(٣) سورة التوبة الآية: ١١٣.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

(ابن المُسَيَّبِ) : هُوَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ بْنِ حَزْنٍ ، أَبُوهُ وَجَدَهُ كِلَاهُمَا مِنَ الصَّحَابَةِ . (أَبَا طَالِبٍ) أَبُو طَالِبٍ هُوَ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ ، دَافَعَ عَنْهُ ثَمَانِيَةَ سِنِينَ بَعْدَ الْبُعْثَةِ ، (حَضَرَتْ الْوَفَاةُ) أَي : عَلَامَاتُهَا .

(جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) يَعُودُهُ وَالْعِيَادَةُ أَخْصُ مِنَ الزِّيَارَةِ ، فَهِيَ تَكُونُ لِلْمَرِيضِ ؛ لِأَنَّهَا تَتَكَرَّرُ ، وَفِيهِ حُسْنُ خُلُقِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِيهِ زِيَارَةُ الْمُشْرِكِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ مِنَ الْأَرْحَامِ ، (وَعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ) وَكَانَ يَوْمئِذٍ مُشْرِكًا وَهُوَ مِنْ مَسَلَمَةِ الْفَتْحِ ، (وَأَبُو جَهْلٍ) عَمْرُو بْنُ هِشَامٍ زَعِيمُ الْكُفْرِ ، قُتِلَ يَوْمَ بَدْرٍ (فَقَالَ لَهُ يَا عَمِّ) فِيهِ : التَّلَطُّفُ بِالْمَدْعُو ، وَفِيهِ : الْأَدَبُ فِي مُحَاطَبَةِ الْكَبِيرِ ، (قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً) بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّهَا بَدَلٌ مِنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَبِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهَا خَبَرٌ مُبْتَدَأٌ مَحْذُوفٌ هِيَ كَلِمَةٌ . قَوْلُهُ : (أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ) فِيهِ : فَضِيلَةُ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَأَنَّ مَنْ قَالَهَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُحَاجَّ عَنْهُ . وَفِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ : (أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ)^(١) أَيْضًا : مَنْ قَالَهَا اسْتَحَقَّ أَنْ يُشْهَدَ لَهُ ، وَفِيهَا أَنَّ الْأَعْمَالَ بِالْخَوَاتِيمِ ، وَفِيهَا : أَنَّ التَّوْحِيدَ يَنْفَعُ صَاحِبَهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ عَمَلٌ وَذَلِكَ عِنْدَ عَدَمِ التَّمَكُّنِ مِنَ الْعَمَلِ . قَوْلُهُ : (فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟) الْأَسْتِفْهَامُ هُنَا إِنْكَارِي أَيْ كَيْفَ تَزْهَدُ فِي دِينِ أَبِيكَ . (مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) عَقِيدَتُهُ وَدِينُهُ ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ شَوْمٌ وَمَضَرَّةٌ أَصْحَابِ الشُّوْءِ ، وَفِيهَا : مَضَرَّةٌ تَقْلِيدِ الْأَبَاءِ وَالْأَحْدَادِ إِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ الْهُدَى وَالسَّبِيلِ ، وَهِيَ الْحُجَّةُ الْمَلْعُونَةُ الَّتِي تَوَارَثَهَا الْمُشْرِكُونَ فِي قَدِيمِ الزَّمَانِ وَحَدِيثِهِ ، كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾^(٢) . (فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ) فِيهِ : أَنَّهُ يَنْبَغِي لِلدَّاعِيَةِ أَنْ يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَلَا يَضْجَرَ ، وَلَا يَنْتَسِ وَلَا يَكْتَفِي بِالْمَرَّةِ الْوَاحِدَةِ . (فَأَعَادَا) مَا قَالَا : وَفِيهِ : فَهَمُّهُمْ لِكَلِمَةِ التَّوْحِيدِ ، وَأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَفَارَقَ مِلَّةَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَلَيْسَ الْمَرَادُ مَجْرَدَ

(١) مسلم برقم : (٢٤) .

(٢) سورة الزخرف الآية : ٢٣ .

لفظها . (فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ) وفيه: مَوْتُ أَبِي طَالِبٍ عَلَى الشِّرْكِ. وَ قَالَ أَبُو طَالِبٍ: (أَنَا) لَكِنَّ الرَّاوي رَوَاهَا بِقَوْلِهِ: (هُوَ)، أَنِفَةً عَنْ حِكَايَةِ قَوْلِ أَبِي طَالِبٍ وَاسْتِثْبَاحاً لِللَّفْظِ الْمَذْكُورِ. (وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "لَا سَتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أَنْتَهُ عَنْكَ") هَذَا الْحَبْرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتٍ : الْقِسْمُ الْمَحْذُوفُ وَاللَّامُ وَالتَّوْنُ ، وَقَوْلُهُ: (مَا لَمْ أَنْتَهُ عَنْكَ) وفيه : وَقُوفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حُدُودِ الشَّرْعِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾، هَذِهِ الْقِصَّةُ وَقَعَتْ قَبْلَ الْهِجْرَةِ وَالْآيَةُ مَدَنِيَّةٌ ، وَالْمُرَادُ أَنَّ أَبَا طَالِبٍ دَاخِلٌ فِي هَذِهِ الْآيَةِ وَلَيْسَ هُوَ سَبَبُ نَزُولِهَا ، وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ : شَوْمُ الشِّرْكِ بِاللَّهِ ، حَيْثُ لَا يَنْفَعُ مَعَهُ اسْتِغْفَارُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِيهَا تَحْرِيمُ الْإِسْتِغْفَارِ لِلْمُشْرِكِينَ ، وَفَرَّاسَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حَيْثُ نَهَاهُ اللَّهُ وَهُوَ مَا ظَنَّهُ قَبْلَ النَّهْيِ. وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ هَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ فِي أَبِي طَالِبٍ خَاصَّةً ، وَفِيهَا : تَسْلِيَةُ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَتَسْلِيَةُ لِكُلِّ مُسْلِمٍ آمَنَ بَعْضُ قَوْمِهِ وَكَفَرَ بَعْضُهُمْ. وَنَفْيُ مُلْكِ الْهِدَايَةِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ هُنَا الْمُرَادُ بِهَا هِدَايَةُ التَّوْفِيقِ ، فَلَايَةُ لَا تُعَارِضُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾^(١). لِأَنَّ الْهِدَايَةَ الْمُثَبَّتَةَ هُنَا هِيَ هِدَايَةُ الْبَيَانِ . وَفِي الْحَدِيثِ مَشْرُوعِيَّةٌ أَنْ يُقَالَ لِلْمُحْتَضَرِّ: (قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) مُسْلِمًا كَانَ أَوْ كَافِرًا ، لَكِنَّ هَذَا يَقِيدُ بِحَالِ الْمُحْتَضَرِّ ؛ إِذَا لَمْ يَكُنْ مَتَهِيئًا لِذَلِكَ لَا يَأْمُرُهُ بِهَا ، لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَادَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ

امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
- وَهُوَ يَحْتَضِرُ - فَقَالَ: (يَا خَالِ قُلْ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ). فَقَالَ : أَحَالُ أَمْ عَمَّ ؟ فَقَالَ : بَلْ خَالُ فَقَالَ
: فَحَيْرٌ لِي أَنْ أَقُولَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (نَعَمْ)^(١)



(١) أخرجه أحمد برقم: (١٢١٠٤)، وصححه الألباني في تلخيص أحكام الجناز، ط ٣، ١٤١٠هـ، برقم: (١٤)، ص: ١٠، الناشر: مكتبة المعارف - الرياض.

[١٩]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْمُؤَلَّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَدْ أَقَامَ الْبَرَاهِينَ وَالْأَدْلَةَ عَلَى وُجُوبِ التَّوْحِيدِ وَدَحْضِ شُبُهَةِ الْقَوْمِ ، فَلَقَائِلُ أَنْ يَقُولَ إِذَا كَانَ التَّوْحِيدُ ظَاهِرًا وَالْأَدْلَةُ عَلَيْهِ قَائِمَةً ، وَشُبُهَةُ الْقَوْمِ عَلَيْهِ غَالِبَةً ، فَمَا هُوَ سَبَبُ كُفْرِ بَنِي آدَمَ فَكَانَتْ هَذِهِ التَّرْجُمَةُ الَّتِي وَقَعَتْ مِنَ الْكِتَابِ مَوْقِعَهَا ، فَاَنْظُرْ يَا طَالِبَ الْعِلْمِ فِي تَبْوِيبِ الْإِمَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَعَظِيمِ فَهْمِهِ وَحُسْنِ تَرْتِيبِهِ .
قَوْلُهُ : فِي التَّرْجُمَةِ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ الْمُرَادُ بِالَّذِينَ هُنَا التَّوْحِيدُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ ^(١)] .

قَوْلُهُ : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ) هُمُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَوْلُهُ : (لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ) أَي : لَا تَتَجَاوَزُوا الْحَدَّ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ بِهِ . قَوْلُهُ : (وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ) الْحَقُّ هُوَ قَوْلُهُ : (إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ) (إِنَّمَا) أَدَاةُ حَصْرِ ، وَفِي وَصْفِهِ بِأَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ رَدُّ عَلَى النَّصَارَى الَّذِينَ قَالُوا هُوَ ابْنُ اللَّهِ ، وَرَدُّ عَلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ قَالُوا هُوَ ابْنُ زَنَّا ، (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ) أَي : أَنَّهُ كَانَ بِكَلِمَةٍ كُنْ . قَوْلُهُ : (وَرُوحٌ مِنْهُ) أَي : ابْتِدَاءُ أَمْرِهِ مِنَ اللَّهِ . قَوْلُهُ : (فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً) مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ لَا يَقُولُ أَنَّ عِيسَى هُوَ ابْنُ اللَّهِ ؛ لِأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ يَتَضَمَّنُ الْإِيمَانَ بِصِفَاتِ كَمَالِهِ وَمِنْهَا أَنَّهُ وَاحِدٌ (انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ

(هَذَا مِنَ التَّفْضِيلِ الَّذِي لَيْسَ فِي الْجَانِبِ الْآخِرِ مِنْهُ شَيْءٌ)، (إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ) أَي : لَا يَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْبُودُ إِلَّا وَاحِدًا أَي أَنَّ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَاحِدٌ)، (سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ) أَي : تَنْزَعُهُ عَنِ الْوَلَدِ ؛ لِأَنَّ الْوَلَدَ فِي حَقِّهِ نَقْصٌ وَافْتِقَارٌ (لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ غَنِيٌّ ؛ لِأَنَّ اللَّامَ لَمْ الْمُلْكِ)، (وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا) أَي : كَفَى بِاللَّهِ خَفِيفًا لِعِبَادِهِ مُدَبِّرًا لِأُمُورِهِمْ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْذِرُنَا، الْهَيْكَلُ وَلَا تَنْذِرُنَا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ^(١) قَالَ: (هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنْ انصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوَّلُكَ، وَنَسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ) ^(٢)] .

(لَا تَنْذِرُنَا) أَي : لَا تَنْذِرُنَا أَحَدًا يَتِمَكَّنُ مِنْ إِهَانَتِهَا وَإِذْلَالِهَا ، وَلَا تَنْزِرُنَا عِبَادَتَهَا وَهَذَا مِنْ تَوَاصِي أَهْلِ الْبَاطِلِ بِطَائِلِهِمْ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَسُوا وَاصْبِرُوا عَلَىٰ آلِهِتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾ ^(٣) وَهَذَا الْأَثَرُ لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ ؛ لِأَنَّهُ خَبَرٌ غَيْبِي لَا يُتَلَقَّى إِلَّا مِنْ مَشْكَاتِ الثَّبُوتِ ، (هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ) أَي : أَنَّ نُوحًا وَجَدَ قَوْمَهُ يَعْبُدُونَ هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ (فَلَمَّا هَلَكُوا) أَي : مَاتُوا ، وَفِيهِ : مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ هَلَكَ فَلَانٌ وَلَوْ كَانَ صَالِحًا (أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ) أَي : أَلْقَى فِي نَفْسِهِمْ (أَنْ انصِبُوا) أَي : أَقِيمُوا ، (أَنْصَابًا) أَي : صُورُوا تَصَاوِيرَ وَمَتَائِلَ (وَسَمُّوْهَا بِأَسْمَائِهِمْ) حَتَّى تَدْفَعَكُمْ رُؤْيُيَتِهَا إِلَى الْعِبَادَةِ : فَأَمَرَهُمْ بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ فَاسْتَجَابُوا لَهَا ، (فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ) لِوُجُودِ التَّوْحِيدِ

(١) سورة نوح الآية: ٢٣ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب { وَدًّا وَلَا سَوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ } (٤٩٢٠) .

(٣) سورة ص الآية: ٦ .

[19] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْعُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ
بَيْنَهُمْ مَعَ وَتُوعِيهِمْ فِي الْبِدْعَةِ (حَتَّى إِذَا هَلَكَ أَوْلَئِكَ) أَي : مَاتَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّورَ (وَنُسِيَ الْعِلْمُ
عُبِدَتْ) أَي : عِلْمُ الْعَقِيدَةِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْفَوَائِدِ أَهْمِيَّةُ عِلْمِ التَّوْحِيدِ ، وَأَنَّ الْبِدْعَ بَرِيدُ الْكُفْرِ .
وَأَنَّ التَّصَاوِيرَ مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ ، وَالْحَذَرُ مِنْ خُطُوبَاتِ الشَّيْطَانِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ : (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا ، عَكَّفُوا عَلَى
قُبُورِهِمْ ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ) (١)] .

(ابن القَيِّمِ) هُوَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ شَمْسُ الدِّينِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ بنِ أَيُوبَ الدِّمَشْقِيِّ ، الْعَالِمُ الْعَلَامَةُ تَلْمِيزُ
شَيْخِ الْإِسْلَامِ ، بَلَّ خَصِيصُهُ ، وَالْقَيِّمُ : أَيُّ : الْقَائِمُ عَلَى أَمْرِ الْجُزَيَّةِ ، وَالْجُزَيَّةُ مَدْرَسَةٌ كَانَ أَبُوهُ قَيِّمًا
عَلَيْهَا . (قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ لَمَّا مَاتُوا ، عَكَّفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ) أَي : إِنَّ كَلَامَ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا قَدْ
قَالَ بِهِ غَيْرُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ ، وَعَكَّفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ : أَي : لَازِمُوهَا ، قَوْلُهُ (ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ) هَذِهِ الْمَرَحَلَةُ
الثَّانِيَّةُ (ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ) أَي : الزَّمَنُ (فَعَبَدُوهُمْ) هَذِهِ الْمَرَحَلَةُ الْأَخِيرَةُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عُمَرَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى
ابْنَ مَرْيَمَ ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ ، فَقُولُوا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) (٢) أَخْرَجَاهُ] .

(لَا تُطْرُونِي) الْإِطْرَاءُ هُوَ مُجَاوَزَةُ الْحَدِّ فِي الْمَدْحِ ، (كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ) الْكَافُ هُنَا لِلتَّشْبِيهِ
وَلَيْسَتْ لِلتَّمثِيلِ لِأَنَّهُ لَا يُرِيدُ أَنْ يَنْهَانَا أَنْ نُقُولَ مُحَمَّدٌ بْنُ اللَّهِ وَلَكِنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْهَانَا عَنْ كُلِّ مُجَاوَزَةٍ
لِلشَّرْعِ فِي الْمَدْحِ ، فَقَدْ زَعَمَ قَوْمٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ أَنَّ الْكَافَ لِلتَّمثِيلِ أَي : لَا تَقُولُوا ابْنَ اللَّهِ ، كَمَا قَالَ
صَاحِبُ الْبَرْدَةِ .

دَعُ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى فِي نَبِيِّهِمْ *** وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتَكِمْ

(١) انظر : «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٤٤٣/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الحدود - باب الرجم بالمصلى (٦٨٢٠) وفي مسلم في كتاب الحدود - باب من اعترف على نفسه بالزنى (١٦٩١) أصله فقط .

أي : أترك ما قالته النصارى أي لا تقل محمد ابن الله ، وقُل ما شئت بعد ذلك .

والصحيح أن الكاف للقياس ، فالتنهي عام يشمل كل مدح فيه مجاوزة للحد ، ومن ذلك ما ثبت في البخاري عن الربيع بنت مَعوذ قالت : (لما دخل علي النبي ﷺ عداة بني علي فجلس على فراشي كمجلسك مني وجويزات يضربن بالدف ينذبن من قتل من آبائهن يوم بدر حتى قالت جارية : وفيما نبي يعلم ما في غد فقال : النبي ﷺ : " لا تقولوا هكذا وقولي ما كنت تقولين ")^(١) فمنعهن عليه الصلاة والسلام . قوله : (إنما أنا عبد) هذا خبر فيجب تصديقه ، والعبد لا يصلح أن يكون معبوداً ، (فقولوا عبد الله ورسوله) وقع أهل الغلو في الكفر من جهتين : لأتتهم عبودهم مع الله فأشركوا به في هذا الباب . وكذبوا خبره . قال أهل العلم (محمد عبد لا يعبد ونبي لا يكذب) وفي الحديث النهي عن الإطراء مطلقاً ، وجواز مدحه بما ثبت من الصفات ، وأن الإطراء من سنن النصارى وأن الإطراء من أسباب الشرك ، ولهذا ساقه الإمام

قال الإمام - رحمه الله - [قال رسول الله ﷺ (إياكم والغلو فإما أهلك من كان قبلكم الغلو)]^(٢).

ذكر الإمام هذا الحديث مختصراً ، وقد أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه والنسائي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال : (قال لي رسول الله ﷺ عداة العقبه : ألقط لي حصي فلقطت له سبع حصيات من حصي الخذف ، فنفضهن بيده وقال : بأمثال هؤلاء فارموا ،) بأمثال هؤلاء في العدد والقدر (وإياكم والغلو)^(٣) ، قوله : (إياكم) هذا أسلوب تحذير ، (فإما أهلك من كان قبلكم الغلو) الهلاك : هنا

(١) أخرجه البخاري ، باب شهود الملائكة بذكر ، برقم : (٣٧٠٠).

(٢) أخرجه النسائي في كتاب مناسك الحج ، التقاط الحصى (٣٠٥٧) ، وابن ماجه في كتاب المناسك - باب قدر حصى الرمي (٣٠٢٩) ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٨٠).

(٣) أخرجه أحمد : (٢١٥، ٣٤٧/١) ، وابن ماجه : (٣٠٩٢) ، والنسائي : (٢٦٨/٥) ، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في الفتاوى : (٣٨٣/٣) والألباني في الصحيحة برقم : (١٢٨٣).

[19] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْعُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ مُحَالَفَةُ الشَّرْعِ ، وَهُوَ سَبَبٌ لِهَلَاكِ الْأَنْفُسِ وَالْأَرْوَاحِ . وَفِي الْحَدِيثِ ، التَّحْذِيرُ مِنَ الْعُلُوِّ مَعَ بَيَانِ عَاقِبَتِهِ ، وَأَنَّ مُشَاهَدَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا فِي بَعْضِ هَدْيِهِمُ الْبَاطِلِ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ ، وَأَنَّ الْعُلُوَّ يَكُونُ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الْمَشْرُوعِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَهُ فِي بَيَانِ مَا يُرْمَى بِهِ الْجِمَارُ ، عَدَدًا وَهَيْئَةً

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (هَلَكَ الْمُتَنَطِعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثًا)^(١) .

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - (المتنطعون : هُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ الْمَغَالُونَ فِي الْكَلَامِ ، الْمُتَكَلِّمُونَ بِأَقْصَى حُلُوفِهِمْ ، وَهُوَ مَأْخُودٌ مِنَ النُّطْعِ : وَهُوَ الْعَارُ الْأَعْلَى مِنَ الْقَمِ ، ثُمَّ اسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ تَعَمُّقٍ قَوْلًا أَوْ فِعْلًا)^(٣) ، وَقَالَ غَيْرُهُ : هُمُ الْمُتَعَمِّقُونَ فِي عِبَادَتِهِمْ ، بِحَيْثُ يَخْرُجُونَ بِهَا عَنْ قَوَانِينِ الشَّرِيعَةِ ، قَالَهَا ثَلَاثًا وَفِي الْحَدِيثِ الْمُبَالَغَةُ مِنَ التَّحْذِيرِ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ ، وَحُسْنُ تَعْلِيمِهِ ﷺ ، وَأَنَّهُ يُكْرَرُ إِذَا احْتِجَّ إِلَى التَّكْرَارِ ، وَفِي الْبَابِ غَيْرُ مَا ذَكَرْنَا مِنَ الْقَوَائِدِ : مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شَرِكٍ حَدَثَ فِي الْأَرْضِ ، وَفِيهِ قَبُولُ النَّفْسِ لِلْبِدْعِ مَعَ أَنَّ الشَّرَائِعَ تَرُدُّهَا وَأَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَرْجُ الْحَقِّ بِالْبَاطِلِ ، كَمَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ ثُمَّ الْوُقُوعُ فِي عِبَادَتِهِمْ ، وَفِعْلُ أَنَاسٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ شَيْئًا غَيْرَ مَشْرُوعٍ أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا ، فَظَنَّ بَعْضُهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ وَأَنَّ مَوْتَ الْعُلَمَاءِ سَبَبٌ فَقَدِ الْعِلْمِ .



(١) أخرجه مسلم في كتاب العلم - باب هلك المتنطعون (٢٦٧٠).

(٢) هو المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم، أبو السعادات محمد الدين الشيباني الجزائري، المشهور بابن الأثير ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر من مشاهير العلماء وأكابر النبلاء، كان فاضلاً، رئيساً مشاراً إليه، تنقل في الولايات واتصل بصاحب الموصل وولي ديوان الإنشاء، عرض له مرض كف يديه ورجليه ومنعه الكتابة فانقطع في بيته قيل إن تصانيفه كلها ألفها في زمن مرضه إملاء على طلبته. من تصانيفه: (النهاية في غريب الحديث) و(جامع الأصول في أحاديث الرسول)، و(الإنصاف في الجمع بين الكشف والكشاف) في التفسير.

[طبقات الشافعية ١٥٣/٥ ، وبغية الوعاة ٢٧٤/٢ ، والأعلام للرزكلي ١٥٢/٦]

(٣) النهاية (٥ / ٧٥).

[٢٠]

بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدُهُ ؟

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَكَرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَهُوَ الْعُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ ، وَفِي هَذَا الْبَابِ يَذْكُرُ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الْعُلُوِّ وَهُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ وَحْدَهُ عِنْدَ قَبْرِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، وَهَذِهِ دَرِيعَةٌ وَوَسِيلَةٌ لِعِبَادَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدُهُ : هَذِهِ هِيَ نَتِيجَةُ الْعُلُوِّ وَثَمَرَتُهُ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ (أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ، فَقَالَ أَوْلَيْكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ، أَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ)^(١) فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةُ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ.]

(أُمُّ سَلَمَةَ) هِيَ هِنْدُ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ بْنِ الْمُعَيْرَةِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْمَخْزُومِيَّةِ ، تَزَوَّجَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَبِي سَلَمَةَ ، وَكَانَتْ قَدْ هَاجَرَتْ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ ، مَاتَتْ سَنَةَ ٦٢ هـ. (ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَنِيسَةً) : كَانَ ذِكْرُهَا لِهَذِهِ الْكَنِيسَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِ مَوْتِهِ ، وَالْكَنِيسَةُ هِيَ مَعْبَدُ النَّصَارَى الَّذِي يَجْتَمِعُونَ فِيهِ (أَوْلَيْكَ) يَجُوزُ فِي كَافِ الْخُطَابِ الْفَتْحُ مُطْلَقًا ، وَيَجُوزُ فِيهَا الْكَسْرُ عِنْدَ مُحَاطَبَةِ الْمُؤَنَّثِ. (إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوْ الْعَبْدُ الصَّالِحُ) فِيهِ التَّحْرِي فِي الرَّوَايَةِ

(بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا) أَيٌ : مَوْضِعًا لِلْعِبَادَةِ وَلَوْ لَمْ يُسَمَّ مَسْجِدًا . (وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرِ) الْإِشَارَةُ إِلَى الصُّوَرِ الَّتِي رَأَتْهَا ، وَفِيهِ : أَنَّ تَصَوِيرَ الصَّالِحِينَ مِنْ سَنَنِ النَّصَارَى. (أَوْلَيْكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ) فِيهِ تَحْرِيمُ هَذَا الْفِعْلِ ، وَأَحْبَرُ أَنَّهُمْ شِرَارُ الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّهُمْ فَتَحُوا لِلنَّاسِ بَابَ الشِّرْكِ ، وَتَسَبَّبُوا فِي

(١) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية و يتخذ مكانها مساجد (٤٢٧) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة- باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٢٨).

===== [20] بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ ؟

اِنْخِرَافِ الْأُمَّةِ عَنِ التَّوْحِيدِ. الذي به سعادة الأمة وفلاحها قَالَ الْفَرُطِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (إِنَّمَا فَعَلَ أَوَائِلُهُمُ الصُّورَ لِيَتَأَسَّوْا بِرُؤْيَا تِلْكَ الصُّورَةِ وَيَتَذَكَّرُوا بِهَا أَحْوَالَهُمُ الصَّالِحَةِ فَيَجْتَنِبُوهَا كَاجْتِنَابِهِمْ ، وَيَعْبُدُونَ اللَّهَ عِنْدَ قُبُورِهِمْ ، فَمَضَتْ لَهُمْ بِذَلِكَ أَرْمَانٌ ثُمَّ إِنَّهُمْ خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ جَاهِلُوا أَعْرَاضَهُمْ ، وَوَسَّوَسَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنَّ آبَاءَهُمْ وَأَجْدَادَهُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ هَذِهِ الصُّورَ ، وَيُعْظِمُونَهَا فَعَبَدُوهَا).^(١)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةُ الْقُبُورِ ، وَفِتْنَةُ التَّمَاثِيلِ]^(٢) . وَأُطْلِقَ عَلَى هَاتَيْنِ الْبَلِيَّتَيْنِ فِتْنَةٌ ؛ لِأَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الشِّرْكِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهُمَا عَنْهَا ،] قَالَتْ : (لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرُحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ : " لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ " ، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا ، وَلَوْلَا ذَلِكَ ؛ أَبْرَزَ قَبْرُهُ ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخِذَ مَسْجِدًا)^(٣) أَخْرَجَاهُ .

(وَهُمَا) أَيِ : الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ (عَنْهَا) أَيِ : عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - (لَمَّا نَزَلَ) لَمَّا بِمَعْنَى حِينَ ، (نَزَلَ) أَيِ : الْمَوْتُ (طَفِقَ) أَيِ : شَرَعَ (يَطْرُحُ حَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ) الْحَمِيصَةُ كِسَاءٌ لَهُ أَعْلَامٌ (فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا) أَيِ : إِذَا احْتَبَسَ نَفْسَهُ بِسَبَبِهَا كَشَفَهَا لِيَتَنَفَّسَ ، وَهَذَا فِيهِ شِدَّةُ كُرْبِ الْمَوْتِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؛ لِيَرْفَعَ اللَّهُ دَرَجَتَهُ وَلِتَتَأَسَّى بِهِ أُمَّتُهُ .

(فَقَالَ : وَهُوَ كَذَلِكَ) أَيِ : فِي تِلْكَ الْحَالَةِ الْعَصِيْبَةِ الشَّدِيدَةِ لَمْ يَنْشَغِلْ عَنِ التَّوْحِيدِ ، وَنُصِّحَ الْأُمَّةَ ، وَفِيهِ : أَهْمِيَّةُ التَّوْحِيدِ ، وَشَفَقَتُهُ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ قَوْلُهُ (لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى) هَذِهِ الْجُمْلَةُ تَحْتَمِلُ

(١) المفهم ١٢٧/٢ - ١٢٨

(٢) انظر إغاثة اللهفان ١٨٤/١

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصلاة - باب الصلاة في البيعة (٤٣٦) ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور (٥٣١).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

أَنْ تَكُونَ خَبِيرَةً وَتَحْتَمِلَ أَنْ تَكُونَ دُعَائِيَّةً وَكَأَنَّهُ - ﷺ - علم أنه لا يقوم من مرضه ذلك، فخاف أن يعظم قبره كما فعل من مضى، فلعن اليهود والنصارى، إشارة إلى ذم من فعل مثل فعلهم. قوله: (اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) هَذَا هُوَ سَبَبُ اللَّعْنِ، وَهُنَا قَاعِدَةٌ أَصُولِيَّةٌ وَهِيَ : اقْتِرَانُ الْوَصْفِ بِحُكْمٍ لَوْ لَمْ يَكُنِ الْوَصْفُ عَلَةً لِلْحُكْمِ لَكَانَ الْكَلَامُ مَعِيًّا. أَي أَنَّ السَّبَبَ فِي لعن اليهود والنصارى هو اتخاذ قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد وَقَدْ قَامَ هَذَا الْكَلَامُ مِنْهُ مَقَامُ الْوَصِيَّةِ لِأُمْتِهِ ؛ لِأَنَّهُ شَعَرَ بِالْمَوْتِ ، (يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا) هَذَا مِنْ كَلَامِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَفَهَمَهَا لِرَوَايَتِهَا وَالرَّوَايَ أَذْرَى بِمَا رَوَى ، قَالَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ: (وَمِنْ غُرَبَةِ الْإِسْلَامِ أَنَّ هَذَا الَّذِي لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَاعِلُهُ فَعَلَهُ الْخَلْقُ الْكَثِيرُ ، وَاعْتَقَدُوا أَنَّهُ قُرْبَةٌ ، وَهُوَ أَعْظَمُ الْمُنْكَرَاتِ). (وَلَوْ لَا ذَلِكَ ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ) أَي لَوْلَا تَحْذِيرُهُ مِنْ صَنِيعِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِدُفِنَ فِي الْبَقِيعِ مَعَ سَائِرِ النَّاسِ (غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا) بِالْبِنَاءِ لِلْمَعْلُومِ خَشِيَ هُوَ ﷺ ، وَبِالْبِنَاءِ لِلْمَفْعُولِ خَشِيَ أَي الصَّحَابَةُ ، وَيُتَّخَذُ مَسْجِدًا بِالصَّلَاةِ عِنْدَهُ وَالِدُعَاءِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا وَلَوْ كُنْتُ مَتَّخِذًا مِنْ أُمِّي خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ) (١).

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنِ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: (خَشِيَ أَنْ يَتَّخَذَ مَسْجِدًا) فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لَيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ الصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدْ اتَّخَذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ: ﷺ (جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة - باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ قبور مساجد (٥٣٢).

===== [20] بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ ؟

(جُنْدُبُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ) بْنُ سُفْيَانَ الْبَجَلِيِّ (قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخُمْسٍ) أَيْ : لِيَالِي (إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ) أَيْ : أَمْتَنُ (أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ) الْخَلِيلُ : مِنَ الْخُلَّةِ وَهِيَ خَالِصُ الْوُدِّ ، وَأَعْلَى دَرَجَاتِ الْمَحَبَّةِ وَأَصْفَاهَا ، قِيلَ : مِنْ تَخْلُلِ الْمَوَدَّةِ الْقَلْبِ . (فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) هَذِهِ الْمَنْزِلَةُ لَمْ تَنْبُتْ لِأَحَدٍ غَيْرِ نَبِيِّنَا وَإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَفِي إِبْنَاتِ الْخُلَّةِ لِلَّهِ رَدُّ عَلَى الْأَشَاعِرَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ (وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا لَأَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا) وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّهُ لَمْ يَتَّخِذْ خَلِيلًا مِنْ أُمَّتِهِ ، وَهَذَا لَا اشْكَالَ فِيهِ أَنْ يَقُولَ الصَّحَابِيُّ : حَدَّثَنِي خَلِيلِي ، فَإِنَّ الْخُلَّةَ مِنْ جِهَةِ الصَّحَابِيِّ لَا مِنْ جِهَةِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَأَنَّ الْخُلَّةَ أَعْظَمُ مِنَ الْمَحَبَّةِ ؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخْبَرَ أَنَّهُ يُحِبُّ عَائِشَةَ وَأَبَاهَا وَمَعَاذًا وَغَيْرَهُمْ ، فَمَنْ وَصَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهُ حَبِيبُ اللَّهِ فَقَدْ قَصَرَ فِي وَصْفِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَفِيهِ فَضِيلَةٌ أَبِي بَكْرٍ وَأَنَّهُ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ وَفِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى اسْتِخْلَافِهِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَ هَذَا الْكَلَامُ فِي مَرَضٍ مَوْتِهِ ، وَفِيهِ رَدُّ عَلَى الرَّافِضَةِ الَّذِينَ يُفَضِّلُونَ عَلِيًّا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - قَوْلُهُ : (أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ) أَلَا : حَرْفُ تَنْبِيهِ ، وَإِنَّ : حَرْفُ تَوْكِيدٍ ، قَوْلُهُ : (كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) وَصُورُ اتِّخَاذِ الْقَبْرِ مَسْجِدًا ثَلَاثَةٌ : بِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ أَوْ دَفْنُ الْمَوْتَى فِي الْمَسَاجِدِ ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا ، وَالِدُعَاءُ عِنْدَهَا . (أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ ، فَإِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ) أَلَا حَرْفُ تَنْبِيهِ ، وَلَا نَاهِيَّةٌ ، وَهَذَا تَحْذِيرٌ مِنْ فِعْلِهِ . فَاَنْظُرْ - رَحِمَكَ اللَّهُ - إِلَى مَا اشْتَمَلَ عَلَيْهِ هَذَا الْحَدِيثُ مِنَ التَّنْبِيهِ بَعْدَ التَّنْبِيهِ وَالنَّهْيِ بَعْدَ النَّهْيِ ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى خَطَرِ الْمَسْأَلَةِ وَأَنَّهَا مِنْ وَسَائِلِ الشِّرْكِ ، (فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ) كَمَا فِي حَدِيثِ جُنْدُبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - . (ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ) أَيْ : فِي سِيَاقِ الْمَوْتِ ، كَمَا فِي حَدِيثِ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا . (وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ) أَيْ : الصَّلَاةُ عِنْدَ الْقُبُورِ مِنَ اتِّخَاذِهَا مَسَاجِدَ ، لِذَلِكَ جَاءَ النَّهْيُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ : (لَا تَجْلِسُوا عَلَى الْقُبُورِ وَلَا تُصَلُّوا إِلَيْهَا)

(١) (وَإِنْ لَمْ يُبَيِّنْ مَسْجِدًا) أَي : أَنَّ هَذَا هِيَ عَنِ الصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ عِنْدَهَا . قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :
وَبِالْجُمْلَةِ فَمَنْ لَهُ مَعْرِفَةٌ بِالشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَذَرَائِعِهِ وَفَهُمَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَقَاصِدَهُ ، جَزَمَ جَزْمًا لَا يَحْتَمِلُ
التَّقْيِضَ أَنَّ هَذِهِ الْمُبَالَغَةَ وَاللَّعْنَ وَالنَّهْيَ بِصِغَتَيْهِ - صِغَةُ " لَا تَفْعَلُوا " ، وَصِغَةُ " إِنِّي أَنَهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ
" - لَيْسَ لِأَجْلِ النَّجَاسَةِ ، بَلْ هُوَ لِأَجْلِ نَجَاسَةِ الشِّرْكِ اللَّاحِقَةِ لِمَنْ عَصَاهُ ، وَارْتَكَبَ مَا عَنْهُ نَهَاهُ ،
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَلَمْ يَخْشَ رَبَّهُ وَمَوْلَاهُ ، وَقَالَ نَصِيْبُهُ أَوْ عُدَمَ مِنْ " لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " فَإِنَّ هَذَا وَأَمْثَالَهُ مِنَ النَّبِيِّ
ﷺ صِيَانَةٌ لِحِمَى التَّوْحِيدِ أَنْ يَلْحَقَهُ الشِّرْكَ وَيَعُشَاهُ ، وَتَجَرِيدٌ لَهُ وَعِصْبَةٌ لِرَبِّهِ ، أَنْ يُعَدَلَ بِهِ سِوَاهُ ،
فَأَبَى الْمُشْرِكُونَ إِلَّا مَعْصِيَةً لِأَمْرِهِ وَارْتِكَابًا لِنَهْيِهِ ، وَغَرَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِأَنَّ هَذَا تَعْظِيمٌ لِقُبُورِ الْمَشَائِخِ
وَالصَّالِحِينَ . وَكُلَّمَا كُنْتُمْ لَهَا أَشَدَّ تَعْظِيمًا وَأَشَدَّ فِيهِمْ غُلُوبًا كُنْتُمْ بِقُرْبِهِمْ أَسْعَدَ ، وَمِنْ أَعْدَائِهِمْ أَبْعَدَ ،
وَلَعَمْرُ اللَّهِ ، مِنْ هَذَا الْبَابِ دَخَلَ الشَّيْطَانُ عَلَى عِبَادِ يَعْقُوقَ وَيَعُوثَ وَنَسْرَا ؛ وَدَخَلَ عَلَى عِبَادِ الْأَصْنَامِ
مُنْذُ كَانُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ؛ فَجَمَعَ الْمُشْرِكُونَ بَيْنَ الْغُلُوبِ فِيهِمْ وَالطَّعْنِ فِي طَرِيقَتِهِمْ ، فَهَدَى اللَّهُ أَهْلَ
التَّوْحِيدِ لِسُلُوكِ طَرِيقَتِهِمْ وَإِنْزَالِهِمْ مَنَازِلَهُمُ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ إِيَّاهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَسَلَبِ خِصَائِصِ الْإِلَهِيةِ
عَنْهُمْ .) (٢) أهـ.

(وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: (حَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) أَي: خَشِيَ أَنْ يَصْلِيَ عِنْدَهُ الْجُهَّالُ ، (فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ
يَكُونُوا لِيُبَيِّنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا) وَيُعَدُّ ذَلِكَ أَنَّ الْمَسْجِدَ كَانَ مجاوراً لبيتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ (وَكُلُّ
مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلَاةُ فِيهِ ، فَقَدْ أُتِّخِذَ مَسْجِدًا) : وَلَوْ لَمْ يُعَدَّ لِلصَّلَاةِ ، (بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ ،
يُسَمَّى مَسْجِدًا ، كَمَا قَالَ : ﷺ (جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا) فَمَنْ صَلَّى بَيْنَ يَدَيِ الْقَبْرِ فَقَدْ
اتَّخَذَهُ مَسْجِدًا .

(١) أخرجه مسلم، باب النَّهْيِ عَنِ الْجُلُوسِ عَلَى الْقَبْرِ وَالصَّلَاةِ عَلَيْهِ، بِرَقْم: (١٦١٣).

(٢) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ١٨٩/١، الناشر : دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ - ١٩٧٥، تحقيق : محمد حامد
الفقي.

===== [20] بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ ؟

وَأَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) مَرْفُوعًا (إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ)^(١) وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ . قَوْلُهُ : " مَنْ تَدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ " لَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذَا الْجُمْلَةِ وَحَدِيثِ : (لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي مَنْصُورِينَ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ)^(٢) الْمُرَادُ هُنَا : حَتَّى قُرْبَ قِيَامِهَا ، وَالْمُرَادُ بِالَّذِينَ (تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ) أَيِ : حَتَّى النَّفْخِ فِي الصُّورِ . قَوْلُهُ : (وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ) وَكَانُوا مِنْ شِرَارِ الْخَلْقِ ؛ لِأَنَّهُمْ أَقَامُوا وَسَائِلَ الشِّرْكِ ، وَمِنْهَا الْبِنَاءُ عَلَى الْقُبُورِ وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا ، وَالِدَعَاءُ عِنْدَهَا . - شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا : زَعَمَ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الصَّلَاةِ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ أَجْلِ النَّجَاسَةِ ، وَهَذَا التَّغْلِيلُ مَرْدُودٌ ؛ لِأَنَّ الْحَدِيثَ فِيهِ ، صَاحِبُوهُمْ وَأَنْبِيَائُهُمْ ، وَالْأَنْبِيَاءُ طَرِيقَةُ أَجْسَادِهِمْ لَيْسَ فِيهَا فَيْحٌ وَلَا دَمٌ .

مَسْأَلَةٌ تَتَعَلَّقُ بِالْبَابِ :

و هِيَ مَا حُكِمَ الصَّلَاةُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِيهِ قَبْرٌ ؟

فَالْجَوَابُ أَنَّ فِيهَا تَفْصِيلًا : - مَنْ قَصَدَ الصَّلَاةَ فِي الْمَسْجِدِ مِنْ أَجْلِ الْقَبْرِ فَصَلَاتُهُ بَاطِلَةٌ .

- وَمَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدٍ فِيهِ قَبْرٌ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ بِالْقَبْرِ صَحَّتْ صَلَاتُهُ وَلَا تَلَزُمُهُ الْإِعَادَةُ .

- وَمَنْ صَلَّى فِي مَسْجِدٍ فِيهِ قَبْرٌ وَهُوَ يَعْلَمُ بِالْقَبْرِ مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ لِلْقَبْرِ فَهُوَ آثِمٌ ، وَالْخِلَافُ فِي صِحَّةِ

صَلَاتِهِ قَائِمٌ وَالْأَحْوَطُ تَرْكُ الصَّلَاةِ فِيهِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْقَبْرُ مِنْ جِهَةِ الْقِبْلَةِ مَعَ وَجُودِ مَسْجِدٍ آخَرَ وَلَمْ

تَكُنْ فِيهِ تِلْكَ الْمَحَاضِيرُ .



(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٤٥٤/١)، وَقَالَ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ : «الْحَدِيثُ حَسَنٌ لَغِيْرِهِ» .

(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَاجَهَ السَّنَنِ ، بَابُ اتِّبَاعِ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِرَقْمِ (٦) وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيْحَةِ بِرَقْمِ : (٤٠٣)

[٢١]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْعُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَدَّثَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنَ الْعُلُوِّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ ، وَذَكَرَ هُنَا الثَّمَرَةَ وَالْعَايَةَ وَالتَّيَجَّةَ ، وَهِيَ أَنَّهَا تَصِيرُ أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ . قَوْلُهُ (مَا جَاءَ) أَيِ مِنَ الْأَدِلَّةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ أَنَّ الْعُلُوَّ : هُوَ مُجَاوِزَةُ الْحَدِّ الْمَشْرُوعِ ، وَالْمَشْرُوعُ هُوَ زِيَارَةُ قُبُورِهِمْ لِلدُّعَاءِ لَهُمْ أَمَّا الْعُلُوُّ فِي الْقُبُورِ فَهُوَ أَنْوَاعٌ مِنْهَا : فَصَدَّهَا لِلتَّبَرُّكِ وَالِدُّعَاءِ وَالذَّبْحِ وَالْبِنَاءِ عَلَيْهَا ، وَإِنَارَتِهَا . (أَوْثَانًا) الْوَثْنُ : هُوَ كُلُّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، وَخَصَّصَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِمَا يُبَاشِرُهُ الْعَابِدُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [رَوَى مَالِكٌ فِي الْمَوْطَأِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَ

قَبْرِي وَثْنًا يُعْبَدُ ، اسْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) (١) .

(مَالِكٌ) هُوَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ بْنِ مَالِكٍ بْنِ أَبِي عَامِرٍ الْأَصْبَحِي ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ الْمَدَنِيُّ ، إِمَامٌ دَارِ الْهِجْرَةِ ، اسْتَهْرَ بِتَعْظِيمِ السُّنَنِ ، أَحَدُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ ، مَاتَ سَنَةَ ١٧٩ هـ ، وَلَهُ تِسْعُونَ سَنَةً . قَوْلُهُ : (اللَّهُمَّ) أَصْلُهَا يَا اللَّهُ ، وَالْمِيمُ عِوَضٌ عَنْ يَاءِ التَّنَادِ .

قَوْلُهُ : (لَا تَجْعَلَ قَبْرِي وَثْنًا يُعْبَدُ) فِي الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَوْ عُبِدَ قَبْرُهُ لَصَارَ وَثْنًا ، لَكِنَّ اللَّهَ حَمَاهُ فَلَا سَبِيلَ إِلَى الْوُصُولِ إِلَيْهِ ، هَذَا إِذَا قُلْنَا : أَنَّ الْوَثْنَ هُوَ الَّذِي يُبَاشِرُهُ الْعَابِدُ ، أَمَّا إِذَا قِيلَ : لَا يَشْتَرِطُ فِي الْوَثَنِ مُبَاشَرَةُ الْعَابِدِ ، فَالْجَوَابُ : أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَسْتَجِبْ دَعْوَةَ نَبِيِّهِ ﷺ لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا ، وَقَدْ وَرَدَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنْعَنِي الثَّالِثَةَ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَفِيهِ خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَمَّتِهِ مِمَّا يُوجِبُ عَلَيْهَا غَضَبَ رَبِّهَا ، وَفِي دُعَاءِ النَّبِيِّ ﷺ أَلَا يَجْعَلَ قَبْرَهُ وَثْنًا دَلِيلٌ عَلَى إِمْكَانِ الْوُقُوعِ ، إِذْ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَطْلُبَ مَا لَا يُمْكِنُ وَقُوعُهُ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْاِعْتِدَاءِ فِي الدُّعَاءِ .

(١) أخرجه مالك في «موطئه» : كتاب النداء للصلاة - باب جامع الصلاة (٤١٦) ، وهو صحيح راجع تحذير الساجد ، ص : ١٧ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ:

وَدَعَا بِأَلَا يَجْعَلَ الْقَبْرَ الَّذِي *** ضَمَّهُ وَثَنًا مِنَ الْأَوْثَانِ
فَأَجَابَ رَبُّ الْعَالَمِينَ دُعَاءَهُ *** وَأَحَاطَهُ بِثَلَاثَةِ الْجُدْرَانِ
حَتَّى عَدَتْ أَرْجَاؤُهُ بِدُعَائِهِ *** فِي عِزَّةٍ وَحِمَايَةٍ وَصِيَانِ

(اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعُصْبِ لِلَّهِ وَأَنَّهُ لَيْسَ كَغَضَبِ الْمَخْلُوقِ ، وَأَنَّ اتِّخَاذَ الْقُبُورِ مَسَاجِدَ مِنْ وَسَائِلِ جَعْلِهَا أَوْثَانًا ، وَجَمْعُ النَّبِيِّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيْنَ الْعَايَةِ وَالْوَسِيلَةِ وَنَقَرٍ مِنَ الْوَسِيلَةِ بَيَانُ أَنَّهَا سَبَبُ غَضَبِ اللَّهِ ، وَفِيهِ حُسْنُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَتَحْرِيمُ الصَّلَاةِ عَلَى الْقُبُورِ وَبِنَاءِ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا وَالصَّلَاةُ إِلَيْهَا بَلْ هُوَ مِنْ ذَلِكَ مِنْ وَسَائِلِ الشَّرِكِ وَذِرَائِعِهِ ، قَالَ الْقَاضِي عِيَاضُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَكَرِهَ مَالِكٌ أَنْ يُقَالَ : زُرْنَا قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ ، ... وَكَرَاهَةُ مَالِكٍ لَهُ لِإِضَافَتِهِ إِلَى قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ لَوْ قَالَ زُرْنَا النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكْرَهُهُ لِقَوْلِهِ ﷺ (اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ بَعْدِي ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ) ^(١) وَقَالَ أَيْضًا: [وَقَالَ فِي الْمَبْسُوطِ: لَا أَرَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ يَدْعُو وَلَكِنْ يُسَلِّمُ وَيَمْضِي] ^(٢) .
اعْتِرَاضٌ وَجَوَابُهُ : إِذَا اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ بِأَنَّ قَبْرَ النَّبِيِّ ﷺ الْآنَ فِي مَسْجِدِهِ فَمَا الْجَوَابُ ؟ الْجَوَابُ مِنْ وَجْهٍ :

الأول : أَنَّ مَسْجِدَهُ لَمْ يُبْنَ عَلَى قَبْرِهِ ﷺ وَالِاسْتِدْلَالُ يَكُونُ بِفَعْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَيْسَ بِالْوَاقِعِ .

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٨٤/٢).

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (٨٥/٢).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الثَّانِي : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَاتَ وَالْمَسْجِدُ مُوجُودٌ وَلَمْ يُدْفَنْ دَاخِلَ الْمَسْجِدِ بَلْ دُفِنَ فِي حَجَرَةٍ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - لِحَدِيثِ : أَبِي بَكْرٍ « مَا قَبَضَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ » . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ ، وَكَانَتْ عَائِشَةُ فِي حُجْرَتِهَا حَتَّى مَاتَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

الثَّلَاثُ : أَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ أَنْ يُدْفَنَ نَبِيُّهُ ﷺ فِي الْمَسْجِدِ لِأَنَّهُ لَمْ يَقْبِضْهُ فِيهِ .

الرَّابِعُ : أَنَّ الصَّحَابَةَ إِنَّمَا دَفَنُوهُ فِي بَيْتِهِ خَوْفًا مِنْ اتِّخَاذِ قَبْرِهِ مَسْجِدًا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا (لَوْلَا ذَلِكَ لَأَبْرَزَ قَبْرُهُ) .

الخَامِسُ : أَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ ؛ كَعُمَرَ وَعُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَدْ وَسَّعُوا الْمَسْجِدَ وَلَمْ يُوسِّعُوهُ مِنْ جِهَةِ الْحَجَرَةِ .

السَّادِسُ : أَنَّ إِدْخَالَ حُجْرِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ فِي تَوْسِعَةِ الْمَسْجِدِ كَانَ فِي عَهْدِ الْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ سَنَةً (٨٨) ، وَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ مِنَ الصَّحَابَةِ أَحَدٌ بِالْمَدِينَةِ ، وَقَدْ أَنْكَرَهُ خِيَارُ التَّابِعِينَ كَسَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ .

فَفَعَلَ الْوَلِيدُ حُطَاءً لَا يُتَابَعُ عَلَيْهِ - عَفَا اللَّهُ عَنْهُ - (١) .

السَّابِعُ : أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ وَمَنْ أَدْخَلَ الْقَبْرَ فِي الْمَسْجِدِ قَدْ اخْتَاطُوا لِذَلِكَ فَبَنَوْا حِدَارِينَ مُنْحَرَفِينَ مِنْ زُكْنِي الْقَبْرِ الشَّمَالِيِّينَ حَتَّى التَّقْيَا فِي زَاوِيَةٍ مُثَلَّثٍ ؛ لِفَلَا يَتِمَكَّنَ أَحَدٌ مِنْ اسْتِقْبَالِ الْقَبْرِ .

الثَّامِنُ : أَنَّ الدُّعَاءَ وَالصَّلَاةَ الَّتِي تُفَعَّلُ إِنَّمَا هِيَ فِي مَسْجِدِهِ وَلَيْسَتْ عِنْدَ قَبْرِهِ ، لِأَنَّ الْقَبْرَ بَعِيدٌ جَدًّا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ هُوَ خَارِجُ الْحَجَرَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَا بِنَ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّى﴾ (١). قَالَ كَانَ يَلْتُ لَهُمُ السَّوِيقُ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ (٢)، وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوَزَاءِ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ (كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ) (٣)]

(١) انظر أحداث ٨٨ البداية والنهاية لابن كثير .

===== [٢١] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْعُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

مَضَى الْكَلَامُ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ ، وَذَكَرْتُ أَنَّ فَائِدَةَ الْأَسْتِفْهَامِ التَّحْقِيرُ بَعْدَ ذِكْرِ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى عَظَمَةِ اللَّهِ. (كَانَ يَلْتُ السَّوِيقَ) السَّوِيقُ هُوَ خَلْطُ الدَّقِيقِ بِالسَّمَنِ، (لِلْحَاجِّ) اسْمُ جَنْسٍ أَيْ : لِجَمِيعِ الْحَاجِّجِ. وَمُنَاسَبَةُ الْأَثَرِ لِلْبَابِ : أَنَّهُمْ عَلَوْا فِيهِ لِصَلَاحِهِ وَإِطْعَامِهِ الطَّعَامَ حَتَّى عَبْدُوا قَبْرَهُ وَعَكَفُوا عِنْدَهُ وَلَا زَمُوهُ عَلَى وَجْهِ الْقُرْبَةِ ثُمَّ إِنْهُمْ صَوَّرُوا صُورَتَهُ وَعَبَدُوهُ مَعَ اللَّهِ فَصَارَ وَثْنًا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ) ^(٤) رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ]

قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِي - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (عِلَّةُ هَذَا الْحَدِيثِ بِإِذْنِ - بِالنُّونِ أَوْ الْمِيمِ - مَوْلَى أُمِّ هَانِي وَهُوَ ضَعِيفٌ عِنْدَ جُمْهُورِ النُّقَادِ ، وَقَدْ وَسَّمَهُ بَعْضُهُمْ بِالتَّنْذِيلِ) ^(٥)، وَقَدْ صَحَّحَ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِي الْحَدِيثَ بِلَفْظٍ: (لَعَنَ اللَّهُ زَوَارَاتِ الْقُبُورِ) ^(٦). فَالْنَهْيُ لِهُنَّ عَنِ الْمُبَالَعَةِ لَا عَنْ أَصْلِ الزِّيَارَةِ فَالْمُحَرَّمُ عَلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ كَثْرَةُ الزِّيَارَةِ فَقَطْ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ : قَدْ تُطْلَقُ الْمُبَالَعَةُ عَلَى أَصْلِ الْفِعْلِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي اللَّعَةِ فَزِيَارَةُ الْمَرْأَةِ مُحَرَّمَةٌ مُطْلَقًا وَإِنْ لَمْ تُكْثَرِ مِنْهَا خَاصَّةً مَعَ اسْتِصْحَابِ جَزَعِ النِّسَاءِ وَعَدَمِ صَبْرِهِنَّ. وَهَذَا هُوَ الْأَرْجَحُ فَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَعْنِي - مَرَّ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرِ، فَقَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ، وَاصْبِرِي». فَقَالَتْ: وَأَنْتَ مَا تُبَالِي بِمُصِيبَتِي؟ فَقِيلَ لَهَا: إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛

(١) سورة النجم الآية: ١٩.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٢٣/٢٢).

(٣) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٢٣/٢٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٩/١) وأبو داود في كتاب الجنائز - باب في زيارة النساء القبور (٣٢٣٦) والترمذي في كتاب الصلاة - باب ماجاء في كراهية أن يتخذ على القبر مسجدًا (٣٢٠)، والنسائي في «سننه الكبرى» (٢١٧٠) وفي «المجتبى»: كتاب التغليب في اتخاذ السرج على القبور (٢٠٤٣)، وابن ماجه في كتاب ماجه في الجنائز - باب ما جاء في النهي عن زيارة النساء القبور (١٥٧٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١٧٩)، (٣١٨٠)، والحاكم في «المستدرک على الصحيحين» (٥٣٠/١).

(٥) الضعيفة برقم (٢٢٥) بتصرف تنبيه والحديث ضعفه الإمام مسلم - رحمه الله - كما في تحذير الساجد للعلامة الألباني - رحمه الله - ص ٤١ - ٤٢ وضعفه الشيخ مقبل بن هادي الوادعي - رحمه الله - في تبعه لأوهام الحاكم في المستدرک (٢٤٥/١).

(٦) انظر صحيح الجامع برقم (٤٩٨٥) .

امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
فَأَخَذَهَا مِثْلُ الْمَوْتِ، فَأَتَتْهُ، فَقَالَتْ: إِنِّي لَمْ أَعْرِفْكَ. فَقَالَ: «الصَّبْرُ عِنْدَ أَوَّلِ صَدْمَةٍ» والشاهد أنه لم
ينهاها عن زيارة القبر حتى بعد ما جاءته معذرة أمّا قَوْلُهُ: (وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ) فَقَدْ تَقَدَّمَ مَا
يَشْهَدُ لَهُ. أمّا قَوْلُهُ: (وَالسُّرُجَ) جَمْعُ سِرَاجٍ وَهِيَ الْمَصَابِيحُ والمراد بها تخصيص قبر بالمصابيح لا إضاءة
المقبرة عامة قَالَ الألباني - رَحِمَهُ اللهُ -: (لَمْ نَجِدْ فِي الْإِحَادِيثِ مَا يَشْهَدُ لَهُ، فَهَذَا الْقَدْرُ ضَعِيفٌ، وَإِنْ
لَمْ يَكُنْ بَعْضُ إِخْوَانِنَا السَّلَفِيِّينَ فِي بَعْضِ الْبِلَادِ بِالْإِسْتِدْلَالِ بِهِ، فَتَصِيحَتِي إِلَيْهِمْ أَنْ يُنْسِكُوا عَنْ نِسْبَتِهِ إِلَيْهِ
ﷺ، وَيَسْتَدِلُّوا عَلَى مَنْعِ السُّرُجِ بِعُمُومَاتِ الشَّرِيعَةِ، كَحَدِيثِ كُلِّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَنَهْيِهِ عَنْ إِضَاعَةِ
الْمَالِ، وَنَهْيِهِ عَنِ التَّشَبُّهِ بِالْكَفَّارِ) ^(١) ومن صور الغلو المنتشرة اتخاذ الأعلام والرايات عليها



(١) السلسلة الضعيفة برقم (٢٢٥) بتصرف.

== [٢٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

[٢٢]

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ.

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْ جِنْسِ الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْغُلُوِّ ، وَلَكِنَّهُ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْغُلُوِّ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ خَاصَّةً ، فَيَكُونُ هَذَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ . وَيَكُونُ هَذَا مِنَ التَّدْرِجِ فِي تَخْلِصِ النَّاسِ مِنَ الْغُلُوِّ شَيْئًا فَشَيْئًا فَبَعْدَ النِّهْيِ عَنِ الْغُلُوِّ فِي الصَّالِحِينَ يَحْذَرُ مِنَ الْغُلُوِّ فِي النَّبِيِّ ﷺ لِعَظِيمِ جَنَابِهِ وَعُلُوِّ مَنْزِلَتِهِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ أَيُّ : مِنْ الْأَدْلَةِ ،

(فِي حِمَايَةِ) : مُصَدَّرٌ حَمَى إِذَا جَعَلَ لَهُ مَانِعًا يَمْنَعُ مِنْ قُرْبِهِ ، وَ(الْمُصْطَفَى) الْمُخْتَارُ وَهُوَ مِنْ صِفَاتِهِ وَلَيْسَ مِنْ أَسْمَائِهِ ،

(جَنَابِ التَّوْحِيدِ) أَيُّ : جَانِبُهُ الْعَظِيمُ ، (وَسَدِّهِ) الصَّمِيمُ يَعُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ . (كُلَّ طَرِيقٍ) : مَفْعُولٌ بِهِ لِلْمُصَدَّرِ سَدَّهُ وَ الْمَعْنَى سَدَ النَّبِيِّ ﷺ كُلَّ طَرِيقٍ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلَ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ

عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ ^(١)]

هَذَا الْخَبْرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتٍ : اللَّامُ وَقَدْ وَالْقَسَمُ الْمَحْدُوفُ ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ رَسُولَهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَرْبَعِ صِفَاتٍ : الْأُولَى : (رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وَالْخَطَابُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ لِلْبَشَرِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا الْمَعْنَى صَرِيحًا فِي قَوْلِهِ : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ ^(٢) وَقِيلَ الْخَطَابُ لِلْعَرَبِ ، وَلَا تَعَارُضَ ، فَيَكُونُ

(١) سورة التوبة الآية: ١٢٨ .

(٢) سورة فصلت الآية: ٦ .

كَقَوْلِهِ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ ^(١) فَالْمِنَّةُ حَاصِلَةٌ بَيْنِنَا ﷺ عَلَى الْبَشَرِ عَامَّةً ، وَعَلَى الْعَرَبِ خَاصَّةً ؛ لِأَنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أَعْظَمُ .

الثَّانِيَةُ: (عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ) أَيُّ : يَصْعُبُ عَلَيْهِ عَنُتُكُمْ أَيُّ : مَشَقَّتُكُمْ ، وَهَذَا مِنْ كَمَالِ شَفَقَتِهِ وَحُبِّهِ ﷺ لَنَا . الثَّالِثَةُ: (حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ) الْحَرِصُ : هُوَ بَدَلُ الْجَهْدِ لِإِدْرَاكِ أَمْرِ مَقْصُودٍ ، فَهُوَ حَرِيصٌ عَلَى إِصْصَالِ الْحَيِّرِ إِلَيْنَا .

الرَّابِعَةُ: (بِالْمُؤْمِنِينَ رُؤُوفٌ رَّحِيمٌ) تَقْدِيمُ الْجَارِ وَالْمَجْرُورِ يُفِيدُ الْحُضَرَ ، فَهُوَ عَلَى الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ غَلِيظٌ شَدِيدٌ؛ لِأَنَّ اللَّهَ أَمَرَهُ بِذَلِكَ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّيُّ جَهْدٌ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاعْلَظْ عَلَيْهِمْ وَمَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَبَسَّ الْمَصِيرُ﴾ ^(٢)

وَالرَّأْفَةُ أَعْلَى مَنْزِلَةٍ مِنَ الرَّحْمَةِ . وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ : إِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُتَصِفًا بِهَذِهِ الصِّفَاتِ فَهَلْ يَلِيقُ بِمَنْ هَذِهِ صِفَاتُهُ أَنْ يَتْرَكَ الْأُمَّةَ تَفْعُ فِي الشِّرْكِ وَأَسْبَابِهِ وَلَا يُحَذِّرُهَا مِنْهُ ؟! وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : التَّنْبِيهُ إِلَى مِنَّةِ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ، وَفِيهَا التَّنْبِيهُ إِلَى جَمِيلِ صِفَاتِهِ ، وَفِيهَا أَنَّ الرَّحْمَةَ وَالرَّأْفَةَ بِالْأُمَّةِ تَقْتَضِي تَحْذِيرَهَا مِنَ الشِّرْكِ ، فَالِدُّعَاءُ الَّذِينَ يَحْذَرُونَهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ أَرْحَمِ النَّاسِ بِهَا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ] قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) ^(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنِ وَرَوَاتُهُ ثِقَاتٌ.]

(١) سورة الجمعة الآية: ٢ .

(٢) سورة التوبة الآية: ٧٣ .

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٦٧/٢)، وأبو داود في كتاب المناسك - باب زيارة القبور (٢٠٤٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٢٦) .

== [٢٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

قوله: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا) لِهَذِهِ الْجُمْلَةِ مَعْنِيَانِ : الأول ظاهرٌ: وهو لَا تَدْفِنُوا الْمَوْتَى فِي الْبُيُوتِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّضْيِيقِ عَلَى الْوَرَثَةِ ، وَ حِرْمَانِ الْمَيِّتِ مِنْ دَعْوَةِ الْمُسْلِمِينَ وَالثَّانِي : صَلُّوا فِي بُيُوتِكُمْ وَاقْرَءُوا فِيهَا الْقُرْآنَ ؛ لِأَنَّ الْمُنْقَرِرَ عِنْدَهُمْ أَنَّ الْقُبُورَ لَا يُصَلَّى فِيهَا وَلَا يُقْرَأُ فِيهَا الْقُرْآنُ. وَفِي الصَّحِيحَيْنِ: (اجْعَلُوا فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ صَلَاتِكُمْ وَلَا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا) ^(١). وَفِي مُسْلِمٍ: (لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ) ^(٢). وَفِي الْحَدِيثِ الْعَنَائَةِ بِالْبُيُوتِ وَعِمَارَتِهَا بِالصَّلَاةِ وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ .

قَوْلُهُ: (وَلَا تَجْعَلُوا قُبُورِي عِيدًا) قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (الْعِيدُ هُوَ مَا يَعْتَادُ النَّاسُ مَحْيَاهُ وَقَصْدُهُ مِنْ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، أُخِذَ مِنَ الْمُعَاوَدَةِ وَالْإِعْتِيَادِ) ^(٣) ، وَالْمَعْنَى : لَا تَتَرَدَّدُوا عَلَى قَبْرِي وَلَا تَعْتَادُوا ذَلِكَ فِي أَوْقَاتٍ مَعْلُومَةٍ ، وَإِنَّمَا يُزَارُ لِسَبَبٍ كَمَنْ قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ أَوْ زَارَهُ لِيَتَذَكَّرَ الْآخِرَةَ ، قَوْلُهُ : (وَصَلُّوا عَلَيَّ) هَذَا أَمْرٌ بِالصَّلَاةِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ تَجَبُّ وَقَدْ تُسْتَحَبُّ بِحَسَبِ الْحَالِ. (فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ) هَذَا تَعْلِيلٌ لِلنَّهْيِ عَنْ تَكَرُّرِ الزِّيَارَةِ قَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (يُشِيرُ بِذَلِكَ إِلَى أَنَّ مَا نَأْتِي مِنْكُمْ مِنَ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ فَإِنَّهُ يَحْضُلُ بِقُرْبِكُمْ مِنْ قَبْرِي وَبَعْدَكُمْ ، فَلَا حَاجَةَ لِإِتِّخَاذِهِ عِيدًا) ^(٤) وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَنْهَوْنَ عَنْ هَذَا التَّرَدُّدِ فَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَهْلٍ قَالَ رَأَيْتُ الْحَسَنَ بْنَ الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عِنْدَ الْقَبْرِ فَنَادَانِي وَهُوَ فِي بَيْتِ فَاطِمَةَ يَتَعَشَّى فَقَالَ هَلُمَّ إِلَى الْعِشَاءِ فَقُلْتُ لَا أُرِيدُهُ فَقَالَ مَا لِي رَأَيْتُكَ عِنْدَ الْقَبْرِ فَقُلْتُ سَلَّمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: إِذَا دَخَلْتَ الْمَسْجِدَ فَسَلِّمْ ثُمَّ قَالَ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي

(١) أخرجه البخاري، باب كراهية الصلاة في المقابر، برقم: (٤١٤)، واللفظ له، ولفظ مسلم: (اجْعَلُوا مِنْ صَلَاتِكُمْ فِي بُيُوتِكُمْ وَلَا

تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا)، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وخوارها في المسجد، برقم: (١٢٩٦).

(٢) أخرجه مسلم، باب استحباب صلاة النافلة في بيته وخوارها في المسجد، برقم (١٣٠٠).

(٣) إغاثة اللهفان ١/١٩٠.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم ٢/١٧٣.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 حَيْثُ مَا كُنْتُمْ لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ مَا أَنْتُمْ وَمَنْ بِالْأَنْدَلُسِ إِلَّا سَوَاءٌ
 وقد صحح الألباني قصة سهل هذه (١)

أي: في الصلاة على النبي ﷺ ؛ لقوله ﷺ: (إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ سَيَّاحِينَ يُبَلِّغُونِي مِنْ أُمَّتِي
 السَّلَامَ) (٢).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ I : (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ
 عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو ، فَنَهَاهُ وَقَالَ أَلَا أَحَدَيْتُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي
 عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ
 لِيَبْلُغَنِي أَيْنَ كُنْتُمْ) (٣) رَوَاهُ فِي الْمَخْتَارَةِ .]

(عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ) الْمَعْرُوفُ بِزَيْنِ الْعَابِدِينَ مِنْ خِيَارِ التَّابِعِينَ ، قَالَ الزُّهْرِيُّ : مَا رَأَيْتُ قُرْشِيًّا أَفْضَلَ مِنْهُ
 . (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ الْفُرْجَةُ الْكُوَّةُ فِي الْجِدَارِ أَيْ : فَتْحَةٌ فِي الْجِدَارِ غَيْرُ نَافِذَةٍ .) (فَيَدْخُلُ
 فِيهَا فَيَدْعُو ، فَنَهَاهُ) فِيهِ : النَّهْيُ عَنْ قَصْدِ الْقَبْرِ لِلدُّعَاءِ ، وَ فِيهِ تَغْيِيرُ الْمُنْكَرِ لَا سِيَّما إِنْ كَانَ مِنْ
 وَسَائِلِ الشَّرِّكَ . وَفِي هَذِهِ الْأَثَارِ جِهَاتُ السَّلَفِ لِجَنَابِ التَّوْحِيدِ . (وَقَالَ أَلَا أَحَدَيْتُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ ...)
 فِيهِ : أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ إِنَّمَا يَكُونُ بَيِّنَةً وَحُجَّةً . وَإِنَّمَا سَاقَ الْإِمَامُ هَذَا الْحَدِيثَ وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا
 لِلَّذِي قَبْلَهُ لَفْظًا وَمَعْنَى ؛ لِيُبَيِّنَ فَهْمَ السَّلَفِ لَهُذِهِ النُّصُوصِ ، فَإِنَّهُ الْفَيْصَلُ فِي فَهْمِ الْوَحْيَيْنِ ، فَإِنَّ عَلِيًّا
 زَيْنَ الْعَابِدِينَ فَهَمَ أَنَّ التَّرَدُّدَ عَلَى الْقَبْرِ وَالِدُّعَاءَ عِنْدَهُ مِنْ اتِّخَاذِهِ عِيدًا ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَدِيثِ نَهْيٌ عَنِ

(١) أخرجه أحمد برقم: (٣٤٨٤)، وصححه الألباني في المشكاة برقم: (٩٢٤).

(٢) أحكام الجنائز ٢٢٠.

(٣) أخرجه الضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٤٢٨/٢٤٤/١)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٥/٢)، وحسنه الألباني في
 "تحذير الساجد" ص: ١٤٠.

== [٢٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلِّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ الدُّعَاءِ وَالتَّرَدُّدِ ، كَمَا أَنَّ الْإِمَامَ سَافَهُ أَيْضاً تَكْثِيراً لِلْأَدْلَةِ . (رَوَاهُ فِي الْمُخْتَارَةِ) وَهُوَ كِتَابُ ضِيَاءِ الدِّينِ الْمَقْدِسِيِّ .

مَسْأَلَةٌ هَلْ يُشْرَعُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُسَافِرَ لِمَزَارَةِ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَوْ يُشَدُّ الرِّحَالَ مِنْ أَجْلِ زِيَارَةِ الْقَبْرِ ؟ قَالَ عَلَامَةُ الدُّنْيَا الشَّيْخُ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : « وَأَمَّا شَدُّ الرِّحَالِ لِمَزَارَةِ الْقُبُورِ فَلَا يَجُوزُ ، وَإِنَّمَا يُشْرَعُ لِمَزَارَةِ الْمَسَاجِدِ الثَّلَاثَةِ خَاصَّةً ؛ لِقَوْلِهِ ﷺ : « لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إِلَّا إِلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ : الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَسْجِدِي هَذَا وَالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى » مُتَّفَقٌ عَلَى صِحَّتِهِ ، وَإِذَا زَارَ الْمُسْلِمُ مَسْجِدَ النَّبِيِّ ﷺ دَخَلَ فِي ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّبَعِيَّةِ زِيَارَةُ قَبْرِهِ ﷺ وَقَبْرِ صَاحِبَيْهِ (١) »



(١) مجموع فتاوى ابن باز ٣٣٣/٥

[٢٣]

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْاَوْثَانَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ أَنْ ذَكَرَ سَبَبَ الشِّرْكِ وَهُوَ الْعُلُوُّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ وَأَنَّهُ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا ، وَمَا بَعْدَهُ مِنَ الْأَبْوَابِ عَلِمَ أَنَّ الْقَوْمَ سَيَاتُونَ بِشُبُهَةِ هِيَ عِنْدَهُمْ حُجَّةٌ يُزِدُونَ بِهَا هَذَا الْبَيَانَ وَهِيَ قَوْلُهُمْ إِنَّ هَذِهِ أُمَّةٌ مَرْحُومَةٌ مَعْصُومَةٌ لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَقَعَ فِي الشِّرْكِ فَعَقَدَ هَذَا الْبَابَ لِيبَيِّنَ أَنَّ شُبُهَتَهُمْ وَاهِيَةٌ ، وَحُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْأَدْلَةِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَنِ عَلَى أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ لَا كُلَّهَا يَعْبُدُ الْاَوْثَانَ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ

يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴾ ^(١)]

(أَلَمْ) الْاسْتِنْفَاهُ هُنَا تَقْرِيرِي (أُوتُوا) أَيِ : أَعْطُوا ، (نَصِيبًا) أَيِ : حِصًّا وَجُزْءًا ، وَفِيهِ : أَنَّهُمْ لَمْ يَعْمَلُوا بِمُقْتَضَى الْعِلْمِ ، وَأَنَّ عِلْمَهُمْ بِالْكِتَابِ قَلِيلٌ وَضَعِيفٌ (يُؤْمِنُونَ) أَيِ : يُقَرُّونَ بِهِ (بِالْجِبْتِ) يَشْمَلُ الصَّنَمَ وَالسَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ (وَالطَّاغُوتِ) هُوَ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتَّبِعٍ أَوْ مُطَاعٍ .

(وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا) جَاءَ فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ مِنْ أَسْبَابِ النُّزُولِ لِلْعَلَامَةِ الْوَادِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَنَّ الْمُشْرِكِينَ قَالُوا لِكَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ : نَحْنُ خَيْرٌ أَمْ هَذَا الصَّنُبُورُ الْأَبْتَرُ يُرِيدُونَ : نَبِّينَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، فَقَالَ : أَنْتُمْ خَيْرٌ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ) . قَالَ الْوَادِعِيُّ وَرِجَالُهُ رِجَالُ الصَّحِيحِ إِلَّا أَنَّ الرَّاجِحَ إِزْسَالَهُ ^(٢) وَالصَّنُبُورُ بِمَعْنَى الْأَبْتَرِ وَيُقَالُ لِلشَّجَرَةِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا .

(١) سورة النساء الآية: ٥١ .

(٢) الصحيح المسند لأسباب النزول للوادعي ص: ٦٨

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أَنْبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَغَضَبِ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ ^(١)]

(قل) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ (هَلْ أَنْبِئُكُمْ) الْأَسْتَفْهَامُ هُنَا فَائِدَتُهُ التَّشْوِيقُ (بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ) الْإِشَارَةُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ قَالُوا مَا رَأَيْنَا دِينًا شَرًّا مِنْ دِينِكُمْ (مَثُوبَةً) أَيُّ : جَزَاءً وَثَوَابًا (مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ) أَيُّ : طَرَدَهُ مِنْ رَحْمَتِهِ (وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ) جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ (إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجْعَلْ لِمَسْخٍ نَسْلًا وَلَا عَقَبًا) ^(٢) فليست القردة والخنازير الموجودة الآن من نسل اليهود الذين مسخهم (وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ) فَاعِلُ عَبْدٍ ضَمِيرٌ مُسْتَتِرٌ جَوَازًا تَقْدِيرُهُ هُوَ يَعُودُ إِلَى مَنْ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ ^(٣)]

(الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ) هُمُ الْأُمَرَاءُ وَالْكَبَرَاءُ بِدَلِيلِ أَنَّهُ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ (غَلَبُوا) وَبِدَلِيلِ تَأْكِيدِهِمْ لِلْفِعْلِ ، بِمَا يَدُلُّ عَلَى نُفُوذِ أَمْرِهِمْ ، وَفِيهِ : أَنَّ بِنَاءَ الْمَسَاجِدِ عَلَى الْقُبُورِ مِنْ سَنَنِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا. وقد لعن الله الذين اتخذوا القبور مساجد كما سبق ذكرها في الباب السابق وَيَتِمُّ الْأَسْتِدْلَالُ بِالآيَاتِ الثَّلَاثَةِ بِحَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ...) ^(٤) فَإِنَّ الشِّرْكَ قَدْ وَقَعَ فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، وَقَدْ تَقَرَّرَ مِنَ الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تَتَّبِعُ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَهَا، فَالشِّرْكُ مِنْ سَنَنِهِمْ فَمِنْ الْآيَاتِ وَالْحَدِيثِ نَسْتَفِيدُ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَقَعُ فِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ.

(١) سورة المائدة الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه مسلم باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر برقم (٤٨١٤).

(٣) سورة الكهف الآية: ٢١.

(٤) أخرجه البخاري برقم: (٣٤٥٦)، ومسلم برقم: (٢٦٦٩)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوِ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: (فَمَنْ؟) (١) أَخْرَجَاهُ.]

زيَادَةُ (حَذْوِ الْقِدَّةِ بِالْقِدَّةِ) لَيْسَتْ فِي الصَّحِيحَيْنِ وَفِي سَنَدِهَا شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ وَهُوَ ضَعِيفٌ .
وَلَفْظُ الصَّحِيحَيْنِ: (شَبْرًا بِشَبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ) أَيِ : لَتَفْعَلَنَّ أَفْعَالَهُمْ وَلَتَتَّبِعَنَّ طَرَائِقَهُمْ ، وَمِنْ بَيْنِهَا عِبَادَةُ الْقُبُورِ ، وَبِنَاءُ الْمَسَاجِدِ عَلَيْهَا ، قَوْلُهُ: (لَتَتَّبِعَنَّ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُؤَكَّدَةٌ بِثَلَاثِ مُؤَكَّدَاتِ اللَّامِ وَالْقَسَمِ وَالنُّونِ ، (حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ) هَذَا تَأْكِيدٌ لِلْمُتَابَعَةِ التَّامَّةِ ؛ لِأَنَّ جُحْرَ الضَّبِّ أَعْسَرُ وَأَصْعَرُ الْجُحُورِ . قَوْلُهُ: (قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟) اسْتَفْهَمُوا اسْتِيعَادًا مِنْهُمْ لِلْأَمْرِ وَاسْتِعْظَامًا لَهُ ، وَهَذَا الْخَبَرُ الْمُرَادُ مِنَ الْإِنْشَاءِ وَالْخَبَرُ مَعًا أَيِ: دَمَّ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ وَالنَّهْيُ عَنْ فَعْلِهِ ، وَالْإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ سَيَقَعُ ، قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ (وَقَدْ خَرَجَ هَذَا مِنْهُ مَخْرَجَ الدَّمِّ لِمَنْ يَفْعَلُهُ) . وَمُنَاسَبَةُ الْحَدِيثِ لِلْبَابِ أَنَّ كُلَّ كُفْرٍ وَقَعَ لِلْأُمَّمِ السَّابِقَةِ : فَسَيَقَعُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ بَلْ كُلُّ مَعْصِيَةٍ وَذَنْبٍ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زَوَى لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يَرُدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأَمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ وَأَنْ لَا أَسْلِطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ

(١) أخرجه البخاري برقم: (٣٤٥٦)، ومسلم برقم: (٢٦٦٩) دون قوله: (حذو القدة بالقدة) فهي ليست في الصحيحين وإنما في مسند أحمد "١٢٥/٤" من حديث شداد بن أوس، وفي سندها شهر بن حوشب مختلف فيه.

فَيَسْتَبِيحُ بِيَضَّتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا (١).

(ثَوْبَانُ) مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَيُّ : عَتِيقُهُ ، مَاتَ سَنَةَ ٥٤ هـ بِحِمَصَ . (إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ) أَيُّ : جَمَعَهَا وَضَمَّهَا . (فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ الثَّبُوتِ ، وَفِيهَا عَظِيمُ قُدْرَةِ اللَّهِ ، وَفِيهَا : أَنَّ مُلْكَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَتَسَّعُ مِنْ جِهَةِ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ أَكْثَرَ مِنْ جِهَةِ الشِّمَالِ وَالْجَنُوبِ . وَأَعْطِيتُ الْكَثْرَيْنِ الْأَحْمَرَ ، وَالْأَبْيَضَ) وَهِيَ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَهِيَ كُنُوزُ كِسْرَى وَقَيْصَرَ ، فَإِنَّ أَعْظَمَ كُنُوزِ كِسْرَى مِنَ الْفِضَّةِ ، وَكُنُوزُ قَيْصَرَ مِنَ الذَّهَبِ ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي زَمَنِ عُمَرَ ، فَأَعْطِيتُهُمَا الْأُمَّةُ مِنْ بَعْدِهِ وَلَمْ يُعْطِهَا هُوَ وَلَا تَعَارَضَ ؛ لِأَنَّهُ نَزَلَ أُمَّتُهُ مَنْزِلَةً نَفْسِهِ . (وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةِ بَعَامَةٍ) فِيهِ شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ . (وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) أَيُّ : مِنَ الْكُفَّارِ (فَيَسْتَبِيحُ بِيَضَّتَهُمْ) أَيُّ : يَحُورُ أَرْضَ الْمُسْلِمِينَ كُلَّهَا ، وَقِيلَ : مُعْظَمَهَا ، (وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ) فِيهِ : إِثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ لِلَّهِ تَعَالَى ، (إِنِّي إِذَا فَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ) الْمُرَادُ بِالْقَضَاءِ هُنَا الْقَضَاءُ الْكُونِيُّ ، وَفِيهِ كَمَالُ سُلْطَانِهِ وَقُدْرَتِهِ ؛ لِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا رَادَّ لِقَضَائِهِ وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ بَعْضَ دُعَاءِ نَبِيِّهِ وَلَمْ يَسْتَجِبْ بَعْضَهُ ، لِحِكْمَةٍ يَعْلَمُهَا هُوَ سُبْحَانَهُ (وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أَهْلِكَهُمْ بِسَنَةِ بَعَامَةٍ) هَذِهِ الدَّعْوَةُ اسْتُجِيبَتْ ، وَفِيهِ : أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ لَا تَهْلِكُ جَمِيعُهَا بِالْقَحْطِ ، لَكِنْ قَدْ يَكُونُ فِي بَعْضِ نَوَاحِيهَا دُونَ بَعْضٍ . (وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ) وَفِيهِ : أَنَّ اللَّهَ اسْتَجَابَ الدَّعْوَةَ الثَّانِيَةَ اسْتِجَابَةً مُقَيَّدَةً ، وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُسَلِّطُ عَلَيْهَا عَدُوَّهَا مَا دَامَتْ كَلِمَتُهَا مُجْتَمَعَةً . فَإِنَّ الْخَوْفَ عَلَى الْأُمَّةِ مِنْ خِلَافِهَا فِيمَا بَيْنَهَا أَشَدُّ مِنْ عَدُوَّهَا (وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا) أَيُّ : مِنْ بَجَوَانِهَا ، وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ وَجُوبُ الْوَحْدَةِ وَتَحْرِيمُ الْفُرْقَةِ وَأَنَّهَا سَبَبُ هَزِيمَةِ الْمُسْلِمِينَ .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراف الساعة - باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض (٢٨٨٩).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَاهُ الْبَرْقَائِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ (وَإِنَّمَا أَحَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأِثْمَةُ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْاَوْثَانَ، وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) ^(١)]

(الْبَرْقَائِيُّ) هُوَ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ غَالِبِ الْخَوَارِزْمِيِّ، أَبُو بَكْرٍ، وَلَدَ سَنَةَ ٣٣٦ هـ، وَمَاتَ سَنَةَ ٤١٥ هـ (فِي صَحِيحِهِ) وَمُسْتَحْرَجُهُ يَشْتَمِلُ عَلَى الصَّحِيحِ وَزِيَادَةٍ. (وَإِنَّمَا أَحَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأِثْمَةُ الْمُضِلِّينَ) فِيهِ : شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ، وَالْأِثْمَةُ : يَشْمَلُ الْمُلُوكَ وَالْعُلَمَاءَ وَالْعِبَادَ وَلَأَنَّ فِي فَسَادِهِمْ فَسَادًا لِلْأُمَّةِ .

قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : وَهَلْ أَفْسَدَ الدِّينَ إِلَّا الْمُلُوكُ *** وَأَخْبَارُ سُوءِ وَزُهْبَانُهَا ^(٢) (وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ،) فِيهِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النَّبُوءَةِ فَإِنَّ السَّيْفَ مُنْذُ أَنْ وَقَعَ بِمَقْتَلِ عُمَرَ لَمْ يَزَعْ لَكِنَّهُ يَقِلُّ وَيَكْثُرُ (وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ) فِيهِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ النَّبُوءَةِ (وَيَلْحَقُ بِالْمُشْرِكِينَ) أَيُّ : فِي عَقِيدَتِهِمْ، وَيَجُوزُ أَنْ يَلْحَقَ بِهِمْ فِي بِلَدَانِهِمْ وَعُقَائِدِهِمْ أَيْضًا. (وَحَتَّى تَعْبُدَ فِتْنًا مِنْ أُمَّتِي الْاَوْثَانَ) فِتْنًا : أَيُّ : جَمَاعَاتٌ، وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ هُمَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ. فَكَمْ مِنْ جِهَةٍ فِي بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ عُبِدَتْ فِيهَا الْاَوْثَانُ زُكُوعًا وَسُجُودًا وَذَلًّا

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (٢٨٩/٢)، وأبو داود برقم: (٤٢٥٢)، وصححه الألباني في التعليقات الحسان

"٣٨٩/٩-٣٩٠) وانظر الصحيحة "٢٥٢/٤".

(٢) سير أعلام النبلاء ٥٥٠/٩.

وَحُضُوعًا وَدَعَاءً وَطَوَافًا عَلَى مَرَأَى وَمَشْهَدٍ مِنَ النَّاسِ وَلَا يُنْكِرُ ذَلِكَ أَحَدٌ وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِعُرْبَةِ الْإِسْلَامِ ،
فَمَنْ يُنْكِرُ وَفُوعَ الشِّرْكِ فَقَدْ كَذَّبَ خَبَرَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ ، وَكَفَى بِهَذَا ضَلَالًا .

إشكال وحله:

عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي، وَلَكِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا» رواه أحمد والبخاري ومسلم قال ابن حجر أي على مجموعكم لأن
ذَلِكَ قَدْ وَقَعَ مِنَ الْبَعْضِ أَعَادَنَا اللَّهُ تَعَالَى ^(١) قوله : (وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَابُونَ ، ثَلَاثُونَ ، كُلُّهُمْ
يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ) لَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصْرَ وَلَكِنْ الْمُرَادُ مَنْ هُمْ شَوْكَةٌ وَصَوْلَةٌ وَأَثَرٌ ، فَإِنَّ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ
بِسَبَبِ الْهَذْيَانِ وَالْجُنُونِ وَلَا يَشْتَهَرُ أَمْرُهُ ، وَقَدْ ظَهَرَ مُصَدِّقُ ذَلِكَ ، فَقَدْ خَرَجَ مُسَيِّمَةُ الْكَذَّابِ
بِالْإِمَامَةِ وَقُتِلَ فِي خِلَافَةِ أَبِي بَكْرٍ ، وَخَرَجَ الْأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ بِالْيَمَنِ ، وَطَلِيحَةُ الْأَسَدِيُّ فِي عَهْدِ أَبِي بَكْرٍ
، وَتَابَ وَحَسَنَ إِسْلَامُهُ ، وَخَرَجَتْ سَجَاحُ الَّتِي تَزَوَّجَهَا مَسِيلَمَةُ ، وَخَرَجَ الْمُحْتَارُ بْنُ أَبِي عُبَيْدٍ الثَّقَفِيُّ ،
وَخَرَجَ الْحَارِثُ الْكَذَّابُ فِي عَهْدِ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ ، وَظَهَرَ فِي هَذِهِ الْأَعَصَرِ غُلَامُ أَحْمَدُ الْقَادِيَانِيُّ ،
وَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ ادَّعَى التَّبَوُّةَ فَهُوَ كَافِرٌ وَمَنْ يُصَدِّقُهُ أَيْضًا كَافِرٌ ؛ لِقَوْلِهِ : (وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ) وَلَا
يُشْكَلُ عَلَى هَذَا نَزُولُ عِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِشَرِيعَةِ الْإِسْلَامِ . (وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ
مَنْصُورَةٌ) وَهَذِهِ بَشَارَةٌ عَظِيمَةٌ فَإِنَّهُ مَهْمَا كَثُرَتْ الْفِتْنُ فَأَهْلُ الْحَقِّ مَوْجُودُونَ ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ لَا تَزَالُ يَدُلُّ
عَلَى الْأَسْتِمْرَارِيَّةِ ، وَالطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ هِيَ الْفِرْقَةُ النَّاجِيَّةُ ، وَهُمْ أَهْلُ الْحَدِيثِ ، قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ - رَحِمَهُ
اللَّهُ - : (إِنْ لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الْمَنْصُورَةُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ فَلَا أَدْرِي مَنْ هُمْ) ^(٢) وَقَالَ الْقَاضِي

(١) فتح الباري ٢١١/٣ .

(٢) زَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي مَعْرِفَةِ غُلُومِ الْحَدِيثِ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

عِيَاضُ وَإِنَّمَا أَرَادَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَمَنْ يَعْتَقِدُ مَذْهَبَ أَهْلِ الْحَدِيثِ ^(١). (لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ،
وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ) فَالْخَيْرُ بَاقٍ عَلَى مَرِّ الْأَزْمَنِ وَ ، لَا يُزِيلُهُ مَكْرُ الْمَاكِرِينَ ، وَلَا كَيْدُ الْكَائِدِينَ لِأَنَّ مَعَهُمْ
رَبُّ الْعَالَمِينَ وَإِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ فَهَذِهِ الطَّائِفَةُ لَا يَضُرُّهَا مَنْ خَذَلَهَا مِنْ أُنْبَائِهَا ، وَلَا مَنْ
جَاهَرَهَا الْعَدَاءُ مِنَ الْمُخَالِفِينَ ، فَإِنَّهَا بَاقِيَةٌ بِأَمْرِ اللَّهِ مُنْتَظِرَةٌ أَمْرَ اللَّهِ . (حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)
وَهُوَ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي تَقْبِضُ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَبِئْسَ قِيَامَ السَّاعَةِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ . (تَبَارَكَ) أَيِ :
تَعَاظَمَ ، (وَتَعَالَى) مِنَ الْعُلُوِّ .



(١) إكمال المعلم (٦/٣٥٠) .

[٢٤]

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

مُنَاسَبَةُ هَذَا الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْمُؤَلَّفَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بَعْدَ أَنْ بَيَّنَّ وُقُوعَ الشِّرْكِ بِالدَّلِيلِ ، وَكَانَ مِنَ النَّاسِ مَنْ لَا يُقْنِعُهُ الدَّلِيلُ احْتِاجَ الْإِمَامِ أَنْ يُبْرِهَنَ لَوُقُوعِ الشِّرْكِ بِحُجَّةٍ أُخْرَى وَهِيَ ذِكْرُ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ ، لَا يَنْكِرُ وُجُودَهُ إِلَّا مُكَابِرٌ وَهُوَ السِّحْرُ فَكَأَنَّهُ يَقُولُ مَنْ لَمْ يُقْنِعْهُ الدَّلِيلُ فَلْيُقْنِعْهُ الْوَاقِعُ الدَّلِيلُ. وَالسِّحْرُ لُغَةً : هُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا خَفِيَ وَلَطُفَ سَبَبُهُ ، وَمِنْهُ سُمِّيَ آخِرُ اللَّيْلِ سَحَرًا ، وَكَذَلِكَ الْكَلَامُ الْبَلِيغُ سَحَرًا. وَشَرْعًا ^(١) هُوَ عَقْدٌ وَعَزَائِمٌ يُسْتَعَانُ فِيهَا بِالشَّيْطَانِ وَرُقَى تُؤَثِّرُ فِي الْبَدَنِ وَالْقَلْبِ ، فَتَكُونُ سَبَبًا فِي الْمَوْتِ أَوْ الْمَرَضِ أَوْ التَّفْرِيقِ بَيْنَ الْمُتَحَابِّينَ بِإِذْنِ اللَّهِ . وَوَجْهُ كَوْنِ السِّحْرِ نَوْعًا مِنْ أَنْوَاعِ الشِّرْكِ : أَنَّهُ لَا يَتِمُّ تَعَلُّمُهُ إِلَّا بِالْكَفْرِ بِاللَّهِ وَالْإِسْتِعَانَةِ بِالشَّيْطَانِ مَعَ مَا فِيهِ مِنْ ادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ الَّذِي هُوَ مِنْ خِصَائِصِ الرَّبِّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

خَلْقٍ﴾ ^(٢)]

(وَلَقَدْ عَلِمُوا) الْخَبْرُ مُؤَكَّدٌ بِثَلَاثِ مُؤَكِّدَاتٍ الْقَسَمُ الْمَحْذُوفُ وَاللَّامُ وَقَدْ ، وَضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى مُتَعَلِّمِي السِّحْرِ .

(عَلِمُوا) أَيِ : اتَّفَقُوا وَتَحَقَّقُوا (لِمَنِ اشْتَرَاهُ) أَيِ : احْتَارَهُ ، وَعَبَّرَ بِالشِّرَاءِ ؛ لِأَنَّ السَّاحِرَ يَدْفَعُ دِينَهُ ثَمَنًا لِيَنَالَ السِّلْعَةَ وَهِيَ السِّحْرُ مِنَ الْبَائِعِ هَا وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، (مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ) ، (مَا) نَافِيَةٌ وَ (

(١) قول أهل العلم السحر شرعا لا يعني إقرارهم له وكذا حدهم للشرك والخرم فلا غبار على هذه الكلمة.

(٢) سورة البقرة الآية: ١٠٢.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 خَلَاقٍ (نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، وَ (مِنْ) زَائِدَةٌ ، وَالنَّكْرَةُ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ إِذَا زِيدَتْ عَلَيْهَا مِنْ فَهِيَ
 نَصٌّ فِي الْعُمُومِ . وَ مَعْنَى (خَلَاقٍ) نَصِيبٌ .

وَقَدْ اشْتَمَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ عَلَى كُفْرِ السَّاحِرِ مِنْ خَمْسَةِ أَوْجُهٍ :

- ١- قَوْلُهُ : (وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ) أَيُّ : مَا تَعَلَّمَ السِّحْرَ .
- ٢- قَوْلُهُ : (وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا) أَيُّ : بِتَعَلُّمِ السِّحْرِ .
- ٣- قَوْلُهُ : (وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ) .
- ٤- قَوْلُهُ : (وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ) وَلَيْسَ هَذَا الْوَعِيدُ إِلَّا لِلْكَافِرِ .
- ٥- قَوْلُهُ : (وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا) فِيهِ أَنَّ السِّحْرَ يُنَاقِزُ الْإِيمَانَ . وَفِي الْآيَاتِ : أَنَّ الْمُسْلِمَ يَكْفُرُ بِتَعَلُّمِ
 السِّحْرِ وَلَوْ لَمْ يَعْمَلْ بِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ ^(١)]

(بِالْجِبْتِ) يَشْمَلُ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ وَالصَّنَمَ . (وَالطَّاغُوتِ) أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ تَعْرِيفُ ابْنِ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ
 اللَّهُ - : مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتَّبِعٍ أَوْ مَطَاعٍ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ عُمَرُ " أَجِبْتُ السِّحْرَ ، وَالطَّاغُوتُ الشَّيْطَانُ " ^(٢)] . وَقَالَ جَابِرٌ

" الطَّوَاغِيتُ كُفَّانٌ ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٍ " ^(٣)]

الْمُرَادُ جِنْسُ الشَّيْطَانِ ، وَتَفْسِيرُ عُمَرَ وَجَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ .

(١) سورة النساء الآية: ٥١ .

(٢) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب التفسير، باب "١٠" من سورة النساء، ووصله ابن جرير في تفسيره
 "١٣٥/٥٥٦، ٧/٤" والسياق المذكور له، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٩٧٤/٣)، وصحح الأثر الألباني في "مختصر صحيح البخاري،
 "١٥٦/٣"، وقوى إسناده الحافظ في الفتح "٣١٨/٨" ط: (دار السلام) .

(٣) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في كتاب التفسير، باب "١٠" من سورة النساء، ووصله ابن أبي حاتم في تفسيره "٩٧٦/٣"،
 وذكره البغوي في «شرح السنة» (١٧٩/١٢) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ I أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمَوْبِقَاتِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) ^(١)] (اجْتَنِبُوا) (الاجْتِنَابُ: تَرْكُ مَعَ الْبُعْدِ (السَّبْعِ) لَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصْرُ، فَقَدْ تَقَرَّرَ فِي الْأَصُولِ أَنَّ مَفْهُومَ الْعَدَدِ ضَعِيفٌ

(الْمَوْبِقَاتِ) أَيُّ : الْمُهِلِكَاتِ (قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ ! وَمَا هُنَّ ؟) فِيهِ التَّفْصِيلُ بَعْدَ الْإِجْمَالِ لِمَا فِيهِ مِنْ تَشْوِيقٍ لِلْمُخَاطَبِ ، (قَالَ الشِّرْكُ بِاللَّهِ) الشِّرْكُ : لُعَّةُ التَّصْيِبِ ، وَشُرْعًا : مُسَاوَاةُ غَيْرِ اللَّهِ بِاللَّهِ فِيمَا هُوَ مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مَأْخُودٌ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ^(١٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ^(١٨) وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي الصَّحِيحَيْنِ: (أَنَّ تَجَعَلَ اللَّهُ نَدَاءً وَهُوَ خَلَقَكَ) ^(٣) . (وَالسِّحْرُ) الْعَطْفُ هُنَا مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِ ، وَهُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَدْ مَضَى تَعْرِيفُهُ . قَوْلُهُ (وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ) وَالنَّفْسُ الَّتِي حَرَّمَهَا هِيَ نَفْسُ الْمُؤْمِنِ وَ نَفْسُ الْمُعَاهِدِ أَمَا الْمُؤْمِنُ فَلِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : " لَا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَّا بِإِخْدَى ثَلَاثٍ: النَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّيِّبُ الرَّائِي، وَالْمَارِقُ مِنَ الدِّينِ التَّارِكُ الْجَمَاعَةَ " متفق عليه. وَأَمَّا نَفْسُ الْمُعَاهِدِ فَلِحَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ مَنْ قَتَلَ مُعَاهِدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الوصايا- باب قول الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا} (٢٧٦٧)، ومسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

(٢) سورة الشعراء الآية: ٩٧-٩٨.

(٣) أخرجه البخاري، باب قوله تعالى: (فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون)، برقم: (٤٤٧٧)، ومسلم، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم: (٨٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
أَرْبَعِينَ عَامًا" رواه البخاري و (أَكَلُ الرِّبَا) الْمُرَادُ تَنَاوُلُهُ عَلَى أَيِّ وَجْهِ كَانَ فَلَا فَرْقَ بَيْنَ أَكَلِهِ وَالشُّكْنَى فِيهِ وَالرِّبَا زِيَادَةٌ بَيْنَ أَشْيَاءَ يَحِبُّ فِيهَا التَّسَاوِي أَوْ تَأْخِيرُ بَيْنَ أَشْيَاءَ يَحِبُّ فِيهَا التَّقَابُضُ و (أَكَلُ مَالِ الْيَتِيمِ) أَيْضًا الْمُرَادُ تَنَاوُلُهُ عَلَى أَيِّ وَجْهِ وَالْيَتِيمُ مَنْ مَاتَ أَبُوهُ قَبْلَ الْإِحْتِلَامِ (وَالْتَوَلَّى يَوْمَ الرَّحْفِ) هُوَ الْفِرَارُ مِنَ الْمَعْرَكَةِ عِنْدَ رَحْفِ الْجَيْشَيْنِ لَمَّا فِيهِ مِنْ كَسْرِ لِنُفُوسِ الْمُسْلِمِينَ وَرَفْعِ لِلرُّوحِ الْمَعْنَوِيَّةِ لِلْكَافِرِينَ و (وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْعَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ) الْقَذْفُ هُوَ الرَّمْيُ بِالْفَاحِشَةِ وَالْمُحْصَنَاتُ هُنَّ الْحَرَائِرُ وَالْعَافِلَاتُ الْبَعِيدَاتُ عَنِ الرِّيَّةِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: (حَدَّثَ السَّاحِرُ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ) ^(١)] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ: "الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ".]

(جُنْدَبٌ) جُنْدَبُ الْحَيَّرِ بْنِ كَعْبٍ الْغَامِذِيُّ الْأَزْدِيُّ ، صَحَابِيُّ مَعْرُوفٌ بِقَاتِلِ السَّاحِرِ ، (مَرْفُوعًا) يَعْنِي : مَنْسُوبًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ (حَدَّثَ السَّاحِرِ) أَيِ : عَقُوبَتُهُ الَّتِي حَدَّهَا الشَّرْعُ (ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ) يُرْوَى بِأَهْلَاءِ وَالتَّاءِ ، وَهَذَا أَخَذَ أَبُو حَنِيفَةَ وَمَالِكٌ وَأَحْمَدُ ، وَفَصَّلَ الشَّافِعِيُّ فَقَالَ : (إِنْ كَانَ سِحْرُهُ بِالْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ فَلَا يُقْتَلُ ، وَإِنْ كَانَ سِحْرُهُ بِالْأَسْتِغَاثَةِ بِالشَّيَاطِينِ فَيُقْتَلُ ، فَإِذَا ثَبَتَ أَنَّهُ سَاحِرٌ يُقْتَلُ بَعْدَ اسْتِثْنَائِهِ ؛ لِأَنَّ اسْتِعْمَالَ الْأَدْوِيَةِ وَالْعَقَاقِيرِ لَا يُسَمَّى سِحْرًا) ^(٢).

وظَاهِرُ كَلَامِ الشَّافِعِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ يَقُولُ بِمَا قَالَ بِهِ الْأَئِمَّةُ قَبْلَهُ لَكِنْ لَا بُدَّ مِنَ التَّأَكُّدِ مِنْ تَعَاطِيهِ السِّحْرِ فَرُبَّمَا يُرْمَى بِذَلِكَ مَنْ لَيْسَ بِسَاحِرٍ أَصَالَةً. قَوْلُهُ : (رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ "الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ").
أَيِ: أَنَّهُ مِنْ كَلَامِ الصَّحَابِيِّ ، وَلَمْ يَثْبُتْ رَفْعُهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الحدود- باب ماجاء في حد الساحر (١٤٦٠) والدارقطني في «سننه» (١١٤/٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١٦٦٥/١٦١/٢)، والحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٨٠٧٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٦/٨)، وفيه: إسماعيل بن مسلم أبو إسحاق المكي: «ضعيف الحديث» التقريب (٤٨٤)، وضعفه الألباني في الضعيفة برقم: (١٤٤٦).
(٢) الأم للشافعي (٢٩٣/١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي "صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ" عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ قَالَ "كَتَبَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ

I أَنْ أَقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ" قَالَ فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرٍ^(١)]

هَذَا الْحَدِيثُ فِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ وَهُوَ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ ، وَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ جُزْءًا مِنْهُ . (بَجَالَةَ بْنُ عَبْدِ (التَّمِيمِيُّ بَصْرِيٌّ ثَقَّةٌ ، وَ فِيهِ قَتْلُ الْمُرْتَدَّةِ بِخِلَافِ الْمَرْأَةِ فِي الْمَعْرَكَةِ ، وَ فِيهِ وَجُودُ السِّحْرِ فِي عَهْدِ عُمَرَ فَكَيْفَ بَزَمَانِنَا ؟) ، (كَتَبَ عُمَرُ) هَذَا الْحَدِيثُ صَرِيحٌ فِي قَتْلِ السَّاحِرِ مِنْ دُونِ اسْتِتَابَةٍ ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْجُمْهُورِ إِلَّا الشَّافِعِيَّ فَقَدْ ذَهَبَ إِلَى اسْتِتَابَتِهِ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلَ .^(٢)

وَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ الْجُمْهُورُ هُوَ الصَّوَابُ لِأَنَّ السِّحْرَ أَمْرٌ خَفِيٌّ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَجْزِمَ بِتَوْبَةِ السَّاحِرِ مِنْهُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرْنَهَا

فَقُتِلَتْ"^(٣) وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ .] هَذَا الْأَثَرُ مَوْفُوفٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ مَالِكٌ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ .

(حَفْصَةُ) بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ ، تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ مَوْتِ (خَنِيسِ بْنِ حِذَافَةَ) . (جَارِيَةٍ لَهَا) أَيُّ : مَمْلُوكَةٌ ، كَانَتْ قَدْ دَبَّرَتْهَا أَيُّ قَالَتْ لَهَا أَنْتَ حُرَّةٌ بَعْدَ مَوْتِي . (وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدُبٍ) وَهُوَ جُنْدُبُ الْخَثِرِ . وَقَدْ رَوَى الْحَاكِمُ : (أَنَّ أَمِيرًا مِنَ الْأُمَرَاءِ بِالْكُوفَةِ دَعَا سَاحِرًا يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ فَلَبَّغَ ذَلِكَ جُنْدُبًا ، فَاشْتَمَلَ عَلَى سَيْفِهِ حَتَّى أَتَاهُ وَهُوَ يَقْطَعُ رَأْسَهُ ثُمَّ يُعِيدُهُ - يَعْنِي : بِالسِّحْرِ - فَصَرَبَهُ جُنْدُبٌ بِالسَّيْفِ وَقَالَ : إِنْ كَانَ صَادِقًا فَلْيَعِدْ رَأْسَهُ فَتَفَرَّقَ النَّاسُ ، فَقَالَ جُنْدُبٌ :

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجزية - باب الجزية والمواذعة مع العرب (٣١٥٧)، وأبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفنيء - باب في أخذ الجزية من الجوس (٣٠٤٣) واللفظ له.

(٢) الأم للشافعي ٢٩٣/١.

(٣) أخرجه مالك في «موطئه»: كتاب العقول - باب ما جاء في الغيلة والسحر (١٦٢٤). بلاغًا، ووصله عبد الرزاق في «مصنفه»

(١٠/١٨٧٤٧)، وصححه الحافظ ابن كثير في تفسير آية (١٠٢) من سورة البقرة.

امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
لَنْ تُرَاعُوا إِنَّمَا أَرَدْتُ السَّاحِرَ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ سَلْمَانَ الْفَارِسِيَّ فَقَالَ : بِنَسِ مَا صَنَعَا مَا كَانَ لِلْأَمِيرِ أَنْ
يَدْعُو سَاحِرًا يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُوَ إِمَامٌ يُقْتَدَى بِهِ ، وَمَا كَانَ لِهَذَا أَنْ يُعَاتِبَ أَمِيرُهُ بِالسَّيْفِ (١) وَقَدْ
صَحَّحَ الْأَلْبَانِيُّ هَذِهِ الْقِصَّةَ بِمَجْمُوعِ الطُّرُقِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ] (أَحْمَدُ) هُوَ ابْنُ حَنْبَلٍ بْنُ
هَلَالِ الشَّيْبَانِيِّ ، إِمَامُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، أَعْلَمُ أَهْلَ الْمِصْرِ بِالْفِقْهِ ، قَالَ عَنْهُ بَعْضُهُمْ : (عَنْ الدُّنْيَا
مَا كَانَ أَصْبَرُهُ ، وَبِالْمَاضِينَ مَا كَانَ أَشْبَهَهُ ، أَتَتْهُ الدُّنْيَا فَأَبَاهَا وَالشُّبُهَةُ فَنَفَّاهَا) ، قَوْلُهُ (عَنْ ثَلَاثَةٍ) هُمْ
عُمَرُ وَجُنْدُبٌ وَحَفْصَةُ (٢) ، وَقَتْلُهُمْ هُوَ الصَّوَابُ ، قَالَ بَعْضُ الْأَئِمَّةِ : (مَا دَخَلَ السِّحْرُ بَلَدَةً إِلَّا فَشَا فِيهَا
الظُّلْمُ وَالْأَعْتِدَاءُ وَالطُّغْيَانُ) .



(١) أخرجه الحاكم (٣٦١/٤) ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها برقم: (١٤٤٦) .

(٢) من فتح المجيد: (٤٧٦/٢) تحقيق: الفريان وفقه الله .

[٢٥]

بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ وَهِيَ أَنَّ الْإِمَامَ بَيَّنَّ فِي الْبَابِ السَّابِقِ حُكْمَ السِّحْرِ ، وَنَاسَبَ فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ يُعَقَّبَ بِأَنْوَاعِهِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ نَوْعًا وَاحِدًا ، فَمِنْهُ مَا يَشْتَمِلُ عَلَى الْأَسْتِغَاثَةِ بِالشَّيْطَانِ وَادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ وَمِنْهُ مَا يُسَمَّى سِحْرًا وَلَا يَشْتَمِلُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [قَالَ أَحْمَدُ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ ، حَدَّثَنَا قَطْنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : (إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطَّيْرَةَ مِنَ الْجَبْتِ)] هَذَا الْحَدِيثُ ضَعَّفَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي غَايَةِ الْمَرَامِ فِي تَخْرِيجِ أَحَادِيثِ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ ^(١) ، وَآفَتُهُ حَيَّانُ بْنُ الْعَلَاءِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [قَالَ عَوْفٌ الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ ، وَالطَّرْقُ الْخَطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ ، وَالْجَبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ ^(٢)] إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

(الْعِيَافَةُ) لُغَةً : مَصْدَرٌ عَافَ يَعَافُ إِذَا أَبَتْ نَفْسُهُ الشَّيْءَ ، وَأَمَّا شَرْعًا فَالْمُرَادُ بِهَا : زَجْرُ الطَّيْرِ وَزَجْرُهَا تَحْرِيكُهَا لِيَعْمَلَ بِمُقْتَضَى ذَلِكَ الرَّجْرِ . (وَالطَّرْقُ) هُوَ مَا يُعْرَفُ عِنْدَ النَّاسِ بِالرَّمْلِ ، أَوْ الرُّيْلِ . (وَالْجَبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ) الظَّاهِرُ أَنَّهُ تَصْحِيفٌ فَالَّذِي فِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ بِالْهَمْزَةِ وَالْهَاءِ ، أَيْ : إِنَّهُ الشَّيْطَانُ . وَمَنْ قَالَ مِنْ أَشْيَاخِنَا رَنَّةُ الشَّيْطَانِ شَرَحَهُ بِأَنَّهُ وَحْيُ الشَّيْطَانِ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْمَعْنَيْنِ فَسُبْحَانَ مَنْ حَفِظَ شِرْعَتَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: [وَلا يَدَاوُدَ وَالنَّسَائِيَّ ، وَابْنَ حَبَّانَ فِي صَحِيحِهِ هُمْ الْمُسْنَدُ مِنْهُ ^(١)]

(١) غَايَةُ الْمَرَامِ ص: ١٨٤ ، وَضَعَفَهُ كَذَلِكَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمِينَ فِي الْقَوْلِ الْمَفِيدِ ، " ١٧/٥١٧ " .

(٢) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٦٠/٥) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 أَيُّ : أَنَّ الْمُسْنَدَ وَهُوَ الْمُنْسُوبُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِسَنَدٍ ظَاهِرُهُ الْإِتِّصَالُ ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ حَبَّانَ ، لَكِنْ لَمْ يُخْرِجْ هَؤُلَاءِ تَفْسِيرَ عَوْفٍ ، إِنَّمَا أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ؛ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : (مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ ؛ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ ، زَادَ مَا زَادَ)^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ]

(اقْتَبَسَ) بِمَعْنَى أَخَذَ أَوْ تَعَلَّمَ ، بَلْ فِي رِوَايَةِ الطَّبْرَانِيِّ (مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ تَعَلَّمَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ)^(٢) (شُعْبَةً) الشَّعْبَةُ الطَّائِفَةُ أَوْ الْجُزْءُ أَوْ الْقِطْعَةُ ، وَمِنْهُ حَدِيثُ (وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ)^(٣)
 قَوْلُهُ (مِنَ النُّجُومِ) الْمُرَادُ بِهِ عِلْمُ التَّنَجِيمِ ، وَهُوَ نَوْعَانِ النَّوْعُ الْأَوَّلُ : يُسَمَّى عِلْمُ التَّأَثِيرِ ؛ وَهُوَ الَّذِي يُخْرِجُ مِنْهُ وَهُوَ : نِسْبَةُ الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ لِلنُّجُومِ ، وَالْأَسْتِدْلَالُ بِالْأَحْوَالِ الْفَلَكَيَّةِ عَلَى الْحَوَادِثِ الْأَرْضِيَّةِ ، وَمِنْهُ الْأَبْرَاجُ - حَظُّكَ الْيَوْمَ -
 وَالثَّانِي : يُسَمَّى عِلْمُ الْمَسِيرِ وَهُوَ الْأَسْتِدْلَالُ بِالنُّجُومِ عَلَى الْأَتِّجَاهَاتِ وَالْأَزْمَنَةِ وَأَوْقَاتِ الزُّرُوعِ ، وَهَذَا مُبَاحٌ .

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الخط وزجر الطير (٣٩٠٧)، وابن حبان في «صحيحه» (٦١٣١/٥٠٢/١٣)، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١١/١)، وأبو داود في كتاب الطب - باب في النجوم (٣٩٠٥)، وابن ماجه في كتاب الأدب - باب تعلم النجوم (٣٧٢٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٧٤) .

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم: (١١٢٧٨) .

(٤) أخرجه البخاري، باب أمور الإيمان وقول الله تعالى: (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله ...

(، برقم: (٩)، ومسلم، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، برقم: (٣٥) .

قوله (فَقَدْ أَقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (صَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنَّ عِلْمَ التَّجْوِمِ مِنَ السِّحْرِ) ^(١) أَهْدَ لِمَا فِيهِ مِنَ ادِّعَاءِ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَاسْتِعَانَةِ بِالشَّيْطَانِ. (زَادَ مَا زَادَ) أَيُّ : كُلَّمَا زَادَ مِنْ عِلْمِ التَّنْجِيمِ كُلَّمَا زَادَ مِنَ الْإِثْمِ وَالسِّحْرِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ: (مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وَكُلَّ إِلَيْهِ) ^(٢)]

هَذَا الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَعِلَّتُهُ الْإِنْقِطَاعُ بَيْنَ الْحَسَنِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ، لَكِنْ قَدْ ثَبَتَتْ جَمْلُهُ (وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وَكُلَّ إِلَيْهِ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِإِسْنَادٍ آخَرَ كَمَا تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَيْهَا فِي بَابِ مَا جَاءَ فِي الرِّقَى وَالتَّمَائِمِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُكَيْمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَلَا هَلْ أَنْبَيْتُكُمْ مَا الْعِضَةُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) ^(٣) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

(أَلَا) حَرْفُ عَرْضٍ، وَفِيهِ التَّرْفُيقُ فِي التَّعْلِيمِ، (أَنْبَيْتُكُمْ) أَحْبَبْتُكُمْ، قَوْلُهُ: (مَا الْعِضَةُ؟) مَا : اسْتِفْهَامِيَّةٌ، وَفَائِدَةُ الاسْتِفْهَامِ تَشْوِيقُ الْمُخَاطَبِ لِمَا يَأْتِي مِنَ الْكَلَامِ، وَفِيهِ : حُسْنُ تَعْلِيمِهِ ﷺ؛ لِأَنَّ التَّعْلِيمَ بِطَرِيقَةِ الاسْتِفْهَامِ أَوْقَعُ فِي النَّفْسِ .

(الْعِضَةُ) بَزَنَةُ الْوَجْهِ ، وَقِيلَ : الْعِضَةُ عَلَى وَزْنِ الْعِدَّةِ ، وَمَعْنَاهَا التَّفْرِيقُ وَالتَّقْطِيعُ ، (هِيَ النَّمِيمَةُ) مِنْ تَمَّ الْكَلَامَ إِذَا نَقَلَهُ إِلَى غَيْرِهِ ثُمَّ فَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ : (الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ) فَهِيَ : نَقْلُ الْكَلَامِ مِنْ قَوْمٍ إِلَى آخَرِينَ سَوَاءً كَانَ صِدْقًا أَوْ كَذِبًا. قَالَ أَبُو الْخَطَّابِ :

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، ص: ٩٩.

(٢) أخرجه النسائي في كتاب تحريم الدم - باب الحكم في السحرة (٤٠٧٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف النسائي» .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب - باب تحريم النميمة (٢٦٠٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

(وَمِنْ السِّحْرِ السَّعْيُ بِالنَّمِيمَةِ وَالْإِفْسَادُ بَيْنَ النَّاسِ)^(١) وَوَجْهُ الشَّبَهِ بَيْنَهُمَا : أَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمُتَحَاتِّينَ ، وَيَشْتَمِلُ عَلَى أَدَى الْمُسْلِمِينَ ، قَالَ يَحْيَا بْنُ أَبِي كَثِيرٍ : (يُفْسِدُ النَّمَامُ فِي سَاعَةٍ مَا لَا يُفْسِدُهُ السَّاحِرُ فِي شَهْرٍ)^(٢) وَفِي الْحَدِيثِ : التَّخْذِيرُ مِنَ النَّمِيمَةِ وَالْغَيْبَةِ وَأَنَّهُمَا مِنَ الْكِبَائِرِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا : (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لِسِحْرًا)^(٣)]

(وَهُمَا) أَيُ : لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ (الْبَيَانُ) هُوَ التَّعْبِيرُ عَمَّا فِي النَّفْسِ بِفَصَاحَةٍ تَسْتَمِيلُ الْقُلُوبَ وَتَأْخُذُ الْمَسَامِعَ . قَالَ بَعْضُهُمْ :

فِي زُخْرَفِ الْقَوْلِ تَزْيِينٌ لِبَاطِلِهِ *** وَالْحَقُّ قَدْ يَغْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرٍ

وَ قِيلَ أَيْضًا : تَقُولُ هَذَا مُجَاجِ النَّحْلِ مَمْدُوحُهُ *** وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فَيُؤْزِرُ الرِّبَابِ

مَدْحًا وَقَدْحًا مَا جَاوَزْتَ وَصَفَهُمَا *** وَالْحَقُّ قَدْ يَغْتَرِيهِ سُوءُ تَعْبِيرٍ

قَوْلُهُ (لِسِحْرًا) وَجْهُهُ إِطْلَاقُ السِّحْرِ عَلَى الْبَيَانِ : مَا يَحْصُلُ بِهِ مِنَ الْعَطْفِ وَالصَّرْفِ ، وَهَلْ وَصَفُ الْبَيَانِ بِأَنَّهُ سِحْرٌ مَدْحٌ أَوْ قَدْحٌ ؟ ظَاهِرُ النَّصِّ أَنَّهُ دَمٌّ لَهُ لِأَنَّ السِّحْرَ مَذْمُومٌ وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ قَالَ إِنَّ ذَلِكَ بِحَسَبِ حَالِ الْمُتَكَلِّمِ ، فَإِنْ أَبْطَلَ بِهِ الْبَاطِلَ وَأَحَقَّ بِهِ الْحَقُّ فَهُوَ مَمْدُوحٌ . وَإِنْ رَدَّ بِهِ الْحَقُّ وَاثْبَتَ بِهِ الْبَاطِلَ فَهُوَ مَذْمُومٌ .



(١) نقله عنه ابن مفلح في الفروع (١٠/٢١٠).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٣/٧٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح - باب الخطبة (٥١٤٦) ولم يخرجها مسلم.

[٢٦]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي بَيَانِ أَنْوَاعِ السِّحْرِ ، وَتَقَدَّمَ أَنَّ السَّاحِرَ وَالْكَاهِنَ مُصَدَّرُهُمَا وَاحِدٌ وَهُوَ الشَّيْطَانُ ، وَكُلٌّ مِنْهُمَا يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ أَيْ : يُنَازِعُ اللَّهَ فِيمَا احْتَصَرَ بِهِ ، وَيَسْتَعِينُ بِالشَّيْطَانِ كَمَا أَنَّ الْكِهَانَةَ ضَرَبٌ مِنَ السِّحْرِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [رَوَى مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ" عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (مَنْ أَتَى عَرَّافًا ، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةُ أَرْبَعِينَ يَوْمًا)^(١)]

رِوَايَةُ مُسْلِمٍ لَيْسَ فِيهَا (فَصَدَّقَهُ) لَكِنْ هَذِهِ رِوَايَةُ أَحْمَدَ قَوْلُهُ : (بَعْضُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ) هِيَ حَفْصَةُ (مَنْ أَتَى عَرَّافًا) الْعَرَّافُ اسْمُ عَامٍّ يَشْمَلُ الْكَاهِنَ وَالْمُنَجِّمَ وَالرَّمَالَ وَكُلَّ مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ الْغَيْبِ (فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ) ظَاهِرُ رِوَايَةِ مُسْلِمٍ أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ مَرْتَبٌ عَلَى الْإِثْبَانِ وَالسُّؤَالِ فَقَطُ ؛ لِأَنَّ مُجَرَّدَ إِثْبَانِ الْكُهَّانِ مِنْهُمْ عَنْهُ ، وَفِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ : (مَنَا رِجَالٌ يَأْتُونَ الْكُهَّانَ قَالَ : فَلَا تَأْتِهِمْ)^(٢) فَمَنْعُهُ مِنْ إِيْتَانِهِمْ احْتِقَارًا لَهُمْ وَإِعْرَاضًا عَنْهُمْ ، وَحِفْظًا لِقُلُوبِنَا وَدِينِنَا .

- وَسُؤَالُ الْكَاهِنِ عَلَى أَنْوَاعٍ : الْأَوَّلُ : سُؤَالُهُ مُجَرَّدٌ عَنِ التَّصَدِيقِ وَالْإِنْكَارِ فَهَذَا حَرَامٌ . وَالثَّانِي : أَنْ يَقَارَنَهُ تَصَدِيقٌ فَهَذَا كُفْرٌ أَصْغَرُ وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ . وَالثَّلَاثُ : سُؤَالُهُ لِيَحْتَبِرَهُ وَيُنْكِرَ عَلَيْهِ فَهَذَا وَاجِبٌ كَمَا فِي سُؤَالِ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ قَالَ : (حَبَّأْتُ لَكَ خَبِيئًا ؟ قَالَ : الدِّخْ قَالَ : احْسَأْ فَلَنْ تَعُدُّوْا قَدْرَكَ)^(٣) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب السلام - باب تحريم الكهانة وإتيان الكهان (٢٢٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحة، برقم: (٥٣٧) .

(٣) أخرجه البخاري، باب قول الرجل للرجل احسأ، برقم: (٦١٧٣)، ومسلم، باب ذكر ابن صياد، برقم: (٢٩٢٤) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 قوله: (لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا) : الْقَاعِدَةُ فِي نَفْيِ الْقَبُولِ : أَنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِمَوَاتٍ شَرْطٌ أَوْ وُجُودُ
 مَانِعٍ فَمَعْنَاهُ الْبُطْلَانُ ، كَحَدِيثِ : (لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةَ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ)^(١) أَمَّا إِذَا لَمْ
 يَتَعَلَّقْ بِأَحَدِهِمَا فَنَفْيُ الْقَبُولِ يَعْنِي : نَفْيُ حُصُولِ الثَّوَابِ ، فَأَدَاءُ الْعِبَادَةِ يُسْقِطُ الْفَرَضَ فِي حَقِّهِ وَلَا
 يُطَالَبُ بِهَا وَلَا يَخْصُلُ لَهُ ثَوَابٌ عَلَيْهَا . كَمَا فِي مَسْأَلَتِنَا هَذِهِ .

حُكْمُ تَصَدِيقِ الْكُفَّانِ : ذَهَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ الَّذِي أَتَى كَاهِنًا وَعَرَفَا فَصَدَّقَهُ لَمْ يَكْفُرْ
 كُفْرًا مُخْرِجًا مِنَ الْمِلَّةِ ؛ لِأَنَّ الْكُفْرَ لَوْ كَانَ أَكْبَرَ لَمْ يُؤْتِ لِقَبُولِ صَلَاتِهِ بِأَرْبَعِينَ يَوْمًا ، فَإِنَّ الْمُتَرَدِّدَ لَا
 تُقْبَلُ لَهُ صَلَاةٌ مُطْلَقًا ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ كُفْرَهُ أَصْغَرَ قَوْلُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ : (مَنْ أَتَى حَائِضًا أَوْ
 امْرَأَةً فِي ذُبْرِهَا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ)^(٢) . لِأَنَّ اقْتِرَانَ إِيْتَانِ
 الْكُفَّانِ بِإِيْتَانِ الْحَائِضِ وَالْمَرْأَةِ فِي ذُبْرِهَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ كُفْرٌ أَصْغَرُ . وَهَذَا الْمَذْهَبُ يُشْكِلُ عَلَيْهِ كَيْفَ
 يَكُونُ كُفْرٌ مَنْ يُصَدِّقُ الْكَاهِنَ أَصْغَرَ وَقَدْ اعْتَقَدَ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ وَعِلْمُ الْغَيْبِ مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ
 لِذَلِكَ ذَهَبَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ كُفْرَهُ أَكْبَرُ وَقَدْ ذَهَبُوا إِلَى الْحُكْمِ عَلَى رِوَايَةِ أَحْمَدَ بِالشَّدُوذِ
 فَرَتَّبُوا وَعِيدَ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا عَلَى مُجَرَّدِ السُّؤَالِ كَمَا فِي رِوَايَةِ مُسْلِمٍ فِيهَا تَرْتِيبُ الْوَعِيدِ
 عَلَى مُجَرَّدِ الْإِيْتَانِ وَالسُّؤَالِ وَهُوَ مَذْهَبٌ قَوِيٌّ إِذَا قِيلَ بِضَعْفِ رِوَايَةِ أَحْمَدَ .

وَالْتَّحْقِيقُ أَنَّ يُقَالُ أَنَّ مَنْ صَدَّقَ الْكَاهِنَ وَاعْتَقَدَ أَنَّ غَيْرَ اللَّهِ يَعْلَمُ الْغَيْبَ فَكُفْرُهُ أَكْبَرُ ، وَمَنْ أَتَى
 الْكُفَّانَ وَهُوَ يَعْتَقِدُ أَنَّ الْغَيْبَ مِنْ خِصَائِصِ اللَّهِ لَكِنْ قَدْ قَامَتْ عِنْدَهُ شُبُهَةٌ وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْكَاهِنَ أَخْبَرَ
 بِمَا وَصَلَهُ عِلْمُهُ مِنْ طَرِيقِ الْجِنِّ أَوْ الْمَلَائِكَةِ فَهَذَا كُفْرُهُ أَصْغَرُ فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ أَهْلِ الْعِلْمِ
 فَكُلٌّ قَدْ نَزَلَ الْحَدِيثُ عَلَى وَجْهِ مُعَيَّنٍ .

(١) أخرجه البخاري، باب في الصلاة، برقم: (٦٩٥٤).

(٢) أخرجه ابن ماجه، باب النهي عن إيتان الحائض، برقم: (٦٣٩)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه برقم: (٥٢٢).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ) ^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ]

قَوْلُهُ: (فَقَدْ كَفَرَ) هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ ، فَمِنْ السَّلَفِ مَنْ يَرَى أَنَّهَا لَا تُفَسِّرُ بَلْ تُجْرَى كَمَا جَاءَتْ ، حَتَّى يَخْصُلَ الْأَثَرُ الْمَقْصُودُ مِنَ النَّصِّ بِالنِّسْبَةِ لِلْسَامِعِ وَمِنْهُمْ : مَنْ يَرَى التَّفْصِيلَ بِحَسَبِ الْمَقَامِ ، وَالتَّفْرِيقَ بَيْنَ طَلَبَةِ الْعِلْمِ وَعَيْرِهِمْ وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّ فِيهِ التَّفْصِيلَ السَّابِقَ فَقَدْ يَكُونُ أَكْبَرَ وَقَدْ يَكُونُ أَصْغَرَ ، (بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ) أَيِ : بِالْقُرْآنِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَجْتَمِعُ تَصَدِيقُ الْقُرْآنِ وَتَصَدِيقُ الْكُهَّانِ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ ، فَقَدْ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ ^(٢) وَفِي قَوْلِهِ أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ : إِثْبَاتٌ لِصِفَةِ الْعُلُوِّ لِأَنَّ النُّزُولَ لَا يَكُونُ إِلَّا مِنْ أَعْلَى وَقَدْ نَزَلَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِلْأُزْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ - وَقَالَ "صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا" - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: (مَنْ أَتَى عَرَافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ) ^(٣)] .

هَذَا الْحَدِيثُ فِيهِ مَا سَبَقَ لَكِنْ ذَكَرَهُ الْإِمَامُ تَكْتِيلاً لِلْأَدْلَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَا يَلِيَّ يَعْلى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا ^(٤)]

هَذَا الْأَثَرُ رَوَاهُ الْبَزَّازُ وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَفْظُهُ: (مَنْ أَتَى كَاهِنًا أَوْ سَاحِرًا .. أَلْخُ).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ مَرْفُوعًا: (لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطِيرَ لَهُ، أَوْ تَكْهَنَ أَوْ تُكْهَنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أَنْزَلَ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الكاهن (٣٩٠٤) والترمذي في كتاب الطهارة - باب ماجاء في كراهية إتيان الحائض

(١٣٥) وابن ماجه في كتاب الطهارة - باب النهي عن إتيان الحائض (٦٣٩)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح» (٤٥٩٩).

(٢) سورة النمل الآية: ٦٥.

(٣) انظر الحديث السابق.

(٤) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٢٨٠/٩) وصححه الألباني في صحيح الترغيب: (١٧٢/٣).

عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ^(١) رَوَاهُ الْبَزَارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ وَرَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ

ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ (وَمَنْ أَتَى) إِلَى آخِرِهِ^(٢).]

(لَيْسَ مِنَّا) هَذِهِ اللَّفْظَةُ قَدْ تَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ ، قَدْ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذَا الْفِعْلَ مِنَ الْكِبَائِرِ ، بِحَسَبِ الْقَرَائِنِ . (تَطْيِيرٌ) أَيُّ : زَجَرَ الطَّيْرَ لِنَفْسِهِ ، أَوْ لَعِيْرِهِ أَوْ فَعَلَ بِمُقْتَضَى الزَّجْرِ وَيَشْمَلُ الْعَائِفَ وَالَّذِي يَعْمَلُ بِمُقْتَضَى كَلَامِهِ ، أَمَّا الْعَائِفُ فَهُوَ كَاهِنٌ وَالْكَاهِنُ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ ، وَالثَّانِي كَفْرُهُ فِيهِ التَّفْصِيلُ السَّابِقُ (أَوْ تُطْيِرُ لَهُ) أَمَرَ غَيْرَهُ بِزَجْرِ الطَّيْرِ (أَوْ تَكْهَنَ) هُوَ الْكَاهِنُ ، وَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ ، (أَوْ تُكْهَنَ لَهُ) أَيُّ : أَتَى الْكَاهِنَ ، وَهَذَا فِيهِ التَّفْصِيلُ كَمَا تَقَدَّمَ (أَوْ سَحَر أَوْ سَحَرَ لَهُ) الْأَوَّلُ : السَّاحِرُ ، وَهُوَ كَافِرٌ كُفْرًا أَكْبَرَ . وَالثَّانِي سَبَقَ فِيهِ التَّفْصِيلُ ؛ لِأَنَّ إِتْيَانَ السَّحَرَةِ مِنْ إِتْيَانِ الْكُهْنَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ الْبَغَوِيُّ: (الْعَرَّافُ الَّذِي يَدْعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمَقْدَمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا

عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ) ^(٣).]

الْبَغَوِيُّ: هُوَ الْحَسِينُ بْنُ مَسْعُودٍ الْفَرَّاءِ الشَّافِعِيُّ ، نُسِبَ إِلَى بَعْشُورَ ، عَالِمُ خُرَاسَانَ ، صَاحِبُ مَعَالِمِ التَّنْزِيلِ ، وَشَرْحِ السُّنَّةِ وَمَصَابِيحِ السُّنَّةِ ، وَتَعْرِيفُ الْبَغَوِيِّ هَذَا وَعَلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ يَعْنِي : أَنَّ الْعَرَّافَ مَنْ يَخْتَصُّ بِمَعْرِفَةِ الْأُمُورِ الْوَاقِعَةِ فِي الْمَاضِي . وَهَذَا قَدْ يُخْبِرُ أَحْيَانًا بِأَشْيَاءَ قَدْ وَقَعَتْ كَمَا أَحْبَرَ . وَإِحْبَارُهُ بِمَا وَقَعَ كَمَا وَقَعَ لَا يُزْخِرُ الْمَوْجِدَ عَنْ مُعْتَقَدِهِ وَهُوَ أَنَّ الْعَيْبَ مِنْ خَصَائِصِ الْمَوْلَى وَإِنَّمَا يَزْدَادُ يَقِينًا فِي هَذَا الْمُخْبِرِ أَنَّهُ مِمَّنْ تَنْزَلُ عَلَيْهِ الشَّيَاطِينُ الَّذِينَ أَخْبَرَنَا اللَّهُ بِهِمْ قَالَ تَعَالَى ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَا نَزَّلَ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٥٠٦٥/١٦٢/١٨) وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٧/٥) وقال: «رواه الطبراني وفيه: إسحاق بن الربيع العطار وثقه أبو حاتم وضعفه عمر وابن علي، وبقيته رجاله ثقات».

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢٦٢/٣٠١/٤)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٠١/٥)، وقال: «رواه البزار و الطبراني في الأوسط وفيه: زمعة بن صالح وهو ضعيف»، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في صحيح الترغيب والترهيب بشواهدة "١٧٠/٣".

(٣) كلام البغوي في شرح السنة ١٨٢/١٢"، وانظر أضواء البيان للشنقيطي (٤٨٤/١).

الشَّيْطَانُ ﴿٣٣﴾ نَزَلَ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٣﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٤﴾. وأنه من أولياء

الشیطان الذین یوحی إلیهم

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقِيلَ هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمَغِيبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ]

وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا وَاضِحٌ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [(وَقِيلَ الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ)]

مَا فِي الضَّمِيرِ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، لَكِنْ قَدْ يَتَوَصَّلُ الْجَنِّيُّ إِلَى مَا فِي الضَّمِيرِ بِالْهَوَاجِسِ أَوْ بِكَلَامٍ يُخْرُجُ مِنْ صَاحِبِهِ ، وَقَدْ قَالَ الشَّيْخُ سُلَيْمَانٌ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا: أَنَّ مَعْرِفَةَ مَنْ يَدَّعِي عِلْمَ شَيْءٍ مِنَ الْمَغِيبَاتِ إِمَّا دَاخِلٌ فِي اسْمِ الْكَاهِنِ أَوْ مُشَارِكٌ لَهُ فِي الْمَعْنَى فَيَلْحَقُ بِهِ) (٢)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطَّرِيقِ (٣)]

أَيُّ : هِيَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ (وَالْمُنَجِّمِ) هُوَ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِوَاسِطَةِ النُّجُومِ ، كَأَنْ يَقُولَ : (إِذَا وُلِدَ فِي نَجْمٍ كَذَا حَصَلَ لَهُ كَذَا ، وَإِذَا التَّقَى نَجْمٌ كَذَا وَكَذَا حَصَلَ لَهُ كَذَا) ، (وَالرَّمَّالُ) يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْغَيْبِ بِوَاسِطَةِ الْخَطِّ فِي الرَّمْلِ ، (وَنَحْوِهِمْ) كَمَنْ يَقْرَأُ فِي الْكَفِّ أَوْ الْفُنْجَانِ ، وَإِنْ اخْتَلَفَتِ الطَّرِيقُ فَالنتيجة واحدة وهي ادعاء علم الغيب الذي هو من خصائص المولى سبحانه .

(١) سورة الشعراء الآية: ١٢١-١٢٣ .

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٧٣/٣٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (١٧٣/٣٥).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

إِشْكَالٌ وَجَوَابُهُ : كَيْفَ يَكُونُ الْخَطُّ فِي الْأَرْضِ كِهَانَةً وَقَدْ جَاءَ فِي حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ أَنَّهُ قَالَ : (وَمِنَّا رِجَالٌ يَخْطُونَ) فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (كَانَ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخْطُ فَمِنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَذَاكَ) (١) قَالَ التَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (مَعْنَاهُ مَنْ وَافَقَ خَطُّهُ فَهُوَ مُبَاحٌ لَهُ وَلَكِنْ لَا طَرِيقَ لَنَا إِلَى الْعِلْمِ الْيَقِينِيِّ بِالْمُوَافَقَةِ فَلَا يُبَاحُ) (٢). وَقَدْ أُعْطِيَ ذَلِكَ النَّبِيُّ هَذَا الْخَطُّ مُعْجَزَةً لَهُ ، وَلَمْ يَقُلِ النَّبِيُّ ﷺ الْخَطُّ حَرَامٌ ؛ دَفْعاً لِتَوَهُّمِهِ أَنَّ ذَلِكَ النَّبِيَّ يَفْعَلُ الْحَرَامَ ، وَسَبَبُ إِصَابَتِهِمْ مُوَافَقَتَهُمْ لِذَلِكَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا وَسَلَّمَ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ "مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ"] (٣).

هَذَا الْأَثَرُ رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ وَابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَالْبَيْهَقِيُّ . (أَبَا جَادٍ) هِيَ أُبْجَدُ هَوَزَ ، أَيْ : الْحُرُوفُ الْأُبْجَدِيَّةُ . وَيَنْفَسِمُ تَعَلُّمُهَا إِلَى قِسْمَيْنِ : الْأَوَّلُ : مُبَاحٌ ، كَمَنْ تَعَلَّمَهَا لِلْكِتَابَةِ أَوْ حِسَابِ الْجَمَلِ ، وَالثَّانِي : كُفْرٌ ، كَمَنْ تَعَلَّمَهَا لِيَرْبِطَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ سِرِّ النُّجُومِ ، لِيَتَوَصَّلَ بِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ مَا سَيَقَعُ فَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْكِهَانَةِ.



(١) حديث معاوية سبق تخريجه .

(٢) شرح النووي على مسلم، ٢٣ / ٥ ، الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٢ .

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٣٩/٨) .

[٢٧]

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ذَكَرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ السِّحْرَ وَأَنْوَاعَهُ وَمَا هُوَ فِي حُكْمِهِ ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ الَّذِي هُوَ فِي حَلِّ السِّحْرِ ، لِجَبِّ حُكْمِهِ ؛ فَكَمَا أَنَّ النَّاسَ اخْتَجَّجُوا إِلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِ السِّحْرِ فَهُمْ يَخْتَجُّونَ إِلَى مَعْرِفَةِ حُكْمِ النُّشْرَةِ أَيْضًا . وَالنُّشْرَةُ ^(١) - بِضَمِّ الثُّونِ - أَصْلُهَا مِنَ النَّشْرِ وَهُوَ قِيَامُ الْمَرِيضِ صَحِيحًا ، وَقِيلَ : النَّشْرُ ضِدُّ الطَّيِّ ، وَشَرْعًا : هِيَ حُلُّ السِّحْرِ . أَمَّا حُكْمُهَا فَتَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ : الْأَوَّلُ : حُلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ فَهَذَا لَا يَجُوزُ . أَمَّا الثَّانِي : وَهُوَ حُلُّ السِّحْرِ بِالرُّقَى وَالْأَدْعِيَةِ الْمَشْرُوعَةِ فَهُوَ جَائِزٌ بَلْ مُسْتَحَبٌّ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ جَابِرٍ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ ؟ فَقَالَ : (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) (٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ ، وَأَبُو دَاوُدَ .]

(سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ؟) أَيُّ النُّشْرَةِ الْمَعْهُودَةِ الَّتِي كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ يَصْنَعُونَهَا وَهِيَ حُلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ . (هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ) أَيُّ : مِمَّا يُسْتَعَانُ فِيهِ بِالشَّيْطَانِ أَوْ مِمَّا يَأْمُرُ بِهِ ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفُحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ "سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ]

أَيُّ : سُئِلَ عَنْ حُكْمِهَا ، وَالْكَرَاهَةُ عِنْدَهُمْ : بِمَعْنَى التَّحْرِيمِ . (كُلُّهُ) أَيُّ : النُّشْرَةُ الَّتِي هِيَ مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ ، السَّائِلُ : هُوَ أَبُو دَاوُدَ وَآثَرُ ابْنِ مَسْعُودٍ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ وَالرُّقَى وَالنَّشْرَ ^(١)

(١) تعرف عند العامة في بلادنا بالزار أو الدستور ولا يزال بعض الناس يتعاطونها نسأل الله العافية لنا ولهم .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٩٤/٣)، وأبو داود في كتاب الطب - باب في النشرة (٣٨٦٨)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي "الْبُخَارِيِّ" عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيَّبِ رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنْ امْرَأَتِهِ، أَيَحِلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ (٢)]

(قَتَادَةُ) هُوَ ابْنُ دِعَامَةَ السَّدُوسِيِّ الْبَصْرِيِّ فَقِيهٌ مِنْ أَحْفَظِ التَّابِعِينَ ، وُلِدَ أَكْمَةَ ، مَاتَ سَنَةَ بَضْعَ عَشْرَةَ وَمِائَةً . (رَجُلٌ بِهِ طَبٌّ) - بِكَسْرِ الطَّاءِ - وَيُقَالُ طَبَّ الرَّجُلُ - بِالضَّمِّ - أَيُّ : إِذَا سُجِرَ ، وَسُجِّي السِّحْرُ طَبًّا تَفَاؤُلًا كَتَسْمِيَةِ اللَّدِيغِ بِالسَّلِيمِ . (أَوْ يُؤْخَذُ) - يَفْتَحُ الْوَاوِ الْمَهْمُوزَةَ وَتَشْدِيدُ الْخَاءِ الْمُعْجَمَةَ - أَيُّ : يُحْبَسُ عَنْ امْرَأَتِهِ فَلَا يَصِلُ إِلَى جَمَاعَتِهَا . وَالْأَخَذَةُ - بِضَمِّ الهمزة - هَمَمَةُ السَّاحِرِ ، وَكَلَامُ ابْنِ الْمُسَيَّبِ حَمَلَهُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّ السِّحْرَ النَّافِعَ جَائِزٌ وَمَا سِوَاهُ حَرَامٌ ، وَبِهِ قَالَ بَعْضُ الْحَنَابِلَةِ وَكَلَامُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ لَيْسَ حُجَّةً فَإِنَّ الْعَالَمَ يُسْتَدَلُّ لَهُ وَلَا يُسْتَدَلُّ بِهِ كَيْفَ وَقَدْ عَارَضَهُ مَنْ هُوَ مِثْلُهُ مِنَ التَّابِعِينَ وَهُوَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بَلْ عَارَضَهُ مَنْ هُوَ أَجَلُ مِنْهُ وَهُوَ ابْنُ مَسْعُودٍ ، وَفَوْقَ ذَلِكَ مُخَالَفَتُهُ لِنَصِّ كَلَامِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَالْصَّوَابُ مَا عَلَيْهِ جَمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ وَهُوَ أَنَّ حَلَ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ لَا يَجُوزُ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا بَعْدَ تَعَلُّمِ السِّحْرِ ، وَتَعَلُّمِ السِّحْرِ كَفْرٌ وَلِأَنَّهُ ذَرِيعَةٌ لِعَقْدِ السِّحْرِ وَالْأَوَّلَى حَمَلُ كَلَامِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَلَى الرُّقَى الشَّرْعِيَّةِ وَهُوَ الْأَلْيَقُ بِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: (لَا يَحِلُّ السِّحْرُ إِلَّا سَاحِرًا) (٣)]

(١) بِرَقْم (٢٣٤٧١) أَفْدَتْهَا مِنْ شَرْحِ الشَّيْخِ الْعَصِمِيِّ - حَفِظَهُ اللَّهُ - .

(٢) ذَكَرَهُ الْبُخَارِيُّ تَعْلِيلًا فِي كِتَابِ الطَّبِّ - بَابُ هَلْ يَسْتَخْرِجُ السِّحْرَ (فَتْحُ الْبَارِي: ٢٣٣/١٠) وَوَصَلَهُ أَبُو بَكْرٍ بْنُ الْأَثَرَمِ فِي سَنَنِهِ أَفْدَتْهَا مِنْ شُرُوحَاتِ الشَّيْخِ الشَّيْخِ الْعَصِمِيِّ حَفِظَهُ اللَّهُ .

(٣) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي تَهْذِيبِ الْأَثَارِ كَمَا فِي فَتْحِ الْبَارِي "٢٨٧/١٠" (ط: السَّلَامُ) ، وَعَزَاهُ الشَّيْخُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَنِ صَاحِبُ فَتْحِ الْمَجِيدِ "٥٠٢/٢" لِابْنِ الْجَوْزِيِّ فِي جَامِعِ الْأَسَانِيدِ ، وَانْظُرِ الْأَدَابَ الشَّرْعِيَّةَ لِابْنِ مَفْلُحٍ "٧٧/٣" ، وَظَاهَرَ الْإِسْنَادَ الَّذِي نَقَلَهُ الْحَافِظُ فِي الْفَتْحِ عَنِ الطَّبْرِيِّ الصَّحَّةَ لَكِنْ بِلَفْظٍ: (وَكَانَ الْحَسَنُ يَكْرَهُ ذَلِكَ) يَقُولُ: (لَا يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا سَاحِرٌ) قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي "مَخْتَصَرِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ" (٢٧/٤) وَهَذَا عِنْدِي أَرْجَحُ مِنْ قَوْلِ سَعِيدٍ . أَهـ .

الحَسَنُ : هُوَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ ، وَاسْمُ أَبِيهِ يَسَارُ الْبَصْرِيُّ ، مِنْ خِيَارِ التَّابِعِينَ ، مَاتَ سَنَةَ ١١٠ هـ ، وَقَدْ قَارَبَ التَّسْعِينَ . وَمَعْنَى كَلَامِ الْحَسَنِ : لَا يَحِلُّ السِّحْرُ بِالسِّحْرِ إِلَّا سَاحِرٌ فَإِذَا قِيلَ بِإِبَاحَةِ حَلِّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ لَزِمَ مِنْهُ إِبَاحَةُ تَعَلُّمِ السِّحْرِ وَمَا لَزِمَ مِنْهُ مُحَرَّمٌ فَهُوَ مُحَرَّمٌ وَعَلَيْهِ فَحَلُّ السِّحْرِ بِالسِّحْرِ مُحَرَّمٌ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحْرِ عَنِ الْمَسْحُورِ ، وَهِيَ نَوْعَانِ أَحَدُهُمَا حَلُّ بِسِحْرِ مِثْلِهِ ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ ، بِمَا يُحِبُّ ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ ، وَالثَّانِي النُّشْرَةُ بِالرُّقِيَّةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَذْوِيَةِ وَالِدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ ، فَهَذَا جَائِزٌ ^(١)]

قوله : "فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيْطَانِ ، بِمَا يُحِبُّ ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ" فتبين بهذا أن الشيطان لا يبطل عمله عن المسحور إلا بعد ما يوقعهما غي الشرك بالله تعالى

قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ عَثِيمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا الْكَلَامُ جَيِّدٌ وَلَا مَزِيدَ عَلَيْهِ) يَشِيرُ إِلَى كَلَامِ ابْنِ الْقَيْمِ (٢) ، النَّاشِرُ هُوَ السَّاحِرُ وَالْمُنْتَشِرُ هُوَ الْمَسْحُورُ .



(١) انظر «إعلام الموقعين» لابن قيم الجوزية (٣٩٦/٤) .

(٢) انظر «القول المفيد» (٥٥٧/١) .

[٢٨]

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ التَّطْيِيرَ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْكَهَانَةِ وَادْعَاءِ لِعِلْمِ الْعَيْبِ ، كَمَا أَنَّ فِي التَّطْيِيرِ تَعْلَقًا بِعَيْرِ اللَّهِ ، وَمُنَافَاةً لِلتَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ . قَوْلُهُ : (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ) أَيُّ : مَا جَاءَ مِنَ الْأَدْلَةِ وَالنُّصُوصِ فِي حُكْمِهِ .

وَالتَّطْيِيرُ لَعْنَةٌ : تَفْعُلُ مِنَ الطَّيْرِ أَيُّ : وَأَصْلُهُ طَلَبُ الْخَيْرَةِ مِنَ الْعَائِفِ بِزَجْرِ الطَّيْرِ ، أَيِ طَلَبِ الْخَيْرَةِ هَلْ يَفْعَلُ هَذَا الْأَمْرَ أَوْ يَتْرَكُهُ ثُمَّ اسْتُعْمِلَ فِي التَّشَاوُهِ فَالتَّطْيِيرُ : هُوَ التَّشَاوُهِ بِمَرِيٍّ أَوْ مَسْمُوعٍ أَوْ مَعْلُومٍ . وَالتَّطْيِيرُ شِرْكٌ أَصْغَرُ وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ إِذَا اعْتَقَدَ أَنَّ الْمُتَطْيِرَ بِهِ يَمْلِكُ الشَّرَّ دُونَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ؛ لِأَنَّ الْمُتَطْيِرَ قَطَعَ تَوَكُّلَهُ عَلَى اللَّهِ وَتَعَلَّقَ بِأَمْرٍ لَا حَقِيقَةَ لَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ أَلَا إِنَّمَا طَلَرْتُمُ اللَّهَ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمُ لَا

يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١)] .

أَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ ﴾

قَوْلُهُ (فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ) هَذَا حَالُ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ إِذَا أَصَابَتْهُمْ الْخُصْبُ وَالرَّخَاءُ قَالُوا : هَذَا يَفْعَلُنَا وَيُسَبِّبُنَا قَوْلُهُ : (وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ)

أَيُّ : جَذْبٌ وَبَلَاءٌ ، قَالُوا : هَذَا بِسَبَبِ شُرُومِ مُوسَى وَأَصْحَابِهِ ، فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ : (أَلَا إِنَّمَا طَائَرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ) أَيُّ : أَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي قَدَّرَ لَهُمْ هَذِهِ الْمَصَائِبَ بِسَبَبِ كُفْرِهِمْ ، قَوْلُهُ (وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمُ لَا يَعْلَمُونَ) أَيُّ : يَجْهَلُونَ أَنَّ التَّوْحِيدَ وَالسُّنَّةَ هُمَا سَبَبُ كُلِّ خَيْرٍ ، وَالشِّرْكَ وَالْبِدْعَةُ هُمَا سَبَبُ كُلِّ شَرٍّ .

(١) سورة الأعراف الآية: ١٣١ .

مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ أَنَّ التَّطَيُّرَ مِنْ صِفَاتِ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ فَهُوَ مَذْمُومٌ . وَأَنَّ الْمُتَطَيِّرَ بِهِ لَا يَمْلِكُ الضَّرَّ وَإِنَّمَا يَفْعَلُ الْبَلَاءَ بِتَقْدِيرِ اللَّهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ: ﴿ قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ﴾ ^(١)] هَذَا حَبَّرَ اللَّهُ عَنْ كَلَامِ أَتْبَاعِ الرُّسُلِ رَدًّا عَلَى أَعْدَاءِ الرُّسُلِ ، فِي قَوْلِهِمْ: ﴿ قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ﴾ ^(٢) ف (قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ) **أَيَّ أَنَّ** الْبَلَاءَ إِنَّمَا نَزَلَ بِسَبَبِ مُخَالَفَتِكُمْ لِلشَّرْعِ وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ آيَةِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَآيَةِ سُورَةِ يَس ، فَطَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ تَقْدِيرًا وَقَضَاءًا وَطَائِرُهُمْ مَعَهُمْ سَبَبًا وَكَسْبًا . قَوْلُهُ: ﴿ إِنْ دُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ (**إِنْ دُكِّرْتُمْ**) شَرْطٌ مَحْذُوفٌ جَوَابُهُ وَتَقْدِيرُهُ تَطَيَّرْتُمْ . **أَيَّ مِنْ** أَجْلِ التَّذَكُّرِ تَشَاءُ مِنْكُمْ قَوْلُهُ (بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) أَيَّ مُتَجَاوِزُونَ لِلْحَدِّ بِنِسْبَتِكُمُ الشَّرَّ إِلَى مَنْ لَيْسَ سَبَبًا فِيهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا عَدُوَّ ، وَلَا طَيْرَ ، وَلَا هَامَةَ ، وَلَا صَفَرَ » ^(٣) أَخْرَجَاهُ ، زَادَ مُسْلِمٌ : وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ ^(٤)] (لَا عَدُوَّ) لَا : نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ وَخَبَرُهَا مَحْذُوفٌ ، الْعَدُوُّ : هِيَ مُجَاوِزَةُ الْعِلَّةِ مِنَ الْمَرِيضِ إِلَى غَيْرِهِ ، فَالْمَنْفِيُّ هُوَ إِضَافَةُ الْعِلَّةِ إِلَى الْعَدُوِّ دُونَ تَقْدِيرِ اللَّهِ ، وَهَذَا اعْتِقَادُ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَقْدِيرُ الْخَبَرِ لَا عَدُوَّ مُؤَثَّرَةٌ بِطَبْعِهَا دُونَ تَقْدِيرِ اللَّهِ ، وَإِلَّا فَقَدْ يَجْعَلُ اللَّهُ بِمَشِيئَتِهِ مُحَالَّةَ الصَّحِيحِ لِلْمَرِيضِ سَبَبًا

(١) سورة يس الآية: ١٩ .

(٢) سورة يس الآية: ١٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب - باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن (٥٧١٧)، ومسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٠).

(٤) أخرجه مسلم في كتاب السلام - باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء (٢٢٢٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 لحدوثِ الْعِلَّةِ ، وَلِهَذَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ : (فَرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ، فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ) (١) قَالَ عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ: (لَا يوردَنَّ ممرضٌ على مصحِّحٍ) (٢)

وقال: (فمن أعدى الأول) (٣) يُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلَ إِنَّمَا جُرِبَ بِقَضَاءِ اللَّهِ وَقَدَرِهِ ، وَكَذَلِكَ الثَّانِي ، فَأَمَرُهُ
 بِالْفِرَارِ مِنَ الْمَجْدُومِ ، وَنَهَيْهُ عَنِ إِيرَادِ الْمَرِيضِ عَلَى الْمَصْحِ ، مِنْ بَابِ اجْتِنَابِ الْأَسْبَابِ الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ
 وَجَعَلَهَا أَسْبَابًا لِلْأَذَى ، وَالْعَبْدُ مَأْمُورٌ بِاتِّقَاءِ أَسْبَابِ الشَّرِّ ، لَكِنَّ الْوَاجِبَ أَيْضاً أَنْ يَقْوَى تَوَكُّلُ الْعَبْدِ
 عَلَى اللَّهِ وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ لَا يُصِيبُهُ إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ، فَمَنْ احتَاجَ إِلَى مُبَاشَرَةِ الْمَرِيضِ كَالطَّيِّبِ وَنَحْوِهِ
 فَإِنَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَيُبَاشِرُ الْمَرَضَى . (وَلَا طِيرَةً) لَا : نَافِيَةٌ لِلْجِنْسِ ، وَالْخَبَرُ مُخَدِّفٌ ، وَالتَّقْدِيرُ : لَا
 طِيرَةً مُؤَثِّرَةً أَصْلاً ، وَوَرَدَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ الْحَكَمِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ :
 وَمِنَّا رِجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ، قَالَ ذَاكَ شَيْءٌ يَجِدُونَهُ فِي صُدُورِهِمْ فَلَا يَصَدِّقُهُمْ ، فَأَخْبَرَ أَنَّ تَأْذِيهِمْ وَتَشَاؤُهُمْ
 بِالتَّطَيُّرِ إِنَّمَا هُوَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَقِيدَتِهِمْ لَا فِي الْمُتَطَيِّرِ بِهِ ، فَوَهُمُهُمْ وَخَوْفُهُمْ وَإِشْرَاكُهُمْ هُوَ الَّذِي يُطَيِّرُهُمْ
 وَيَصَدِّقُهُمْ لَا مَا رَأَوْهُ وَسَمِعُوهُ ، فَأَوْضَحَ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ - لِأَمَّتِيهِ فَسَادَ الطِّيرَةِ ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
 سُبْحَانَهُ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ عَلَيْهَا عِلَامَةً ، وَلَا فِيهَا دَلَالَةً وَلَا نَصَبَهَا سَبَبًا لِمَا يَخَافُونَهُ ، لِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُهُمْ
 وَتَسْكُنَ نُفُوسُهُمْ إِلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمِنْ اسْتَمْسَكَ بِعُرْوَةِ التَّوْحِيدِ وَاعْتَصَمَ بِحَبْلِهِ الْمَتِينِ قَطَعَ
 هَاجِسَ الطِّيرَةِ قَبْلَ اسْتِفْرَارِهَا وَبَادَرَ خَوَاطِرَهَا قَبْلَ اسْتِمْكَانِهَا ، قَالَ عِكْرِمَةُ : (كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ ابْنِ
 عَبَّاسٍ فَمَرَّ طَائِرٌ يَصِيحُ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ : خَيْرٌ خَيْرٌ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَا خَيْرَ وَلَا شَرٍّ) (٤).

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه برقم: (٢٥٠٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٧٨٣).

(٢) أخرجه البخاري، باب لا هامة، برقم: (٥٧٧٠).

(٣) أخرجه البخاري، باب لا صفر وهو داء يأخذ البطن، برقم: (٥٧١٧)، ومسلم، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر ولا نوء

ولا غول ولا يورد ممرض على مصح، برقم: (٢٢٢٠).

(٤) انظر التمهيد ١٩٤/٢٤، والمقاصد الحسنة ص: ٣٣٣

وَخَرَجَ طَاوُسٌ مَعَ رَجُلٍ فِي سَفَرٍ فَصَاحَ غُرَابٌ فَقَالَ الرَّجُلُ : حَيْرٌ ، فَقَالَ طَاوُسٌ أَيُّ حَيْرٍ مَعَ هَذَا أَوْ شَرٍّ لَا تَصْحَبُنَا وَلَا تَسِرْ مَعِي. (١)
- إشكالٌ وردُّه:

صَحَّ عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: أَنَّهُ قَالَ: (إِنْ كَانَ الشُّؤْمُ فِي شَيْءٍ فَفِي : الْمَرْأَةِ وَالذَّابَّةِ وَالْمَسْكَنِ)
(٢) قَالَ بَعْضُ النَّاسِ فَظَاهِرُهُ إِثْبَاتُ الشُّؤْمِ أَوْ التَّطَيُّرِ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الثَّلَاثَةِ وَلَيْسَ كَذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ فِي كِتَابِهِ ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ (٨١) الزخرف: ولم يقل أحدٌ أن في الآية إثبات الولد لله تعالى بل فهموا منها عكس ذلك و يُبَيِّنُ هَذَا الْحَدِيثَ حَدِيثُ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ الَّذِي فِيهِ: (مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ ثَلَاثَةٌ، مِنْ سَعَادَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ، وَالْمَسْكَنُ الصَّالِحُ، وَالْمَرْكَبُ الصَّالِحُ، وَمِنْ شِقْوَةِ ابْنِ آدَمَ: الْمَرْأَةُ الشُّوءُ، وَالْمَسْكَنُ الشُّوءُ، وَالْمَرْكَبُ الشُّوءُ) (٣)، فَالشُّؤْمُ فِي الْحَدِيثِ الْمُرَادُ بِهِ الشَّقَاءُ الَّذِي هُوَ ضِدُّ السَّعَادَةِ ، فَلَمَعْنَى أَنَّ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مِنْ أَسْبَابِ الشَّقَاءِ الْحِسِّيِّ ، وَأَسْبَابِ السَّعَادَةِ الْحِسِّيَّةِ .

(وَلَا هَامَةً) - بِتَخْفِيفِ الْمِيمِ - وَلَهَا مَعْنِيَانِ : الْأَوَّلُ : أَنَّهَا طَائِرٌ يَشْبَهُ الْبُومَةَ أَوْ هِيَ الْبُومَةُ كَانَتْ الْعَرَبُ تَشْتَاءُ مِنْهَا وَمَا زَالُوا كَذَلِكَ يَقُولُ أَحَدُهُمْ : تَنْعِي لِي أَحَدَ أَفْرَادِ بَيْتِي . وَالثَّانِي : كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْقَتِيلَ تَصِيرُ عِظَامُهُ طَائِرًا حَتَّى يُؤْخَذَ بِثَأْرِهِ .

(لَا هَامَةً) الْخَبَرُ مَحْذُوفٌ وَتَقْدِيرُهُ عَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ : لَا هَامَةٌ مُؤَثِّرَةٌ أَصْلًا ، وَعَلَى الثَّانِي : لَا هَامَةٌ مَوْجُودَةٌ.

(١) رواه عبد الرزاق في مصنفه برقم ١٩٥١٣

(٢) أخرجه الترمذي، باب ماجاء في الشُّؤْم، برقم: (٢٨٢٤) انظر الصحيحة: (٤٤٣ و ٧٩٩ / ١٨٩٧).

(٣) أخرجه أحمد برقم: (١٤٤٥) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (١٩١٤).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

(وَلَا صَفَرَ) أَيْضاً فِيهَا مَعْنَيَانِ: الْأَوَّلُ: هُوَ ذَاةٌ فِي الْبَطْنِ أَعْدَى مِنَ الْجَرْبِ ، فَيَكُونُ عَطْفُهُ عَلَى الْعَدُوِّ مِنْ عَطْفِ الْخَاصِّ عَلَى الْعَامِّ. :وَالثَّانِي قِيلَ الْمُرَادُ شَهْرُ صَفَرٍ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَشَاءَمُونَ بِهِ وَلَا زَالُوا^(١) ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ الْمَعْنَيَيْنِ: فَعَلَى الْأَوَّلِ لَا صَفَرَ مُؤَثَّرٌ مِنْ نَفْسِهِ، وَعَلَى الثَّانِي لَا صَفَرَ مُؤَثَّرٌ أَصْلاً. (وَلَا نَوءٌ) (وَالنَّوءُ) : وَاحِدُ الْأَنْوَاءِ وَهِيَ مَنَازِلُ الْقَمَرِ ، فَالْعَرَبُ كَانَتْ تَعْتَقِدُ أَنَّ نُزُولَ الْأَمْطَارِ وَهُبوبَ الرِّيحِ بِسَبَبِ التَّجُومِ ، وَاللَّهُ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ وَيُنْزِلُ الْأَمْطَارَ ، وَإِنَّمَا هِيَ وَقْتُ لِنُزُولِ الْمَطَرِ وَهُبوبِ الرِّيحِ ، فَلَا نَوءٌ مُؤَثَّرٌ أَصْلاً. (وَلَا غُولٌ) الْغُولُ : وَاحِدُ الْغِيلَانِ ، وَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ الشَّيَاطِينِ تَتَشَكَّلُ لِلنَّاسِ فِي الْقُلُوبِ ، خُصُوصاً إِذَا اسْتَوْحَشَ الْإِنْسَانُ . وَتَقْدِيرُ الْحَبَرِ : لَا غُولٌ مُؤَثَّرٌ مَعَ ذِكْرِ اللَّهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهَمَّا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا عَدُوَّ وَلَا طَيْرَةَ وَيُعْجِبُنِي الْفَأَلُ، قَالُوا وَمَا الْفَأَلُ؟ قَالَ: الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»^(٢)]

(الْفَأَلُ) يُطْلَقُ عَلَى مَا يَسُرُّ وَمَا يَسُوءُ ، وَالطَّيْرَةُ فِيمَا يَسُوءُ فَقَطْ : وَتَفْسِيرُهُ هُنَا بِالْكَلِمَةِ الطَّيِّبَةِ تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (لَيْسَ فِي الْإِعْجَابِ بِالْفَأَلِ وَحُبَّتِهِ شَيْءٌ مِنَ الشِّرْكِ ، بَلْ ذَلِكَ إِبَانَةٌ عَنْ مُقْتَضَى الطَّبِيعَةِ ، وَمِنْ حُبِّ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي تَمِيلُ إِلَى مَا يُؤَافِقُهَا وَمَا يُلَاقِيهَا ، كَمَا أَخْبَرَ أَنَّهُ حُبُّ إِلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا النَّسَاءِ وَالطَّيِّبِ)^(٣).

(١) تقول عامة أهلنا الوحيد الما فيه جديد. يريدون بالوحيد شهر صفر ويريدون بالجديد الزواج فهم يتشاءمون بالزواج في هذا الشهر.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب-باب لاعدوى (٥٧٧٦)، ومسلم في كتاب السلام-باب الطيرة والفأل (٢٢٢٤).

(٣) مفتاح دار السعادة، ٢/٢٤٤، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت.

قَالَ الْحَلِيمِيُّ^(١) (إِنَّمَا كَانَ ﷺ يُعْجِبُهُ الْقَالَ ؛ لِأَنَّ التَّشَاؤْمَ سُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ بِغَيْرِ سَبَبٍ مُحَقِّقٍ ، وَالتَّفَاؤُلُ حَسَنُ ظَنٍّ بِهِ ، وَ الْمُؤْمِنُ مَأْمُورٌ بِحُسْنِ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى عَلَى كُلِّ حَالٍ^(٢) وَمِنْ تَفَاؤُلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ قَوْلُهُ فِي صَلَاحِ الْحَدِيثِ لَمَّا رَأَى سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو «لَقَدْ سَهَّلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ» رواه البخاري.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَإِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ : ذُكِرَتِ الطَّيْرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : «أَحْسَنُهَا الْقَالَ ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ ، فَلْيَقُلْ اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ »^(٣)]

هَذَا الْحَدِيثُ ضَعْفُهُ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - وَذَكَرَ فِيهِ عُلَّتَيْنِ : الْأُولَى : عُزُورُهُ بِنِ عَامِرٍ مُخْتَلَفٌ فِي صُحْبَتِهِ وَالثَّانِيَّةُ : حَبِيبُ بْنُ أَبِي ثَابِتٍ كَثِيرُ التَّدْلِيلِ ، وَلَمْ يُصَرِّحْ بِالتَّحْدِيثِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا : «الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، الطَّيْرَةُ شِرْكٌ ، وَمَا مِنَّا إِلَّا . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَذْهَبُهُ بِالتَّوَكُّلِ»^(٤) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ^(٥) .]

(الطَّيْرَةُ شِرْكٌ) صَرِيحٌ فِي حُكْمِ الطَّيْرَةِ وَأَنَّهَا شِرْكٌ ، وَلَكِنَّهَا مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ غَالِبًا إِذَا عَمِلَ بِمَقْتَضَاهَا أَوْ اعْتَقَدَ تَأْثِيرَهَا ، قَالَ الْقَاضِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (إِنَّمَا سَمَّاهَا شِرْكًا ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ مَا يَتَشَاءُمُونَ بِهِ سَبَبًا مُؤَثِّرًا فِي خُصُولِ الْمَكْرُوهِ وَمُلاحِظَةً لِلسَّبَابِ فِي الْجُمْلَةِ شِرْكٌ حَفِيٌّ ، فَكَيْفَ إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهَا جَهَالَةٌ

(١) قَالَ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (القاضي العلامة، ورئيس المحدثين والمتكلمين بما وراء النهر، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم البخاري الشافعي).

(٢) انظر فتح الباري (١٠/٢١٥).

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الطَّيْرَةِ (٣٩١٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (١٩٩)،.

(٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب - باب في الطَّيْرَةِ (٣٩١٠)، والتِّرْمِذِيُّ في كتاب السير - باب ماجاء في الطَّيْرَةِ (١٦١٤)، وابن ماجه

في كتاب الطب - باب من كان يعجبه الفأل ويكره الطَّيْرَةَ (٣٥٣٨)، وصححه الألباني في «غاية المرام» (٣٠٣).

(٥) انظر: «العلل الكبير» للتِّرْمِذِيِّ (١٠٤/٢)، «العلل» للدارقطني (٢٤٤/٥).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 وَسُوءُ اعْتِقَادٍ ^(١) قوله (وَمَا مِنَّا إِلَّا) قَالَ التَّوْرِبِشْتِي ^(٢) : (وَمَا مِنَّا إِلَّا مَنْ يَعْزُضُ لَهُ الْوَهْمُ مِنْ قَبْلِ
 الطَّيْرَةِ . وَكَرِهَ أَنْ يُتِمَّ كَلَامُهُ ذَلِكَ لِمَا يَتَضَمَّنُهُ مِنَ الْحَالِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ أَدَبِ الْكَلَامِ يُكْتَفَى
 دُونَ الْمَكْرُوهِ مِنْهُ بِالْإِشَارَةِ ، فَلَا يَضْرِبُ لِنَفْسِهِ مِثْلَ السُّوءِ) ^(٣) وَذَلِكَ الْخَذْفُ يُسَمَّى فِي الْبَدِيعِ بِالْاِكْتِفَاءِ
 ، وَهَذِهِ الْجُمْلَةُ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّمَا هِيَ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَفِيهِ : أَنَّ التَّوَكُّلَ دَوَاءُ الطَّيْرَةِ ؛
 لِأَنَّهُ صِدْقُ الْأَعْتِمَادِ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ مَعَ التَّقَةِ بِاللَّهِ ، وَالْأَخْذُ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي قَدْ
 ثَبَّتَتْ سَبَبِيَّتُهَا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَاخْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو : «مَنْ رَدَّنْهُ الطَّيْرَةَ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ
 أَشْرَكَ، قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: أَنْ يَقُولَ اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ
 غَيْرُكَ» ^(٤)]

(ابْنِ عَمْرٍو) هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ ، أَحَدِ الْعِبَادَةِ الْفُقَهَاءِ مَاتَ بِالطَّائِفِ سَنَةَ
 ٦٣ هـ قوله : (مَنْ رَدَّنْهُ الطَّيْرَةَ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ) الطَّيْرَةُ هِيَ التَّشَاوُمُ بِالشَّيْءِ الْمَرْئِي أَوِ الْمَسْمُوعِ
 أَوِ الْمَعْلُومِ ، فَإِذَا اسْتَجَابَ الْإِنْسَانُ وَامْتَنَعَ عَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ فَقَدْ قَرَعَ بَابَ الشِّرْكِ بَلْ وَلَجَهُ ، وَبَرَى مِنْ
 التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ وَفَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ الْخَوْفِ وَالتَّعَلُّقِ بِغَيْرِ اللَّهِ ، وَذَلِكَ شِرْكٌ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ إِيْمَانَهُ وَيَبْقَى
 هَدَفًا لِسِهَامِ الطَّيْرَةِ ، وَيُقَيِّضُ لَهُ الشَّيْطَانُ مِنْ ذَلِكَ مَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ ، وَكَمْ مِمَّنْ هَلَكَ بِذَلِكَ
 فَخَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ، فَضَابِطُ الطَّيْرَةِ الَّتِي هِيَ شِرْكُكَ أَنْ تَرُدَّ الْمُتَطَيِّرَ عَنْ حَاجَتِهِ ، فَإِنْ لَمْ تَرُدَّهُ فَلَا حَرَجَ
 عَلَيْهِ فِيمَا يَقَعُ فِي نَفْسِهِ إِلَّا أَنْ يَعْظُمَ فِي قَلْبِهِ . (فَقَدْ أَشْرَكَ) شِرْكًا أَكْبَرَ إِنَّ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمُتَشَاءِمَ بِهِ يَمْلِكُ
 الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، وَهُوَ أَصْغَرُ إِنَّ اعْتَقَدَ أَنَّ الْمُتَشَاءِمَ بِهِ سَبَبٌ ، وَهَذَا الْعَالِبُ فِي التَّشَاوُمِ . (قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ

(١) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٢٨٩٧/٧ .

(٢) فضل الله بن حسن بن حسين بن يوسف أبو عبد الله، شهاب الدين التَّوْرِبِشْتِي (المتوفى: ٦٦١ هـ).

(٣) الميسر في شرح المصابيح ١/٧٧ .

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠/٢) وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٠٦٥).

ذَلِكَ ؟) أَي : كَفَّارَةُ مَا يَفْعُ فِي الْقَلْبِ مِنْ نَقْصِ التَّوَكُّلِ أَنْ يَقُولَ هَذَا الدُّعَاءَ وَيَمْضِي فِي حَاجَتِهِ (اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ) أَي : لَا خَيْرَ إِلَّا مِنْكَ إِمَّا أَنْ يَأْتِيَ مُبَاشَرَةً مِنْهُ كَالْمَطَرِ ، أَوْ بِوَاسِطَةِ كَالدَّرَاهِمِ - (وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ) - أَي : الطُّيُورُ كُلُّهَا مُسَجَّرَةٌ بِإِذْنِكَ لَا عِلَاقَةَ لَهَا بِالْحَوَادِثِ ، وَقَدْ يُرَادُ بِالطَّيْرِ هُنَا مُقَابِلُ الْخَيْرِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يُقَدِّرُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، لَكِنَّ الشَّرَّ فِي مَفْعُولِهِ لَا فِي فِعْلِهِ أَي : أَنَّهُ سُبْحَانَهُ يُقَدِّرُ الشَّرَّ لِلْخَيْرِ - (وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ) إِلَهَ : بِمَعْنَى مَالُوهُ وَخَيْرَ لَا مُحَذُوفٌ ، أَي : لَا مَعْبُودَ حَقٌّ غَيْرُكَ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ « إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ »]

رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ ، أَوْ رَدَّكَ » قَالَ أَحْمَدُ شَاكِرٌ : فِيهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُلَاثَةَ ، قَالَ الْبُخَارِيُّ : فِي حِفْظِهِ نَظَرٌ ، وَمُسْلَمَةُ الْجَهْمِيُّ هُوَ ثِقَةٌ ، وَلَكِنَّهُ مُتَأَخِّرٌ عَنْ أَنْ يُدْرِكَ الْفَضْلَ بْنَ عَبَّاسٍ ^(١) وَيُغْنِي عَنْهُ حَدِيثُ (مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ ، فَقَدْ أَشْرَكَ) السَّابِقُ .



(١) أخرجه أحمد (٤١٢/٢) بتحقيق شاكر .

[٢٩]

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : تَقَدَّمَ أَنَّ التَّنْجِيمَ وَ السِّحْرَ وَالْكِهَانَةَ وَالتَّطْيِيرَ كُلُّهَا مُنَازَعَةٌ لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا فِي صِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ يَخْتَصُّ بِهَا وَحْدَهُ وَهِيَ عِلْمُ الْغَيْبِ . قَوْلُهُ : (بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ) أَيُّ : مَا جَاءَ مِنَ الْأَدْلَةِ فِي حُكْمِهِ .

وَعِلْمُ التَّنْجِيمِ نَوْعَانِ . الْأَوَّلُ : مَا يُسَمَّى بِعِلْمِ التَّأْثِيرِ : وَهُوَ الْأَسْتِدْلَالُ بِحَرَكَةِ النُّجُومِ وَالتَّقَاءِهَا وَافْتِرَاقِهَا وَطُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا عَلَى مَا سَيَكُونُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ وَعَلَيْهِ فَهُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْكِهَانَةِ .
الثَّانِي : مَا يُسَمَّى بِعِلْمِ الْمَسِيرِ وَهُوَ تَعَلُّمُ الْمَنَازِلِ لِلْأَسْتِدْلَالِ بِهَا عَلَى الْجِهَاتِ وَالْأَوْقَاتِ ، وَقَدْ رَخَصَ فِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ وَكَرِهَهُ بَعْضُهُمْ ، وَالصَّوَابُ الْأَوَّلُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي "صَحِيحِهِ" قَالَ قَتَادَةُ : خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثِ زِينَةٍ لِلسَّمَاءِ ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا ، فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ : أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيئَهُ ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ . انْتَهَى ^(١)]

رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ مُعَلَّقًا وَوَصَلَهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَعَبْدُ الرَّزَّاقِ وَعَبْدُ بْنُ حَمِيدٍ قَوْلُهُ : (خَلَقَ اللَّهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثِ زِينَةٍ لِلسَّمَاءِ وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ) وَقَدْ دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَى كَلَامِ قَتَادَةَ هَذَا قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ وَحِفْظًا مِّنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ^(٢) 》 . وَقَالَ : ﴿ وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ^(٣) 》 وَقَالَ ﴿ وَلَقَدْ زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا

(١) ذكره البخاري تعليقًا في كتاب بدء الخلق - باب في النجوم (فتح الباري: ٢٩٦/٦).

(٢) سورة الصافات الآية: ٦.

(٣) سورة فصلت الآية: ١٢.

لِلشَّيْطَانِ ﴿١﴾ (وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَىٰ بِهَا) لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَّمَكُم بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ ﴿٢﴾ وَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ﴾ ﴿٣﴾ أَيُّ: يُعْرِفُ بِهَا الْجِهَاتِ وَالْأَوَاقَاتِ، (فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ) أَيُّ: زَعَمَ فِيهَا غَيْرَ مَا سَبَقَ، (أَخْطَأَ) أَيُّ: أَخْطَأَ الصَّوَابَ، (وَأَضَاعَ نَصِييَهُ) أَيُّ: حَظَّهُ مِنْ عُمْرِهِ؛ لِأَنَّهُ شَعَلَ نَفْسَهُ بِمَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ. وَقِيلَ أَضَاعَ نَصِييَهُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى الْمَنْجَمِ فَإِنَّهُ سَاحِرٌ مُدَّعٍ عِلْمَ الْغَيْبِ فَقَدْ وَقَعَ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ وَ مِنْ أَنَاةٍ وَصَدَقَهُ فَقَدْ وَقَعَ فِي الْكُفْرِ أَيْضًا وَهُوَ دَائِرٌ بَيْنَ الْكُفْرِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ وَقَدْ سَبَقَ تَفْصِيلُ الْكَلَامِ عَلَيْهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَكَرِهَ قِتَادَةُ تَعْلُمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصْ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذِكْرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا ^(٤) وَرَخِّصَ فِي تَعْلُمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ ^(٥)].

اِخْتَلَفَ السَّلَفُ فِي حُكْمِ تَعْلُمِ الْمَنَازِلِ الَّتِي يَنْزِلُهَا الْقَمَرُ وَهِيَ ثَمَانِيَةٌ وَعِشْرُونَ مَنْزِلًا، وَعَلَامَةُ كُلِّ مَنْزِلَةٍ نَجْمٌ مِنَ النُّجُومِ.

وَكُلُّ مَنْزِلَةٍ ثَلَاثَ عَشْرَةَ يَوْمًا وَجُزْءٌ يَسِيرٌ مِنَ الْيَوْمِ، فَمِنَ السَّلَفِ مَنْ كَرِهَ تَعْلُمَهَا كَقِتَادَةِ وَابْنِ عُيَيْنَةَ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

(١) سورة الملك الآية: ٥.

(٢) سورة النحل الآية: ١٦.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٩٧.

(٤) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/٢٩٦).

(٥) انظر: «فتح الباري» لابن رجب (٢/٢٩٦)، وقال: «فرخص فيه: النخعي ومجاهد وأحمد».

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 و(حَرْبٌ) هُوَ ابْنُ إِسْمَاعِيلَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْكِرْمَانِي ، مِنْ أَجَلَةِ أَصْحَابِ أَحْمَدَ ، وَرَخَّصَ فِيهِ أَحْمَدُ وَإِسْحَقُ -
 وَهُوَ الصَّوَابُ - . فَيَتَعَلَّمُهَا لِمَعْرِفَةِ أَوْقَاتِ الزَّرْعِ وَالْجَهَاتِ ، وَقَدْ ائْتَى اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ بِمَعْرِفَةِ هَذِهِ
 الْمَنَازِلِ وَلَا يَمْتَنُّ بِحَرَامِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِنَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ﴾ ^(١) .

(وَإِسْحَاقُ) هُوَ ابْنُ إِبْرَاهِيمَ أَبُو يَعْقُوبَ الْخَنْظَلِيُّ النِّيسَابُورِيُّ ، إِمَامٌ مَعْرُوفٌ بِابْنِ رَاهُوِيهِ ، وَقَالَ فِيهِ
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ : (إِسْحَاقُ عِنْدَنَا إِمَامٌ مِنْ أَيْمَةِ الْمُسْلِمِينَ)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
 مُدْمِنُ الْخَمْرِ ، وَمُصَدِّقُ السِّحْرِ ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ» ^(٢) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانٍ فِي "صَحِيحِهِ" .
 (أَبُو مُوسَى) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ قَيْسٍ بْنِ سَلِيمٍ بْنِ خَضَارٍ الْأَشْعَرِيُّ ، اسْتَعْمَلَهُ النَّبِيُّ ﷺ وَأَمَرَهُ عُمَرُ ثُمَّ
 عُثْمَانُ .

(ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ) الْعَدَدُ لَا مَفْهُومَ لَهُ ، وَهَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ - وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِيهَا -
 وَ التَّحْقِيقُ أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ابْتِدَاءً هَذَا جَمْعًا لِلْأَدَلَةِ وَحَمَلًا لِلْمُطْلَقِ عَلَى الْمُقَيَّدِ . (مُدْمِنُ الْخَمْرِ)
 هُوَ الْمُدَاوِمُ عَلَيْهَا ، وَالْخَمْرُ عَرَفَهَا النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ : (كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٌ) ^(٣) ، (وَقَاطِعُ الرَّحِمِ) هُمُ الْقَرَابَةُ ،
 وَالصَّلَةُ تَكُونُ بِالْعِلْمِ وَالْمَالِ وَالزِّيَارَةِ وَنَحْوِهَا مِنْ وَجُوهِ الْإِحْسَانِ .

(وَمُصَدِّقُ السِّحْرِ) هَذَا هُوَ الشَّاهِدُ مِنَ الْحَدِيثِ ؛ لِأَنَّ التَّنَجِيمَ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ ، وَقَدْ سَبَقَ حَدِيثُ
 : (مَنْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ التُّجُومِ فَقَدْ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ) فَتَصْدِيقُ الْمُنْجِمِينَ مِنْ تَصْدِيقِ الْكُفَّانِ ،
 ، وَيَدْخُلُ فِي التَّنَجِيمِ مَا يُسَمَّى بِبُرْجِكَ الْيَوْمَ ، وَالنَّظَرُ فِيهَا إِتْيَانٌ لِلْكُفَّانِ .



(١) سورة يونس الآية: ٥٠ .

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٩٩/٤)، وقد حسنه الشيخ الألباني في السلسلة برقم: (٧٦٨) .

(٣) أخرجه مسلم، باب بيان أن كل مسكر خمر وأن كل خمر حرام، برقم: (٢٠٠٣) . سورة الواقعة الآية: ٨٢ .

[٣٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ، فَلَا يُسْتِسْقَى بِالْأَنْوَاءِ نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ التَّنَجِيمِ ، وَمَعْنَى الْإِسْتِسْقَاءِ : طَلَبُ السُّقْيَا ، وَالْأَنْوَاءُ : جَمْعُ نَوٍّ وَهُوَ النَّجْمُ .

وَالْإِسْتِسْقَاءُ نَوْعَانِ :

- ١- نوع هُوَ شَرَكٌ أَكْبَرُ وَهُوَ طَلَبُ السُّقْيَا مِنَ النَّوِّ أَوْ نَسْبَتُهَا إِلَيْهَا .
- ٢- نوع هُوَ شَرَكٌ أَصْغَرُ وَهُوَ نِسْبَةُ حُصُولِ الْخَيْرِ وَالْمَطَرِ إِلَى النَّوِّ ، لِكَوْنِهَا سَبَبٌ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا هُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْأَمْطَارَ أَصْلًا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ ^(١)]

قِيلَ : إِنَّ مَعْنَى الْآيَةِ تَجْعَلُونَ شُكْرَ الرِّزْقِ التَّكْذِيبَ بِهِ ، فَتَنْسُبُونَهُ إِلَى غَيْرِ مُعْطِيهِ ، وَهَذَا الَّذِي يُنَاسِبُ الْبَابَ .

وَمِنْ الْمُفَسِّرِينَ مَنْ قَالَ : الرِّزْقُ هُوَ الْقُرْآنُ ، أَيْ : تَجْعَلُونَ حَظَّكُمْ مِنْ هَذَا الْقُرْآنِ الَّذِي بِهِ حَيَاتُكُمْ التَّكْذِيبَ بِهِ . وَلَا مَانِعَ مِنْ حَمْلِ الْآيَةِ عَلَى الْمَعْنَى جَمِيعًا لِأَنَّهُ لَا تَعَارُضَ بَيْنَهُمَا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ بِالْإِحْسَابِ ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالْجُحُومِ وَالنِّيَاحَةُ) ^(٢)] ، وَقَالَ : (النَّايِحَةُ إِذَا لَمْ تَتَّبَقْ قَبْلَ مَوْتِهَا ، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .]

(١) سورة الواقعة الآية ٨٢

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز - باب التشديد في النياحة (٩٣٤) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
(أَبُو مَالِكٍ الشَّعْرِيُّ) هُوَ الْحَارِثُ بْنُ الْحَارِثِ الشَّامِيُّ، وَفِي الصَّحَابَةِ ثَلَاثَةٌ يَهْدِيهِ الْكُنْيَةُ وَالنِّسْبَةُ . قَوْلُهُ
: (أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي) تَقْدَمُ أَنَّ الْعَدَدَ لَا مَفْهُومَ لَهُ وَالْمَقْصُودُ تَسْهِيلُ الْعِلْمِ وَضَبْطُهُ، (مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ) أَيْ
: مِنْ شَأْنِهَا (لَا يَتْرُكُونَهُنَّ) أَيْ : لَا يَزَالُ فِي النَّاسِ مَنْ يَتَعَاطَاهَا وَيَتَأَسَّى بِالْكَفَرَةِ فِيهَا ، قَالَ شَيْخُ
الإِسْلَام - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَخْبَرَ أَنَّ بَعْضَ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ ذِمًّا لِمَنْ لَمْ يَتْرُكْهُ) ^(١) ، وَفِي
هَذَا ذِمٌّ لِهَذِهِ الْأَفْعَالِ بِنِسْبَتِهَا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ . (الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ) أَيْ : التَّشَرُّفُ بِالْآبَاءِ وَالتَّعَاطُفُ
بِمَنَاقِبِهِمْ وَذَلِكَ جَهْلٌ عَظِيمٌ إِذْ لَا شَرَفَ إِلَّا بِالتَّقْوَى ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ إِنَّا أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ ﴾
أَتَقَنَّمُكُمْ ^(٢) .

(وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ) أَيْ : الْوُقُوعُ فِيهَا بِالذِّمِّ وَالْعَيْبِ أَوْ بِنَفْيِ صِحَّةِ نِسْبَتِهَا ، وَلِهَذَا لَمَّا عَيَّرَ أَبُو ذَرٍّ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - رَجُلًا بِأَمِّهِ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لَهُ : (أَعَيَّرْتَهُ بِأَمِّهِ إِنَّكَ أَمْرُؤُ فَيْكَ جَاهِلِيَّةٌ) ^(٣) قَدَلَّ ذَلِكَ
عَلَى أَنَّ التَّعْيِيرَ بِالْأَنْسَابِ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ ، وَأَنَّ الرَّجُلَ مَعَ فَضْلِهِ وَعِلْمِهِ وَدِينِهِ قَدْ يَكُونُ فِيهِ بَعْضُ
الْخِصَالِ الْمُسَمَّاةِ بِجَاهِلِيَّةٍ وَيَهُودِيَّةٍ وَنَصْرَانِيَّةٍ ، وَلَا يُوجِبُ ذَلِكَ كُفْرُهُ وَفُسْقُهُ . قَالَهُ شَيْخُ الْإِسْلَام ^(٤) .
(وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ) هُوَ نِسْبَةُ الشُّقْبَا وَمَحْيَا الْمَطَرِ إِلَى النُّجُومِ وَهُوَ مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ،
وَقَدْ خَافَ النَّبِيُّ ﷺ ذَلِكَ عَلَى أُمَّتِهِ ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّ أَحْوَفَ مَا أَتَخَوَّفُهُ عَلَى أُمَّتِي
آخِرَ الزَّمَانِ ثَلَاثًا : إِيمَانًا بِالنُّجُومِ وَتَكْذِيبًا بِالْقَدَرِ وَخَيْفَ السُّلْطَانِ) ^(٥) . (وَالْيَبَاحَةُ) وَهِيَ رَفْعُ الصَّوْتِ

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، (٤/ ١٤٣)، دراسة وتحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، الناشر: دار عالم الكتب، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

(٢) سورة الحجرات الآية: ١٣.

(٣) أخرجه البخاري، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك لقول النبي ﷺ إنك امرؤ فيك جاهلية وقول

الله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، برقم: ٣٠.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٢٥٢).

(٥) صححه الألباني في الصحيحة برقم: (١١٢٧).

بِالذَّنْبِ وَالْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ ، لِمَا فِيهَا مِنَ التَّسْحُطِ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ وَالْمُعَارَضَةِ لِأَحْكَامِهِ وَسُوءِ الْأَدَبِ مَعَهُ سُبْحَانَهُ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهِيَ لَا تَرُدُّ قِضَاءً وَلَا تَرْفَعُ بَلَاءً ، (النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا) فِيهِ : التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الْوَعِيدَ وَالذَّمَّ لَا يُلْحَقُ التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ ، وَفِيهِ : أَنَّ النِّيَاحَةَ مِنَ الْكِبَائِرِ . (ثِقَامُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ) أَيُّ : تُبْعَثُ مِنْ قَبْرِهَا ، وَ (السِّرْبَالُ) هُوَ الثَّوْبُ ، وَ (قَطِرَانٌ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : هُوَ اللَّحَاسُ الْمَذَابُ ، وَقِيلَ : هُوَ الْقَطِرَانُ الْمَعْرُوفُ (وَهُوَ مَادَّةُ سَوْدَاءٍ سَائِلَةٌ لَزَجَةٌ تُسْتَخْرَجُ مِنَ الْقَحْمِ وَالْخَشَبِ وَتُحَوِّمُهَا وَهِيَ شَدِيدَةُ الْاشْتِعَالِ) ، (وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ) الدِرْعُ : هُوَ قَمِيصُ الْمَرْأَةِ ، وَ (الْجَرَبُ) مَرَضٌ مَعْرُوفٌ ، وَالْمَعْنَى : إِنْهُمْ يُلَطَّخُونَ بِالْقَطِرَانِ فَيَصِيرُ لَهُنَّ كَالْقَمِيصِ حَتَّى يَكُونَ اشْتِعَالُ النَّارِ أَشَدَّ ، وَالتَّصَاقُهَا بِأَجْسَادِهِنَّ أَعْظَمَ ، وَرَازِحَتُهُنَّ أَتْنَنَ ، وَأَلَمُهَا بِسَبَبِ الْجَرَبِ أَشَدُّ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ هَذِهِ الْأَرْبَعَةَ كُلَّهَا مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَفِيهِ : عَلَّمَ مِنْ أَعْلَامِ التُّبُوءِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحَدِيثِيَّةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ : " قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءٍ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ » ^(١)]

(وَهُمَا) أَيُّ : لِلْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ ، (زَيْدُ بْنُ خَالِدٍ) الْجُهَنِّيُّ صَحَابِيُّ مَشْهُورٌ ، (صَلَّى لَنَا) أَيُّ : بِنَا ، وَفِيهِ : إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْإِمَامَ يَحْمِلُ عَنِ الْمَأْمُومِينَ شَيْئًا كَبِيرًا ، (بِالْحَدِيثِيَّةِ) مَكَانٌ مَعْرُوفٌ (عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ) أَيُّ : عَقِبَ مَطَرٍ . (فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ ، فَقَالَ : « هَلْ تَذَرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ ») وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : مَشْرُوعِيَّةُ الْمَوْعِظَةِ وَالتَّنْبِيهِ عَلَى الْخَطِئِ عَقِبَ الصَّلَوَاتِ ، وَفِيهَا الْقَاءُ الْعَالَمِ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب قول الله تعالى : ﴿ وَتَجْعَلُونَ رُفُوكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الْمَسْأَلَةُ عَلَى أَصْحَابِهِ ، وَفِيهَا أَنَّ التَّعْلِيمَ بِطَرِيقَةِ الِاسْتِفْهَامِ أَوْفَعُ فِي النَّفْسِ . (قَالُوا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ)
 فِيهِ : أَدَبُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ - (قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ) الْعُبُودِيَّةُ هُنَا كَوْنِيَّةٌ
 بِدَلِيلِ التَّقْسِيمِ إِلَى مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ . وَفِيهِ : إِبْتِاثُ الْقَوْلِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، وَمَضَى أَنَّ الْكُفْرَ فِي نِسْبَةِ الشُّفْعَا
 إِلَى النَّوْءِ قَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَصْعَرَ وَقَدْ يَكُونُ كُفْرًا أَكْبَرَ . (فَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، فَذَلِكَ
 مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : التَّفَقُّطُ لِلْإِيمَانِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ ، وَفِيهَا إِبْتِاثُ
 صِفَتِي الْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ ، وَفِيهَا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ إِضَافَةُ نِعَمِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ ، وَفِيهَا أَنَّ النِّعَمَ انْتِبَلاءً وَامْتِحَانًا ،
 فَفِي سَبَبِ كُفْرٍ أَوْ إِيمَانٍ ، وَفِيهَا مَشْرُوعِيَّةُ قَوْلِ مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ عِنْدَ نُزُولِ الْمَطَرِ . (وَأَمَّا مَنْ
 قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا ، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَائِلُ
 هَذِهِ اللَّفْظَةِ لَهُ ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ : الْأَوَّلَى : أَنَّ يَنْسَبُ الْمَطَرُ إِلَى النَّوْءِ أَوْ النِّجْمِ نِسْبَةً إِيجَادٍ فَهَذَا كُفْرٌ أَكْبَرُ .
 الثَّانِيَّةُ : أَنَّ يَنْسَبَهَا نِسْبَةً سَبَبِيَّةٍ فَهَذَا مِنْ شَرِكِ الْأَلْفَاظِ .

الثَّالِثَةُ : أَنَّ يَقُولَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا قَاصِدًا لِلظَّرْفِيَّةِ فَقَطُّ ، فَهَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَصْعَرِ وَلَا الْأَكْبَرِ
 لَكِنْ أَيْضًا لَا يَجُوزُ لِأَنَّ فِيهِ مِثَابَةً اللَّفْظِ الْمَنْهِي عَنْهُ .

وَيَجُوزُ أَنَّ يَقُولَ مُطِرْنَا فِي نَوْءِ كَذَا . فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : التَّفَقُّطُ لِلْكَفْرِ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ وَأَنَّ
 نِسْبَةَ الْمَطَرِ إِلَى الْأَنْوَاءِ كُفْرٌ وَإِلَى اللَّهِ إِيمَانٌ ، وَأَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَفُرْبُ الْكُفْرِ وَالْإِيمَانِ
 وَأَنَّهُ بِلَفْظَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَالْحَذَرُ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهَمَّا^(١) . مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ ، وَفِيهِ قَالَ بَعْضُهُمْ : لَقَدْ صَدَقَ
 نَوْءُ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَاتِ : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ الْجُومِ ۖ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ
 تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۖ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقَرَأَنُ كَرِيمٌ ۖ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۖ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ - بَابِ بَيَانِ كُفْرِ مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ (٧٣) .

﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ

﴿١﴾

(وَهُمَا) الْحَدِيثُ فِي مُسْلِمٍ فَقَطُّ وَلَفْظُهُ: (عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مُطِرَ النَّاسُ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ، قَالُوا هَذِهِ رَحْمَةُ اللَّهِ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا

فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَوَعَّلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ

لَقَرَأَنَّا كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ

﴿٨٠﴾ أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ ﴿٨٢﴾

(وَقَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءٌ كَذَا وَكَذَا) فِي هَذَا اللَّفْظِ نِسْبَةُ الْمَطَرِ إِلَى النَّوْءِ أَيْ صَدَقَ النَّوْءُ فِي

الْإِثْبَانِ بِالْمَطَرِ وَهُوَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْمُسْتَعْمَلَةِ إِلَى يَوْمِ النَّاسِ هَذَا وَفِيهِ أَنَّ نِسْبَةَ الْمَطَرِ إِلَى النَّجْمِ مِنْ شِرْكِ

الْأَلْفَاظِ.



[٣١]

بَابُ

قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾.

هَذَا شَرْوَعٌ مِنَ الْإِمَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي ذِكْرِ وَاجِبَاتِ التَّوْحِيدِ وَمُكَمَّلَاتِهِ ، وَبَعْضِ الْعِبَادَاتِ الْقَلْبِيَّةِ ، وَابْتَدَأَهَا بِالْمَحَبَّةِ . وَالْمَحَبَّةُ تَنْقَسِمُ إِلَى قِسْمَيْنِ : خَاصَّةٍ وَمُشْتَرَكَةٍ ، فَلأُولَى : مَحَبَّةُ الْعِبَادَةِ : وَهِيَ الَّتِي تُوجِبُ التَّأْلِيهِ وَالتَّعْظِيمَ وَإِجْلَالَ الْمَحْبُوبِ وَامْتِنَالَ أَمْرِهِ وَاجْتِنَابَ نَهْيِهِ ، وَالْخَوْفَ مِنْهُ وَالطَّمَعَ فِيمَا عِنْدَهُ وَهِيَ لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلَّهِ .

وَالثَّانِيَةُ : الْمُشْتَرَكَةُ وَهِيَ أَنْوَاعٌ :

١- مَحَبَّةُ اللَّهِ وَذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الدَّافِعُ لَهَا مَحَبَّةُ اللَّهِ سَوَاءً كَانَتْ لِشَخْصٍ أَوْ عَمَلٍ .

٢- مَحَبَّةُ إِشْفَاقٍ وَرَحْمَةٍ كَمَحَبَّةِ الْوَلَدِ .

٣- مَحَبَّةُ إِجْلَالٍ وَرَحْمَةٍ لَا عِبَادَةَ مَعَهَا كَمَحَبَّةِ الْوَالِدِ

٤- مَحَبَّةُ طَبِيعِيَّةٍ كَمَحَبَّةِ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ وَالتَّكَاحِ وَالدَّافِعُ لَهَا التَّلَذُّدُ بِالْمَحْبُوبِ .

قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَلَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ حَتَّى تَكْمُلَ مَحَبَّةُ الْعَبْدِ لِرَبِّهِ ، وَتَسْبِقُ مَحَبَّتُهُ جَمِيعَ الْحَابِّ وَتَغْلِبُهَا ، فَيَكُونُ لَهَا الْحُكْمُ عَلَيْهَا ، بِحَيْثُ تَكُونُ سَائِرُ مُحَابِّ الْعَبْدِ تَبْعاً لِهَذِهِ الْمَحَبَّةِ الَّتِي بِهَا سَعَادَةُ الْعَبْدِ وَفَلَاحُهُ)^(١) .

قَوْلُهُ : (وَمِنَ النَّاسِ) مِنْ : تَبْعِيضِيَّةٌ ، (يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا) جَمْعُ نِدٍّ ، وَلَيْسَ لِلَّهِ نِدٌّ إِنَّمَا هُوَ فِي اعْتِقَادِ الْمُشْرِكِ (يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ) أَنَّ الْمُشْرِكِينَ يُحِبُّونَ أَهْلَهُمْ كَحُبِّهِمْ لِلَّهِ كَيْفِيَّةً وَنَوْعاً . قَوْلُهُ (وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ) لِأَنَّ مَحَبَّتَهُمْ خَالِصَةٌ لِلَّهِ وَقَائِمَةٌ عَلَى بُرْهَانٍ صَحِيحٍ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (الْإِسْبَابُ الْجَالِبَةُ لِلْمَحَبَّةِ عَشْرَةٌ :-

أَحَدُهَا : قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدْبِيرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ .

الثَّانِي : التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ .

(١) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ ، ص : ١٢٧ .

الثَّالِثُ : دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ ، فَتَضَيُّعُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ هَذَا .
الرَّابِعُ : إِثَارُ مَحَابَّتِهِ عَلَى مَحَابَّتِكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى .
الخَامِسُ : مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمُشَاهَدَتُهَا ، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَيَادِينِهَا .
السادسُ : مُشَاهَدَةُ بَرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَنِعَمِهِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ .
السَّابِعُ : - وَهُوَ أَعْجَبُهَا - انْكِسَارُ الْقَلْبِ بَيْنَ يَدَيْهِ .
الثَّامِنُ : الْخُلُوعُ وَقُتُّ التُّزْوِيلِ الْإِلَهِيِّ ، وَتِلَاوَةُ كِتَابِهِ ثُمَّ خَتْمُ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ .
التَّاسِعُ : مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ ، وَالتَّقَاطُطُ أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ ، وَلَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحْتَ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ وَمَنْفَعَةً لِعَيْرِكَ .
الْعَاشِرُ : مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشْرَةِ وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ ، وَدَخَلُوا عَلَى الْحَبِيبِ ^(١) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ : ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ ^(٢)]

هَذَا أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ ﷺ أَنْ يَتَوَعَّدَ مَنْ أَحَبَّ أَهْلَهُ وَعَشِيرَتَهُ وَأَمْوَالَهُ وَمَسَاكِينَهُ أَوْ وَاحِدًا مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ أَكْثَرَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ ، بِأَنْ يَنْتَظِرَ مَا يَحِلُّ بِهِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ ، وَفِيهِ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَهُوَ مِنَ الْفَاسِقِينَ ، وَهَذَا وَعِيدٌ عَظِيمٌ لَا يَخْلُصُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ صَحَّ إِيمَانُهُ ، وَخَلَصَ لِلَّهِ سِرُّهُ وَإِعْلَانُهُ

(١) مدارج السالكين، ١٧/٣-١٨، الناشر : دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣ ، تحقيق : محمد حامد

الفقي .

(٢) سورة التوبة الآية : ٢٤ .

، عَلَى أَنَّ الْمَحَبَّةَ الصَّادِقَةَ تَسْتَلْزِمُ تَقْدِيمَ مَرْضِيِ اللَّهِ عَلَى هَذِهِ الثَّمَانِيَةِ ، وَتَدُلُّ الْآيَةُ عَلَى وُجُوبِ مَحَبَّةِ اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ فَوْقَ كُلِّ مَحَبَّةٍ ، وَفِيهَا : أَنْ تَقْدِمَ مَحَبَّةَ غَيْرِ اللَّهِ عَلَى مَحَبَّةِ اللَّهِ كَبِيرَةً مِنَ الْكِبَائِرِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » أَخْرَجَاهُ ^(١)

(لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ) النَّفْيُ هُنَا : لِكَمَالِ الْإِيمَانِ الْوَاجِبِ ، فَلَا يَحْضُلُ هَذَا الْكَمَالُ حَتَّى يَكُونَ الرَّسُولُ ﷺ أَحَبَّ إِلَى الْعَبْدِ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَرَ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ . وَإِذَا كَانَ هَذَا شَأْنُ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَمَا الظِّلُّ بِمَحَبَّةِ اللَّهِ ! قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فَمَنْ قَالَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ هُوَ الْكَمَالُ فَإِنْ أَرَادَ الْكَمَالُ الْوَاجِبَ الَّذِي يُدْمُ تَارِكُهُ وَيُعْرِضُ لِلْعُقُوبَةِ فَقَدْ صَدَقَ ، وَإِنْ أَرَادَ أَنَّ الْمَنْفِيَّ الْكَمَالُ الْمُسْتَحَبُّ فَهَذَا لَمْ يَقَعْ قَطُّ فِي كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ) ^(٢).

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الْأَعْمَالَ مِنَ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ الْمَحَبَّةَ عَمَلٌ قَلْبِيٌّ ، وَأَنَّ مَحَبَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاجِبَةٌ تَابِعَةٌ لِمَحَبَّةِ اللَّهِ لِازِمَةٌ لَهَا ، وَأَنَّ نَفْيَ الْإِيمَانِ لَا يَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ مِنَ الْإِسْلَامِ . وَفَرَّقَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَمَحَبَّتِهِ مَعَ اللَّهِ فَإِنَّ الْأَوَّلَى مِنْ مَحْضِ الْإِيمَانِ وَالثَّانِيَّةُ مِنْ مَحْضِ الشِّرْكِ وَالْكُفْرَانِ . وَإِنَّمَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ لَأَنَّ اللَّهَ اجْتَبَاهُ وَاصْطَفَاهُ وَأَرْسَلَهُ إِلَيْنَا ، وَلَمَّا قَامَ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ وَتَبْلِيغِ دِينِ اللَّهِ ، وَلَأنَّهُ سَبَبُ هِدَايَتِنَا إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَلِعَظِيمِ خَلْقِهِ وَكَرِيمِ خَصَالِهِ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ - بَابُ حُبِّ الرَّسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْإِيمَانِ (١٥)، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ - بَابُ

وَجُوبِ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (٤٤).

(٢) مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى، ١٥/٧.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَهَمَّا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ»^(١)]

(وَهُمَا) أَيُّ : لِلشَّيْخَيْنِ (عَنْهُ) أَيُّ : عَنْ أَنَسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - (ثَلَاثٌ) أَيُّ : خِصَالٌ (مَنْ كُنَّ فِيهِ) أَيُّ : وَجَدَنَّ فِيهِ وَ

(كَانَ) هُنَا تَامَّةٌ ، (وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ) أَيُّ : هَذِهِ الثَّلَاثَةُ شَرْطٌ فِي وَجُودِ حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ، وَالْحَلَاوَةُ هِيَ الَّتِي يُعْبَرُ عَنْهَا بِالدَّوْقِ أَيُّ : مَا يَخْصُلُ بِهِ مِنْ لَذَّةِ الْقَلْبِ وَنَعِيمِهِ وَسُرُورِهِ وَهُوَ شَيْءٌ مَحْسُوسٌ يَجِدُهُ أَهْلُ الْإِيمَانِ فِي قُلُوبِهِمْ.

قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (مَعْنَى حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ اسْتِلْذَاذُ الطَّاعَاتِ وَتَحَمُّلُ الْمَشَقَّاتِ فِي رِضَا اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولِهِ ﷺ وَإِثَارُ ذَلِكَ عَلَى عَرَضِ الدُّنْيَا)^(٢) وَقَالَ ابْنُ رَجَبٍ^(٣) - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَكَمَا أَنَّ الْجَسَدَ لَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ إِلَّا عِنْدَ صِحَّتِهِ فَإِذَا سَقُمَ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ مَا يَنْفَعُهُ مِنْ ذَلِكَ ، بَلْ قَدْ يَسْتَحْلِي مَا يَضُرُّهُ وَمَا لَيْسَ فِيهِ حَلَاوَةٌ ؛ لِعَلَبَةِ السُّقْمِ عَلَيْهِ فَكَذَلِكَ الْقَلْبُ إِذَا يَجِدُ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ إِذَا سَلِمَ مِنْ أَسْقَامِهِ وَأَفَاتِهِ ، فَإِذَا سَلِمَ مِنْ مَرَضِ الْاِهْوَاءِ الْمُضِلَّةِ وَالشَّهَوَاتِ الْمُحَرِّمَةِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حِينَئِذٍ ، وَمَتَى مَرِضَ وَسَقُمَ لَمْ يَجِدْ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ بَلْ يَسْتَحْلِي مَا فِيهِ هَلَاكُهُ مِنَ الْاِهْوَاءِ وَالْمَعَاصِي)^(٤) وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (فَحَلَاوَةُ الْإِيمَانِ الْمُتَضَمِّنَةُ لِلذِّدَّةِ وَالْفَرَحِ تَتَّبَعُ كَمَالَ مَحَبَّةِ الْعَبْدِ لِلَّهِ وَذَلِكَ بِثَلَاثَةِ أُمُورٍ : تَكْمِيلُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَتَفْرِيعُهَا وَدَفْعُ ضِدِّهَا ، فَتَكْمِيلُهَا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان - باب حلاوة الإيمان (١٦) ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان خصال من اتصف بها وجد حلاوة الإيمان (٤٣).

(٢) شرح النووي على مسلم، ١٣/٢، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢

(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثمّ الدمشقي الحنبلي الحافظ زين الدين.

(٤) فتح الباري لابن رجب ٥٠/١

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، فَإِنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يُكْتَفَى فِيهَا بِأَصْلِ الْحَبِّ ، بَلْ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ
أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَتَفَرُّعُهَا أَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا اللَّهُ ، فَإِنَّ مِنْ تَمَامِ مَحَبَّةِ الْمَحْبُوبِ مَحَبَّةَ مُحَبِّهِ ،
وَدَفْعَ ضِدِّهَا أَنْ يَكْرَهُ ضِدَّ الْإِيمَانِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ ، وَإِنَّمَا كَرِهَ ضِدَّ! الْإِيمَانِ لِمَا قَامَ بِقَلْبِهِ مِنْ
مَحَبَّةِ مُحَاسِنِ الْإِسْلَامِ ^(١).

قوله: (بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ) فِيهَا : رَدُّ عَلَى مَنْ تَوَهَّمَ أَنَّ صُدُورَ الذَّنْبِ مِنَ الْعَبْدِ نَقْصٌ فِي حَقِّهِ وَإِنْ
تَابَ مِنْهُ. وَفِي رِوَايَةٍ " لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى. " إِلَى آخِرِهِ ^(٢)، هَذِهِ الرِّوَايَةُ نَفَتْ بِمَنْطُوقِهَا وَجُودَ
حَلَاوَةِ الْإِيمَانِ عَمَّنْ لَمْ يَتَّصِفْ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: (مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ،
وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وَلَايَةُ اللَّهِ بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ
- حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ
شَيْئًا) ^(٣). رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ]

هذا الأثر ضعيف، وعلته ليث بن أبي سليم. لكنَّ صَحَّحَ مِنَ السُّنَّةِ مَا يُغْنِي عَنْهُ فَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ، عَنْ النَّبِيِّ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدْ اسْتَكْمَلَ
الْإِيمَانَ» رواه أبوداود ^(٤)، وَمَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ أَيْ لِبَطَاعَتِهِ وَإِيمَانِهِ لَا لِحُظِّ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَبْغَضَ لِلَّهِ تَعَالَى أَيْ
لِكُفْرِهِ وَعِصْيَانِهِ ، لَا لِإِيذَائِهِ لَهُ ، وَيُعْطِي مَا يُعْطِي لِثَوَابِ اللَّهِ تَعَالَى وَرِضَاهُ ، لَا لِمِيلِ نَفْسِهِ وَرِثَائِهِ ،
وَيَمْنَعُ مَنْ يَمْنَعُ لِأَمْرِ اللَّهِ ، لَا لِكِرَاهِيَّتِهِ لَهُ.

(١) الفتاوى الكبرى، ١٩٦/٥، الناشر: دار المعرفة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٨٦، تحقيق: حسين محمد مخلوف.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأدب - باب الحب في الله (٦٠٤١).

(٣) أخرجه العدني في «الإيمان» (ص ١٨)، والطبراني في الكبير: (١٣٥٣٧).

(٤) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٨١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ ^(١)] قَالَ:
[الْمَوَدَّةُ].

وَالْمَوَدَّةُ أَيُّ : الْمَحَبَّةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا تَقَطَّعَتْ بِهِمْ وَخَانَتْهُمْ أَحْوَجَ مَا كَانُوا إِلَيْهَا ، فَهَذَا
حَالٌ مَنْ كَانَتْ مَوَدَّتُهُ لِعَیْرِ اللَّهِ .



(١) أخرجه ابن جرير (٢٧/٣) وابن أبي حاتم في تفسيره (٢٧٨/١) والحاكم (٢٧٢/٢) .

[٣٢]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾
مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَكَلَّمَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ عَنِ الْمَحَبَّةِ ، وَهِيَ أَحَدُ
أَرْكَانِ الْعِبَادَةِ الْقَلْبِيَّةِ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَ الْجَمَاعَةِ فَنَاسَبَ أَنْ يَذْكُرَ بَقِيَّتَهَا وَهِيَ الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ ، وَزَعَمَتْ
الصُّوفِيَّةُ أَنَّهَا تَعْبُدُ اللَّهَ بِالْمَحَبَّةِ فَقَطْ! وَهَذَا مَعَ أَنَّهُ زَنَدَقَةٌ ، فَهُوَ كَذِبٌ لَا حَقِيقَةَ لَهُ ، وَعَبَدَتِ الْخَوَارِجُ
اللَّهَ بِالْخَوْفِ فَقَطْ ، كَمَا أَنَّ الْمُرْجِيَّةَ يَعْبُدُونَ اللَّهَ بِالرَّجَاءِ فَقَطْ ، وَاتَّسَعَتْ قُلُوبُ أَهْلِ السُّنَّةِ لِلْإِرْكَانِ
الثَّلَاثَةِ فَعَبَدُوا اللَّهَ بِالْمَحَبَّةِ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ .

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (الْخَوْفُ: وَهُوَ اضْطِرَابُ الْقَلْبِ وَحَرَكَتُهُ مِنْ تَذَكُّرِ الْمُخَوِّفِ - بِفَتْحٍ فَضَمٍّ
(١)-).

وَهُوَ ثَلَاثَةٌ أَقْسَامُ :

- ١- خَوْفٌ هُوَ عِبَادَةٌ : وَهُوَ الَّذِي يَحْجُزُ الْعَبْدَ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ .
- ٢- خَوْفٌ شِرْكِي وَهُوَ مَا يُعْرِفُ بِخَوْفِ السِّرِّ وَهُوَ أَنْ يَخَافَ الْمَخْلُوقُ مِنْ مَخْلُوقٍ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ
ظَاهِرٍ أَوْ هُوَ الْخَوْفُ مِنْهُ فِي أَمْرٍ لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ.
- ٣- خَوْفٌ طَبْعِي كَالْخَوْفِ مِنَ الْعَدُوِّ . وَهَذَا الْآخِرُ مُبَاحٌ إِلَّا إِذَا حَمَلَ عَلَى تَرْكِ وَاجِبٍ أَوْ فِعْلٍ
مُحَرَّمٍ ، فَيَحْرُمُ إِذَا لَمْ يَكُنْ الْعَبْدُ مُكْرَهًا ، وَفِي الْحَدِيثِ : (لَا يَمْنَعَنَّ رَجُلًا هَيْبَةُ النَّاسِ أَنْ يَقُولَ
بِحَقِّ إِذَا عَلِمَهُ أَوْ شَهِدَهُ أَوْ سَمِعَهُ) (١).

وَمَعْنَى الْآيَةِ الْمُرْجَمِ بِهَا (يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ) أَي : يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَائِهِ ، فَمَفْعُولُ يُخَوِّفُ الثَّانِي مَخْدُوفٌ . قَالَ
ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - :

(١) مدارج السالكين، ٥١٢/١، ط: ، ١٣٩٣ - ١٩٧٣، تحقيق: محمد حامد الفقي.

(٢) أخرجه ابن ماجه برقم: (٤٠٠٧) وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٦٨).

[32] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

(وَمِنْ كَيْدِ عَدُوِّ اللَّهِ أَنْ يُخَوِّفَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ جُنْدِهِ وَأَوْلِيَائِهِ ،... وَكُلَّمَا قَوِيَ إِيْمَانُ الْعَبْدِ زَالَ مِنْ قَلْبِهِ خَوْفُ أَوْلِيَائِ الشَّيْطَانِ ، وَكُلَّمَا ضَعُفَ إِيْمَانُ الْعَبْدِ قَوِيَ خَوْفُهُ مِنْهُمْ)^(١) فَأَمَرَ اللَّهُ بِإِخْلَاصِ الْخَوْفِ لَهُ وَأَخْبَرَ أَنَّ ذَلِكَ شَرْطٌ فِي الْإِيْمَانِ ، فَمَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَأْتِ بِالْإِيْمَانِ الْوَاجِبِ ، فَفِيهِ : أَنَّ إِخْلَاصَ الْخَوْفِ لِلَّهِ مِنَ الْفَرَائِضِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾]^(٢)

(إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ) هَذَا يَشْمَلُ الْعِمَارَتَيْنِ الْحِسِّيَّةَ وَالْمَعْنَوِيَّةَ (مِنْ آمَنِ بِاللَّهِ) أَيِ : وَحَدَ اللَّهُ ، فَإِنَّ الْمُشْرِكَ وَإِنْ عَمَّرَ الْمَسْجِدَ فَلَا حَقِيقَةَ لِعَمَلِهِ ، لَذَلِكَ نَفَى اللَّهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ عِمَارَتَهُمَ لِلْمَسْجِدِ فَقَالَ (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ) قَوْلُهُ : (وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) يَدْخُلُ فِيهِ الْإِيْمَانُ بِكُلِّ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ مِمَّا يَكُونُ بَعْدَ الْمَوْتِ^(٣)

وَكَثِيرٌ مَا يُقَرَّنُ اللَّهُ بَيْنَ الْإِيْمَانِ بِهِ وَالْإِيْمَانِ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ ؛ لِأَنَّ الْإِيْمَانَ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ هُوَ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ . (وَأَقَامَ الصَّلَاةَ) أَيِ : أَدَاَهَا تَامَّةً شُرُوطُهَا وَأَرْكَانُهَا وَوَاجِبَاتُهَا ، (وَآتَى الزَّكَاةَ) مُسْتَحَقِّهَا . (وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ) الْحَشْيَةُ أَعْظَمُ مِنَ الْخَوْفِ ، إِذْ هِيَ خَوْفٌ مَعَ الْعِلْمِ وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ . فَاَلْمُؤْمِنُ يُفَرِّدُ اللَّهَ بِالْخَشْيَةِ (فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : (وَكُلُّ " عَسَى " فِي الْقُرْآنِ فَهِيَ

(١) إغاثة اللفهان، ١/ ١١٠، الناش، ١٣٩٣ - ١٩٧٣، تحقيق: محمد حامد الفقي .

(٢) سورة التوبة الآية: ١٨ .

(٣) أفاده شيخ الإسلام، كما في العقيدة الواسطية، ص: ٨ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
وَاجِبَةٌ^(١) أَي: أَوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ حَقًّا. وَإِنَّمَا عَبَّرَ بِعَسَى لِأَنَّ الْعَمَلَ الظَّاهِرَ قَدْ تَصَيَّبَهُ آفَاتٌ فَتَحْبِطُهُ
كَالْعَجَبِ وَالرِّيَاءِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً
لِّلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾^(٢)]

(وَمِنَ النَّاسِ) أَي: بَعْضُهُمْ يَقُولُ آمَنَّا فَهُوَ آمَنٌ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يُخَالِطُ الْإِيمَانُ بِشَاشَةً قَلْبِهِ. (فَإِذَا أُوذِيَ فِي
اللَّهِ) وَ هَذِهِ سُنَّةٌ كَوْنِيَّةٌ لَا تَتَغَيَّرُ ، فَإِنَّ كُلَّ مَنْ قَالَ آمَنْتُ بِاللَّهِ ابْتِلَاؤُهُ بِاللَّهِ ، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ
- (فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَدْيُ الطَّيْعِ لَا بُدَّ لَهُ أَنْ يَعْيشَ مَعَ النَّاسِ ، وَالنَّاسُ لَهُمْ إِرَادَاتٌ وَتَصَوُّرَاتٌ ، فَيَطْلُبُونَ
مِنْهُ أَنْ يُوَافِقَهُمْ عَلَيْهَا ، وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ آذَوْهُ وَعَدَّبُوهُ ،...، فَالْمُؤْمِنُونَ لِكَمَالِ بَصِيرَتِهِمْ فَرُّوا مِنْ أَلَمِ
عَذَابِ اللَّهِ إِلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ، وَتَحَمَّلُوا مَا فِيهِ مِنَ الْأَلَمِ الزَّائِلِ الْمُفَارِقِ عَنْ قُرْبٍ ، وَهَذَا لِضَعْفِ بَصِيرَتِهِ فَرَّ
مِنْ أَلَمِ أَعْدَاءِ الرَّسْلِ إِلَى مُوَافَقَتِهِمْ وَمُتَابَعَتِهِمْ ، فَقَرَّ مِنْ أَلَمِ عَذَابِهِمْ إِلَى أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ ، فَجَعَلَ أَلَمَ فِتْنَةِ
النَّاسِ فِي الْفِرَارِ مِنْهُ بِمَنْزِلَةِ أَلَمِ عَذَابِ اللَّهِ ، وَعَبَّنَ كُلَّ الْعَبْنِ إِذْ اسْتَجَارَ مِنَ الرَّمْضَاءِ بِالنَّارِ ، وَفَرَّ مِنْ أَلَمِ
سَاعَةِ إِلَى أَلَمِ الْأَبَدِ ، وَإِذَا نَصَرَ اللَّهُ جُنْدَهُ وَأَوْلِيَاءَهُ قَالَ : إِيَّيْ كُنْتُ مَعَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا انْطَوَى عَلَيْهِ
صَدْرُهُ مِنَ التِّقَاقِ). وَفِي الْآيَةِ رَدٌّ عَلَى الْمُرْجِيَّةِ وَالْكَرَامِيَّةِ ، وَوَجْهُهُ أَنَّه لَمْ يَنْفَعْ قَوْلُهُمْ آمَنَّا بِاللَّهِ ؛ فَلَا
يَنْفَعُ الْقَوْلُ وَالتَّصَدِيقُ بِدُونِ الْعَمَلِ ، فَلَا يَصْدُقُ الْإِيمَانُ الشَّرْعِيُّ إِلَّا بِاجْتِمَاعِ الثَّلَاثَةِ : التَّصَدِيقُ وَالْعَمَلُ
وَالْقَوْلُ ، وَفِيهَا الْخَوْفُ مِنْ مُدَاهَنَةِ الْخَلْقِ فِي الْحَقِّ ، وَفِيهَا الْأَسْتِعْدَادُ لِلْبَلَاءِ إِذْ لَا بَدَ مِنْهُ لِلْعَبْدِ مَعَ سُؤَالِ
اللَّهِ الْعَافِيَةِ

(١) تفسير ابن كثير، ط ٢: ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، (٤/١٢١).

(٢) سورة العنكبوت الآية: ١٠.

(٣) زاد المعاد، ٤/٣.

===== [32] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ، إِنَّ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْرُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهِ ^(١)]

رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي الْحِلْيَةِ وَالْبَيْهَقِيُّ فِي شُعَبِ الْإِيمَانِ وَقَدْ حَكَمَ عَلَيْهِ الْعَلَامَةُ الْأَلْبَانِيُّ بِالْوَضْعِ ، وَذَكَرَ أَنَّ آفَتَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مَرْوَانَ السُّدِّيُّ وَهُوَ مَتَّهُمْ بِالْكَذِبِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ» ^(٢) رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.]

رَوَى التِّرْمِذِيُّ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ قَالَ : (كَتَبْتُ مُعَاوِيَةَ إِلَى عَائِشَةَ أَنْ أَكْتُبَ لِي كِتَابًا تُوصِينِي فِيهِ وَلَا تُكْثِرِي عَلَيَّ ، فَكَتَبَتْ عَائِشَةُ إِلَى مُعَاوِيَةَ : سَلَامٌ عَلَيْكَ أَمَّا بَعْدُ : فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : (مَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤْنَةَ النَّاسِ وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَاءَ النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ وَ السَّلَامُ عَلَيْكَ) ^(٣) . (مَنْ التَّمَسَّ) أَي: طَلَبَ، (رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ) وَإِنَّمَا يُطْلَبُ رِضَا اللَّهِ بِالْعَمَلِ بِمَرْضَاتِهِ، قَوْلُهُ "رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ" لِأَنَّهُ طَلَبَ رِضَاءَهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى لَا أَكْرَمَ مِنْهُ، (وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ) وَإِنْ لَمْ يُطْلَبْ ذَلِكَ. وَهَذَا تَفَضُّلٌ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَفِي الْحَدِيثِ وَجُوبُ التَّمَسِّ رِضَا اللَّهِ ، وَ فِيهِ أَنَّهُ لَا يُنْتَفَعُ مِنَ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ الَّتِي تَدْفَعُ سَخَطَ النَّاسِ لَكِنْ بِدُونِ سَخَطِ اللَّهِ . وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ : (بِسَخَطِ النَّاسِ) لِلْعَوَظِ وَالْمُقَابَلَةِ ، قَوْلُهُ : (وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «حلية الأولياء» (١٠٦/٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠٧/٢٢١/١)، راجع الضعيفة برقم:)

(٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٤٧/١). ورواه الترمذي في السنن وصححه الألباني في الصحيحة برقم (٢٣١١).

(٣) أخرجه الترمذي، برقم: (٢٤١٤) وصححه الألباني في صحيح الترمذي والتهذيب برقم: (٢٢٥٠).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

النَّاسِ) قَوْلُهُ (سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِ) لِأَنَّهُ لَمْ يَطْلُبْ رِضَاهُ وَلَمْ يَبَالِ بِهِ (وَأَسَخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ) لِأَنَّهُ طَلَبَ رِضَاهُمْ بِطَرِيقٍ غَيْرِ مَشْرُوعٍ ، فَعَامَلَهُ اللَّهُ بِتَقْيِضِ قَضَائِهِ ، وَالْوَاجِبُ أَنْ يَطْلُبَ رِضَا اللَّهِ ، وَلَا يُبَالِي بِالنَّاسِ . قَالَ ابْنُ رَجَبٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فَمَنْ تَحَقَّقَ أَنَّ كُلَّ مَخْلُوقٍ فَوْقَ التُّرَابِ فَهُوَ تُرَابٌ ، فَكَيْفَ يُقَدِّمُ طَاعَةَ مَنْ هُوَ تُرَابٌ عَلَى طَاعَةِ رَبِّ الْأَرْبَابِ ، أَمْ كَيْفَ يُرْضِي التُّرَابَ بِسَخَطِ الْمَلِكِ الْوَهَّابِ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ)^(١) . وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ عُقُوبَةُ مَنْ آثَرَ رِضَا النَّاسِ عَلَى رِضَا اللَّهِ ، وَفِيهِ أَنَّ الْعُقُوبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الدِّينِ ، وَفِيهِ إِثْبَاتُ صِفَتِي السَّخَطِ وَالرِّضَا لِلَّهِ ، وَلَا نَقُولُ أَنَّ السَّخَطَ وَالْعُصْبَ عَلَى أَنْ دَمَ الْقَلْبِ ؛ لِأَنَّ هَذَا إِيمًا هُوَ سَخَطُ الْمَخْلُوقِ .



(١) مجموع رسائل ابن رجب ٣ / ١٤٢ ضمن شرح حديث ابن عباس .

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ دَوَاءٌ لِلْخَوْفِ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ الشَّرَكِيِّ وَ الْحَرَمِ مِنْهُ ، فَبَعْدَ أَنْ شَخَّصَ الدَّاءَ نَاسَبَ أَنْ يُبَيِّنَ الدَّوَاءَ . (فَتَوَكَّلُوا) التَّوَكُّلُ : صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ الدِّيْنِيَّةِ وَالْدُّنْيَوِيَّةِ مَعَ بَذْلِ الْاَسْبَابِ . وَقِيلَ هُوَ بَذْلُ الْاَسْبَابِ مَعَ قَطْعِ النَّظَرِ عَنْهَا . وَقَطْعُ النَّظَرِ عَنِ الْاَسْبَابِ هُوَ صِدْقُ اعْتِمَادِ الْقَلْبِ عَلَى اللَّهِ . لَكِنْ الْاَعْتِمَادُ عَلَى الْاَسْبَابِ شِرْكٌ خَفِيٌّ كَمَا أَنَّ تَرْكَ الْاَسْبَابِ سَفَهٌ فِي الْعَقْلِ وَكَذِبٌ لَيْسَ لَهُ حَقِيقَةٌ .

وَحَقِيقَتُهُ مَعْنَى التَّوَكُّلِ تَلْتِمُسُ مِنْ جَمْعٍ التَّفْوِيزِ وَالْاَعْتِمَادِ .

وَهُنَاكَ صُورَةٌ تَقْرُبُ مَعْنَى التَّوَكُّلِ وَهِيَ لَوْ أَنَّ طِفْلاً خَرَجَ مَعَ أَبِيهِ فِي أَرْضٍ مَهْلِكَةٍ فَإِنَّ هَذَا الطِّفْلَ سَيَفْوِضُ أَمْرَهُ لِوَالِدِهِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ أَبَاهُ لَوْ تَخَلَّى عَنْهُ لَهَلَكَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ أَبَاهُ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَخَلَّى عَنْهُ لِأَنَّهُ يُحِبُّهُ وَيُحِبُّ لَهُ الْخَيْرَ كَمَا أَنَّهُ يَعْتَقِدُ أَنَّ أَبَاهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَحْمِيَهُ وَيُدْفِعَ عَنْهُ كُلَّ مَكْرُوهِ هَذَا هُوَ حَالُ الْعَبْدِ الْمُتَوَكِّلِ عَلَى اللَّهِ . بَلْ هُوَ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ لِعَظِيمِ ثِقَةِ الْمُؤْمِنِ بِاللَّهِ وَكَمَالِ مَعْرِفَتِهِ بِهِ

وَقَوْلُهُ (وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا) أَمْرٌ بِالتَّوَكُّلِ وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ عِبَادَةٌ ، وَقَدَّمَ الْجَارَ وَالْمَجْرُورَ : لِيَدُلَّ عَلَى وُجُوبِ إِفْرَادِ اللَّهِ بِالتَّوَكُّلِ ؛ لِأَنَّ تَقْدِيمَ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ يُفِيدُ الْحُضَرَ ، وَأَنَّ تَوَكُّلَ الْعَبْدِ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ فِيمَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا اللَّهُ شِرْكٌ أَكْبَرُ

قَوْلُهُ (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ التَّوَكُّلَ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الْإِيمَانِ ، وَيَدُلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ انْتِفَاءَهُ يَنْفِي أَصْلَ الْإِيمَانِ ، وَضَعْفُهُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الْإِيمَانِ .

مَسْأَلَةٌ:

لَا يَجُوزُ أَنْ تَقُولَ : تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ وَعَلَيْكَ ، وَلَا عَلَى اللَّهِ ثُمَّ عَلَى فُلَانٍ ، بَلْ تَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَحْدَهُ . وَإِنْ قَصَدَ أَنْ فُلَانًا سَبَبٌ فَيَنْبَغِي التَّنْبَهُ لِللَّفْظِ فَإِنَّهُ مُشْكِلٌ وَمُحْتَمِلٌ لِمَعْنَى فَاسِدَةٍ فَيَقُولُ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 ثُمَّ وَكَلْتُ هَذَا الْأَمْرَ إِلَى فُلَانٍ. وَمِثْلُهَا اعْتَمَدْتُ عَلَى اللَّهِ ثُمَّ عَلَيْكَ وَفِي الْآيَةِ : أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَسْبَابِ
 النَّصْرِ. قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (مَا رَجَا أَحَدٌ مَخْلُوقًا وَلَا تَوَكَّلَ عَلَيْهِ إِلَّا حَابَ ظَنُّهُ فِيهِ ، فَإِنَّهُ
 مُشْرِكٌ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ)^(١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَوْلُهُ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ
 عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾]^(٢)

يَقُولُ ابْنُ جَرِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَبِاللَّهِ يُؤْفِقُونَ أَنَّ قَضَاءَهُ فِيهِمْ ماضٍ ، فَلَا يَرْجُونَ غَيْرَهُ وَلَا يَرْهَبُونَ
 سِوَاهُ)^(٣) وَفِي الْآيَةِ تَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأَخِيرُ يُفِيدُ الْحَصْرَ أَيْ : لَا يَتَوَكَّلُونَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَفِي الْآيَةِ أَنَّ التَّوَكُّلَ
 مِنْ مَرَاتِبِ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ صَلَّى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾]^(٤)

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَيْ اللَّهُ وَحْدَهُ كَافِيكَ وَكَافِي أَتْبَاعِكَ فَلَا تَحْتَاجُونَ مَعَهُ إِلَى أَحَدٍ)^(٥) وَهَذَا
 تَتَبُّعٌ مُطَابَقَةٌ الْآيَةِ لِلتَّرْجَمَةِ ، فَإِذَا كَانَ هُوَ الْكَافِي لِعَبْدِهِ وَجَبَ أَلَّا يَتَوَكَّلَ إِلَّا عَلَيْهِ ، وَمَتَى انْتَفَتِ الْعَبْدُ
 بِقَلْبِهِ إِلَى سِوَاهُ ، وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى مَا انْتَفَتَ إِلَيْهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ : (مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وَكِلَإِلَيْهِ)^(٦) وَفِي الْآيَةِ أَنَّ
 الْكَفَايَةَ تَكُونُ بِحَسْبِ الْمُتَابَعَةِ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

(١) الفتاوى الكبرى، ٢٣١/٥ ، تحقيق : حسنين محمد مخلوف.

(٢) سورة الأنفال الآية: ٢.

(٣) تفسير الطبري، (٣٨٥/١٣).

(٤) سورة الأنفال الآية: ٦٤.

(٥) زاد المعاد، (٣٥ / ١) .

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٠/٤)، والترمذي في كتاب الطب - باب ماجاء في كراهية التعليق (٢٠٧٢)، وحسنه الألباني في «غاية المرام» برقم: (٢٩٧).

===== [٣٣] باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ ^(١)]

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (كَافِيهِ ، وَمَنْ كَانَ اللَّهُ كَافِيَهُ وَوَاقِيَهُ فَلَا مَطْمَعَ فِيهِ لِعَدُوِّهِ ، وَلَا يَضُرُّهُ إِلَّا أَذًى لَا بَدَّ مِنْهُ كَالْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالْجُوعِ وَالْعَطَشِ) ^(٢) ، وَمَقْهُوْمُ الْآيَةِ : أَنَّ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ خُذَلَ ، وَفِيهَا : فَضِيلَةُ التَّوَكُّلِ وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ الْأَسْبَابِ فِي جَلْبِ الْمَنَافِعِ وَدَفْعِ الْمَضَارِّ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ تَعَالَى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ^(٣) . قَالَهَا

إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ

النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ ^(٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَالتَّسَائِيُّ .]

هَذَا الْأَثَرُ لَا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ ، فَلَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ (حَسْبُنَا اللَّهُ) أَيُّ كَافِيْنَا فَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ . (وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) اللَّهُ . نِعْمَ الْمُتَوَكَّلُ عَلَيْهِ . هَذَا مَدْحٌ وَثَنَاءٌ عَلَى الْمُتَوَكِّلِ عَلَيْهِ وَ لَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ أَهْلُ الثَّنَاءِ وَالْمَجْدِ وَالثَّنَاءُ بَيْنَ يَدَيِ الدُّعَاءِ مِنْ أَسْبَابِ الْإِجَابَةِ كَمَا أَنَّ هَذَا الْمَدْحُ وَالثَّنَاءُ يَبْعَثُ الطَّمَأْنِينَةَ فِي قَلْبِ الْعَبْدِ وَأَنَّ الْمُتَوَكِّلَ عَلَيْهِ جَلِيلُ الصِّفَاتِ عَظِيمُ النُّعُوتِ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَهُوَ حَسْبُ مَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَكَافِي مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ ، وَهُوَ الَّذِي يُؤَمِّنُ خَوْفَ الْخَائِفِ ، وَيُجِيرُ الْمُسْتَجِيرَ ، وَهُوَ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ، فَمَنْ تَوَلَّاهُ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ ، وَانْقَطَعَ بِكَلْبَتِهِ إِلَيْهِ حَفِظَهُ وَحَرَسَهُ ، وَصَانَهُ ، وَمَنْ خَافَهُ وَاتَّقَاهُ أَمِنَهُ بِمَا يَخَافُ وَيَحْذَرُ وَجَلَبَ إِلَيْهِ كُلُّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ مِنَ الْمَنَافِعِ) ^(٥) . قَوْلُهُ: (قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ) فِيهِ : أَنَّ قَوْلَ هَذِهِ الْكَلِمَةِ

(١) سورة الطلاق الآية: ٣ .

(٢) بدائع الفوائد، (٢/ ٤٦٥) .

(٣) سورة آل عمران الآية: ١٧٣ .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب { إِنْ النَّاسُ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ } (٤٥٦٣) .

(٥) بدائع الفوائد، (٢/ ٤٦٣) .

امْتَنِعْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
عِنْدَ الشَّدَائِدِ مِنْ سَنَنِ الْأَنْبِيَاءِ . وَقَالَهَا النَّبِيُّ ﷺ عِنْدَ مُنْصَرَفِهِ مِنْ أَحَدٍ ، لَمَّا بَلَغَهُ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ وَمَنْ
مَعَهُ قَدْ أَجْمَعُوا الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ ، وَفِيهَا : أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ
دَفْعِ الشَّرِّ .

[٣٤]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾.

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَقَدَ بَابَ التَّوَكُّلِ بَعْدَ بَابِ الْخَوْفِ لِيَدْفَعَ الْخَوْفَ الشِّرْكَى ، ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ لِیُبَيِّنَ وَجُوبَ الْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ ، فَذَكَرَ فِيهِ آيَةَ الْأَعْرَافِ تَحْذِيرًا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ بِالرَّجَاءِ فَقَطَّ ، وَذَكَرَ آيَةَ الْحَجَرِ تَحْذِيرًا مِنْ عِبَادَةِ اللَّهِ بِالْخَوْفِ فَقَطَّ . وَ مَعْنَى الْآيَةِ الْمُتَرْجِمِ بِهَا (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ) الِاسْتِفْهَامُ مَعْنَاهُ هُنَا الْإِنْكَارُ أَيْ كَيْفَ يَأْمَنُوا مَكْرَ اللَّهِ (الْأَمْنُ) ضِدُّ الْخَوْفِ ، وَ (مَكْرُ اللَّهِ) هُوَ إِيصَالُ الْعُقُوبَةِ إِلَى مَنْ يَسْتَحِقُّهَا مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، فَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ أَطْمِئْنَانٌ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْعُقُوبَةَ ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِنْ وَقُوعِهَا ، وَهُوَ مُسْتَلَزِمٌ لِلِاسْتِمْرَارِ عَلَى الْمَعَاصِي وَعَدَمُ التَّوْبَةِ . لِذَلِكَ أَخْبَرَ أَنَّهُ لَا يَأْمَنُ إِلَّا الْخَاسِرُونَ .

وَوَصَفُ اللَّهِ بِالْمَكْرِ إِنَّمَا يَكُونُ عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ ، فَاللَّهُ يَمْكُرُ بِمَنْ يَمْكُرُ بِأَوْلِيَائِهِ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ اسْمًا لِلَّهِ ، وَإِنَّمَا يُوصَفُ اللَّهُ بِهَا عَلَى وَجْهِ الْمُقَابَلَةِ ؛ لِأَنَّهَا فِي هَذِهِ الْحَالِ تَدُلُّ عَلَى كَمَالِ عِلْمِهِ وَعِزَّتِهِ وَقُدْرَتِهِ وَفَهْرِهِ .

"وَالْعَبْدُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ الْخَوْفِ ؛ لِأَنَّهُ إِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيمًا أَوْ مَائِلًا ، فَإِنْ كَانَ مَائِلًا فَخَوْفُهُ يَنْشَأُ مِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالْجَنَائَةِ وَتُبْحِهَا وَتَصْدِيقِهِ بِالْوَعِيدِ وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ ، أَمَّا إِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فَخَوْفُهُ مَعَ جَرَيَانِ الْأَنْفَاسِ وَمِنْشِئِهِ مِنْ عِلْمِهِ أَنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنَ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ . " أَفَادَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ . وَبُشْتَقَادُ مِنْ كَلَامِهِ أَنَّ سَبَبَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ جَهْلُ الْعَبْدِ بِرَبِّهِ ، وَجَهْلُهُ بِنَفْسِهِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وقوله: ﴿ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴾^(١)] .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

سَاقِ الْإِمَامُ هَذِهِ الْآيَةَ مَعَ الَّتِي قَبْلَهَا ؛ لِإِبْيَانِ أَنَّ الْخَوْفَ إِنَّمَا يَكُونُ بِقَدْرِ ، فَلَا يَجُوزُ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخَافَ حَتَّى يَقْنَطَ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ، بَلْ يَكُونُ خَائِفًا رَاجِيًا كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾^(١). فَالرَّجَاءُ مَعَ الْمَعْصِيَةِ وَتَرْكِ الطَّاعَةِ غُرُورٌ . وَالْقُنُوطُ هُوَ الْيَأْسُ بِحَيْثُ يَسْتَبْعِدُ حُصُولَ مَطْلُوبِهِ أَوْ كَشَفَ مَكْرُوبِهِ .

مَسْأَلَةٌ:

أَيُّهُمَا يُغْلِبُ الْخَوْفَ أَوْ الرَّجَاءُ ؟ التَّحْقِيقُ : أَنَّ يُقَالُ لَا يَخْلُو الْعَبْدُ مِنْ حَالَيْنِ : الْعَافِيَةُ أَوْ الْمَرَضُ ، وَفِي حَالِ الْعَافِيَةِ : إِنَّمَا أَنْ يَكُونَ مُسْتَقِيمًا أَوْ مَائِلًا . ، فَإِنْ كَانَ مَائِلًا غَلَبَ جَانِبُ الْخَوْفِ ؛ لِيَنْكَفَّ عَنِ الْمَعْصِيَةِ ، وَإِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فَيَكُونُ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ . وَفِي حَالِ الْمَرَضِ يُغْلِبُ جَانِبُ الرَّجَاءِ ؛ لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ : (لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ)^(٢)

وَمَعْنَى الْآيَةِ : (وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ) لَا أَحَدٌ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ؛ لِأَنَّ الْقُنُوطَ سُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ ، وَطَعْنٌ فِي قُدْرَةِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَالْمُؤْمِنُونَ أَبْعَدُ النَّاسِ عَنْ ذَلِكَ ؛ لِعِلْمِهِمْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ وَقُرْبِ رَحْمَتِهِ وَفَرَجِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ : « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الْكِبَائِرِ ؟ فَقَالَ : الشِّرْكُ بِاللَّهِ ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ »^(٣)]

(١) سورة الزمر الآية: ٩ .

(٢) أخرجه مسلم، باب الأمر بحسن الظن بالله تعالى عند الموت ، رقم: (٢٨٧٧) .

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٢/٢٥٣/١٣٠٢٣) موقوفًا، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (٢٠٥١) .

[34] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾

(الشِّرْكُ بِاللَّهِ) لَأَنَّ الشِّرْكَ تَنْقُصُ لِحَبَابِ الْإِلَهِ الْمُتَّفَرِّدِ بِالْكَمَالِ وَالنِّعَمِ. (وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ) هُوَ انْقِطَاعُ الْأَمَلِ وَرَوْحُ اللَّهِ فَرْجُهُ، وَسَبَبُهُ الْجَهْلُ بِفَضْلِ اللَّهِ وَسَعَةِ رَحْمَتِهِ. (وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ) هُوَ جَهْلٌ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَجَبَرُوتِهِ وَثِقَةٌ بِالنَّفْسِ الضَّعِيفَةِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: (أَكْبَرُ الْكِبَائِرِ الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ

اللَّهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ)^(١) رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.]
(الْكِبَائِرُ) جَمْعُ كَبِيرَةٍ وَهِيَ مَا رَتَّبَ عَلَيْهِ الشَّرْعُ عُقُوبَةً فِي الدُّنْيَا أَوْ الْآخِرَةِ أَوْ لَعَنَ صَاحِبَهَا. وَفِي الْأَثَرِ
إِرْشَادٌ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنَ الْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ. (وَالْقُنُوطُ وَالْيَأْسُ) بِمَعْنَى وَاحِدٍ إِذَا افْتَرَقَا، وَإِذَا اجْتَمَعَا افْتَرَقَا:
فَالْقُنُوطُ أَشَدُّ الْيَأْسِ^(٢)، وَالْيَأْسُ قَطْعُ الْأَمَلِ، فَالْقُنُوطُ أَحْصَى مِنَ الْيَأْسِ وَ قِيلَ: الْقُنُوطُ: الْيَأْسُ مِنْ
الْخَيْرِ. وَعَلَيْهِ فَالْيَأْسُ يَكُونُ فِي دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ مِنْ حَالِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ فَإِنَّ حُصُولَ الْوَلَدِ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ كَمَا أَنَّ لَفْظَ الْيَأْسِ هُوَ الَّذِي يُنَاسِبُ حَالَ يَغْفُوبَ عَلَيْهِ وَعَلَى
نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ فَإِنَّ رَدَّ اللَّهِ لِابْنِهِ لَهُ مِنْ دَفْعِ الْمَكْرُوهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى تَوْفِيقِهِ



(١) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠/٤٥٩/١٩٧٠)، وابن أبي الدنيا في «التوبة» (٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٧٨٤/١٥٦/٩).

(٢) أفاده ابن الأثير في النهاية (١٨٨/٤).

[٣٥]

بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلْأَبْوَابِ قَبْلَهُ : أَنَّ الْقُنُوطَ وَالْيَأْسَ وَالصَّبْرَ صِفَاتُ تَعَقُّبِ الْمُصِيبَةِ ، فَلَمَّا حَدَّثَ فِي الْبَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ مِنَ الْقُنُوطِ وَالْيَأْسِ ، نَاسَبَ أَنْ يُرْشِدَ الْخَلْقَ إِلَى الَّذِي يَنْبَغِي فِي هَذَا الْمَقَامِ وَهُوَ الصَّبْرُ . وَمَعْنَى التَّرْجِمَةِ : بَابٌ مِنْ شُعَبِ الْإِيمَانِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ وَالْإِيمَانُ : قَوْلٌ وَاعْتِقَادٌ وَعَمَلٌ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ وَالْجَوَارِحِ يَزِيدُ بِالطَّاعَةِ وَيَنْقُصُ بِالْمَعْصِيَةِ . وَالصَّبْرُ لَعَةً : هُوَ الْحَبْسُ ، وَشَرْعًا : قَالَ الْخَوَاصُّ : (الصَّبْرُ الثَّبَاتُ عَلَى أَحْكَامِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ)^(١) . وَمِنْ تَقْسِيمِ الصَّبْرِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَنْوَاعٍ : صَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهَا وَصَبْرٌ عَنِ الْمَعْصِيَةِ بِالْكَفِّ عَنْهَا وَصَبْرٌ عَلَى الْأَقْدَارِ الْمُؤَلِّمَةِ تَظْهَرُ مُطَابَقَةُ تَعْرِيفِ الْخَوَاصِّ لِلصَّبْرِ ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ هِيَ الدِّينُ كُلُّهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾]^(٢) .

أَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةِ : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (مَا نَافِيَةٌ ، وَ (مِنْ) زَائِدَةٌ إِغْرَابًا زَائِدَةٌ مَعْنَى ، مُصِيبَةٌ : نَكْرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ ، فَالْآيَةُ نَصٌّ فِي الْعُمُومِ ، فَإِنَّ جَمِيعَ الْمَصَائِبِ بِإِذْنِ اللَّهِ الْكَوْنِي . قَوْلُهُ : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ) أَيُّ : مَنْ يُؤْمِنْ بِأَنَّ اللَّهَ قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ ، وَأَنَّ قَضَاءَهُ عَلَى مُقْتَضَى حِكْمَتِهِ . (يَهْدِ قَلْبَهُ) أَيُّ : يَطْمِئِنُّ وَيَرْضَى بِمَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقَضَى . (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) تَنْبِيْهُ أَنَّ ذَلِكَ الْمَقْدَرُ إِنَّمَا صَدَرَ عَنْ عِلْمِهِ الْمُتَضَمِّنِ لِحِكْمَتِهِ سُبْحَانَهُ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ عَلَقَمَةُ "هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ"]^(٣) .

(١) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين لابن القيم .

(٢) سورة التغابن الآية : ١١ .

(عَلَقَمَةُ) هُوَ ابْنُ قَيْسٍ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ النَّحْعِيُّ ، تَابِعِيٌّ مُحْضَرٌ. (هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ الْمُصِيبَةُ) هَذَا تَفْسِيرٌ بِاللَّازِمِ ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ لَازِمَ الْإِيمَانِ الْعِلْمَ بِأَنَّهَا مِنَ اللَّهِ ، وَفَسَّرَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ الْآيَةَ عَلَى ظَاهِرِهَا فَجَعَلَ الصَّبْرَ ثَمَرَةَ الْإِيمَانِ، مَعَ مُلَاحَظَةِ أَنَّ الثَّمَرَةَ بَعْضُ الشَّيْءِ، وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَأَنَّ الْعَمَلَ مِنَ الْإِيمَانِ ، وَفِيهَا إِبْتِثَاتُ الْقَدْرِ ، وَفِيهَا أَنَّ مِنْ ثَمَرَاتِ الصَّبْرِ الْهِدَايَةَ، وَفِيهَا أَنَّ الْمَصَائِبَ كُلَّهَا مِنَ اللَّهِ ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ. الرِّضَا بِالْمُصِيبَةِ مُسْتَحَبٌّ ، وَبِقَدْرِ اللَّهِ وَاجِبٌ إِذْ لَا حِيلَةَ لِلْعَبْدِ إِلَّا التَّسْلِيمُ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (اِثْنَانِ فِي النَّاسِ هُمَا يَهْمُ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّبَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ) (١).]

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَام - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَاتَانِ الْخُصْلَتَانِ هُمَا كُفْرٌ قَائِمٌ بِالنَّاسِ ، فَنَفْسُ الْخُصْلَتَيْنِ كُفْرٌ ، حَيْثُ كَانَتَا فِي أَعْمَالِ الْكَفَّارِ ، وَهُمَا قَائِمَتَانِ بِالنَّاسِ ، وَلَكِنْ لَيْسَ مَنْ قَامَتْ بِهِ شُعْبَةٌ مِنْ شُعَبِ الْكُفْرِ يَصِيرُ كَافِرًا ، حَتَّى تَقُومَ بِهِ حَقِيقَةُ الْكُفْرِ) (٢)

(الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ) يَكُونُ بِعَيْنِهِ أَوْ بِالطَّعْنِ فِي صِحَّتِهِ ، (وَالنِّبَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ) هِيَ رَفْعُ الصَّوْتِ بِالْبُكَاءِ ، وَتَعْدَادُ فَصَائِلِ الْمَيِّتِ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : تَحْرِيمُ هَاتَيْنِ الْخُصْلَتَيْنِ ، وَوُجُوبُ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ مِنَ الْكُفْرِ مَا لَا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَأَنَّ الْكُفْرَ شُعْبٌ ، كَمَا أَنَّ الْإِيمَانَ شُعْبٌ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا : (لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) (٣).]

(١) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٤٢١/٢٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦٦/٤)، وفي «شعب الإيمان»

(٩٩٧٦/١٩٦/٧)، وصححه الشيخ سليمان آل الشيخ في تيسير العزيز الحميد ص: (٣٨٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان - باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنباحة (٦٧).

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، (١٤٥/٤).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز - باب ليس منا من ضرب الخدود (١٢٩٧)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب تحريم ضرب الخدود،

وشق الجيوب، والدعاء بدعوى الجاهلية (١٠٣).

(لَيْسَ مِنَّا) هَذَا مِنْ نُصُوصِ الْوَعِيدِ ، وَقَدْ جَاءَ عَنْ أَحْمَدَ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ كَرَاهَةً تَأْوِيلُهَا ؛ لِيَكُونَ أَوْقَعَ فِي النُّفُوسِ وَأَبْلَغَ فِي الرَّجْرِ ، وَمَعْنَى لَيْسَ مِنَّا أَيُّ : لَيْسَ مِنْ سُنَّتِنَا ، وَ لَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ لَيْسَ بِمُسْلِمٍ ، وَتَدُلُّ هَذِهِ الْكَلِمَةُ عَلَى أَنَّ الْفِعْلَ الْمُفْتَرَنَ بِهَا مِنَ الْكِبَائِرِ . (مَنْ ضَرَبَ الْحُدُودَ) أَيُّ : عِنْدَ الْمُصِيبَةِ ، وَبَقِيَّةُ الْجَسَدِ مِثْلُهُ فِي الْحُكْمِ ، إِنَّمَا خَصَّهُ لِأَنَّهُ الْعَالِبُ ، (وَشَقَّ الْجُيُوبَ) الْجَيْبُ هُوَ فَتْحَةُ الْعُنُقِ ، الَّتِي يُدْخَلُ مِنْهَا الرَّأْسُ ، (وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ) تَشْمَلُ كُلَّ دَعْوَةٍ مَنْشُوءَا الْجَهْلِ ، فَيَدْخُلُ فِيهَا نَدْبُ الْمَيِّتِ ، وَالِدَعْوَةُ إِلَى الْقَبِيلَةِ أَوْ الْحَزْبَةِ ، وَالْحَدِيثُ يَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ النِّيَاحَةِ لَا عَلَى تَحْرِيمِ الْبُكَاءِ فَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ: (إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ وَلَا نَقُولُ إِلَّا مَا يُرْضِي رَبَّنَا وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمَ لَحَزُونُونَ) ^(١)، وَقَدْ فَاضَتْ عَيْنَاهُ لَمَّا مَاتَ سَبَطُهُ فَقَالَ سَعْدٌ : مَا هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : قَالَ : (هَذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ فِي قُلُوبِ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءَ) ^(٢) أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُؤَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) ^(٣)] .
(إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا) وَهَنَاكَ خَيْرٌ مِنْ هَذِهِ الدَّرَجَةِ هِيَ أَنَّ يَعْفُوَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَالْعُقُوبَةُ : هِيَ الْمُؤَاحَذَةُ عَلَى الذَّنْبِ ، وَالْعُقُوبَةُ قَدْ تَكُونُ فِي النَّفْسِ أَوْ الْمَالِ أَوْ الْأَهْلِ وَأَعْظَمُهَا مَا كَانَ فِي الدِّينِ ، فَإِذَا اسْتَحْضَرَ الْعَبْدُ الْمُصَابَ أَنَّ اللَّهَ أَرَادَ بِهِ خَيْرًا بِتَقْدِيرِ هَذِهِ الْمُصِيبَةِ فَإِنَّهُ

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ، بَابُ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ إِنَّا بِكَ لَحَزُونُونَ وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ تَدْمَعُ الْعَيْنُ وَيَحْزَنُ الْقَلْبُ ، بِرَقْمٍ : (١٣٠٣) .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ، بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : (قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى) ، بِرَقْمٍ : (٧٣٧٧) ، وَمُسْلِمٌ ، بَابُ الْبُكَاءِ عَلَى الْمَيِّتِ ، بِرَقْمٍ : (٩٢٣) .

(٣) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ - بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ (٢٣٩٦) ، وَابْنُ مَاجَةَ فِي كِتَابِ الْفِتَنِ - بَابُ الصَّبْرِ عَلَى الْبَلَاءِ (٤٠٣١) ، وَحَسَنَةُ الشَّيْخِ الْأَلْبَانِيِّ فِي «صَحِيحِ الْجَامِعِ» (٢١١٠) .

يَتَحَلَّى بِالصَّبْرِ وَيَتْرُكُ التَّسَخُّطَ ، وَمَنْ فَعَلَ اللَّهُ بِهِ ذَلِكَ أَيُّ مِنْ عَجَلِ اللَّهِ لَهُ عَقُوبَتُهُ فِي الدُّنْيَا فَقَدْ أَعْظَمَ اللُّطْفَ بِهِ ؛ لِأَنَّ عُقُوبَةَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الْآخِرَةِ ، وَلِأَنَّ الْمُصِيبَةَ تَفْتَضِي الْإِنَابَةَ وَالنُّوْبَةَ ، فَهِيَ وَإِنْ كَانَتْ مُصِيبَةً دُنْيَوِيَّةً فَهِيَ نِعْمَةٌ دِينِيَّةٌ ، وَلِأَنَّهَا تَكْفُرُ السَّيِّئَاتِ وَتَرْفَعُ بِسَبَبِهَا الدَّرَجَاتِ وَيَخْصُلُ بِسَبَبِهَا الصَّبْرُ الَّذِي هُوَ عِبَادَةُ اللَّهِ ، وَهُوَ سَبَبُ الثَّنَاءِ وَالرَّحْمَةِ وَالْهُدَايَةِ مِنَ اللَّهِ ، قَالَ تَعَالَى : ﴿ أُولَئِكَ

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ ﴾^(١)

وَمِنْ حَسَنَاتِ الْمُصِيبَةِ أَنَّهَا تَدْعُو إِلَى التَّضَرُّعِ وَالِدُّعَاءِ ، فَهَذَا كُلُّهُ مِنَ الْخَيْرِ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ بِعَبْدِهِ يُنْزِلُ الْمُصِيبَةَ عَلَيْهِ . (وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ) فِيهِ : أَنَّ اللَّهَ يُرِيدُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ ، لَكِنَّ الشَّرَّ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ تَأْدِبًا ؛ وَلِأَنَّهُ يَقْدِّرُ الشَّرَّ لِلْخَيْرِ قَوْلُهُ (أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ) أَيُّ : لَمْ يُعَاقِبْهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا . قَوْلُهُ (حَتَّى يُؤَاتِي بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) أَيُّ : حَتَّى يَأْتِي بِذَنْبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الْبَلَاءَ بِالْمُؤْمِنِ مِنْ عِلَامَةِ الْخَيْرِ ، وَفِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى رَجَاءِ اللَّهِ وَحُسْنِ الظَّنِّ بِهِ ، فِيمَا يَقْضِي وَيُقَدِّرُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ»^(٢) حَسَنَهُ التِّرْمِذِيُّ .]

(إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ) إِذَا صَبَرَ وَاحْتَسَبَ ، وَفِيهَا مِنَ الْفَوَائِدِ : عَدَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَتَسْلِيَةً لِلْمُصَاحِبِ . (وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ) صَرِيحٌ فِي حُصُولِ الْإِبْتِلَاءِ لِمَنْ أَحَبَّهُمْ ، وَلَمَّا كَانَ الْأَنْبِيَاءُ أَفْضَلُ الْأَحْبَابِ كَانُوا أَشَدَّ بَلَاءً وَفِيهِ : إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ ، وَأَنَّهَا مِنَ الصِّفَاتِ الْفِعْلِيَّةِ ، (فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا) أَيُّ : مَنْ رَضِيَ بِقَدْرِ اللَّهِ وَلَمْ يَعْتَزْضِ عَلَى حُكْمِهِ . وَفِي الْجُمْلَةِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الرِّضَا

(١) سورة البقرة الآية: ١٥٧

(٢) أخرجه الترمذي برقم: (٢٣٩٦) وابن ماجه: (٤٠٣١)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٤٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
، وَالرِّضَا أَعْلَى دَرَجَةٍ مِنَ الصَّبْرِ فَهُوَ سُكُونُ الْقَلْبِ وَطُمَأْنِينَتُهُ وَسَلَامَتُهُ مِنْ مُنَازَعَةِ الْقَدْرِ^(١) وَفِيهِ : أَنَّ
الْجُزْءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ وَكَذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ إِثْبَاتُ صِفَةِ السُّحُطِ .



(١) أفاده الشيخ العصيمي .

[٣٦]

باب ما جاء في الرياء

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْإِمَامَ تَكَلَّمَ فِي الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ عَلَى أَعْمَالِ الْقُلُوبِ الَّتِي يَعْظُمُ بِسَبَبِهَا أَثَرُ أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ وَثَوَائِبُهَا وَأَجْرُهَا وَلَمَّا كَانَ الْإِخْلَاصُ شَرْطًا فِي قَبُولِ الْأَعْمَالِ نَاسَبَ أَنْ يُحَدِّثَ مِنْ ضَدِّهِ بِحَدِّهِ التَّرْجِمَةَ فَقَالَ: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ) أَيُّ: مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ فِي الرِّيَاءِ. وَالرِّيَاءُ: مَصْدَرُ رَاءَى يُرَائِي إِذَا قَصِدَ: رُؤْيَا النَّاسِ بِعَمَلِهِ. وَالسُّمْعَةُ: أَنْ يَقْصِدَ سَمَاعَهُمْ بِعَمَلِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ ^(١)].

قَالَ تَعَالَى: (قُلْ) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِلنَّاسِ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، وَأَمْرُهُ أَنْ يُؤَكِّدَ هَذِهِ الْبَشَرِيَّةَ بِالنَّبَتِ (مِثْلُكُمْ) أَيُّ: يَمْرُضُ وَيَحْزَنُ وَيَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَمُوتُ. قَوْلُهُ: (يُوحَىٰ إِلَيَّ) هَذَا هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَشَرِ. وَالْوَحْيُ: لُغَةٌ الْإِلَهَامُ، وَشَرْعًا: هُوَ إِعْلَامُ اللَّهِ بِالشَّرْعِ. (إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ) هَذَا أَعْظَمُ شَيْءٍ أُوحِيَ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ وَهُوَ أَنَّ الْمَعْبُودَ بِالْحَقِّ وَاحِدٌ. قَوْلُهُ: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ). الرَّجَاءُ: النَّظَرُ إِلَى سَعَةِ رَحْمَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. وَالْمُرَادُ بِاللِّقَاءِ هُنَا لِقَاءُ إِكْرَامٍ. قَوْلُهُ: (فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَادِقًا). فِيهِ أَنَّ الرَّجَاءَ مُسْتَلَزِمٌ لِلْعَمَلِ. وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ لَهُ شَرْطَانِ أَنْ يَكُونَ خَالِصًا وَأَنْ يَكُونَ صَوَابًا فَالْخَالِصُ: مَا قُصِدَ بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، وَالصَّوَابُ: مَا وَافَقَ السُّنَّةَ. قَوْلُهُ: (وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا): نَكِيرَةٌ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ فَتَعُمُّ كُلَّ أَحَدٍ، وَيَسْتَحْضِرُ الْعَبْدُ بَشَرِيَّةَ الْخَلْقِ، وَأَنَّهُمْ عِبِيدٌ مِّثْلُكُمْ؛ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْقَلْبِ شُكُّ غَيْرِ اللَّهِ عِنْدَ

(١) هو الفضيل بن عياض بن مسعود بن بشر أبو علي الإمام القدوة التميمي اليربوعي الخرساني.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
الْعَمَلِ. ^(١) وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ بَشَرِيَّةُ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَا تَشْرَعُ عِبَادَتُهُ وَفِيهَا أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ فَيَجِبُ تَعْظِيمُ
سُنَّتِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ
عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» ^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ].

هَذَا حَدِيثٌ إِبْرَاهِيمِي لَفْظُهُ وَمُعْنَاهُ مِنَ اللَّهِ . لَمَّا كَانَ الْمُرَائِي قَاصِدًا بِعَمَلِهِ اللَّهِ تَعَالَى وَغَيْرُهُ ، وَاللَّهُ تَعَالَى
غَنِيٌّ وَالشُّرَكَاءُ فَقَرَاءُ ، فَلَا يَلِيقُ بِكَرَمِهِ وَغِنَاهُ وَكِبْرِيَاءِهِ أَنْ يَقْبَلَ الْعَمَلُ الَّذِي عَمَلَهُ الْعَبْدُ وَأَشْرَكَ مَعَهُ فِيهِ ،
وَفِي الْحَدِيثِ بَيَانُ غِنَاهُ وَكِبْرِيَاءِهِ ، وَفِيهِ : تَحْرِيمُ الرِّيَاءِ ، وَبَرَاءَةُ اللَّهِ مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي فِيهِ شِرْكٌ ، وَإِثْبَاتُ
صِفَةِ الْقَوْلِ لِلَّهِ ، وَوَجُوبُ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَعَالَى .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أَخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ
الْمَسِيحِ الدَّجَالِ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ
نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ» ^(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ].

وَسَبَبُ وُجُودِ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ خَرَجَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَوَجَدَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ
الدَّجَالَ ، فَفِيهِ : مَا كَانَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ مِنْ تَذَاكُرِ أَمْرِ الْآخِرَةِ . فَذَكَرَ هَذَا الْحَدِيثَ ، (أَلَا) حَرْفُ
تَنْبِيهِ وَعَرَضٍ ، وَفِيهِ : التَّرَفُّقُ فِي التَّعْلِيمِ ، (أَخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخَوْفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي) فِيهِ : شَفَقَةُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أُمَّتِهِ ، وَفِيهِ خَوْفُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الدَّجَالِ ، لَكِنَّ
خَوْفَهُ عَلَيْهَا مِنَ الشِّرْكِ أَشَدُّ ؛ وَذَلِكَ لِخَفَائِهِ وَقُوَّةِ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَعُسْرِ التَّخَلُّصِ مِنْهُ ، وَفِيهِ خَطَرُ الرِّيَاءِ ؛

(١) أفاده الشيخ العصيمي .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق- باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠/٣) ، وابن ماجه في كتاب الزهد- باب الريا والسمة (٤٢٠٤)، وحسنه الألباني في «مشكاة
المصابيح» (٥٣٣٣).

إِذْ أَنَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ خَافَهُ عَلَى الصَّحَابَةِ فَعَيَّرُهُمْ أُولَى . وَ فِيهِ وَصَفُ الْمَسِيحِ بِصَفَتَيْنِ
 أُولَى : أَنَّهُ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ ، وَالثَّانِيَةُ أَنَّهُ دَجَالٌ : أَيُّ : كَذَّابٌ ، وَفِيهِ حِرْصُ الصَّحَابَةِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ
 - عَلَى الْعِلْمِ . وَأَنَّ مَنْ عَرَضَ عَلَيْكَ أَنْ يُخْبِرَكَ بِمَا تَحْتَاجُهُ مِنَ الْعِلْمِ فَيَنْبَغِي أَنْ تُقَابِلَهُ بِالْقَبُولِ . فِي قَوْلِهِ
 (الشِّرْكَ الحَقِيقِي) سَمَّاهُ خَفِيًّا ؛ لِأَنَّهُ يَقُولُ التَّنْبُؤَ لَهُ . وَسَمَّاهُ النَّبِيَّ ﷺ فِي حَدِيثٍ آخَرَ بِشِرْكَ السَّرَائِرِ فَقَالَ
 : (أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا شِرْكَ السَّرَائِرِ ؟ قَالَ : يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي
 فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ فَذَلِكَ شِرْكَ السَّرَائِرِ)^(١) . (يَقُومُ الرَّجُلُ) لَا مَفْهُومَ
 لِلرَّجُلِ هُنَا ، فَالْمَرْأَةُ أَيْضًا يَقَعُ مِنْهَا ذَلِكَ (فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ) أَيَّ يَحْسِنُهَا ، (لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ
) اللام للتعليل ، لِيُعْظِمَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ وَيَمْدَحُهُ لِلنَّاسِ : وَهَذَا تَفْسِيرٌ بِالْمِثَالِ ، وَفِيهِ : حُسْنُ تَعْلِيمِهِ عَلَيْهِ
 الصَّلَاةُ وَ السَّلَامُ .



(١) أخرجه ابن خزيمة، باب التغليظ في المراءاة بتزيين الصلاة وتحسينها، برقم: (٩٣٧)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب
 برقم: (٣١).

[٣٧]

بَابُ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الرِّيَاءِ وَهَذَا فِي إِرَادَةِ الْإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِهِ وَهُمَا يَجْتَمِعَانِ فِي الْعَمَلِ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَأَنْهُمَا شِرْكٌ خَفِيُّ إِلَّا أَنَّ إِرَادَةَ الدُّنْيَا أَعْمُ مِنَ الرِّيَاءِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : مِنَ الشِّرْكِ أَنَّ يُرِيدَ الْإِنْسَانُ الدُّنْيَا بِعَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الْآخِرَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾]

أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّكَارُ وَحَبِطَ مَا

صَنَعُوا فِيهَا وَبَطُلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾] .^(١)

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا) أَيُّ : يَفْضُلُهَا بِعَمَلِهِ ، (وَزِينَتَهَا) الْمَالُ وَالْبُنُونَ ، (نُوفٍ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ) أَيُّ : نُؤَدِّي إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ كَامِلًا ، (وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ) أَيُّ : لَا يُنْقُصُونَ . (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ) سِيَاقُ الْآيَةِ فِي الْكَفَّارِ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ أَعْمَالًا مَشْرُوعَةً كَالْتَّصَدُّقِ وَنَحْوِهِ ، وَتَشْمَلُ أَيْضًا الْمُسْلِمَ إِذَا أَرَادَ بِعَمَلِهِ الصَّالِحِ الدُّنْيَا ، (وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا) أَيُّ : فَسَدَ عَمَلُهُمْ إِذْ لَا ثَوَابَ لَهُمْ ، وَتَشْمَلُ الْآيَةُ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ غَيْرِ الَّذِي سَبَقَ ذَكَرَهُ :

١ - مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ رِيَاءً وَسَمْعَةً .

٢ - مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ لِكِنَّةٍ يُرِيدُ الْمَالَ فَقَطَّ كَالْحَاجِّ وَالْمُعَلِّمِ .

٣ - مَنْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ لِكِنْ قَامَ بِهِ نَاقِضٌ مِنْ نَوَاقِضِ الْإِسْلَامِ .

وَعَنْ شُعْبَةَ بْنِ مَاتِعٍ الْأَصْبَحِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَنَّهُ دَخَلَ الْمَدِينَةَ ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَدْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ، فَقَالَ : مَنْ هَذَا ؟ فَقَالُوا : أَبُو هُرَيْرَةَ ، فَدَنَوْتُ مِنْهُ ، حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَهُوَ يُحَدِّثُ النَّاسَ ، فَلَمَّا سَكَتَ وَخَلَا ، قُلْتُ لَهُ : أَسَأَلُكَ بِحَقِّ وَحَقٍّ ، لَمَّا حَدَّثْتَنِي حَدِيثًا سَمِعْتَهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -

عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، فقال أبو هريرة : أَفْعَلْ، لِأَحَدِثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، عَقَلْتُهُ وَعَلِمْتُهُ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً، فَمَكَّنُنَا قَلِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ، فَقَالَ: لِأَحَدِثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي هَذَا الْبَيْتِ، مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِهِ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً أُخْرَى، ثُمَّ أَفَاقَ وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: أَفْعَلْ، لِأَحَدِثْنَكَ حَدِيثًا حَدَّثَنِيهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ، أَنَا وَهُوَ فِي هَذَا الْبَيْتِ، مَا مَعَنَا أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرِهِ، ثُمَّ نَشَعَ أَبُو هُرَيْرَةَ نَشْعَةً شَدِيدَةً، ثُمَّ مَالَ حَارًّا عَلَى وَجْهِهِ، فَاسْتَدْنَتْهُ طَوِيلًا، ثُمَّ أَفَاقَ : فَقَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - : أَنَّ اللَّهَ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَنْزِلُ إِلَى الْعِبَادِ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأَوَّلُ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فيقولُ اللَّهُ للقارئِ: أَلَمْ أُعَلِّمَكَ مَا أَنْزَلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا عَلِمْتَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَآتَاءَ النَّهَارِ، فيقولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللَّهُ لَهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ قَارِئٌ، وَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ. وَيُؤْتَى بِصَاحِبِ الْمَالِ فيقولُ اللَّهُ: أَلَمْ أَوْسِّعْ عَلَيْكَ، حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجُ إِلَى أَحَدٍ؟ قَالَ: بَلَى، يَا رَبِّ، قَالَ: فَمَاذَا عَمِلْتَ فِيمَا آتَيْتُكَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَصِلُ الرَّحِمَ، وَأَتَصَدَّقُ، فيقولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَوَادٌ، فَقِيلَ ذَلِكَ. ثُمَّ يُؤْتَى بِالَّذِي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فيقولُ اللَّهُ: فِي مَاذَا قُتِلْتَ؟ فيقولُ: أَمَرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ، فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقولُ اللَّهُ لَهُ: كَذَبْتَ، وَتَقُولُ لَهُ الْمَلَائِكَةُ: كَذَبْتَ، ويقولُ اللَّهُ: بَلْ أَرَدْتُ أَنْ يُقَالَ: فَلَانٌ جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، ثُمَّ ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى رُكْبَتِي، فَقَالَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ تُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». قَالَ الْوَلِيدُ أَبُو عُثْمَانَ الْمَدَائِنِيُّ: فَأَخْبَرَنِي عَقَبَةُ بْنُ مُسْلِمٍ: أَنَّ شَقِيئًا هُوَ الَّذِي دَخَلَ عَلَى مُعَاوِيَةَ فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا. قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: وَحَدَّثَنِي الْعَلَاءُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ: «أَنَّهُ كَانَ سَيِّفًا لِمُعَاوِيَةَ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ رَجُلٌ، فَأَخْبَرَهُ بِهَذَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: قَدْ فَعَلَ بِهَؤُلَاءِ هَكَذَا، فَكَيْفَ يَمُنُّ بَقِي مِنَ النَّاسِ؟ ثُمَّ بَكَى مُعَاوِيَةُ بَكَاءً شَدِيدًا، حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ هَالِكٌ، وَفَلَّنَا: قَدْ جَاءَ هَذَا الرَّجُلُ بِشَرٍّ، ثُمَّ أَفَاقَ مُعَاوِيَةَ، وَمَسَحَ عَنْ وَجْهِهِ، وَقَالَ: صَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿ (١)﴾ (٢).

قَالَ الإمام - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْحَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضْيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ أَخَذَ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنَ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) (٣)] .

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَفِيهِ ذِكْرُ الْحَمِيلَةِ ، وَلَيْسَ فِيهِ ذِكْرُ الْقُطَيْبَةِ وَهِيَ : ثَوْبٌ لَهُ خَمَلٌ أَيْ : أَهْدَابٌ وَكِلَاهُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ . قوله: (تَعَسَّ) معناه : حَابَ وَهَلَكَ وَشَقِيَ (الدِّينَارِ) هُوَ النَّقْدُ الْمَضْرُوبُ مِنَ الذَّهَبِ ، (الدَّرْهَمِ) هُوَ النَّقْدُ الْمَضْرُوبُ مِنَ الْفِضَّةِ . (الْحَمِيصَةُ) ثَوْبٌ خِزٍ أَوْ صُوفٍ مُعَلِّمٍ ، وَلَا تُسَمَّى حَمِيصَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ سَوْدَاءَ مُعَلَّمَةٍ . قَالَهُ ابْنُ الْأَثِيرِ . وَإِنَّمَا سَمَّاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَبْدًا لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ ؛ لِأَنَّهَا هِيَ مَقْصُودُهُ وَمَطْلُوبُهُ الَّذِي عَمِلَ لَهُ وَسَعَى فِي تَحْصِيلِهِ بِكُلِّ مُمَكِّنٍ حَتَّى صَارَتْ نِيَّتُهُ مَقْصُورَةً عَلَيْهِ، يَغْضَبُ وَيَرْضَى لَهُ وَلَا يَعْمَلُ إِلَّا مِنْ أَجْلِهِ ، لَا تَتَحَرَّكُ هِمَّتُهُ إِلَّا بِهِ ، وَتَعَلَّقَ بِهِ تَعَلُّقُ الْعَبْدِ بِسَيِّدِهِ . (إِنْ أُعْطِيَ رِضْيَ ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ) هَذِهِ عَلَامَةُ عَبْدِ الدُّنْيَا فَيَرْضَى عَنِ اللَّهِ إِذَا فَتَحَ عَلَيْهِ مِنَ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَطُ إِنْ قَبْضَهَا عَنْهُ ، وَهَذَا حَالُهُ مَعَ خَلْقِ اللَّهِ ، أَمَّا الْمُؤْمِنُ إِنْ أُعْطِيَ شُكْرَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ صَبَرَ . (تَعَسَّ وَانْتَكَسَ) هَذَا دُعَاءٌ عَلَيْهِ مَرَّةً أُخْرَى ، أَيْ : تَعَسَّ مِنْ هَذَا قَصْدُهُ بِعَمَلِهِ ؛ لِأَنَّهُ يَذْهَبُ ثَوَابُهُ وَيَحْصُلُ لَهُ

(١) سورة هود الآية: ١٤-١٥ .

(٢) أخرجه الترمذي، باب ما جاء في الرياء والسمعة، برقم: (٢٣٨٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد والسير - باب الحراسة في الغزو في سبيل الله (٢٨٨٧).

الْإِثْمُ ، وَالْإِتِكَاسَةُ هِيَ عَوْدُ الْمَرَضِ بَعْدَ تَمَاقُلِ الشِّفَاءِ ، وَفِي الْعَادَةِ تَكُونُ أَشَدَّ مِنَ الْمَرَّةِ الْأُولَى ، (وَإِذَا شَيْكَ فَلَا انْتَقَشَ) أَيُّ : إِذَا أَصَابَتْهُ شَوْكَةٌ لَا أَخْرَجَهَا اللَّهُ مِنْهُ ، وَانْتَقَشَ اسْتَعْمَلَ الْمُنْقَاشَ فِي إِخْرَاجِ الشَّوْكَةِ وَالْمُرَادُ : لَا خَلَصَهُ اللَّهُ مِنْ أَذَى أَصَابَهُ ، وَقِيلَ الْمُرَادُ : إِذَا وَقَعَ فِي الْبَلَاءِ لَا يُتَرَحَّمُ عَلَيْهِ ، وَقِيلَ : مَعْنَاهَا أَنَّهُ لَا يَصْبِرُ عَلَى الْبَلَاءِ وَإِنْ كَانَ خَفِيفًا ، فَهَذِهِ حَالُ عَبْدِ الدُّنْيَا ، وَكُلُّ الْجَمَلِ السَّابِقَةِ تَحْتَمِلُ الدُّعَاءَ وَتَحْتَمِلُ الْحَزْبِيَّةَ . (طَوْبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانٍ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ) طَوْبَى : قِيلَ : شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ ، وَقِيلَ : هِيَ الْجَنَّةُ ، وَ هِيَ فِي اللُّغَةِ فُعْلَى مِنَ الطَّيْبِ أَيُّ : هُوَ فِي أَطْيَبِ حَالٍ (بِعِنَانٍ) وَالْعِنَانُ : حَبْلُ اللَّجَامِ ، فَفَرَّقَ بَيْنَ عَبْدِ الدُّنْيَا وَعَبْدِ اللَّهِ ، فَذَاكَ فِي تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ وَهَذَا فِي طَيْبٍ وَهَنَاءٍ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَلَا تَعَارُضَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَيَحْتَمِلُ عَلَى جَمِيعِ الْمَعَانِي وَهَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ وَأَنَّ مَنْ كَمَّلَ تَوْحِيدَهُ فَهُوَ فِي نَعِيمٍ تَامٍ وَمَنْ نَقَصَ تَوْحِيدَهُ نَقَصَ نَعِيمَهُ وَمَنْ لَمْ يُوْحِدِ اللَّهَ شَقِيَ شَقَاءَ

تَامًا وَكَانَ فِي جَحِيمٍ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤ ﴾ .

(أَشَعْتُ رَأْسَهُ ، مُعْبَرَةٌ قَدَمَاهُ) : (أَشَعْتُ) : أَيُّ غَيْرُ مُرْجَلِ الشَّعْرِ نَعْتُ ثَانِي لِلْعَبْدِ ، (مُعْبَرَةٌ) نَعْتُ ثَالِثٌ ، وَالنَّعْتُ الْأَوَّلُ (آخِذٍ بِعِنَانٍ فَرَسِهِ) . فَلِشِدَّةِ عِنَايَتِهِ وَانْشِغَالِهِ بِالْجِهَادِ غَيْرِ مُتَفَرِّغٍ لِلْعِنَايَةِ بِتَرْجِيلِ شَعْرِهِ وَكَهْنِهِ وَتَنْظِيفِ بَدَنِهِ ، وَلَيْسَ مَعْنَى هَذَا أَنَّهُ لَا يَعْتَنِي بِنَظَافَةِ ثَوْبِهِ وَبَدَنِهِ وَشَعْرِهِ لَكِنْ لَا يَشْتَغَلُ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَنْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَفِي الْجُمْلَةِ فَضْلُ الْعُبَارِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . قَوْلُهُ : (إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ) . (الْحِرَاسَةُ) هِيَ حِرَاسَةُ الْجَيْشِ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا . وَ (السَّاقَةُ) مُؤَخَّرَةُ الْجَيْشِ ؛ لِتَفَقُّدِ الضَّعِيفِ وَالْعَاجِزِ وَهَذَا مِنْ كَمَالِ إِخْلَاصِهِ فَلَا يَتَحَرَّى الْمَنَاصِبَ الْعَالِيَةَ ، وَتَرْكِيبُ الْجُمْلَتَيْنِ يَسْتَعْمِلُ فِي حَقِّ مَنْ قَامَ بِمَا أَسْنَدَ إِلَيْهِ عَلَى الْوَجْهِ الْأَتَمِّ وَالْأَكْمَلِ ، وَفِي الْجُمْلَةِ فَضْلُ الْحِرَاسَةِ وَالسَّاقَةِ . (إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ) أَيُّ : إِنْ اسْتَأْذَنَ عَلَى أَصْحَابِ الْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ لَمْ يُؤْذَنْ

امتناع أهل التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
لَهُ. (وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ) أَيْ إِنْ تَوَسَّطَ لِغَيْرِهِ زِدَّتْ شَفَاعَتُهُ ؛ لِأَنَّهُ مَعْمُورٌ غَيْرُ مَشْهُورٍ وَفِي الْحَدِيثِ
مِنَ الْفَوَائِدِ : تَرَكُ حُبَّ الرِّئَاسَةِ وَالشُّهُرَةِ ، وَفَضَلَ الْخُمُولِ وَالتَّوَاضُّعِ .



[٣٨]

بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ

فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : هَذَا شُرُوعٌ مِنَ الْإِمَامِ فِي مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ وَلَوْازِمِهِ إِذْ اخْتِصَّاصُ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ مِنْ لَوَازِمِ تَحْقِيقِ كَلِمَةِ التَّوْحِيدِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأَمْرَاءَ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ أَوْ تَحْرِيمِ الْحَالِلِ فَقَدْ جَعَلَهُمْ آلهَةً مَعَ اللَّهِ.

الْعُلَمَاءُ وَالْأَمْرَاءُ : هُمْ أُولُو الْأَمْرِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾^(١).

فَالْعُلَمَاءُ هُمْ أُولُو الْأَمْرِ فِي الدِّينِ ، وَالْأَمْرَاءُ هُمْ أُولُو الْأَمْرِ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّمَا جَبَّ طَاعَتُهُمْ إِذَا كَانَ الْعُلَمَاءُ مُبَلِّغِينَ أَمْرَ اللَّهِ ، وَكَانَ الْأَمْرَاءُ مُنْقِذِينَ لَهُ ، فَتَجَبَّ طَاعَتُهُمْ طَاعَةً لِلَّهِ وَرَسُولِهِ . لحديثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، قَالَ وَشَرَارُ أئِمَّتِكُمْ : الَّذِينَ تَبْغُضُونَهُمْ وَيَبْغُضُونَكُمْ ، وَتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ . « . قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! ، أَفَلَا نَنَابِذُهُمْ بِالسَّيْفِ ؟ . فَقَالَ : « مَا أَقَامُوا فِيكُمْ الصَّلَاةَ . وَإِذَا رَأَيْتُمْ مِنْ وَلَا تَكُمُ شَيْئًا تَكْرَهُونَهُ ، فَاكْرَهُوا عَمَلَهُ ، وَلَا تَنْزَعُوا يَدًا مِنْ طَاعَةٍ^(٢) فَإِذَا أَمَرُوا بِمَعْصِيَةٍ لَا طَاعَةَ لَهُمْ فِي مَا أَمَرُوا بِهِ وَلَكِنْ لَا يُجُوزُ الْخُرُوجُ عَلَيْهِمْ قَوْلُهُ : (فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ) : عَقِيدَةُ وَعَمَلًا ، (أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ) : عَقِيدَةُ وَعَمَلًا ، (فَقَدْ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا) أَي : آلهة .

(١) سورة النساء الآية : ٥٩ .

(٢) رواه مسلم .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!]^(١).

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ هَذَا الْكَلَامُ لَمَّا نَظَرَهُ بَعْضُهُمْ فِي مُنْعَةِ الْحِجِّ ، وَمَقْصُودُ ابْنِ عَبَّاسٍ : أَلَا يُعَارِضَ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الظَّاهِرُ مَعْنَاهُ بِقَوْلِ أَحَدِ كَائِنَا مَا كَانَ ، كَمَا قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَجْمَعَ الْعُلَمَاءُ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَبَانَتْ لَهُ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَنْ يَدْعَهَا لِقَوْلِ أَحَدٍ)^(٢). فَإِذَا كَانَ هَذَا كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ لِمَنْ عَارِضُهُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَهُمَا هُمَا فَمَا تَظُنُّهُ يَقُولُ بِمَنْ عَارِضَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِإِمَامِهِ وَصَاحِبِ مَذْهَبِهِ الَّذِي يَنْتَسِبُ إِلَيْهِ ، وَيَجْعَلُ قَوْلَهُ مِغْيَارًا لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، فَمَا وَافَقَهُ قَبْلَهُ وَمَا خَالَفَهُ رَدَّهُ أَوْ تَأَوَّلَهُ - وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ - .
وَمَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ :

فَإِنْ جَاءَهُمْ فِيهِ الدَّلِيلُ مُوَافِقًا *** لِمَا كَانَ لِلْأَبَاءِ إِلَيْهِ ذَهَابُ

قَضَوهُ وَإِلَّا قِيلَ هَذَا مُؤَوَّلٌ *** وَيُرْكَبُ لِلتَّأْوِيلِ فِيهِ صَعَابُ

وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ هُمَا خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا وَقَدْ حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى اتِّبَاعِهِمَا فَقَالَ : (فَإِنْ يُطِيعُوا أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ يَرْشُدُوا)^(٣). وَقَالَ : (اقْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي مِنْ أَصْحَابِي أَبِي بَكْرٍ وَ عُمَرُ .)^(٤)، وَقَالَ : (

(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٢٠/٢١٥)، وهذا اللفظ ذكره ابن القيم في «إعلام الموقعين» ولم يعزه لأحد، وقد صحح بلفظ: (والله ما أراكم منتهين حتى يعذبكم الله، نحدثكم عن رسول الله وتحدثونا عن أبي بكر وعمر) انظر إعلام الموقعين بتحقيق الشيخ مشهور (٣/٥٣٩).

(٢) نقله عنه ابن القيم في مواضع كثيرة من كتبه .

(٣) أخرجه مسلم، باب قضاء الصلاة الفائتة واستحباب تعجيل قضائها، برقم: (٦٨١).

(٤) كنز العمال في سنن الأفعال والآثار برقم: (٣٢٦٥٧)، وصححه الألباني في الصحيحة برقم: (١٢٣٣).

... وَقَالَ: (... فَعَلَيْكُمْ بَسَنَتِي وَسُنَّةُ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ) ^(١)، وَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْفَوَائِدِ :

١- التَّحْذِيرُ مِنَ التَّقْلِيدِ الْأَعْمَى وَالتَّعَصُّبِ الْمَذْهَبِيِّ.

٢- الْحُثُّ عَلَى إِتْبَاعِ الشَّرْعِ وَالْحَذَرُ مِنْ إِتْبَاعِ الرِّجَالِ فِيمَا يُخَالِفُ الشَّرْعَ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: "عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ^(٢) أَتَدْرِي مَا الْفِتْنَةُ؟ الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ] ^(٣).

(عَجِبْتُ لِقَوْمٍ) الْعَجَبُ نَوْعَانِ : عَجَبٌ اسْتِحْسَانٍ وَعَجَبٌ إِنْكَارٍ ، وَكَلَامُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ هُنَا مِنْ عَجَبِ الْإِنْكَارِ. (عَرَفُوا الْإِسْنَادَ وَصَحَّتْهُ) فِيهِ : أَنَّ الَّذِينَ بَلَغَهُمْ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ فِي الْمَسْأَلَةِ الْمَعِينَةِ فَأَلْوَاجِبُ عَلَيْهِمُ الْأَخْذَ بِالْدَّلِيلِ. (وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ) سُفْيَانُ: هُوَ الْإِمَامُ الْفَقِيهُ الرَّاهِدُ ابْنُ سَعِيدٍ بْنُ مَسْرُوقِ الثَّوْرِيِّ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ ضَمَّنَ الْفِعْلُ يُخَالِفُونَ مَعْنَى يُعْرِضُونَ ؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ خَالَفَ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ، (الْفِتْنَةُ الشِّرْكُ) بِدَلِيلِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ ^(٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ ^(٥) (لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضُ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكُ) هَذَا تَنْبِيهُ عَلَى أَنَّ رَدَّ قَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ

(١) أخرجه أبوداود، باب لزوم السنة، برقم: (٤٦٠٩)، وصححه الألباني في المشكاة برقم: (١٦٥).

(٢) سورة النور الآية: ٦٣.

(٣) انظر «تيسير العزيز الحميد» (ص ٤٨٣)، وانظر الإبانة الكبرى رقم: (٩٧) ومسائل عبد الله (١٣٥٥/٣).

(٤) سورة البقرة الآية: ١٩٣.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢١٧.

امتناع أهل التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 ﷺ سَبَبٌ لِرِزْقِ الْقَلْبِ الَّذِي هُوَ سَبَبٌ لِلْهَلَاكِ ، فَإِذَا كَانَتْ إِسَاءَةُ الْأَدَبِ مَعَهُ يَرْفَعُ الصَّوْتِ سَبَبٌ
 لِحُبُوطِ الْأَعْمَالِ فَرَدُّ قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَعْظَمُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا
 أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ
 وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ ^(١) . فَمَا ظَنُّكَ بِرَدِّ أَحْكَامِهِ وَسُنَّتِهِ لِقَوْلِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ كَائِنًا مَنْ كَانَ ، وَفِي كَلَامِ
 الْإِمَامِ أَحْمَدَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ التَّقْلِيدَ قَبْلَ بُلُوغِ الْحُجَّةِ جَائِزٌ ، وَإِنَّمَا الْمَذْمُومُ الْإِقَامَةُ عَلَى التَّقْلِيدِ بَعْدَ
 بُلُوغِهَا ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْأَمْرِ الْوُجُوبُ ، فَالْوَعِيدُ لِمَنْ اسْتَحَلَّ الْمُحَرَّمَ بِمُتَوَى زَيْنٍ وَعَمَرٍ ،
 وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ خِلَافُ الشَّرْعِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - «وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الْآيَةَ
 ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ ^(٢) فَقُلْتُ لَهُ : إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ
 قَالَ : أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحْلُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ بَلَى ، قَالَ : فِتْنَتُكَ
 عِبَادَتُهُمْ » ^(٣) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ .

(عَدِيَّ بْنَ حَاتِمٍ) ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدٍ بْنِ حَشْرَجٍ ، كُنْيَتُهُ أَبُو طَرِيفٍ ، مَاتَ سَنَةَ ٦٨ هـ وَلَهُ مِائَةٌ
 وَعِشْرُونَ سَنَةً . (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ) الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْيَهُودِ . وَالْأَحْبَارُ جَمْعُ حَبْرٍ وَهُوَ الْعَالَمُ . (وَرُهْبَانَهُمْ)
 الرُّهْبَانُ جَمْعُ رَاهِبٍ وَهُوَ الْعَابِدُ . (أَرْبَابًا) الْأَرْبَابُ جَمْعُ رَبٍّ وَهُوَ الْخَالِقُ الْمَالِكُ الْمُدَبِّرُ ، وَقَدْ بَيَّنَّ النَّبِيُّ
 ﷺ مَعْنَى عِبَادَتِهِمْ هُنَا كَمَا فِي هَذَا الْحَدِيثِ وَالتَّحْلِيلِ وَالتَّحْرِيمِ حَقُّ لَهُ مَحْضُ سُبْحَانِهِ وَتَعَالَى . وَتَمَامُ الْآيَةِ

(١) سورة الحجرات الآية: ٢ .

(٢) سورة التوبة الآية: ٣١ .

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب تفسير القرآن- ومن سورة التوبة (٣٠٩٥)، والطبراني في التاريخ الكبير (١٧٠ / رقم: ٢١٨، ٢١٩) والحدِيث لم يخرجْه أحمد في مسنده انظر (٢٥٦/٤-٢٥٩)، وعزو الحديث إليه وهم من المؤلف - رحمه الله - وحسنه الألباني في الصحيحة برقم: (٣٢٩٣) .

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. (وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ) أَخَذَهُ النَّصَارَى مَعْبُودًا، وَهُوَ لَمْ يُحْلَلْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لِكِنَّهُمْ عَبْدُوهُ مَعَ اللَّهِ. (وَمَا أَمَرُوا إِلَّا أَنْ يَعْبُدُوا إِيَّاهُ وَاحِدًا). أَيْ لَمْ يُؤْمَرُوا بِغَيْرِ التَّوْحِيدِ وَوَجْهُ حَصْرِ الْمَأْمُورَاتِ فِي التَّوْحِيدِ أَنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُهَا إِلَّا بِهِ. وَالْعِبَادَةُ: هِيَ الْخُضُوعُ وَالتَّذَلُّلُ بِفِعْلِ الْأَوَامِرِ وَتَرْكِ النَّوَاهِي. (لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ) هَذِهِ كَلِمَةُ التَّوْحِيدِ وَقَدْ اشْتَمَلَتْ عَلَى رُكْنِي التَّوْحِيدِ النَّفْيِ وَالْإِثْبَاتِ. (سُبْحَانَهُ) هَذَا تَنْزِيهِ لَهُ عَنْ كُلِّ مَا لَا يَلِيْقُ بِهِ. قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: (فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ) صَرِيحٌ فِي تَسْمِيَةِ طَاعَةِ الْعُلَمَاءِ فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ وَعَكْسِهِ عِبَادَةً لَهُمْ.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: (وهؤلاء الذين اتخذوا أخبارهم وزهباتهم أربابًا - حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يَكُونُونَ عَلَى وَجْهَيْنِ (أحدهما) : أَنْ يَعْلَمُوا أَنََّّهُمْ بَدَّلُوا دِينَ اللَّهِ فَيَتَّبِعُونَهُمْ عَلَى التَّبْدِيلِ فَيَعْتَقِدُونَ تَحْلِيلَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَتَحْرِيمَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ اتِّبَاعًا لِرُؤَسَائِهِمْ مَعَ عِلْمِهِمْ أَنََّّهُمْ خَالَفُوا دِينَ الرُّسُلِ فَهَذَا كُفْرٌ وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ شِرْكًَا - وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا يُصَلُّونَ هُمْ وَيَسْجُدُونَ هُمْ - فَكَانَ مَنْ اتَّبَعَ غَيْرَهُ فِي خِلَافِ الدِّينِ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّهُ خِلَافُ الدِّينِ وَاعْتَقَدَ مَا قَالَ ذَلِكَ دُونَ مَا قَالَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؛ مُشْرِكًا مِثْلَ هَؤُلَاءِ وَ (الثاني) أَنْ يَكُونَ اعْتِقَادُهُمْ وَإِيمَانُهُمْ بِتَحْرِيمِ الْحَلَائِلِ وَتَحْلِيلِ الْحَرَامِ ^(١) ثَابِتًا لِكِنَّهُمْ أَطَاعُوهُمْ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ كَمَا يَفْعَلُ الْمُسْلِمُ مَا يَفْعَلُهُ مِنَ الْمَعَاصِي الَّتِي يَعْتَقِدُ أَنَّهَا مَعَاصِي؛ فَهَؤُلَاءِ هُمْ حُكْمُ أَمْثَالِهِمْ مِنْ أَهْلِ الذُّنُوبِ [كَمَا ثَبَتَ فِي " الصَّحِيحِ " عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ} وَقَالَ: {عَلَى الْمُسْلِمِ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ فِيمَا أَحَبَّ أَوْ كَرِهَ مَا لَمْ يُؤْمَرْ بِمَعْصِيَةِ

{(٢)(٣)}

(١) كذا في الأصل ولعل الصواب: بتحليل الحلال وتحريم الحرام.

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٧٠).

(٥) وقد ذكر صاحب التيسير في هذا الباب الفرق بين التمهيد والتعصب فليراجع، وقد ذكر ابن عثيمين تقسيم الحاكم بغير ما أنزل الله في هذا الباب فليراجع.

[٣٩]

بَابُ

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۖ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝١١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا ۝١٢﴾^(١)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي إِفْرَادِ اللَّهِ بِالطَّاعَةِ وَهَذَا الْبَابُ فِي إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْحُكْمِ ، فَالْأَوَّلُ أَعْمٌ ؛ لِأَنَّ الْحُكْمَ أَحَدُ أَفْرَادِ الطَّاعَةِ ، وَكِلَاهُمَا مِنْ مُفْتَضِّلاتِ التَّوْحِيدِ وَلَوَازِمِهِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : (أَلَمْ تَرَ) فَائِدَةُ الْأَسْتِفْهَامِ التَّعَجُّبُ . (إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ) عَبَّرَ بِالزَّعْمِ لِيُشِيرَ إِلَى كَذِبِهِمْ فِي دَعْوَاهُمْ . لِأَنَّهُمْ ادَّعَوْا الْجَمْعَ بَيْنَ التَّقْيِضَيْنِ وَهُمَا : مُحَبَّةُ تَحْكِيمِ الطَّاغُوتِ ، وَالْإِيمَانُ بِمَا أُنْزَلَ اللَّهُ .

تَنْبِيْهُ: إِنَّ التَّنَاقُضَ هُوَ فِي مُحَبَّةِ التَّحَاكُمِ لِغَيْرِ اللَّهِ وَلَيْسَ فِي التَّحَاكُمِ دُونَ مُحَبَّةِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْأَضْطِرَارِ . (وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ) بَلْ هُوَ أَحَدُ رُكْنِي التَّوْحِيدِ ، (وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ) (ال) : فِي الشَّيْطَانِ هُنَا جِنْسِيَّةٌ ، وَفِيهِ : أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى الطَّاغُوتِ مِمَّا يُرِيدُهُ الشَّيْطَانُ وَأَنَّهُ ضَلَالٌ بَعِيدٌ ، (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ) أَيُّ : إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا نَتَحَاكَمُ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ ، (رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ) فِيهِ دَلِيلٌ أَنَّ مَنْ دُعِيَ إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَأَبَى فَهُوَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ . أَفَادَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ، (يَصُدُّونَ عَنْكَ

(١) سورة النساء الآية: ٦٠-٦٢ .

صُدُّوْا) أَي: يَعْزُضُونَ، وَفِيهِ: أَنَّ الْمُتَافِقِينَ لَا يَقْبَلُونَ النَّصْحَ. (فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ) أَيْضاً
الِإِسْتِفْهَامُ هُنَا فَائِدَتُهُ التَّعْجُّبُ، (بِمَا قَدَمْتُ أَيْدِيَهُمْ) أَي: بِسَبَبِ مُخَالَفَتِهِمْ لِلشَّرْعِ، (ثُمَّ جَاؤُوكَ
يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ) فِيهِ: أَنَّ كَثْرَةَ الْخُلْفِ مِنْ صِفَاتِ الْمُتَافِقِينَ. (إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا) إِنَّ: هُنَا
نَافِئَةٌ، أَي: مَا أَرَدْنَا إِلَّا الْإِحْسَانَ وَالتَّوْفِيقَ، وَهَذَا مَا يُقَالُ فِيهِ الْعُذْرُ أَقْبَحُ مِنَ الذَّنْبِ، فَهَلْ فِي
التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ إِحْسَانٌ وَتَوْفِيقٌ أَمْ إِسَاءَةٌ وَتَلْفِيقٌ؟

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ^(١)].

قَالَ أَبُو بَكْرٍ بْنُ عِيَّاشٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَهُمْ فِي فَسَادٍ فَأَصْلَحَهُمُ
اللَّهُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَنْ دَعَا إِلَى خِلَافِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ فَهُوَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ) ^(٢) أ هـ.
(وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ) قِيلَ: بِالشِّرْكِ وَالْمَعَاصِي، قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَالشِّرْكَ بِهِ هُوَ
أَعْظَمُ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ، بَلْ فَسَادُ الْأَرْضِ فِي الْحَقِيقَةِ إِنَّمَا هُوَ بِالشِّرْكِ بِاللَّهِ وَمُخَالَفَةِ أَمْرِهِ) ^(٣). وَقَالَ -
رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَمَنْ تَدَبَّرَ أَحْوَالَ الْعَالَمِ وَجَدَ كُلَّ صَلَاحٍ فِي الْأَرْضِ فَسَبَبُهُ تَوْحِيدُ اللَّهِ وَعِبَادَتُهُ وَطَاعَةُ
رَسُولِهِ، وَكُلُّ شَرٍّ فِي الْعَالَمِ وَفْتَنَةٍ وَبَلَاءٍ وَقَحْطٍ وَتَسَلُّطِ عَدُوٍّ وَغَيْرِ ذَلِكَ فَسَبَبُهُ مُخَالَفَةُ رَسُولِهِ وَالدَّعْوَةُ إِلَى
غَيْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ). ^(٤)، قَوْلُهُ (بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) هَذَا مِنْ تَأْكِيدِ التَّوْبِيخِ، إِذْ الْإِفْسَادُ بَعْدَ الْإِصْلَاحِ غَايَةٌ
فِي الْوَقَاحَةِ وَالْخُبْثِ. وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلتَّرْجَمَةِ: أَنَّ مَنْ يَدْعُو إِلَى التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَقَدْ أَتَى
بِأَعْظَمِ فَسَادٍ.

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٦.

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره

(٣) بدائع الفوائد، (٥٢٥/٣).

(٤) المرجع السابق

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ

مُصْلِحُونَ﴾ ^(١)] .

قَوْلُهُ (قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) أَيُّ : نَحْنُ لَا يَأْتِي مِنْ قَبْلِنَا إِلَّا الْإِصْلَاحُ ، لِتَفَاقِهِمْ وَضَلَالِهِمْ انْتَقَلَبَتْ عَلَيْهِمُ الْأُمُورُ فَهُمْ يَرَوْنَ الْفَسَادَ إِصْلَاحًا ، وَالشَّرَّكَ تَوْحِيدًا ، وَالْمَعْصِيَةَ طَاعَةً ، وَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ : (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ) ^(٢) (أَلَا) حَرْفُ تَنْبِيهِ ، (إِنَّهُمْ) إِنَّ : حَرْفُ تَوْكِيدٍ ، هُمْ : ضَمِيرُ فَصْلٍ يُفِيدُ الْحُصْرَ ، فَتَبَّهَ وَأَكْثَدَ وَحَصَرَ الْفَسَادَ فِيهِمْ ، فَلَا مُفْسِدَ سِوَاهُمْ .

وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ : أَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْإِفْسَادِ فِي الْأَرْضِ ، وَفِي الْآيَةِ : تَرَكُ الرَّأْيِ إِذَا وَرَدَتِ السُّنَّةُ ، وَفِيهَا : الْحَذَرُ مِنَ الْعُجْبِ بِالرَّأْيِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ تَعَالَى: ﴿أَفْحَكُمُ الْجَاهِلِيَّةُ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ

يُوقِنُونَ﴾ ^(٣)] .

(أَفْحَكُمُ) الِهْمَزَةُ لِلِاسْتِفْهَامِ وَفَائِدَتُهُ التَّوْبِيخُ ، وَفِي إِضَافَتِهِ إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ زِيَادَةُ تَنْفِيرٍ ، (يَبْغُونَ) أَيُّ : يَطْلُبُونَ ، فَفِيهِ طَلَبُهُمْ وَحِرْصُهُمْ عَلَى حُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ (وَمَنْ أَحْسَنُ) الِاسْتِفْهَامُ هُنَا بِمَعْنَى النَّفْيِ ، أَيُّ : لَا أَحَدٌ أَحْسَنُ حُكْمًا مِنَ اللَّهِ وَهَذَا يَشْمَلُ حُكْمَهُ الشَّرْعِيَّ وَالْقَدْرِيَّ ، لَكِنَّ هَذَا الْحُسْنَ لَا يَظْهَرُ لِكُلِّ أَحَدٍ بَلْ لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْمُؤَقِنُونَ ، لِهَذَا قَالَ (لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) وَفِي الْآيَةِ كُلَّمَا أَزْدَادَ الْعَبْدُ يَقِينًا وَإِيمَانًا أَزْدَادَ مَعْرِفَةً بِحُسْنِ أَحْكَامِ اللَّهِ . وَمُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِلْبَابِ : أَنَّ فِيهَا تَوْبِيخًا لِمَنْ ابْتَغَى حُكْمًا غَيْرَ حُكْمِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

(١) سورة البقرة الآية: ١١ .

(٢) سورة البقرة الآية: ١٢ .

(٣) سورة المائدة الآية: ٥٠ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» ^(١)] قَالَ النَّوَوِيُّ "حَدِيثٌ صَحِيحٌ رُوِيَ فِي كِتَابِ "الْحُجَّةِ" بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ" ^(٢)].

الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ وَمَعْنَاهُ صَحِيحٌ، (كِتَابُ "الْحُجَّةِ") هُوَ كِتَابُ (الْحُجَّةُ عَلَى تَارِكِ الْمَحَجَّةِ) يَتَضَمَّنُ ذِكْرَ أَصُولِ الدِّينِ عَلَى قَوَاعِدِ أَهْلِ الْحَدِيثِ وَالسُّنَّةِ، لِلْإِمَامِ أَبِي الْفَتْحِ نَصْرِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْمُقَدِّسِيِّ الشَّافِعِيِّ الْفَقِيهِ الرَّاهِدِ، نَزِيلِ دِمَشْقٍ ^(٣).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ الشَّعْبِيُّ كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ حُصُومَةٌ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَرَفَ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ الْمُنَافِقُ نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ: لَعَلِمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَرْعُمُونَ﴾ ^(٤) ^(٥)]. الْحَدِيثُ ضَعِيفٌ مَرْسَلٌ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقِيلَ "نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا نَتَرَفَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَفَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكْذَلِكُ؟ قَالَ: نَعَمْ فَضْرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ" ^(٦)].

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٤)، والحديث صححه النووي في الأربعين حديث رقم: (٤٠)، وضعفه ابن رجب في جامع العلوم والحكم (٣٩٣/٢-٣٩٤)، والألباني في ظلال الجنة (ص: ١٢-١٣).

(٢) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٠٧).

(٣) ترجمته في السير (١٣٦/١٩).

(٤) سورة النساء الآية: ٦٠.

(٥) أخرجه الواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٣٧) عن الشعبي به مرسلاً، والشعبي تابعي لم يدرك النبي ﷺ، وقد أشار الإمام -رحمه الله- إلى ضعفه بقوله: (وقيل)، وانظر: (الاستيعاب في بيان الأسباب) (٤١٩/١).

(٦) علقه البغوي في تفسيره (٤٤٦/١)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٣٦)، وقال الحافظ في الفتح "٣٧/٥": (وهذا الإسناد وإن كان ضعيفاً لكنه يتقوى بطريق مجاهد، ولا يضره الاختلاف؛ لإمكان التعدد).

إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ ، وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَفِي الْفِصَّتَيْنِ نَظَرٌ لَكِنَّ الْمَعْنَى صَحِيحٌ)^(١) . هـ .
وقد جاء في معجم الطبراني عن ابن عباس كان أبو برزة كاهنا يقضي بين اليهود فيما يتنافرون فيه فتتأفر
إليه ناس من المشركين فأنزل الله عزَّ وجلَّ (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك) إلى قَوْلِهِ ،
{ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا } [النساء: ٦٢] "صححه العلامة الوادعي في الصحيح المسند لأسباب النزول .
(الشَّعْبِيُّ) هُوَ عَامِرُ بْنُ شَرَاهِيلَ كَانَ ذَا فَنُونٍ يَقُولُ : مَا كَتَبْتُ سُودَاءَ فِي بَيْضَاءَ . وَفِي هَذِهِ الْقِصَّةِ مِنْ
الْفَوَائِدِ : ١ - أَنَّ الْمُنَافِقِينَ شَرٌّ مِنَ الْيَهُودِ ، ٢ - وَأَنَّ التَّحَاكُمَ إِلَى غَيْرِ شَرِّعَ اللَّهُ مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِ ٣
- وَفِيهَا مَعْرِفَةُ أَعْدَاءِ الرُّسُلِ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْعَدْلِ . (الرِّشْوَةُ) - مُثَلَّثَةُ الرَّاءِ -
وَهِيَ دَفْعُ الْمَالِ إِلَى التَّوَصُّلِ إِلَى شَيْءٍ مَا ، وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ بَلْ مِنَ الْكِبَائِرِ ، أَمَّا مَنْ اضْطَرَّ لِدَفْعِ مَالِهِ
لِيَتَوَصَّلَ إِلَى حَقٍّ مُنْعٍ مِنْهُ أَوْ لِيُدْفَعَ عَنْهُ بَاطِلًا فَيَأْتِمُ بِالْأَخْذِ وَلَا يَأْتِمُ الْمُعْطَى .^(٢)



(١) شرح كتاب التَّوْحِيدِ، ص: ١١٤ ، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض -، الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

(٢) فائدة منهجية وفي هذا الباب ذكر الفوزان التفصيل في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله في كتابه إغاثة المستفيد .

بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي إِفْرَادِ اللَّهِ بِالْحُكْمِ وَهُوَ مِنْ مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ وَلَوْازِمِهِ وَهَذَا الْبَابُ فِي إِفْرَادِ اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَهُوَ أَيْضًا مِنْ مُقْتَضَيَاتِ التَّوْحِيدِ كَمَا أَنَّهُ مِنْ بَرَاهِينِهِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابٌ فِي حُكْمِ مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْحُكْمَ فِي التَّرْجَمَةِ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّفْصِيلِ .

وَالْإِنْكَارُ نَوْعَانِ : إِمَّا أَنْ يَكُونَ عَنْ تَكْذِيبٍ أَوْ تَأْوِيلٍ .

- فَإِنْ كَانَ إِنْكَارُهُ عَنْ تَكْذِيبٍ لِقَطْعِي الدَّلَالَةِ وَالثَّبُوتِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ . كإِنْكَارِ الْمُشْرِكِينَ لِاسْمِ الرَّحْمَنِ

- أَمَّا إِنْ كَانَ إِنْكَارُهُ لِمَا خَفِيَ دَلَالَتُهُ عَلَيْهِ كَمَنْ تَوَقَّفَ فِي اسْمِ الْمُسْعِرِ أَوْ اسْمِ الْحَفِيِّ أَوْ لَمْ يَقْطَعْ بِثُبُوتِهِ عِنْدَهُ كَاسْمِ الْمُحْسَنِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ فَإِنَّ هَذَا مَحَلُّ اجْتِهَادٍ وَهُمْ بَيْنَ الْأَجْرِ وَالْأَجْرَيْنِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ ﴾ ^(١)]

الْمُرَادُ : يَكْفُرُونَ بِهَذَا الْإِسْمِ ، وَفِي الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مَنْ أَنْكَرَ اسْمًا مِنْ أَسْمَائِهِ ثَابِتًا قَطْعًا دَلَالَةً وَسَنَدًا فَإِنَّهُ يَكْفُرُ ، وَهَذَا مَحَلُّ الشَّاهِدِ مِنَ الْآيَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ قَالَ عَلِيٌّ " حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ " ^(٢)]

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَالْمَعْنَى : أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْوَاعِظِ وَالْمَذْكُرِ أَنْ يُذَكِّرَ النَّاسَ بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي يَعْرِفُونَهَا ، وَالْأَسَالِيبِ الَّتِي يَعْقِلُونَهَا حَتَّى يَسْتَفِيدُوا وَيَنْتَفِعُوا) ^(٣) .

(١) سورة الرعد الآية : ٣٠ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العلم - باب من خص بالعلم قومًا دون قوم (١٢٧) .

(٣) شرح كتاب التَّوْحِيدِ ، ص : ١١٦ ، الناشر : مكتبة الرشد - الرياض - ، الطبعة الأولى : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م .

(بِمَا يَعْرِفُونَ) أَي : بِمَا يَفْهَمُونَ ، (أَتَرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟!) لِأَنَّ حَدِيثَ النَّاسِ بِمَا لَا يَفْهَمُونَ وَسِيلَةً إِلَى تَكْذِيبِهِمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، فَفِي الْأَثَرِ مِنَ الْقَوَائِدِ : دَلِيلٌ عَلَى قَاعِدَةِ سَدِّ الدَّرَائِعِ ، وَأَنَّ دَرْءَ الْمَفَاسِدِ مُقَدَّمٌ عَلَى جَلْبِ الْمَصَالِحِ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَا يَصْلُحُ لِكُلِّ أَحَدٍ ، فَإِنَّ مِنَ الْعِلْمِ مَا هُوَ خَاصٌّ بِأَهْلِهِ ، وَإِنْ كَانَ نَافِعاً فِي نَفْسِهِ وَمِنْ أُمُورِ التَّوْحِيدِ . وَفِيهِ تَرْكُ الْحَدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ . وَمُنَاسَبَةُ الْأَثَرِ لِلْبَابِ : أَنَّ مِنْ أَسْبَابِ جَحْدِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ أَنْ يُحَدِّثَ الْمَرْءُ النَّاسَ بِمَا لَا يَعْقِلُونَهُ مِنْهَا ، فَإِنَّ لِلْعَامَّةِ إِيمَاناً إجمالياً يَصِحُّ بِهِ تَوْحِيدُهُمْ وَإِسْلَامُهُمْ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى الدَّاعِيَةِ وَطَالِبِ الْعِلْمِ مُرَاعَاةُ أَحْوَالِ الْمُخَاطَبِينَ ، وَأَنْ يَخْذَرَ أَنْ يَكُونَ فِتْنَةً لِبَعْضِ النَّاسِ كَمَا قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : (مَا أَنْتَ بِمُحَدِّثٍ قَوْمًا حَدِيثًا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةٌ) ^(١).

وقد بَوَّبَ البخاريُّ على أثرِ البابِ : (بَابُ مَنْ خَصَّ بِالْعِلْمِ قَوْمًا دُونَ قَوْمٍ كَرَاهِيَّةً أَنْ لَا يَفْهَمُوا) ^(٢). فَإِنْ قِيلَ : هَلْ نَدْعُ الْحَدِيثَ بِمَا لَا تَبْلُغُهُ عُقُولُ النَّاسِ ، وَإِنْ كَانُوا فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ ؟ الْجَوَابُ : أُنَا لَا نَدْعُهُمْ وَلَكِنَّا نَحْدِثُهُمْ بِطَرِيقٍ تَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ ، وَذَلِكَ بِأَنْ نَنْقُلَهُمْ رُويًا رُويًا حَتَّى يَتَقَبَّلُوا هَذَا الْحَدِيثَ وَيَطْمَئِنُّوا إِلَيْهِ ، وَمِثْلُ ذَلِكَ الْعَمَلُ بِالسُّنَنِ الَّتِي مَا اعْتَادَهَا النَّاسُ فَإِنَّا نَخْبِرُهُمْ بِهَا أَوَّلًا حَتَّى تَقْبَلَهَا نَفْسُهُمْ ثُمَّ نَعْمَلُ بِهَا ، وَفِي الْأَثَرِ : أَهْمِيَّةُ الْحِكْمَةِ فِي الدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ. وَقَدْ كَرِهَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ التَّحْدِيثَ بِأَحَادِيثَ ظَاهِرِهَا الْخُرُوجُ عَلَى الْحُكَّامِ ^(٣).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ "أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا ^(١) عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنَكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟! " انْتَهَى ^(٢)].

(١) أخرجه مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع برقم: (٥).

(٢) وتحت حديثه برقم: (١٢٧).

(٣) انظر مسلم بشرح النووي ٢٨/٢.

أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي عَاصِمٍ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِي. (عَبْدُ الرَّزَّاقِ) بَنُو هَمَامٍ الصَّنْعَائِيَّ الْإِمَامَ الْحَافِظُ ، رَوَى عَنْهُ أَحْمَدُ وَيَحْيَا بْنُ مَعِينٍ. (مَعْمَرٍ) بَنُو رَاشِدٍ الْأَزْدِي نَزِيلُ الْيَمَنِ. وَابْنُ طَاوُوسٍ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاوُسٍ الْيَمَانِيُّ ، قَالَ مَعْمَرٌ : كَانَ ابْنُ طَاوُوسٍ مِنْ أَعْلَمِ النَّاسِ بِالْعَرَبِيَّةِ ، وَأَبُوهُ طَاوُوسُ بْنُ كَيْسَانَ الْيَمَانِيُّ الْجَنْدِيُّ ، إِمَامٌ عَلِيمٌ ، مِنْ أَجَلَّةِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - . وَقَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا سَنَدٌ عَظِيمٌ) ^(١) . (أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ اسْتِنكَارًا لِذَلِكَ) : وَهَذَا خِلَافُ الْوَاجِبِ ، فَعَلَى الْمُسْلِمِ إِذَا صَحَّ عِنْدَهُ شَيْءٌ عَنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ وَيُصَدِّقَ ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ. (فَقَالَ: مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ؟) تُضَبِّطُ عَلَى أَكْثَرِ مَنْ ضَبَطَ ، الْأَوَّلُ : مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ ، أَيِ : مَا خَوْفُ هَؤُلَاءِ أَيِ : مَا الَّذِي أَوْجَبَ خَوْفَهُمْ ، فَلَيْسَ فِي التَّنْصُوصِ مَا يُوجِبُ الْخَوْفَ ، الضَّبْطُ الثَّانِي: مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ ، مَا : نَافِيَةٌ أَيِ : مَا فَرَّقَ هَؤُلَاءِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ ، فَاسْتَنَكَرُوا الْحَقَّ. (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ!) أَيِ : يَخْشَعُونَ عِنْدَ الْمُحْكَمِ ، وَيَهْلِكُونَ بِالْإِنْكَارِ وَالشَّكِّ عِنْدَ وُرُودِ الْمُتَشَابِهِ.

وَوَجْهُ الدَّلَالَةِ مِنَ الْأَثَرِ الْإِنْكَارُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ شَيْئًا مِنَ الصِّفَاتِ لَهُ مَعْنِيَانِ : الْأَوَّلُ : هُوَ الْمُتَقَنَّ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ خَلَلٌ ، وَعَلَيْهِ فَكِتَابُ اللَّهِ كُلُّهُ مُحْكَمٌ . وَالثَّانِي : الْوَاضِحُ الَّذِي لَا يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى سَامِعِهِ . وَالْمُتَشَابِهُ أَيْضًا لَهُ مَعْنِيَانِ : الْأَوَّلُ : يَشَبَّهُ بَعْضُهُ بَعْضًا فِي جَوْدَتِهِ وَكَمَالِهِ وَإِحْكَامِهِ. وَالثَّانِي : هُوَ الَّذِي يَخْفَى مَعْنَاهُ عَلَى سَامِعِهِ ، فَيَحْتَاجُ أَنْ يُنْظَرَ فِي غَيْرِهِ حَتَّى يَفْهَمَهُ ، فَعَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ : فَالْقُرْآنُ كُلُّهُ مُحْكَمٌ ، وَهُوَ مُتَشَابِهٌ فِي ذَلِكَ الْإِحْكَامِ.

(١) هذا الحديث هو: (أن الله خلق آدم على صورته) وهو حديث صحيح مخرج في الصحيحة (٨٦٠) نبه على ذلك الشيخ الألباني - رحمه الله - في " حاشية ظلال الجنة في تخريج السنة " (ص: ٢١٣).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٢٠٨٩٥/٤٢٣/١١)، وصححه الشيخ الألباني - رحمه الله - في " حاشية ظلال الجنة في تخريج السنة " (ص: ٢١٢).

(٣) شرح كتاب التوحيد، ص: ١١٦ ، الناشر: مكتبة الرشد - الرياض -، الطبعة الأولى: ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

قَالَ تَعَالَى ﴿كَتَبْنَا أُحْكَمَتَ آيَاتِهِ﴾ ^(١) وَقَالَ تَعَالَى ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾ ^(٢)، وَعَلَى الْمَعْنَى الثَّانِي: فَالْقُرْآنُ مِنْهُ مُحْكَمٌ وَمِنْهُ مُتَشَابِهٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ ^(٣). وَالتَّشَابُهُ نَوْعَانِ: مُطْلَقٌ وَنَسْبِيٌّ، فَالنَّسْبِيُّ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُهُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ، وَالْمُطْلَقُ لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ فِي الْقُرْآنِ آيَاتٍ مُحْكَمَاتٍ أَيْ: بَيِّنَاتٍ وَاضِحَاتٍ الدَّلَالَةِ لَا التَّيْسُّبَ فِيهَا عَلَى أَحَدٍ، وَمِنْهُ آيَاتٌ أُخْرَى فِيهَا اشْتِبَاهٌ فِي الدَّلَالَةِ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ أَوْ بَعْضِهِمْ، فَمَنْ رَدَّ مَا اشْتَبَهَ عَلَيْهِ إِلَى الْوَاضِحِ مِنْهُ، وَحَكَّمَ مُحْكَمَهُ عَلَى مُتَشَابِهِهِ عِنْدَهُ، فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ عَكَسَ انْعَكَسَ، وَلِهَذَا قَالَ: (هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ) الَّذِي يُرْجِعُ إِلَيْهِ عِنْدَ الْاِشْتِبَاهِ) ^(٤).

إِشْكَالٌ لَوْ قِيلَ إِنَّ هَذَا الْأَثَرُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آيَاتِ الصِّفَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ! الْجَوَابُ أَنَّ يُقَالُ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ التَّشَابُهَ الَّذِي اخْتَصَّ اللَّهُ بِعِلْمِهِ فَلَا وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ التَّشَابُهَ النَّسْبِيَّ أَيْ بِالنَّسْبَةِ لِبَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ فَنَعَمْ فَإِنَّ نُصُوصَ الصِّفَاتِ مُحْكَمَةٌ الْمَعَانِي لَكِنْ لَا مَانِعَ أَنْ تَشْتَبَهَ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ دُونَ بَعْضٍ.

- مَسْأَلَةٌ - :

(١) سورة هود الآية: ١.

(٢) سورة الزمر الآية: ٢٣.

(٣) سورة آل عمران الآية: ٧.

(٤) تفسير ابن كثير، (١/٤٢٤).

مِنَ النَّاسِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّ آيَاتِ الصِّفَاتِ مِنَ الْمُتَشَابِهِ . وَالصَّوَابُ أَنَّ مَنْ زَعَمَ ذَلِكَ إِنْ أَرَادَ الْكَيْفَ فَنَعَمْ ، بَلْ هِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الْمُطْلَقِ الَّذِي لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللَّهُ ، أَمَّا إِذَا أَرَادَ مَعْنَى الصِّفَاتِ فَلَا بَلْ هِيَ مِنَ الْمُحْكَمِ . وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَنَّ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ بِآيَاتِ الصِّفَاتِ مِنْ كَلَامِ الْمُتَأَخِّرِينَ ^(١) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِمْ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ ^(٢)] رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ عَنْ مُجَاهِدٍ وَمِثْلُهُ عَنْ قَتَادَةَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ ، وَلَكِنَّهُ مُرْسَلٌ

وَقَدْ ثَبَتَ إِنْكَارُهُمْ اسْمَ الرَّحْمَنِ كَمَا فِي حَدِيثِ مُكَاتَبَةِ الْحَدِيثِ مَعَ سُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَقَدْ رَوَاهُ الشَّيْخَانُ وَتَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى الْآيَةِ فِي أَوَّلِ الْبَابِ بِمَا أَعْنَى عَنْ تَكَرُّرِهِ .



(١) مجموع الفتاوى (٤٢٣/١٧) .

(٢) سورة الرعد الآية: ٣٠ .

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٤٤٥/١٦) .

[٤١]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾^(١).

من هذا الباب شرع الإمام في الكلام عن ألفاظ تنقص التوحيد وتنافي كماله مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي تَقْرِدِ اللَّهِ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ ، وَهَذَا الْبَابُ فِي تَقْرِدِ اللَّهِ بِالنِّعَمِ ، وَتَقْرِدُهُ بِكُلِّ مِنْهُمَا بُرْهَانٌ عَلَى تَقْرِدِهِ بِالْأُلُوْهِيَّةِ. وَمَعْنَى الْآيَةِ الْمُرْجَمِ بِهَا : (يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا) أَيِ : يَعْرِفُونَ أَنَّ هَذِهِ النِّعَمَ مِنَ اللَّهِ بِقُلُوبِهِمْ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا بِنِسْبَتِهَا إِلَى غَيْرِ اللَّهِ (وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) الْكُفْرُ تَبِعٌ لِلْإِنْكَارِ ، فَإِنَّ أَنْكَرَ بِقَلْبِهِ وَلِسَانِهِ فَهُوَ كُفْرٌ أَكْبَرُ ، وَإِنْ أَنْكَرَ بِلِسَانِهِ وَحَصَلَ لَهُ نَوْعُ النِّفَاقِ بِقَلْبِهِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ كُفْرٌ أَصْغَرُ مَعَ عِلْمِهِ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْعِمُ حَقِيقَةً وَ الْعَالِبُ فِي كُفْرِ النِّعْمَةِ أَنَّهُ مِنَ الْكُفْرِ الْأَصْغَرِ ؛ لِأَنَّهُ مُقَابِلٌ لِلشُّكْرِ ، وَفِي نِسْبَةِ النِّعَمِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَلُّقٌ بِغَيْرِهِ ، وَفِي الْآيَةِ اجْتِمَاعُ الضَّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ ، وَهُمَا الْمَعْرِفَةُ وَالْإِنْكَارُ ، كاجْتِمَاعِ الْفُسُوقِ وَالْإِيمَانِ كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ "هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ هَذَا مَالِي، وَرِثَتُهُ عَنْ آبَائِي"]^(٢).
مُجَاهِدٌ: هُوَ شَيْخُ التَّفْسِيرِ ابْنُ جَبْرِ الْمَكِّيُّ مَوْلَى بَنِي مَخْزُومٍ ، قَالَ عَرَضْتُ التَّفْسِيرَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثَلَاثَ مِرَارٍ ، أَوْفَقَهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ وَأَسْأَلُهُ فِيمَ نَزَلَتْ وَكَيْفَ مَعْنَاهَا ، تَوَفَّاهُ اللَّهُ سَنَةَ ١٠٣ هـ وَهُوَ سَاجِدٌ . وَهُنَاكَ فَرَّقَ بَيْنَ أَنْ يَقُولَ هَذَا الْقَوْلَ تَبَجُّحاً وَتَعَاظُماً وَهُوَ عَافِلٌ عَنِ الْمُنْعِمِ حَقِيقَةً ، وَبَيْنَ أَنْ يَقُولَ ذَلِكَ بِقَصْدِ الْإِخْبَارِ عَنِ السَّبَبِ. كَمَنْ سَأَلَ مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا الْمَالُ وَكَلَامُ مُجَاهِدٍ مِنْ بَابِ إِضَافَةِ النِّعْمَةِ لِلْسَّبَبِ وَهَذَا شَرَكٌ خَفِيَ إِذَا التَفَتَ بِقَلْبِهِ لِلْسَّبَبِ وَهُوَ وَرِاثَتُهُ لِلْمَالِ عَنْ آبَائِهِ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ

(١) سورة النحل الآية: ٨٣.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (٢٧٣/١٧).

:- (لَمَّا أَضَافُوا النِّعْمَةَ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَنْكَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ بِنِسْبَتِهَا إِلَى غَيْرِهِ ، وَكَوْنُهَا مَوْزُونَةً عَنِ الْآبَاءِ أُبْلَغَ فِي الْإِنْعَامِ عَلَيْهِمْ ، إِذْ أُنْعِمَ بِهَا عَلَى آبَائِهِمْ ثُمَّ وَرَثَهُمْ إِيَّاهَا فَتَمَتَّعُوا هُمْ وَآبَاؤُهُمْ بِنِعْمِهِ)^(١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ عَوْزُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ "يَقُولُونَ لَوْلَا فَلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا"^(٢)].

رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ وَفِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ. لَكِنَّ أَهْلَ التَّفْسِيرِ لَا يَتَشَدَّدُونَ فِي صِحَّةِ الْإِسْنَادِ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الْمَعْنَى صَحِيحاً (عَوْزٌ) هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ بْنِ مَسْعُودٍ . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (هَذَا يَتَضَمَّنُ قَطْعَ إِضَافَةِ النِّعْمَةِ عَمَّنْ لَوْلَاهُ لَمْ تَكُنْ ، وَإِضَافَتُهَا إِلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ، فَضْلاً عَنْ غَيْرِهِ ، وَغَايَتُهُ أَنْ يَكُونَ جُزْءاً مِنْ أَجْزَاءِ السَّبَبِ ، أَجْرَى اللَّهُ نِعْمَتَهُ عَلَى يَدِهِ ، وَالسَّبَبُ لَا يَسْتَقِلُّ بِالْإِيجَادِ ، وَجَعَلَهُ سَبَباً هُوَ مِنْ نِعَمِ اللَّهِ عَلَيْهِ ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ بِتِلْكَ النِّعْمَةِ ، وَهُوَ الْمُنْعَمُ بِمَا جَعَلَهُ مِنْ أَسْبَابِهَا ، فَالسَّبَبُ وَالْمُسَبَّبُ مِنْ إِنْعَامِهِ ، وَهُوَ تَعَالَى كَمَا أَنَّ قَدْ يُنْعَمُ بِذَلِكَ السَّبَبِ فَقَدْ يُنْعَمُ بِدُونِهِ ، وَلَا يَكُونُ لَهُ أَثَرٌ ، وَقَدْ يَسْلُبُهُ سَبَبِيَّتُهُ ، وَقَدْ يَجْعَلُ لَهَا مُعَارِضاً يُقَاوِمُهَا ، وَقَدْ يُرْتَّبُ عَلَى السَّبَبِ ضِدٌّ مُقْتَضَاهُ ، فَهُوَ وَحْدَهُ الْمُنْعِمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ)^(٣).

لِهَذِهِ اللَّفْظَةِ (لَوْلَا) ثَلَاثَةُ أَحْوَالٍ: الْأُولَى: أَنْ تَقْتَرَنَ بِمَا لَيْسَ سَبَباً ؛ كَأَنْ يَقُولَ: لَوْلَا الْوَلِيُّ الْفُلَانِيُّ مَا نَزَلَ الْمَطَرُ ، فَهَذَا شِرْكٌ أَكْبَرُ الثَّانِيَّةُ: أَنْ يُضَيَّفَهَا إِلَى سَبَبٍ ثَابِتٍ شَرْعاً أَوْ قَدراً وَيَنْسَى الْمُنْعِمَ حَقِيقَةً وَلَا يَسْتَحْضِرُ ذَكَرَ اللَّهِ فَهَذَا شِرْكٌ خَفِيٌّ.

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» بنحوه (٢٧٣/١٧)، وفي إسناده ليث بن أبي سليم ضعيف، والأثر ذكره السيوطي في الدر المنثور (٩٤/٩) وزاد نسبه لسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم.

(٣) شفاء العليل، ص: ٣٧

الثَّالِثَةُ : أَنَّ يُضَيَّفَهَا إِلَى سَبَبٍ ثَبَتَ شَرْعًا أَوْ قَدَرًا أَنَّهُ سَبَبٌ فَهَذَا جَائِزٌ بِشَرْطِ أَلَّا يَعْتَقَدَ أَنَّ السَّبَبَ مُؤَثِّرٌ دُونَ تَقْدِيرِ اللَّهِ ، وَأَن يَسْتَحْضِرَ الْمُنْعَمَ حَقِيقَةً ، وَمِنْ ذَلِكَ : قَوْلُهُ ﷺ لَوْلَا أَنَا كَمَا فِي قِصَّةِ أَبِي طَالِبٍ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ يَقُولُونَ "هَذَا بِشَفَاعَةِ آهْلِنَا" ^(١)]

ابْنُ قُتَيْبَةَ هُوَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُسْلِمٍ بْنِ قُتَيْبَةَ الدِّينَوْرِيِّ النَّحْوِيُّ اللَّغَوِيُّ ، سَمِعَ الْحَدِيثَ مِنْ إِسْحَقَ بْنِ رَاهَوِيَةَ . وَكَلَامُ ابْنِ قُتَيْبَةَ مِنْ إِضَافَتِهَا لِمَنْ لَيْسَ سَبَبًا فَيَكُونُ مِثَالًا لِلشَّرْكَ الْأَكْبَرِ قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (هَذَا يَتَضَمَّنُ الشَّرْكَ مَعَ إِضَافَةِ النِّعْمَةِ إِلَى غَيْرِ وَلِيَّهَا ، فَالْإِلَهَةُ الَّتِي تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَحَقُّ وَأَدْلُّ مِنْ أَنْ تَشْفَعَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَهِيَ مُخَضَّرَةٌ فِي الْهُوَانِ وَالْعَذَابِ مَعَ عَابِدِيَّهَا ، فَالْشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ مِنْ نِعْمِهِ ، فَهُوَ الْمُنْعَمُ بِالشَّفَاعَةِ ، وَهُوَ الْمُنْعَمُ بِقَبُولِهَا ، وَهُوَ الْمُنْعَمُ بِتَأْهِيلِ الْمَشْفُوعِ لَهُ ، إِذْ لَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَهْلًا أَنْ يُشْفَعَ لَهُ ، فَمَنْ الْمُنْعَمُ عَلَى الْحَقِيقَةِ سِوَاهُ! قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ ^(٢) ، فَالْعَبْدُ لَا خُرُوجَ لَهُ عَنِ نِعْمَةِ اللَّهِ ، وَفَضْلِهِ وَمَنْتِهِ وَإِحْسَانِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ لَا فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ ، وَهَذَا دَمٌ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَنْ آتَاهُ شَيْئًا مِنْ نِعْمِهِ فَقَالَ: ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ ^(٣)) ^(٤) أ.هـ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ ^(٥) الْحَدِيثِ ، وَقَدْ تَقَدَّمَ "وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ

(١) ذكره الطبري غير معزو (٦٣٠/٧) ط: دار الكتب العلمية.

(٢) سورة النحل الآية: ٥٣ .

(٣) سورة القصص الآية: ٧٨ .

(٤) شفاء العليل، ٣٧

(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب قول الله تعالى: ﴿ وَتَحْمِلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾ (١٠٨٣)، ومسلم في كتاب الإيمان - باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ" ^(١).] وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا مَذْمُومًا ؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَتَى إِلَيْكَ عَبْدُ
فُلَانٍ بِهَدِيَّةٍ مِنْ سَيِّدِهِ ، فَشَكَرْتَ الْعَبْدَ دُونَ السَّيِّدِ ، كَانَ هَذَا سُوءَ أَذَبٍ مَعَ السَّيِّدِ ، وَكُفْرَانًا لِنِعْمَتِهِ ،
وَلَأَنَّ الْخَالِقَ لَهُذِهِ الْأَسْبَابِ هُوَ اللَّهُ ، وَلَأَنَّ السَّبَبَ قَدْ يَكُونُ لَهُ مَانِعٌ يَمْنَعُ مِنْ تَأْثِيرِهِ وَهَذَا عُرِفَ بِطُلَانِ
إِضَافَةِ الشَّيْءِ إِلَى سَبَبِهِ دُونَ الْإِلْتِمَاتِ إِلَى مَنْ جَعَلَهُ سَبَبًا جَلَّ وَعَلَا . قَالَ ﷺ : (لَيْسَتْ السَّنَةُ بِأَنْ لَا
تُمْطَرُوا وَلَكِنَّ السَّنَةَ أَنْ تُمْطَرُوا وَتُمْطَرُوا وَلَا تُنْبِتُ الْأَرْضُ شَيْئًا) ^(٢) .
قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ هُوَ كَقَوْلِهِمْ : كَانَتْ الرِّيحُ طَيِّبَةً ، وَالْمَلَأُ حَازِقًا .
وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةِ كَثِيرَةٍ] أ.هـ]

يقول هذا من ركب سفينة وينسى قول الله تعالى ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَوِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾ يونس: ٢٢
(حَازِقًا) أَي : يُجِيدُ مِهْنَتَهُ ، ومثله كانت السيارة حديثة والسائق حاذقًا فالسائق قد يذهب حذقه أو
نحو ذلك ^(٣) وَفِيهِ دَقَّةُ السَّلَفِ فِي الْأَلْفَاظِ وَعِنَايَتُهُمْ بِهَا ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى شُكْرِ اللَّهِ وَالْاعْتِرَافِ لَهُ سُبْحَانَهُ
وَتَعَالَى بِنِعْمِهِ ، وَفِيهِ كَثْرَةُ كُفْرِ النِّعَمِ فِي النَّاسِ .



(١) انظر: «مجموع الفتاوى» لابن تيمية (٣٣/٨).

(٢) أخرجه مسلم، باب في سكنى المدينة وعمارتها قبل الساعة، برقم: (٢٩٠٤).

(٣) أفدته من شيخي د. خالد بن عبد اللطيف - حفظه الله =

[٤٢]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : هَذَا الْبَابُ فِي شَرْكِ الْأَلْفَاظِ وَهُوَ أَعَمُّ مِنَ الْبَابِ السَّابِقِ ، فَإِنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الْأَقَاظِ مُعَيَّنَةٌ . وهذا القدر من الآية نتيجة لمقدمات ستة قبلها هي الذي خلقكم والذين من قبلكم والذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ثم ذكر هذه النتيجة قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي مَعْنَى هَذِهِ الْآيَةِ : (فَتَأْمَلْ هَذِهِ النَّتِيجَةَ وَشِدَّةَ لُزُومِهَا لِتِلْكَ الْمُقَدِّمَاتِ قَبْلَهَا ، وَظَفَرَ الْعَقْلِ بِهَا بِأَوَّلِ وَهَلَةٍ ، وَخُلُوصِهَا مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ وَرِيَّةٍ وَفَادِحٍ ، إِذَا كَانَ اللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ فَكَيْفَ تَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا وَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّهُ لَا نَدَّ لَهُ يُشَارِكُهُ فِي فِعْلِهِ)^(٢) ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ كَثِيرٍ^(٣) فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ حَدِيثًا يَزِيدُ الْمَعْنَى وَضُوحًا وَهُوَ حَدِيثُ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (إِنَّ اللَّهَ أَمَرَ يَحْيَا بْنَ زَكْرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَوْلَاهُنَّ : أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرَقٍ ، فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيُوَدِّي غَلَّتُهُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ فَأَيُّكُمْ يَسُرُّهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ، وَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَأَعْبُدُوهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)^(٤) . وَفِي الْآيَةِ : أَنَّ الْإِقْرَارَ بِالرُّبُوبِيَّةِ لَا يَكْفِي فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا بَعْدَ الْإِقْرَارِ بِالْأُلُوهِيَّةِ ، وَفِيهَا : الِاسْتِدْلَالُ بِالْآيَاتِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ عَلَى الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ .

(١) سورة البقرة الآية: ٢٢.

(٢) بدائع الفوائد، ٩٤٥/٤.

(٣) تفسير ابن كثير، ٧٧/١.

(٤) أخرجه أحمد برقم: (١٧٢٠٩)، وصححه العلامة الألباني في صحيح الجامع برقم: (١٧٢٤).

===== [42] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ "الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكَ، أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءٍ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي، وَتَقُولَ: لَوْلَا كُتَيْبَةُ هَذَا لَا تَأَنَّا اللَّصُوصُ، وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ، لَا تَأْتِي اللَّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانُ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ" ^(١)] رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

مَعْلُومٌ أَنَّ تَفْسِيرَ الصَّحَابِيِّ لَهُ حُكْمُ الرَّفْعِ لَا سِمَاً وَأَنَّهُ لَا يُقَالُ مِنْ قِبَلِ الرَّأْيِ قَوْلُهُ الْأَنْدَادُ هُوَ الشِّرْكُ هَذَا تَفْسِيرٌ بِالْمَعْنَى فَإِنَّ الْأَنْدَادَ جَمْعُ نِدٍ وَالنَّدِ هُوَ الْمِثْلُ وَتَعَالَى اللَّهُ عَنِ النَّدِيدِ لَكِنَّ الْمَشْرِكَ يَعْتَقِدُ بِقَلْبِهِ أَنَّ اللَّهَ أَنْدَادًا وَقَدْ ضَرَبَ ابْنُ عَبَّاسٍ مَثَلًا لِحَقَائِدِ الشِّرْكِ بِمَا هُوَ أَخْفَى شَيْءً ، وَهُوَ أَثَرُ النَّمْلِ فَكَيْفَ إِذَا كَانَ عَلَى صَفَاةٍ ، وَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ سَوْدَاءً ، وَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ حَقَائِدِهِ ، وَسُمِّيَ خَفِيًّا ؛ لِأَنَّهُ يَقِلُّ مَنْ يَتَنَبَّهَ لَهُ ، وَقَدْ جَاءَ كَلَامُ ابْنِ عَبَّاسٍ هَذَا مَرْفُوعًا مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى قَالَ : حَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا هَذَا الشِّرْكَ فَإِنَّهُ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ ، فَقَالَ لَهُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ وَهُوَ أَخْفَى مِنْ دَيْبِ النَّمْلِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ قُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُهُ ^(٢)) .
وَالشِّرْكُ الْحَقِيقِيُّ نَوْعَانِ :

١ - شِرْكُ الْمَقَاصِدِ وَالتَّيَاتِ .

٢ - وَشِرْكُ الْأَلْفَاظِ - وَهُوَ مَقْصُودُ هَذَا الْبَابِ .-

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٥٨/١)، و الأثر حسنه الشيخ مقبل الوادعي -رحمه الله- في تحقيقه لتفسير ابن كثير (١١٤/١)، وجود إسناده الشيخ سليمان آل الشيخ في التيسير (ص:٤٤٢)، وضعفه الألباني في تحقيق كتاب الإيمان لأبي عبيد (ص: ٨٧).

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط برقم: (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم: (٣٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

ثم ضرب أمثلة لشرك الألفاظ فقال : (وَهُوَ أَنْ تَقُولَ وَاللَّهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي) الحلف بغير الله شرك أصغر وسيأتي الكلام عليه وقوله (لَوْلَا كُتِبَتْ هَذَا: لَا تَأَنَّا لِلْصُّوْصِ) الْمُرَادُ أَنَّ الْكُتِبَةَ إِذَا رَأَتْ الشَّرَاقَ نَبَحَتْهُمْ فَاسْتَيْقَظَ أَهْلُهَا ، وَرَبَّمَا امْتَنَعُوا مِنَ الْإِثْيَانِ خَوْفًا مِنْهَا . وَرَوَى ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - : (إِنَّ أَحَدَكُمْ لِيُشْرِكُ حَتَّى يُشْرِكَ بِكَلِمَةٍ يَقُولُ : لَوْلَاهُ لَسُرِفْنَا اللَّيْلَةَ)^(١) وَالْوَاجِبُ نِسْبَةُ الْفَضْلِ وَالْحِفْظِ إِلَى اللَّهِ ، فَهُوَ الَّذِي يَحْفَظُ عِبَادَهُ ، وَإِنَّمَا هَذِهِ الْأَشْيَاءُ أَسْبَابُ خَلْقِهَا سُبْحَانَهُ لِيَحْفَظَنَا بِهَا وَلَوْ شَاءَ لَحَفِظْنَا بِدُونِهَا فَلَا نَتَعَلَّقُ بِهَا وَنَتْرِكُ التَّعَلُّقَ بِهِ قَالَ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴾^(٢)

وَقَدْ سَبَقَ الْكَلَامُ فِي لَوْلَا . قَوْلُهُ : (لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا) بِمَجْمُوعِ النُّصُوصِ يَظْهَرُ أَنَّ هُنَاكَ دَرَجَتَيْنِ جَائِزَتَيْنِ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ : الْأُولَى : الدَّرَجَةُ الْكَامِلَةُ : أَنْ تَقُولَ لَوْلَا اللَّهُ مَا حَصَلَ كَذَا. الثَّانِي : الدَّرَجَةُ الْجَائِزَةُ أَنْ تَقُولَ : لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»^(٣) رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.]

(عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ) قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ صَاحِبُ كِتَابِ تَيْسِيرِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ هَكَذَا وَقَعَ فِي الْكِتَابِ وَصَوَابُهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ . (مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ) الْحَلْفُ : هُوَ تَأْكِيدُ الْكَلَامِ بِمَعْظَمِ بَيْنِ الْمُتَكَلِّمِ وَالْمُخَاطَبِ قَالَ أَبُو عُمَرَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ : (لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَحْلِفَ بِغَيْرِ اللَّهِ لَا بِهَذِهِ الْأَقْسَامِ وَلَا غَيْرِهَا؛

(١) في كتاب الصمت برقم ٣٥٧.

(٢) سورة الأنبياء الآية: ٤٢.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٥/٢)، وأبو داود في كتاب الأيمان والنذور - باب في كراهية الحلف بالآباء (٣٢٥١)، والترمذي في كتاب الأيمان والنذور - باب ماجاء في كراهية الحلف بغير الله (١٥٣٥)، والحاكم في «المستدرک علی الصحیحین» (٦٥/١)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢٩/١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٥٢).

[42] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

لِاجْتِمَاعِ الْعُلَمَاءِ أَنَّ مَنْ وَجَبَتْ لَهُ يَمِينٌ عَلَى آخَرٍ فِي حَقِّ قِبَلِهِ أَنَّهُ لَا يَخْلِفُ لَهُ إِلَّا بِاللَّهِ^(١) بَلْ هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ وَقَدْ يَصِلُ إِلَى الْأَكْبَرِ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ ، كَأَن يَتَوَمَّنُ بِنَفْسِ الْحَالِفِ تَعْظِيمٌ وَخَوْفٌ مِنَ الْحَلُوفِ بِهِ لَا يَلِيْقُ إِلَّا بِاللَّهِ . كَأَن يَقْدُمَ عَلَى الْحَلْفِ بِاللَّهِ كَاذِبًا وَلَا يَجْرُؤُ عَلَى الْحَلْفِ بِغَيْرِ اللَّهِ كَاذِبًا خَوْفًا مِنْ انتِقَامِ الْأَلْهَةِ الْبَاطِلَةِ (فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ) أَوْ : بِمَعْنَى الْوَاوِ وَهِيَ بِمَعْنَى وَاحِدٍ هَذَا التَّرَدُّدُ مِنَ الرَّايِ وَقَدْ رَوَى فَقَدْ أَشْرَكَ فَقَطْ وَرَوَى قَدْ كَفَرَ وَرَوَى بِالْوَاوِ فَقَدْ كَفَرَ وَأَشْرَكَ ، لَكِنَّ الْكُفْرَ أَعْمٌ مِنَ الشِّرْكِ ، وَالْإِشْرَاكُ إِيمَانٌ بِأَكْثَرٍ مِنْ إِلَهٍ . وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : (مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلْفِهِ وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى فَلْيُقْلَلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ)^(٢) .

إِشْكَالٌ وَجَوَابُهُ :

جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ قَوْلُ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لِلرَّجُلِ الَّذِي سَأَلَ عَنْ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ : (أَفْلَحَ وَأَيُّهُ إِنْ صَدَقَ)^(٣) ، وَجَاءَ فِي الصَّدَقَةِ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ : (أَمَّا وَأَيُّكَ لِتُنَبِّأَنَّهُ)^(٤) الْجَوَابُ : عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ وَجُوهِ أَحْسَنُهَا أَرْبَعَةٌ :

الأول : أَنَّهَا شَاذَّةٌ ، فَقَدْ جَاءَتْ الرِّوَايَةُ الْمَحْفُوظَةُ : (أَفْلَحَ - وَاللَّهُ - إِنْ صَدَقَ) . قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ فِي التَّمْهِيدِ^(٥) مُجِيبًا عَنْ هَذِهِ الزِّيَادَةِ : (هَذِهِ لَفْظَةٌ غَيْرُ مَحْفُوظَةٍ فِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنْ حَدِيثٍ مَنْ يَخْتَجُّ بِهِ ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثَ مَالِكٌ وَغَيْرُهُ عَنْ أَبِي سُهَيْلٍ ؛ لَمْ يَقُولُوا ذَلِكَ فِيهِ . وَقَدْ رُوِيَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ هَذَا الْحَدِيثَ وَفِيهِ : "أَفْلَحَ - وَاللَّهُ ! - إِنْ صَدَقَ " أَوْ : "دَخَلَ الْجَنَّةَ - وَاللَّهُ ! - إِنْ صَدَقَ " ، وَهَذَا أَوَّلَى مِنْ رَوَايَةٍ مَنْ رَوَى : "وَأَيُّهُ " ؛ لِأَنَّهَا لَفْظَةٌ مُنْكَرَةٌ ، تَرُدُّهَا الْآثَارُ الصَّحَاحُ " .

(١) الاستذكار ٢٠٣/٥ .

(٢) أخرجه البخاري، بَاب (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى) برقم: (٤٨٦٠) .

(٣) أخرجه مسلم، بَاب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام، برقم: (١١) .

(٤) أخرجه مسلم، بَاب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح برقم: (١٠٣٢) .

(٥) التمهيد ٣٦٧/١٤ .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

أما رواية : (أَمَّا وَأَبِيكَ لِئُنْبَأَنَّه) فهذه الرواية منكورة. قال الألباني وهذا من أوهام شريك عندي، والصواب رواية الأسود إن كانت محفوظة عن عمارة في هذه الجملة؛ لأنها لم ترد عند الثقات كما يأتي. وقال الحافظ في "الفتح" (١٠ / ٣٢٩ - ٣٣٠) عقبها: "فلعلها تصحفت"! وأقول: بل الأقرب أنها من شريك نفسه - وهو ابن عبد الله القاضي -؛ فإنه سيء الحفظ، فاضطرب في ضبط هذه الجملة، فقال مرة: "والله". وأخرى: وأبيه. (١)

الثَّانِي : أَنَّهُ تَصْحِيفٌ لَا سِيَّمَا وَكَانُوا لَا يَنْقُطُونَ . فَإِنَّهُمَا يَشْتَبِهَانِ ، وَهَذَا لَا يَتَعَارَضُ مَعَ الْوَجْهِ السَّابِقِ .

الثَّالِثُ : أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ ثُمَّ نُهِيَ عَنْهُ .

الرُّبُعُ : أَنَّهَا كَلِمَةُ الْمُرَادُ لَفْظُهَا دُونَ مَعْنَاهَا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ "لَأَنْ أَخْلَفَ بِاللَّهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَخْلِفَ بغيرِهِ صَادِقًا" (٢)] .

الْحَلْفُ بِاللَّهِ كَاذِبًا مُحَرَّمٌ مِنْ وَجْهَيْنِ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الْكَذِبَ مُحَرَّمٌ وَلَوْ لَمْ يُقَارَنْهُ حَلْفٌ ، وَالثَّانِي اقْتِرَانُهُ بِالْحَلْفِ فَصَارَ حَرَامًا فَوْقَ حَرَامٍ . أَمَّا الْحَلْفُ بِغَيْرِ اللَّهِ فَهُوَ مُحَرَّمٌ مِنْ جِهَةٍ وَاحِدَةٍ لَكِنَّهُ شَرَكٌ أَصْغَرُ ، وَفِي هَذَا الْأَثَرِ أَنَّ الشَّرَكَ الْأَصْغَرَ أَعْظَمُ مِنَ الْكِبَائِرِ ، وَفِيهِ شَاهِدٌ لِلْقَاعِدَةِ الْمَشْهُورَةِ وَهِيَ : ارْتِكَابُ أَذَى الْمُفْسِدَتَيْنِ يَتَّقُوهُمَا أَعْلَاهُمَا .

(١) سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ط١: دار المعارف - الرياض -، (١٠/٧٦٨).

(٢) أخرجه عبد الرزاق برقم: (١٥٩٢٩)، وابن أبي شيبة برقم: (١٢٢٧٩)، وصححه الألباني في الإرواء برقم: (٢٥٦٢) وقال: "

صحيح على شرط الشيخين".

===== [42] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ حَدِيثَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ

فُلَانٌ وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» ^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]

(لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ فُلَانٌ) لَا : نَاهِيَةٌ ، وَالنَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ ، بَلْ هُوَ شِرْكٌ أَصْغَرُ . وَقَوْلُهُ : (وَشَاءَ

فُلَانٌ) ؛ لِأَنَّ الْوَاوَ لِمُطْلَقِ الْجَمْعِ فَقَدْ تَفْتَضِي التَّسْوِيَةَ (وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ) إِذَا كَانَ

فُلَانٌ سَبَبًا لِأَنَّ (ثُمَّ) فَإِنَّهَا تَفْتَضِي التَّرْتِيبَ مَعَ التَّرَاجِي ، وَالْأَحْسَنُ أَنَّ تَقُولَ : مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ ، وَفِي

الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : إِبْتِاثُ الْمَشِيقَةِ لِلْمَخْلُوقِ خِلَافًا لِلْجَبَرِيَّةِ ، وَفِيهِ كَمَالُ الشَّرِيعَةِ ، حَيْثُ لَمْ تَسُدَّ

بَابًا عَلَى النَّاسِ إِلَّا فَتَحَتْ بَابًا أَحْسَنَ مِنْهُ ، وَفِي هَذَا رَفْعُ الْحَرْجِ عَنِ النَّاسِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّحْعِيِّ: "أَنَّهُ يَكْرَهُ أَعُوذُ بِاللَّهِ وَبِكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ

بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ" قَالَ "وَيَقُولُ لَوْلَا اللَّهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا لَوْلَا اللَّهُ وَفُلَانٌ" ^(٢)]

قَوْلُهُ: "أَنَّهُ يَكْرَهُ أَنْ يَقُولَ" وَالْكِرَاهَةُ عِنْدَ الْمُتَقَدِّمِينَ لَا تَنَافِي فِي التَّحْرِيمِ لِأَنَّ هَذِهِ الْكَلِمَةَ مِنْ شَرِكِ الْأَلْفَافِ

وَالْإِسْتِعَاذَةُ هُنَا الْمَرَادُ بِهَا الْإِسْتِعَاذَةُ بِالْمَخْلُوقِ فِيمَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقُ . وَتَقْدِمُ الْكَلَامَ عَلَى " لَوْلَا "



(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٣٨٤/٥ ، ٣٩٤)، وَأَبُو دَاوُدَ فِي كِتَابِ الْأَدَبِ - بَابُ لَا يُقَالُ خَبِثَتْ نَفْسِي (٤٩٨٠)، وَانْظُرِ الصَّحِيحَةَ

بِرَقْمِ: (١٣٧).

(٢) أَخْرَجَهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ فِي «مُصَنَّفِهِ» (١١/٢٧/١٩٨١١) بِإِسْنَادٍ فِيهِ مَغْيِرَةٌ بَنَ مَقْسَمَ وَكَانَ يَدْلِسُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ .

[٤٣]

بَابُ مَا جَاءَ فِيْمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ مِنَ الْعَايَاتِ وَهَذَا مِنَ الْوَسَائِلِ ، فَعَدَمُ الْمُنَاسَبَةِ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ ذَرْعَةً لِلْحَلْفِ بغيرِهِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ ، مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ ، وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرِضْ ، وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلْيَسِرْ مِنَ اللَّهِ » ^(١) رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهٍ بِسَنَدٍ حَسَنٍ .]

(لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ) لَا : نَاهِيَةٌ ، وَالنَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ ، - وَقَدْ تَقَدَّمَ أَنَّهُ شِرْكٌ أَصْغَرُ - . (مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصْدُقْ) فِيهِ : وَجُوبُ الصِّدْقِ عَلَى مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ وَهُوَ وَاجِبٌ وَإِنْ لَمْ يَحْلِفْ ، فَإِذَا حَلَفَ صَارَ أَوْجِبَ . (وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ ، فَلْيَرِضْ) فَالرِّضَا وَاجِبٌ إِذَا كَانَ ظَاهِرُ الْحَالِفِ الصِّدْقِ ، وَالِدَّلِيلُ عَلَى التَّقْيِيدِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ الْحَالِفَ أَوَّلًا أَنْ يَصْدُقَ ، ثُمَّ أَمَرَ الْمُحْلُوفَ لَهُ بِالرِّضَا . وَمِنْ الْأَدْلَةِ عَلَى تَقْيِيدِ وَجُوبِ الرِّضَا بِمَنْ ظَاهِرُهُ الصِّدْقُ حَدِيثُ الْقَسَامَةِ وَفِيهِ أَنَّ أَوْلِيَاءَ الدِّمِ قَالُوا : (كَيْفَ نَرْضَى بِأَيْمَانِ يَهُودٍ) ^(٢) فَأَقْرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى عَدَمِ رِضَاهُمْ بِالْأَيْمَانِ ؛ لِأَنَّ الْيَهُودَ ظَاهِرُهُمُ الْكُذْبُ . وَكَذَلِكَ يَجِبُ قَبُولُ الْحُكْمِ بِيَمِينِ مَنْ كَانَ ظَاهِرُهُ الْكُذْبُ فِي الْخُصُومَاتِ أَمَامَ الْقَضَاءِ ، وَذَلِكَ لِتَقْرِيطِ الْمُحْلُوفِ لَهُ فِي إِقَامَةِ الْبَيِّنَةِ ، وَحَقُّهُ ثَابِتٌ فِي الْآخِرَةِ أَمَّا مَنْ لَمْ يَكُنْ ظَاهِرُهُ الصِّدْقَ فَيُسْتَحَبُّ أَنْ يُصَدَّقَ ؛ وَذَلِكَ لِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : (رَأَى عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَجُلًا يَسْرِقُ فَقَالَ لَهُ : أَسْرَقْتَ ؟ قَالَ : كَلَّا وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَقَالَ عِيسَى : آمَنْتُ بِاللَّهِ وَكَذَّبْتُ عَيْنِي) ^(٣) . قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ

(١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الكفارات - باب من حلف له بالله فليرض (٢١٠١) ، وصححه الألباني في « صحيح ابن ماجه » .

(٢) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه برقم : (١٨٢٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ، برقم : (٣٤٤٤) .

فِي قَلْبِ عِيْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ أَجَلَ مَنْ أَنْ يَحْلِفَ بِهِ أَحَدٌ كَاذِبًا^(١). (وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللّٰهِ) فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ : أَنَّ عَدَمَ الرِّضَا بِالْحَلْفِ بِاللّٰهِ لِمَنْ ظَاهِرُهُ الصِّدْقُ مِنَ الْكِبَائِرِ . وَ أَنَّ مَنْ بُذِلَتْ لَهُ الْيَمِينُ فَلَمْ يَرْضَ إِلَّا بِالْحَلْفِ بِالطَّلَاقِ وَنَحْوِهِ فَهُوَ دَاخِلٌ فِي هَذَا الْوَعِيدِ ؛ لِسُوءِ أَدْبِهِ وَضَعْفِ تَعْظِيمِهِ لِرَبِّهِ . وَفِي الْحَدِيثِ دَعْوَةٌ إِلَى التَّوَاضُّعِ وَإِحْسَانِ الظَّنِّ بِالنَّاسِ وَالْعَمَلُ عَلَى أَسْبَابِ اجْتِمَاعِ الْقُلُوبِ ، وَفِيهِ سَمَاحَةٌ هَذِهِ الشَّرِيعَةِ وَأَنَّهَا إِذَا حَرَّمَ شَيْئًا حَرَّمَتْ أَسْبَابَهُ.



(١) إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان، ١١٥/٢ .

[٤٤]

بَابُ قَوْلُ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ هَذِهِ اللَّفْظَةَ مِنْ شِرْكِ الْأَلْفَاظِ.

— قَالَ الْإِمَامُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — [عَنْ قُتَيْبَةَ أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، وَتَقُولُونَ وَالْكَعْبَةَ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَخْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا وَرَبِّ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شِئْتُ ^(١) رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.]

(قُتَيْبَةُ) بِنْتُ صَيْفِي صَحَابِيَّةٌ مُهَاجِرَةٌ لَيْسَ لَهَا فِي سُنَنِ النَّسَائِيِّ غَيْرُ هَذَا الْحَدِيثِ. وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْقَوَائِدِ :

١- أَنَّ مَعْرِفَةَ الْحَقِّ لَا تَسْتَلِزُّ الْإِيمَانَ بِهِ فَفِيهِ رَدٌّ عَلَى غُلَاةِ الْمُرْجئةِ الَّذِينَ جَعَلُوا الْإِيمَانَ هُوَ الْمَعْرِفَةُ

٢- وَفِيهِ قَبُولُ الْحَقِّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ.

٣- وَفِيهِ أَنَّ الْحَلْفَ بِغَيْرِ اللَّهِ شِرْكٌ أَصْغَرُ.

٤- وَفِيهِ أَنَّ قَوْلَ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ) شِرْكٌ أَصْغَرُ.

٥- وَفِيهِ إِبْثَاتُ الْمَشِيئَةِ لِلْمَخْلُوقِ.

٦- وَفِيهِ إِرْشَادُ الدَّاعِيَةِ إِلَى بَدِيلٍ شَرْعِيٍّ عَمَّا يَنْهَى عَنْهُ ؛ لِرَفْعِ الْحَرَجِ إِنْ وُجِدَ.

٧- وَفِيهِ فَهْمُ الْيَهُودِ لِلشِّرْكِ الْأَصْغَرِ .

قَالَ الْإِمَامُ — رَحِمَهُ اللَّهُ — [وَلَهُ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتُ، فَقَالَ "أَجْعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟ بَلْ! مَا شَاءَ اللَّهُ وَخَدَهُ" ^(٢).]

(١) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي كِتَابِ الْإِيمَانِ وَالنَّدْوَرِ - بَابِ الْحَلْفِ بِالْكَعْبَةِ (٣٧٧٣)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ الصَّحِيحَةَ بِرَقْمِ: (١٣٦).

(٢) أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» (٩٨٨)، وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ بِرَقْمِ: (١٣٩).

وَفِي الْحَدِيثِ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِ لَا سِيَّمَا إِنْ كَانَ لَمْ لَهُ تَعَلُّقٌ بِالْإِعْتِقَادِ ، وَفِي الْحَدِيثِ السَّابِقِ قَالَ : (قُولُوا : مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ شَاءَ فَلَانٌ) وَهَذَا قَالَ : (مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ) فَأَلَوَى جَائِزَةً وَالثَّانِيَةُ أَكْمَلُ وَأَفْضَلُ ، وَقَدْ تَتَعَيَّنَ فِيمَا لَيْسَ لِلْعَبْدِ فِيهِ مَشِيئَةٌ . وَيَلْحَقُ بِهَذَا اللَّفْظِ : مِنْ بَرَكَاتِ اللَّهِ وَبَرَكَاتِكَ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَابِنْ مَاجَهَ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأَمِّهَا : قَالَ : «رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ : قُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ غُزِيرَ ابْنِ اللَّهِ قَالُوا : وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى فَقُلْتُ : إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ قَالُوا : وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنْكُمْ تَقُولُونَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ ، قَالَ : "هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟" قُلْتُ : نَعَمْ قَالَ : فَحَمِدَ اللَّهُ وَأَتَيْتُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ قَالَ : "أَمَّا بَعْدُ ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا : فَلَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللَّهُ وَحْدَهُ" ^(١) .

(الطُّفَيْلُ) هُوَ ابْنُ الْحَارِثِ وَقِيلَ : ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَخْبَرَةَ ، قَدِمَ أَبُوهُ مَكَّةَ وَحَالَفَ أَبَا بَكْرٍ ، فَمَاتَ وَتَزَوَّجَ أَبُو بَكْرٍ أُمَّ رُومَانَ ، زَوْجَتُهُ فَوَلَدَتْ لَهُ عَبْدَ الرَّحْمَنِ وَعَائِشَةَ . قَوْلُهُ : (رَأَيْتُ) أَيُّ : فِي الْمَنَامِ ، (نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ) النَّفَرُ اسْمُ جَمْعٍ يَقَعُ عَلَى الْجَمَاعَةِ مَا بَيْنَ الثَّلَاثَةِ إِلَى الْعَشْرَةِ ، (إِنَّكُمْ لَأَنْتُمْ الْقَوْمُ) هَذَا الْإِسْلُوبُ فِيهِ تَعْظِيمُ الْمُخَاطَبِ ، (لَوْلَا أَنْكُمْ) لَوْلَا : حَرْفُ امْتِنَاعٍ لُجُودٍ ، فَيَمْتَنِعُ مَذْحُكُكُمْ لُجُودِ الشِّرْكَ مِنْكُمْ ، وَفِيهِ : التَّلَطُّفُ فِي الْإِنْكَارِ وَإِنْ عَظُمَ الْمُنْكَرُ ، وَفِيهِ انْتِبَاهُ أَهْلِ الْبَاطِلِ لِمَا يَقَعُ فِيهِ أَهْلُ

(١) أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي «مُسْنَدِهِ» (٧٢/٥) وَالْفَلْظُ لَهُ ، وَابْنُ مَاجَهَ فِي كِتَابِ الْكُفَرَاتِ - بَابُ النَّهْيِ أَنْ يُقَالَ مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ (٢١١٨) ، وَقَالَ شُعَيْبُ الْأَرْنَؤُوطُ : «حَدِيثٌ صَحِيحٌ» وَصَحَّحَهُ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ فِي الصَّحِيحَةِ بِرَقْمٍ : (١٣٨) ، وَالشَّيْخُ مَقْبَلُ الْوَادِعِيِّ فِي الصَّحِيحِ الْمُسْنَدِ (٤٤٥/١) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الْحَقِّ مِنْ تَقْصِيرٍ وَإِنْ دَقَّ ، وَفِيهِ أَنَّهُ يَلْزِمُهُمْ أَنْ يُقَرُّوا بِفَضْلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ إِنْ هِيَ تَرَكَّتِ الشِّرْكَ ، (فَحَمِدَ
 اللَّهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ) الْحَمْدُ : وَصَفُ اللَّهِ بِالْكَمَالِ ، وَالثَّنَاءُ : تَكَرُّرُ الْمَحَامِدِ . (يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا) قَالَ
 بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ : إِنَّهُ لَمْ يُنْهَ عَنْهُ ثُمَّ نَهَى عَنْهُ فَأَمَرَ بِالْإِنْكَارِ وَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يُقَالَ مَنَعَهُ الْحَيَاءُ مِنْ ذَلِكَ .
 وَإِنَّمَا وَقَعَ النَّهْيُ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ عَنِ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ ثُمَّ جَاءَ النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ الْأَصْغَرِ وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ
 الرُّؤْيَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا فِي التَّشْرِيعِ فِي حَيَاتِهِ ﷺ فَقَطُّ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا تَشْرِيعًا بَعْدَ وَفَاتِهِ لِأَنَّ الشَّرِيعَةَ قَدْ
 تَمَّتْ فِي حَيَاتِهِ^(١)



(١) أفدتها من الشيخ الشيخ العصيمي - حفظه الله -.

[٤٥]

بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ؛ لِأَنَّ سَبَّ الدَّهْرِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ .
وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ: (مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ) السَّبُّ هُوَ الشَّتْمُ وَاللَّعْنُ وَالِدُعَاءُ ، وَلَا يَدْخُلُ فِي سَبِّهِ وَصْفُهُ بِالشَّدَّةِ

، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﴿ وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ (٧٧)

سُورَةُ هُودٍ قَوْلُهُ (فَقَدْ آذَى اللَّهَ) لِأَنَّ ذَلِكَ يُغْضِبُهُ وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْأَذَى الضَّرَرُ لِحَدِيثِ أَبِي ذَرٍّ - رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُ - : (إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوِي) رَوَاهُ مُسْلِمٌ

- قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا

إِلَّا الدَّهْرُ ﴾ (١)] .

هَذَا قَوْلُ الدَّهْرِيَّةِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْبَعْثِ ، فَمَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ شَابَهُهُمْ فِي نِسْبَةِ الْهَلَاكِ إِلَى الدَّهْرِ
وَإِنْ لَمْ يُوَافِقْهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ .

- قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ()
يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلِبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ) (٢) ، وَفِي رِوَايَةٍ: (لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛
فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ) (٣)] .

(يُؤْذِنِي ابْنُ آدَمَ) فِيهِ: أَنَّ اللَّهَ يَتَأَذَى بِأَفْعَالِ عِبَادِهِ السَّيِّئَةِ. قَوْلُهُ (يَسُبُّ الدَّهْرَ) بَيَانٌ لِلأَذَى. قَالَ ابْنُ
الْقَيْمِ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (فِي السَّبِّ ثَلَاثَةٌ مَفَاسِدٍ : أَحَدُهَا : سَبُّهُ مَنْ لَيْسَ أَهْلًا لِلْسَّبِّ ، الثَّانِيَةُ : أَنَّ سَبَّهُ

(١) سُورَةُ الْجَاثِيَةِ الْآيَةُ: ٢٤ .

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ - بَابُ { وَمَا يَهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ } (٤٨٢٦) ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا -
بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ (٢٢٤٦) .

(٣) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْأَلْفَاظِ مِنَ الْأَدَبِ وَغَيْرِهَا بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ (٢٢٤٦)

مُتَضَمِّنٌ لِلشِّرْكِ ، فَإِنَّهُ إِمَّا سَبَّهُ لِظَنِّهِ أَنَّهُ يَضُرُّ وَيَنْفَعُ ، وَأَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ ظَالِمٌ ، الثَّالِثَةُ : أَنَّ السَّبَّ مِنْهُمْ إِمَّا يَنْفَعُ عَلَى مَنْ فَعَلَ هَذِهِ الْأَفْعَالَ ... فَسَابُّ الدَّهْرِ دَائِرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ لَا بَدَ مِنْ أَحَدِهِمَا : إِمَّا مَسَبَّهُ اللَّهُ تَعَالَى أَوْ الشِّرْكَ بِهِ ، فَإِنَّهُ إِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ الدَّهْرَ فَاعِلٌ مَعَ اللَّهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ ، وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّ اللَّهَ وَحْدَهُ هُوَ الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ وَهُوَ يَسُبُّ مَنْ فَعَلَهُ فَهُوَ سَابُّ اللَّهِ تَعَالَى ^(١) . وإذا اعتقد أن الفاعل هو الله والدهر سبب مؤثر فيكون من الشرك الأصغر ^(٢) (وَأَنَا الدَّهْرُ أَقْلَبُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) : قَالَ الْخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - (: إِمَّا كَانُوا يَسُبُّونَ الدَّهْرَ عَلَى أَنَّهُ هُوَ الْمُؤَلِّمُ بِهِمْ فِي الْمَصَائِبِ وَالْمَكَارِهِ وَيُضَيِّفُونَ الْفِعْلَ فِيمَا يَنَاهُهُمْ مِنْهَا إِلَيْهِ ثُمَّ يَسُبُّونَ فَاعِلَهَا فَيَكُونُ مَرْجِعُ السَّبِّ فِي ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ إِذْ هُوَ الْفَاعِلُ لَهَا فَقِيلَ عَلَى ذَلِكَ لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ ، أَيْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْفَاعِلُ لِهَذِهِ الْأُمُورِ الَّتِي تُضَيِّفُونَهَا إِلَى الدَّهْرِ) . ^(٣)

وَتَبَيَّنَ بِهَذَا خَطَأُ مَنْ عَدَّ الدَّهْرَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ كَابْنِ حَزْمٍ وَذَلِكَ مِنْ أَوْجُهٍ : الْأَوَّلُ : أَنَّ الدَّهْرَ اسْمُ جَامِدٍ لَا حُسْنَ فِيهِ ، وَأَسْمَاءُ اللَّهِ كُلُّهَا حَسَنَى . الثَّانِي : أَنَّ الْمَقْلَبَ بِالْكَسْرِ غَيْرُ الْمَقْلَبِ بِالْفَتْحِ . الثَّالِثُ : أَنَّهُ لَوْ كَانَ الدَّهْرُ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ لاسْتَلْزَمَ إِيْمَانُ الدَّهْرِيَّةِ وَمَا لَزِمَ مِنْهُ بَاطِلٌ فَهُوَ بَاطِلٌ .



(١) زاد المعاد، ٢/ ٣٢٣ .

(٢) أفدتها من شرح الشيخ الشيخ العصيمي - حفظه الله - .

(٣) معالم السنن ١٥٨/٤

بَابُ التَّسْمِي بِقَاضِي الْقَضَاةِ وَنَحْوِهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ ، فَمِنْهَا التَّسْمِي بِهَذَا الْإِسْمِ وَمَا هُوَ فِي حُكْمِهِ . مِنَ الْأَسْمَاءِ الْمُخْتَصَّةِ بِهِ كَالرَّحْمَنِ وَالْإِسْمِ الْعَظِيمِ فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ لَا يُجَوِّزُ التَّسْمِي بِهَا .

- قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ» ^(١) . قَالَ سُفْيَانُ : مِثْلُ شَاهَانٍ شَاهٌ . وَفِي رِوَايَةٍ : «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ» ^(٢) . قَوْلُهُ " أَخْنَعَ " يَعْنِي أَوْضَعَ .]

(فِي الصَّحِيحِ) هَذَا الْحَدِيثُ فِي الصَّحِيحَيْنِ ، (إِنَّ أَخْنَعَ) أَي : أَوْضَعَ وَأَدَلَّ ، (إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ رَجُلٌ تَسْمَى مَلِكَ الْأَمْلاَكِ) لَمَا كَانَ قَصْدُهُ غَيْرَ مَشْرُوعٍ عَامِلَهُ اللَّهُ بِتَقْيِضِ قَصْدِهِ ؛ لِأَنَّهُ أَرَادَ التَّعَاطُفَ فَوَضَعَهُ اللَّهُ ، تَسْمَى : بِنَفْسِهِ ، وَيُرْوَى يُسَمَّى : أَي : سَمَّاهُ غَيْرُهُ وَرَضِيَ بِذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مَلِكَ الْأَمْلاَكِ هُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ فَهُوَ الَّذِي اخْتَصَّ بِهِ وَيَجُزُّ عَلَى الْعَبْدِ الْمَمْلُوكِ أَنْ يُنَازِعَ اللَّهَ فِي أَسْمَائِهِ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا فَمِنْ الْأَسْمَاءِ الَّتِي لَا يُسَمَّى بِهَا غَيْرُهُ الرَّحْمَنُ وَاللَّهُ وَالْقُدُّوسُ لِمَا فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنَ الْمَعَانِي الَّتِي لَا تَلِيْقُ إِلَّا بِهِ سُبْحَانَهُ . وَلِهَذَا كَانَ أَحَبُّ الْأَسْمَاءِ إِلَى اللَّهِ (عَبْدَ اللَّهِ وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ) لِمَا فِيهَا مِنَ التَّوَاضُّعِ وَالْإِعْتِرَافِ بِالْعُبُودِيَّةِ . (لَا مَالِكَ إِلَّا اللَّهُ) الْمَالِكُ : هُوَ الَّذِي نَقَدَ أَمْرُهُ وَسَيَّطَرَّتْهُ ، فَلَا مَالِكَ حَقِيقَةً إِلَّا اللَّهُ ؛ لِأَنَّ مُلْكَهُ مُطْلَقٌ وَلَهُ فِيهِ التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ . وَغَيْرُهُ مُلْكُهُ مُقَيَّدٌ ، وَلَيْسَ لَهُ فِيهِ التَّصَرُّفُ الْمُطْلَقُ . قَوْلُهُ : (قَالَ سُفْيَانُ : مِثْلُ شَاهَانٍ شَاهٌ) سُفْيَانُ : هُوَ ابْنُ عَيْنَةَ . وَمُرَادُهُ : أَنَّ النَّهْيَ لَا يَنْحَصِرُ فِي مَلِكٍ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب- باب أبغض الأسماء إلى الله(٦٢٠٦)، ومسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك وملك الملوك (٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الآداب- باب تحريم التسمي بملك الأملاك بملك الملوك (٢١٤٣).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

الْأَمْلاكِ بَلَّ كُلُّ مَا أَدَّى مَعْنَاهُ، بِأَيِّ لِسَانٍ كَانَ فَهُوَ مُرَادٌّ بِالدِّمِّ ، فَيُقَاسُ عَلَيْهِ : سِتُّ الْكَلِّ ، وَسَيِّدُ النَّاسِ ، وَمَلِكُ الْمُلُوكِ وَسَيِّدُ السَّادَاتِ وَحَاكِمُ الْحُكَاِمِ وَلَا يَخْفَى مَا فِي هَذِهِ الْأَسْمَاءِ مِنَ الْجُرْأَةِ عَلَى اللَّهِ ، فَإِنْ قَصَدَ حَقِيقَةَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَهُوَ كُفْرٌ أَكْبَرُ وَإِنْ لَمْ يَقْصِدِ الْمَعْنَى فَتَكُونُ مِنْ شَرِّ الْأَلْفَاظِ وَفِي الْأَثَرِ: أَنَّهُ مَتَى وَقَعَ فِي كَلَامِ الْعَجَمِ مَعْنَى مَنْهِيٍّ عَنْهُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ يَكُونُ مَنْهِيًّا عَنْهُ ^(١) أَيْضًا وَفِيهِ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْغَيْظِ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَهُوَ شِدَّةُ الْعُضَبِ.



(١) أفادها الشيخ الشيخ العصيمي - حفظه الله - .

[٤٧]

بَابُ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْإِسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَدَّثَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنَ التَّسْمِي بِأَسْمَاءٍ يَخْتَصُّ بِهَا اللَّهُ وَحْدَهُ لِمَا فِيهَا مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ ، وَفِي هَذَا الْبَابِ يُرْشَدُ إِلَى تَرْكِ التَّسْمِي بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَإِنْ لَمْ يَخْتَصَّ اللَّهُ بِهَا وَذَلِكَ إِذَا لُوْحِظَ فِيهَا مَعْنَى الصِّفَةِ وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ وَجُوبِ احْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَتَغْيِيرِ الْإِسْمِ لِأَجْلِ احْتِرَامِهَا، وَالاحْتِرَامُ مَعْنَاهُ رِعَايَةُ الْحَرَمَةِ وَالْجَنَابِ وَالْحَذَرُ مِنْ امْتِهَانِهَا وَاحْتِفَارِهَا

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ : «أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ : (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ، فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟ قُلْتُ : شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ، قَالَ : فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟ قُلْتُ : شُرَيْحٌ قَالَ : فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ » ^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.]

(أَبُو شُرَيْحٍ) هُوَ هَانِي بْنُ يَزِيدَ الْكِنْدِيُّ ، يُكْنَى بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيدِ ، وَالتَّخْفِيفُ أَفْصَحُ. (إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ) الْجُمْلَةُ الْأُولَى فِيهَا أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَكَمُ أَيُّ الْحَاكِمِ وَحْدَهُ ؛ لِأَنَّ ضَمِيرَ الْفَصْلِ يُفِيدُ الْحُضَرَ، فَهُوَ الَّذِي يَحْكُمُ بَيْنَ الْخَلَائِقِ وَحْدَهُ. وَفِيهَا أَنَّ الْحَكَمَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى (وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ) أَيُّ : إِنَّ الْحَكَمَ فِي الْأُمُورِ يَرْجِعُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ ؛ لِتَقْدِيمِ مَا حَقُّهُ التَّأْخِيرُ ، الْحَكْمُ : مَصْدَرٌ (فَقَالَ : إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ) هَذَا بَيَانٌ لِسَبَبِ كُنْيَتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَفْسَهُ . وَأَنَّهَا لَمْ تُكُنْ تَسْمِيَةً مُجَرَّدَةً عَنِ الْمَعْنَى . (فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ) أَيُّ أَنَّهُ يَعْدِلُ بَيْنَهُمْ وَيَقْبَلُونَ حُكْمَهُ. قَوْلُهُ (فَقَالَ : مَا أَحْسَنَ هَذَا!) فِيهِ : اسْتِحْبَابُ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَفِيهِ الثَّنَاءُ عَلَى الْحَسَنِ. قَوْلُهُ : (فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في تغيير الاسم القبيح (٤٩٥٥)، والنسائي في كتاب أداب القضاة - باب إذا حكموا رجلاً ففضى بينهم (٥٣٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح سنن النسائي».

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 (؟) يشمل الْوَلَدَ لُغَةً الذَّكْرَ وَالْأُنْثَى. وَفِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ. (قُلْتُ: شَرِيحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللَّهِ ،
 قَالَ : فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟ قُلْتُ: شَرِيحٌ) وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ الْوَاوَ لَا تُفِيدُ التَّرْتِيبَ ، إِذْ لَوْ
 كَانَتْ تُفِيدُ التَّرْتِيبَ لَمَا سَأَلَهُ عَنْ أَكْبَرِهِمْ ، وَفِيهَا اسْتِحْبَابُ الْكُنْيَةِ بِالْأَكْبَرِ مِنَ الْأَوْلَادِ. وَغَيْرَ لَهُ النَّبِيُّ
 ﷺ كُنْيَتُهُ

لَأَنَّهُ لَوْحِظَ فِي كُنْيَتِهِ مَعْنَى الصِّفَةِ فَلَيْسَتْ هِيَ عَلَمًا مُحْضًا ، بَلْ تَضُمُّنَتْ مَعْنَى مَقْصُودًا وَبِذَلِكَ يَكُونُ
 قَدْ شَارَكَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَسْمِ لِذَلِكَ هِيَ عَنْهُ وَلِهَذَا لَمْ يُعَيِّرِ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ أَسْمَاءِ الْحَكَمِ مِنَ الصَّحَابَةِ ؛
 كَالْحَكَمِ بْنِ الْحَارِثِ وَالْحَكَمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ وَحَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ وَغَيْرِهِمْ ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يُلْحَظْ فِي أَسْمَائِهِمْ
 ذَلِكَ. وَفِيهِ الْمَنْعُ مِنَ التَّسْمِيَةِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى إِذَا لُوحِظَ فِيهَا مَعْنَى الصِّفَةِ



بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ أَوْ تُثَنِّفُ كَمَالَهُ. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : (مَنْ هَزَلَ) أَيُّ : سَخِرَ وَاسْتَهْزَأَ عَلَى وَجْهِ الْمَزَاحِ ، وَلَمْ يَذْكُرْ جَوَابَ الشَّرْطِ وَهُوَ : (فَقَدْ كَفَرَ) فَإِذَا هَزَلَ بِاللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يَكْفُرُ كُفْرًا يُخْرِجُ مِنَ الْمِلَّةِ ، وَإِذَا هَزَلَ بِشَيْءٍ لَا يَعْلَمُ أَنَّهُ يَرْجِعُ إِلَى اللَّهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الْقُرْآنِ فَإِنَّهُ يُعْلَمُ بِذَلِكَ فَإِنْ سَخَرَ كَفَرَ .
مَسْأَلَةٌ : فِي تَوْبَةِ مَنْ سَبَّ اللَّهَ أَوْ رَسُولَهُ ﷺ أَوْ كِتَابَهُ . قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ أَنَّ مَنْ سَبَّ اللَّهَ أَوْ كِتَابَهُ يُسْتَتَابُ فَإِنْ تَابَ لَا يُقْتَلُ ، وَ أَمَّا مَنْ سَبَّ الرَّسُولَ ﷺ فَإِنَّهُ يُقْتَلُ وَإِنْ تَابَ ، وَالْقَبُولُ لِلَّهِ وَحْدَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ

وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَمَا يُبْدِيهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴾ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ

إِيمَانِكُمْ ﴿ ١ 〉] .

قَوْلُهُ : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ) الْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَفِي الْجُمْلَةِ بَيَانُ عِلْمِ اللَّهِ السَّابِقِ ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ مَا لَمْ يَكُنْ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ ، (إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ) الْخَوْضُ : هُوَ الْكَلَامُ الْبَاطِلُ ، (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ) الْأَسْتِفْهَامُ الْإِنْكَارِي ، أَيِ كَيْفَ تَسْخَرُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِينَ مَدَحَهُمُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَمَدَحَهُمُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَ (لَا تَعْتَذِرُوا) فِيهِ : أَنَّهُ لَمْ يَقْبَلْ اعْتِذَارَهُمْ ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ فِيهِ ، (قَدْ كَفَرْتُمْ) فِيهِ : أَنَّ الْأَسْتَهْزَاءَ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُفْرٌ ، (بَعْدَ إِيْمَانِكُمْ) فِيهِ : أَنَّهُمْ كَانَ عَنْدهُمْ إِيْمَانٌ ضَعِيفٌ . قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنْ تَعَفَّ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا

مُجَرِّمِينَ ﴿١﴾ عَفَا اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ جَلَسُوا وَكَانَ عِنْدَهُمْ كِرَاهِيَةٌ لِّكِنَّهُمْ دَاهَنُوا ، وَفِي الْآيَةِ ، قَبُولُ تَوْبَةِ الْمُسْتَهْزِئِ ، وَأَنَّ مِنَ الْإِعْدَارِ مَا لَا يَقْبَلُ ، وَفِيهَا الْحَذَرُ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَفَتَادَةَ: "دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُرَائِنَا هَؤُلَاءِ: أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسِنًا، وَلَا أَجَبَنَ عِنْدَ اللَّقَاءِ (يَعْنِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ) فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لِأَخْبَرَنَّا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَتَنَحَدُّثُ حَدِيثَ الرِّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ" قَالَ ابْنُ عُمَرَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ﴿٢﴾. مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ (٣).]

(مُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ) (بْنُ سَلِيمٍ بْنِ حَمَزَةَ الْقُرْظِيُّ الْمَدَنِيُّ) (وَزَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ) (مَوْلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ). (دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ) أَيُّ: أَنَّ الْحَدِيثَ مَجْمُوعٌ رَوَايَاتِهِمْ. (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ فُرَائِنَا) (الْقُرَّاءُ جَمْعُ قَارِيٍّ وَهُمْ عِنْدَ السَّلَفِ الَّذِينَ يَفْرَوُونَ الْقُرْآنَ وَيَفْهَمُونَ مَعَانِيَهُ ، أَمَّا قِرَاءَتُهُ مِنْ غَيْرِ فَهُمْ لَمَعْنَاهُ فَإِنَّهَا لَمْ تَكُنْ تُوْجَدُ عِنْدَ السَّلَفِ ، وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ بَعْدَ ذَلِكَ) (أَرْغَبَ بُطُونًا) أَيُّ : أَوْسَعُ ،

(١) سورة التوبة الآية: ٦٦ .

(٢) سورة التوبة الآية: ٦٥ .

(٣) إسناده ابن عمر حسنه الشيخ مقبل في الصحيح المسند من أسباب النزول، ص: ٧١، وباقي الروايات مرسله رواها ابن جرير (١٦٩٢٨) وابن أبي حاتم (١٠٠٤٧) وأورده الواحدي في أسباب النزول ص: ٢٥٠.

[48] بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ

(فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ) فِيهِ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْإِنْكَارِ ، وَفِيهِ وَصْفُ مَنْ طَعَنَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالنِّفَاقِ .

(لَاخِبَرَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ) . وَفِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ مِنَ الْفَوَائِدِ : أَنَّ مِنَ النَّصِيحِ لِرُؤُوسِ الْأَمْرِ إِخْبَارُهُمْ بِمَقَالَاتِ الْمُفْسِدِينَ ؛ لِيَأْخُذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ ، وَفِيهِ الْفَرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ وَالتَّصْيِيحَةِ . (فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ) فِيهِ : سَعَةُ عِلْمِ اللَّهِ ، وَفِيهِ : عِلْمٌ مِنْ أَعْلَامِ التَّبَوُّةِ ، (فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَدْ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّمَا كُنَّا نَحُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرِّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ) ، قَوْلُهُ : (مُتَعَلِّقًا بِنَسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ) بِنَسْعَةِ أَيِّ : حَبْلٌ أَوْ زِمَامٌ نَاقَتِهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : الْخَوْفُ مِنَ النِّفَاقِ ، وَأَنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ يَكْفُرُ بِكَلِمَةٍ ، وَأَنَّ الْوَقِيعَةَ فِي أَهْلِ الْعِلْمِ نِفَاقٌ .



[٤٩]

بَابُ

ما جاء في قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾^(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ. وَمِنْهَا : نِسْبَةُ نِعَمِهِ سُبْحَانَهُ إِلَى النَّفْسِ الضَّعِيفَةِ ، أَوْ نِسْبَتُهَا إِلَى اللَّهِ مَعَ اعْتِقَادِ أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لَهَا . وَهَذَا مِنَ الْعُجْبِ وَالْإِدْلَالِ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يُنَافِي كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ. (لَكِنَّ أَذَقْنَاهُ) (الضَّمِيرُ يَعُودُ إِلَى الْإِنْسَانِ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ : جِنْسُ الْإِنْسَانِ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ بِالْإِيمَانِ. (رَحْمَةً) أَيِ : غِنًى وَعَافِيَةً. (مِنَّا) أَصَافَهَا إِلَيْهِ لِتَمَامِ مَنَّتِهِ بِهَا. (مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ) فَقَرِّ أَوْ مَرَضٍ. (مَسَّتْهُ) أَيِ: حَسَّ بِهَا وَاتَّزَتْ فِيهِ ، وَالنِّعْمَةُ بَعْدَ الْفَقْرِ ، وَالْعَافِيَةُ بَعْدَ الْمَرَضِ لَدَتْهَا أَتَمُّ وَالسُّرُورُ بِهَا أَعْظَمُ ، (هَذَا لِي) (أَيِ : بِحَوْلِي وَقُوَّتِي) ، (وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً) (بَعْدَ أَنَّ انْعَمَسَ فِي نِعَمِ الدُّنْيَا نَسِيَّ الْآخِرَةِ ، بَلْ أَنْكَرَهَا) (وَلَكِنْ رُجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى) (أَيِ : عَلَىٰ فَرَضِ رُجُوعِي فَإِنَّ اللَّهَ سَيُحْسِنُ إِلَيَّ ؛ لِأَنَّهُ أَحْسَنَ إِلَيَّ هُنَا) (فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا) أَظْهَرَ فِي مَقَامِ الْإِضْمَارِ لِبَيِّنِ الْحُكْمِ وَلَيْسَمَلْ غَيْرَهُ مَنْ وَافَقَهُ فِي الْاعْتِقَادِ وَأَنَّ مَنْ أَنْكَرَ الْبَعْثَ أَوْ شَكَّ فِيهِ فَإِنَّهُ يُكْفَرُ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ مُجَاهِدٌ : " هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مُحَقَّقٌ بِهِ "]^(٢).

(١) سورة فصلت الآية: ٥٠.

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٤٩١/٢١).

(هَذَا بِعَمَلِي وَأَنَا مُحَقَّقٌ بِهِ) أَي: هَذَا بِجُحْدِي وَكَسْبِي وَأَنَا مُسْتَحَقٌّ لَهُ ، وَهَذَا مِنْ كَلَامِ ضَعْفَاءِ الْإِيمَانِ بِمَنْ لَمْ يُحَقِّقِ التَّوْحِيدَ ، فَالْوَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ فَقِيرٌ غَيْرُ مُسْتَحِقٍّ لِسَيِّءٍ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْمُنْفَضُ عَلَيْهِ بِكُلِّ نِعْمَةٍ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : "يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي" (١).]

فَيَنْسُبُهَا لِنَفْسِهِ ، فَظَهَرَ بِهَذَا أَنَّ الْآيَةَ تَشْمَلُ نَوْعَيْنِ : الْأَوَّلُ : مَنْ نَسَبَ النِّعْمَةَ إِلَى اللَّهِ وَلَكِنْ زَعَمَ أَنَّهُ مُسْتَحَقٌّ لَهَا وَهُوَ أَهْلٌ لَهَا ، وَالثَّانِي : مَنْ نَسَبَهَا إِلَى نَفْسِهِ ، وَفِي كِلَا الْحَالَيْنِ لَا يَخْلُو مَنْ تَكَلَّمَ بِهَذَا مِنْ نَوْعِ غُرُورٍ أَوْ شُرْكَ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ يَرْحَمُ عَبْدَهُ وَلَوْ حَاسِبَهُ عَلَى عَمَلِهِ لَمْ تَقُمْ عِبَادَتُهُ وَعَمَلُهُ بِنِعْمَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ النِّعَمِ الَّتِي أَسَدَاهَا اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَهُ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ (٢). قَالَ قَتَادَةُ "عَلَىٰ عِلْمٍ مِّمِّي بِوُجُوهِ الْمَكَاسِبِ" (٣).]

وهذا كَفَرٌ بِالنِّعَمِ وإِعْجَابٌ بِالنَّفْسِ فَاللَّهُ تَعَالَى هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّبَبَ وَجَعَلَهُ مُؤَثَّرًا ، فَهُوَ الْمُنْعِمُ ابْتِدَاءً وَاتْتِهَاءً فَالْوَجِبُ عَلَى الْعَبْدِ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ رُؤْيَا نَفْسِهِ ، وَأَنْ يَعْلَمَ لَا حَوْلَ لَهُ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ آخِرُونَ: (عَلَىٰ عِلْمٍ مِنَ اللَّهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ) (٤) وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ "أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ" (٥).]

فَدَارَ مَعْنَى الْآيَةِ عَلَى النَّوْعَيْنِ السَّابِقَيْنِ

(١) ذكره أبو عبد الله الزرعي في «شفاء العليل» (ص ٣٨).

(٢) سورة القصص الآية: ٧٨.

(٣) أخرجه ابن جرير (٣٢٥-٣٢٦) من طريق معمر، وابن أبي حاتم (٣٠١٢/٩) من طريق قتادة، وذكره القرطبي في «تفسيره» (٢٦٦/١٥)، ورواية معمر عن قتادة صحيحها شيخ الإسلام في «الرد على البكري» (٥٧٧/١) فلا أثر صحيح والحمد لله.

(٤) منهم السدي كما عند أبي حاتم (٣٠١٢/٩)، وذكره الخطيب الشربيني في «تفسيره» (٣٩٣/٩).

(٥) ذكره ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠٤/٢١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا فَأَتَى الْاَبْرَصَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ "لَوْ أَنَّ حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ بِهِ" قَالَ "فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَدْرُهُ، فَأَعْطِي لَوْ أَنَّ حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْاِبْلُ أَوْ الْبَقْرُ (شَكَّ إِسْحَاقُ) فَأَعْطِي نَاقَةً عُشْرَاءَ، وَقَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا" قَالَ "فَأَتَى الْاَقْرَعَ فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَدَرَنِي النَّاسُ بِهِ فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأَعْطِي شَعْرًا حَسَنًا فَقَالَ أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْبَقْرُ أَوْ الْاِبْلُ فَأَعْطِي بَقْرَةً حَامِلًا، قَالَ بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا».

«فَأَتَى الْاَعْمَى، فَقَالَ أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ أَنْ يَزِدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأَبْصُرَ بِهِ النَّاسَ فَمَسَحَهُ فَزَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ قَالَ فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ الْغَنَمُ فَأَعْطِي شَاةً وَالِدًا فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَوُلَدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْاِبِلِ وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ».

قَالَ: «ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْاَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي: فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ: بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي فَقَالَ الْحَقُّوقُ كَثِيرَةٌ فَقَالَ لَهُ كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْدَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا، فَأَعْطَاكَ اللَّهُ الْمَالَ؟ فَقَالَ إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَاطِرًا عَنْ كَاطِرٍ فَقَالَ إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ قَالَ "ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْاَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ هَذَا، وَزَدَّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتُ كَاذِبًا: فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ قَالَ "وَأَتَى الْاَعْمَى فِي صُورَتِهِ فَقَالَ رَجُلٌ مَسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْحَبَالُ فِي سَفَرِي: فَلَا بَلَاعَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ: شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي فَقَالَ قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَزَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ

بَصْرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لِلَّهِ فَقَالَ أَمْسِكْ مَا لَكَ:
فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ: فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» ^(١) أَخْرَجَاهُ.

(أَخْرَجَاهُ) البخاري ومسلم، (قَدَرْنِي النَّاسُ بِهِ) أي: عدوني قدرًا. والشَّاهِدُ من الحديثِ أَنَّ الْأَقْرَعَ
وَالْأَبْرَصَ جَحَدَا نِعْمَةَ اللَّهِ بِنَسَبِهَا إِلَى غَيْرِهِ وَلَمْ يُؤْذِيَا حَقَّ اللَّهِ فِيهَا وَاعْتَرَفَ الْأَعْمَى بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ
وَأَدَّى حَقَّ اللَّهِ فِيهَا وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ: بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَنَّ اللَّهَ يَبْتَلِي بِالنِّعَمِ كَمَا يَبْتَلِي
بِالنِّقَمِ، وَفِيهِ حُسْنُ الْأَدَبِ فِي السُّؤَالِ فِي قَوْلِهِ: (لَا بَلَاعَ لِي إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بَكَ)، وَأَنَّ مَنْ جَحَدَ نِعَمَ اللَّهِ
وَلَمْ يَعْتَرِفْ بِهَا وَنَسَبَهَا إِلَى غَيْرِهِ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِسُخْطِ اللَّهِ، وَأَنَّ مَنْ اعْتَرَفَ بِنِعَمِ اللَّهِ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ وَأَدَّى
حَقَّ اللَّهِ فِيهَا فَقَدْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لِنَيْلِ رِضَاهُ، وَفِيهِ إِثْبَاتُ صِفَتِي السُّخْطِ وَالرِّضَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.



(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ - بَابِ حَدِيثِ أَبْرَصَ وَأَعْمَى وَأَقْرَعَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ (٣٤٦٤)، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الزَّهْدِ
وَالرَّقَائِقِ (٢٩٦٤).

[٥٠]

بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا ءَاتَتْهُمَا صَالِحًا جَمَلًا لَّهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾^(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تَنْقُضُ التَّوْحِيدَ أَوْ تُنَاقِضُ كَمَالَهُ. وَمِنْ ذَلِكَ نِسْبَةُ التَّعَمُّةِ إِلَى غَيْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَوَّلُ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتَ بِهِ ۖ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾^(٢).

قَوْلُهُ: (فَلَمَّا تَغَشَّاهَا) كِنَايَةٌ عَنِ الْجَمَاعِ. قَوْلُهُ (حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا) هَذَا الْحَمْلُ فِي الْأَشْهُرِ الْأُولَى ؛ لِأَنَّهُ يَكُونُ نُطْقَةً ثُمَّ عَلَقَةً ثُمَّ مُضْغَةً. قَوْلُهُ: (فَلَمَّا أَثْقَلَتْ) يَكُونُ ذَلِكَ فِي آخِرِ الْحَمْلِ. قَوْلُهُ: (دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمَا) قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ : الْمُرَادُ آدَمَ وَحَوَّاءَ ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ جِنْسَ الزَّوْجَيْنِ اللَّذَيْنِ يَقَعُ مِنْهُمَا الشَّرْكُ. قَوْلُهُ: (لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا) سَوِيًّا سَالِمًا. قَوْلُهُ: (لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) فِيهَا أَنَّ النَّذَرَ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ. قَوْلُهُ: (جَعَلَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا) شِرْكُ الْأَفَاطِ كَأَنَّ يُضَيِّفَ سَلَامَةَ الْمُؤَلُودِ إِلَى اهْتِمَامِ أُمِّهِ أَوْ عِنَايَةِ الطَّبِيبِ ، وَشِرْكُ أَكْبَرُ كَأَنَّ يَعْتَقِدَ أَنَّ الْوَلِيَّ الْفُلَانِي هُوَ الَّذِي أَعْطَاهُ ذَلِكَ الْمُؤَلُودَ. قَوْلُهُ (فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) فَجَمَعَ الضَّمِيرَ هُنَا ؛ لِأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّشْبِيهِ جِنْسَ الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى لَا آدَمَ وَحَوَّاءَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ ، وَمِنْ الْأَدْلَةِ عَلَى ذَلِكَ ، أَنَّهُ عَبَّرَ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى الْحَالِ أَوْ الْأَسْتِقْبَالِ

(١) سورة الأعراف الآية: ١٩٠.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٨٩-١٩٠.

، وَمِنْ أَقْوَى الأدلة عَلَى أَنَّهُمَا غَيْرُ مُرَادَيْنِ : أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكِبَائِرِ بِاتِّفَاقِ أَهْلِ الْعِلْمِ فَضْلاً عَنِ الشِّرْكَ

. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [قَالَ ابْنُ حَزْمٍ ^(١)] : " اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللَّهِ: كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكُفَّةِ، وَمَا أَشَبَهُ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ " ^(٢)].

(اتَّفَقُوا) أَيِ : أَجْمَعُوا. (حَاشَا عَبْدَ الْمُطَّلَبِ) فَإِنَّهُ مُسْتَثْنَى مِنَ الْإِجْمَاعِ أَيِ : فِيهِ خِلَافٌ ، وَالْحُجَّةُ مَعَ مَنْ مَنَعَ إِذْ سَبَبُ التَّحْرِيمِ قَائِمٌ وَهُوَ التَّعْبِيدُ لِغَيْرِ اللَّهِ ، وَلَا حُجَّةَ لِمَنْ جَوَّزَهُ مُسْتَدَلاً بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ : (أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ) ^(٣) لِأَنَّ هَذَا إِخْبَارٌ لَا إِقْرَارٌ، ثُمَّ إِنَّهُ إِنَّمَا سُمِّيَ عَبْدَ الْمُطَّلَبِ؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَظُنُّونَهُ عَبْدًا لِلْمُطَّلَبِ أَخِيهِ، فَالرَّاجِحُ وَالْأَحْوُطُ بَحْنُ هَذَا الْإِسْمِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - فِي مَعْنَى الْآيَةِ - قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِي أَوْ لَأَجْعَلَ لَهُ قَرْنِي إِيْلَ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشْقُقُهُ، وَلَا فَعْلَ: يُخَوِّفُهُمَا، سَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ فَخَرَجَ مَيِّتًا ثُمَّ حَمَلَتْ فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَذْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمِيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ﴾ ^(٤) . رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ ^(٥)].

(١) هو علي بن احمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره أصله من الفرس أول من أسلم من أسلافه جد له كان يدعي يزيد مولى ليزيد بن أبي سفيان - ﷺ - كانت لابن حزم الوزارة وتدبير المملكة فانصرف عنها إلى التأليف والعلم (٣٨٤ - ٤٥٦ هـ) {الأعلام للزركلي ٥/٥٩} .

(٢) انظر: «مراتب الإجماع» لابن حزم (ص ١٥٤).

(٣) أخرجه البخاري، باب مَنْ قَادَ ذَابَّةَ غَيْرِهِ فِي الْحَرْبِ، برقم: (٢٨٦٤).

(٤) سورة الأعراف الآية: ١٩٠.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٠/٦).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ بَعْدَ أَنْ أُوْرِدَ عِدَّةُ أَسَانِيدَ هَذَا الْأَثَرِ : (هَذِهِ الْأَثَارُ يَظْهَرُ عَلَيْهَا - وَاللَّهُ أَعْلَمُ - أَنَّهَا مِنْ
 آثَارِ أَهْلِ الْكِتَابِ) (١) (٢).

وَحُكْمُ الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ أَنْ تُكَذَّبَ إِذَا وُجِدَ فِي دِينِنَا مَا يُكْذِبُهَا، وَفَدٌ وَجِدَ وَهُوَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنَ
 الْكِبَائِرِ فَضْلًا عَنِ الشَّرِكِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي
 عِبَادَتِهِ (٣)].

هَذَا الْأَثَرُ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَإِنَّمَا احْتِجَاجٌ إِلَى هَذَا التَّأْوِيلِ مَنْ أَرْجَعَ الضَّمِيرَ إِلَى آدَمَ وَحَوَّاءَ وَحَتَّى شَرِكِ
 الطَّاعَةِ لَا نَسْلَمُ بِهِ إِلَّا أَنْ تَحْمِلَ طَاعَةُ الشَّيْطَانِ عَلَى صَغَائِرِ الذُّنُوبِ لِأَنَّ اللَّهَ قَدْ عَصَمَ آدَمَ مِنَ الْكِبَائِرِ
 بِاتِّفَاقٍ وَهَذَا مُحْمَلٌ حَسَنٌ.

وَمِنْ الْأَدْلَةِ عَلَى أَنَّ الضَّمِيرَ فِي الْآيَةِ لَا يَعُودُ لِأَيِّنَا آدَمَ وَأَمَّا حَوَّاءَ أَنَّ اللَّهَ حِينَما ذَكَرَ أَكْلَهُمَا مِنْ
 الشَّجَرَةِ ذَكَرَ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمَا وَاجْتَبَاهُمَا بَعْدَ تَوْبَتِهِمَا وَلَمْ يَذْكُرْ تَوْبَتَهُ عَلَيْهِمَا مِنْ هَذَا الشَّرِكِ وَإِنْ سَمَّيْنَاهُ
 شَرِكًا طَاعَةً كَذَلِكَ لَمْ يَذْكُرْ آدَمَ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِينَا الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ هَذَا الشَّرِكِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ ﴿لَيْنَ ءَاتَيْنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ:
 أَشْفَقًا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا (٤)].

هَذَا الْأَثَرُ إِسْنَادُهُ ضَعِيفٌ ؛ لِأَنَّ فِيهِ يَحْيَا بْنَ يَمَانٍ. قَالَ عَنْهُ الْحَافِظُ : (صَدُوقٌ عَابِدٌ يُحْطِئُ كَثِيرًا وَقَدْ
 تَعَيَّرَ) (٥)

(١) تفسير ابن كثير، ٣٣٦/٢

(٢) راجع كلام الألباني على نحو هذا الأثر في الضعيفة برقم: (: ٣٤٢).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٠/٦)، وابن جرير في تفسيره (١٥٥٢١) بسند صحيح.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣٠٧/٦).

(٥) انظر التقريب (٧٦٧٩).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنْ الْحَسَنِ ^(١) وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا ^(٢)]
أَثَرُ الْحَسَنِ ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ؛ لِلانْقِطَاعِ بَيْنَ الْحَسَنِ وَبَيْنَ الرَّاوي عَنْهُ. وَأَثَرُ سَعِيدٍ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ
(وَسَعِيدٍ) هُوَ ابْنُ جُبَيْرٍ التَّابِعِيُّ ، وَكَلَامُ التَّابِعِيِّ لَا تَثْبُتُ بِهِ مِثْلُ هَذِهِ الْقِصَصِ ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ مِنَ
الْإِسْرَائِيلِيَّاتِ - أَيْضًا. -



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٥٠) وابن جرير (١٥٥١٧) بإسناد ضعيف؛ للانقطاع بين الحسن وبين الراوي عنه معمر.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٨٦٥١) وابن جرير في تفسيره (١٥٥٢٢) بإسناد صحيح.

[٥١]

بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ . - ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ لِتَبَيِّنِ مَا هُوَ الْوَاجِبُ فِي حَقِّ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى مَعَ التَّحْذِيرِ مِنَ الْإِلْحَادِ فِيهَا : (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) لِأَنَّ الْوَاجِبَ التَّعَبُّدُ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى . (وَلِلَّهِ) جَارٌّ وَخَجُورٌ خَبَرٌ مُقَدَّمٌ . (الْأَسْمَاءُ) مُبْتَدَأٌ ، (الْحُسْنَى) نَعْتٌ ، وَتَقْدِيمُ مَا حَقُّهُ التَّأَخِيرُ يُفِيدُ الْحَصْرَ ، أَيُّ : أَنَّ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى لِلَّهِ وَحْدَهُ ، لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ ، وَحُسْنَى : أَيُّ : بِالْعَةِ فِي الْحُسْنِ غَايَتُهُ ، فَهِيَ أَفْعَلُ تَفْضِيلٍ مُؤَنَّثٌ أَحْسَنَ . (فَادْعُوهُ بِهَا) دُعَاءُ اللَّهِ بِأَسْمَائِهِ نَوْعَانِ : الْأَوَّلُ : دُعَاءُ مَسْأَلَةٍ : فَيَتَوَسَّلُ بِالْأَسْمَاءِ الْمُنَاسِبِ لِمَطْلُوبِهِ ، كَأَن يَقُولَ : يَا رَزَاقُ ارْزُقْنِي وَنَحْوَهُ . الثَّانِي : دُعَاءُ الْعِبَادَةِ : قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَأَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَدْعُوهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ دُعَاءُ الْعِبَادَةِ ، وَذَلِكَ بِاسْتِحْضَارِ مَعَانِي الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَتَحْصِيلِهَا فِي الْقُلُوبِ حَتَّى تَتَأَثَّرَ الْقُلُوبُ بِآثَارِهَا وَمُقْتَضِيَّاتِهَا ، وَتَمْتَلِئَ بِأَجْلِ الْمَعَارِفِ . فَمَثَلًا أَسْمَاءُ الْعَظَمَةِ وَالْكِبَرِيَاءِ وَالْمَجْدِ وَالْجَلَالِ وَالْهَيْبَةِ تَمَلَأُ الْقُلُوبَ تَعْظِيمًا لِلَّهِ وَاجْتِلَالًا لَهُ . وَأَسْمَاءُ الْجَمَالِ وَالْبَرِّ وَالْإِحْسَانِ وَالرَّحْمَةِ وَالْجُودِ تَمَلَأُ الْقُلُوبَ مَحَبَّةً لِلَّهِ وَشَوْقًا لَهُ وَحَمْدًا لَهُ وَشُكْرًا . وَأَسْمَاءُ الْعِزِّ وَالْحِكْمَةِ وَالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ تَمَلَأُ الْقُلُوبَ خُضُوعًا لِلَّهِ وَخُشُوعًا وَانْكِسَارًا بَيْنَ يَدَيْهِ . وَأَسْمَاءُ الْعِلْمِ وَالْحَيَرَةِ وَالْإِحَاطَةِ وَالْمُرَاقِبَةِ

(١) سورة الأعراف الآية: ١٨٠.

وَالْمُشَاهِدَةَ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ مُرَاقِبَةً لِلَّهِ فِي الْحَرَكَاتِ وَالسَّكِنَاتِ ، وَحِرَاسَةً لِلْخَوَاطِرِ عَنِ الْافْكَارِ الرَّدِيَةِ وَالْإِرَادَاتِ الْفَاسِدَةِ . وَأَسْمَاءُ الْغِنَى وَاللُّطْفِ تَمْلَأُ الْقُلُوبَ افْتِقَارًا وَاضْطِرَارًا إِلَيْهِ ، وَالتَّفَاتُ إِلَى كُلِّ وَقْتٍ ، وَفِي كُلِّ حَالٍ . فَهَذِهِ الْمَعَارِفُ الَّتِي تَحْصُلُ لِلْقُلُوبِ بِسَبَبِ مَعْرِفَةِ الْعَبْدِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ ، وَتَعْبُدُهُ بِهَا لِلَّهِ لَا يُحْصِلُ الْعَبْدُ فِي الدُّنْيَا أَجَلَ وَلَا أَفْضَلَ وَلَا أَكْمَلَ مِنْهَا ، وَهِيَ أَفْضَلُ الْعَطَايَا مِنَ اللَّهِ لِعَبْدِهِ ، وَهِيَ رُوحُ التَّوْحِيدِ وَرُوحُهُ . وَمِنْ انْفَتْحَ لَهُ هَذَا الْبَابُ انْفَتْحَ لَهُ بَابُ التَّوْحِيدِ الْخَاصِّ ، وَالْإِيمَانُ الْكَامِلُ الَّذِي لَا يَحْصُلُ إِلَّا لِلْكَامِلِ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ ، وَإِثْبَاتُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ هُوَ الْأَصْلُ لِهَذَا الْمَطْلَبِ الْأَعْلَى^(١) أَمَّا .

(وَذَرُوا الَّذِينَ) أَيُ : أَتَرَكُوهُمْ وَ لَا تَسْلُكُوا مَسْلَكَهُمْ ، وَفِي هَذَا تَهْدِيدٌ لَهُمْ . (يُلْحِدُونَ) الْإِلْحَادُ لُغَةً : الْمَيْلُ ، وَشَرْعًا : هُوَ الْمَيْلُ بِهَا عَمَّا يَجِبُ فِيهَا .

أنواع الإلحاد:

الأول : أَنْ يُنْكِرَ مِنْهَا شَيْئًا أَوْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْأَحْكَامِ أَوْ الصِّفَاتِ وَمِنْهُ مَا رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ، قَوْلُهُ : " { الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } التَّكْذِيبُ " ^(٢) ،
الثَّانِي : أَنْ يُسَمِّيَ اللَّهُ بِمَا لَمْ يُسَمَّ بِهِ نَفْسَهُ وَمِنْهُ تَسْمِيَةُ النَّصَارَى لَهُ بِالْإِلَهِ .
الثَّالِثُ : أَنْ يَدْعِيَ أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى التَّمَثِيلِ .

الرَّابِعُ : أَنْ يَشْتَقَّ مِنْهَا أَسْمَاءٌ لِلْأَلِهَةِ الْبَاطِلَةِ لِمَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ ، عَنْ مُجَاهِدٍ : " { وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ } قَالَ : اسْتَقْبُوا الْعَزَى مِنَ الْعَزِيزِ ، وَاسْتَقْبُوا اللَّاتَ مِنَ اللَّهِ " .
الخَامِسُ : أَنْ يُحَرِّفَهَا عَمَّا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي . (سَيَجْزُونَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) إِشَارَةٌ إِلَى عَذَابِهِ وَأَنَّهُ سَيَجْزِيهِمْ عَلَى إِلْحَادِهِمْ

(١) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ١٧٦-١٧٧ .

(٢) رواه ابن أبي حاتم في تفسيره برقم (٨٥٨٣) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ ﴿يُحَدِّثُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾
يُشْرِكُونَ وَعَنْهُ سُمُّوا آلَاتٌ مِنَ الْإِلَهِ، وَالْعَزَى مِنَ الْعَزِيرِ^(١).]

قَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْحَفِيد: (هَذَا الْأَثَرُ لَمْ يَرَوْهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ وَإِنَّمَا رَوَاهُ عَنْ قَتَادَةَ، وَلَا
شَكَّ أَنَّ الْإِلْحَادَ فِي أَسْمَائِهِ شِرْكٌ) وَهَذَا هُوَ النَّوْعُ الرَّابِعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ الَّتِي مَضَتْ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنِ الْأَعْمَشِ "يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا"^(٢).]
(الْأَعْمَشُ) هُوَ سُلَيْمَانُ بْنُ مَهْرَانَ أَبُو مُحَمَّدٍ الْفَقِيهُ حَافِظٌ وَرِعٌ، مَاتَ سَنَةَ ١٤٧ هـ. وَقَدْ مَضَى أَنَّ هَذَا
هُوَ النَّوْعُ الثَّانِي مِنْ أَنْوَاعِ الْإِلْحَادِ الَّتِي ذُكِرَتْ.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٢٩٢/٦).

(٢) المصدر السابق.

[٥٢]

بَابُ لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ قَوْلَ السَّلَامِ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجَهْلِ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، إِذْ أَنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَكَيْفَ يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ وَهُوَ السَّلَامُ وَمَعْنَاهُ: السَّلَامُ مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَعَيْبٍ ، الَّذِي يُسَلِّمُ غَيْرَهُ مِنَ الْآفَاتِ وَالنَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ: «عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ: قُلْنَا السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ " لَا تَقُولُوا السَّلَامَ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ » ^(١)].

قَوْلُهُ: (فِي الصَّلَاةِ) الْمُرَادُ فِي التَّشَهُّدِ ، وَالنَّهْيُ يَشْمَلُ فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجَهَا (لَا تَقُولُوا السَّلَامَ عَلَى اللَّهِ) فِيهِ : تَحْرِيمُ قَوْلِ: السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ يَفْتَضِي أَنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ إِلَى مَنْ يُسَلِّمُهُ ، (فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ) صَرِيحٌ فِي أَنَّ السَّلَامَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ ، وَمَعْنَاهُ أَنَّ اللَّهَ مُتَصِفٌ بِالْكَمَالِ ، وَمَا كَمُلَ مِنْ كَمُلٍ إِلَّا بِتَكْمِيلِ اللَّهِ لَهُ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : حُسْنُ تَعْلِيمِ النَّبِيِّ ﷺ حَيْثُ قَرَنَ الْحُكْمَ بِعِلَّتِهِ ، وَفِي قَرْنِ الْحُكْمِ بِعِلَّتِهِ طُمَأْنِينَةُ الْمُكَلَّفِ لِلْحُكْمِ ، وَبَيَانُ سُمُومِ الشَّرِيعَةِ وَأَنَّهَا تَشْتَمِلُ عَلَى الْحِكْمَةِ فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ ، وَمَشْرُوعِيَّةُ الْقِيَاسِ ، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَنْ فَعَلَ مُحَرَّمًا جَاهِلًا لَا شَيْءَ عَلَيْهِ.



(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة - باب من سمى قومًا أو سلم في الصلاة على غيره (١٢٠٢)، ومسلم في كتاب الصلاة - باب التشهد في الصلاة (٤٠٢).

[٥٣]

بَابُ قَوْلِ اللَّهِ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ ، وَقَدْ ذَكَرَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ النَّهْيَ عَنْ قَوْلِ : السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ بِمَا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِهِ وَعَنَائِهِ وَافْتِقَارِ الْخَلْقِ إِلَيْهِ . وَفِي هَذَا الْبَابِ نَهَى عَنْ هَذَا اللَّفْظِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَى اسْتِغْنَاءِ الْعَبْدِ عَنِ اللَّهِ وَعَدَمِ حَاجَتِهِ إِلَى مَغْفِرَةِ رَبِّهِ وَرَحْمَتِهِ ، وَهَذَا يَتَنَافَى مَعَ كَمَالِ خُضُوعِهِ ، كَمَا أَنَّهُ يُشْعِرُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ تَثَقَّلَ عَلَيْهِ الْمَغْفِرَةُ لِعَبْدِهِ ، وَهَذَا يَتَنَافَى مَعَ سَعَةِ مُلْكِهِ وَكَمَالِ قُدْرَتِهِ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةُ : فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ » ^(١) .]

(لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ) : لَا نَاهِيَةً وَالتَّوْحِيدَ لِلتَّحْرِيمِ قَوْلُهُ : (اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ) مَعْنَاهُ طَلَبُ الْعَبْدِ السِّرِّ وَالْتَجَاوُزَ ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ اغْتِرَافًا بِالذَّنْبِ . قَوْلُهُ : (إِنْ شِئْتَ) يُشْعِرُ أَنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفُ الرَّغْبَةِ فِيمَا يَطْلُبُ أَوْ أَنَّ ذَلِكَ الْمَطْلُوبَ عَظِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَغَزِيرٌ عَلَيْهِ . قَوْلُهُ (لِيَعْزِمَ الْمَسْأَلَةُ) أَي : لِيُؤَكِّدَ مَسْأَلَتَهُ وَيُظْهِرَ حِرْصَهُ ، وَلَا يُعَلِّقُ السُّؤَالَ بِالْمَشِيئَةِ . قَوْلُهُ : (اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ) وَتَعْلِيْقُ طَلَبِ الرَّحْمَةِ بِالْمَشِيئَةِ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ الْعَبْدِ بِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَا غِنَى لَهُ عَنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ طَرَفَةً عَيْنٍ . قَوْلُهُ : (فَإِنَّ اللَّهَ لَا مُكْرَهَ لَهُ) هَذَا تَعْلِيلٌ آخَرٌ ؛ فَإِنَّ التَّعْلِيلَ يُشْعِرُ بِأَنَّ اللَّهَ رُبَّمَا يَفْعَلُ الشَّيْءَ مُكْرَهًا .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ : « وَلِيُعْظِمَ الرِّغْبَةَ : فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَتَعَاطَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ » ^(٢) .]

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات - باب ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (٦٣٣٩)، ومسلم في كتاب الذكر والدعاء - باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء - باب العزم بالدعاء ولا يقل إن شئت (٢٦٧٩).

(وَلْيُعْظِمِ الرَّعْبَةَ) : قَالَ الْفَرُطِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (لَأَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فُتُورِ الرَّعْبَةِ وَقِلَّةِ الْأَهْتِمَامِ بِالْمَطْلُوبِ وَكَأَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَتَضَمَّنُ أَنَّ هَذَا الْمَطْلُوبَ إِنْ حَصَلَ ، وَإِلَّا اسْتَعْنَى عَنْهُ وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالُهُ لَمْ يَتَحَقَّقْ مِنْ حَالَةِ الْإِفْتِقَارِ وَالْاضْطِرَارِ الَّذِي هُوَ رُوحُ عِبَادَةِ الدُّعَاءِ وَكَانَ ذَلِكَ دَلِيلًا عَلَى قِلَّةِ اكْتِرَائِهِ بِذُنُوبِهِ وَبِرَحْمَةِ رَبِّهِ أَيْضًا).^(١)

وَتَعْلِيْقُ الْمَشِيئَةِ يَدُلُّ عَلَى جَهْلِ الْعَبْدِ بِذُنُوبِهِ وَجَهْلِهِ بِسَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ ، كَمَا أَنَّ فِي تَعْلِيْقِ الدُّعَاءِ بِالْمَشِيئَةِ إِسَاءَةً ظَنِّ بِجُودِهِ وَكَرَمِهِ ، فَاللَّهُ تَعَالَى لَا يَلِيْقُ بِهِ ذَلِكَ لِكَمَالِ سُلْطَانِهِ وَكَمَالِ جُودِهِ وَكَرَمِهِ ، فَالْحَلْقُ جَمِيعُهُمْ فَقَرَأَ إِلَيْهِ لَا غَيْرَ لَهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ طَرَفَةً عَيْنٍ ، وَفِي الْحَدِيثِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْفَقَ أَنْفَقَ عَلَيْكَ وَقَالَ: يَدُ اللَّهِ مَلَأَى لَا تَغِيْضُهَا نَفَقَةً سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَقَالَ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ فَإِنَّهُ لَمْ يَغِيْضْ مَا فِي يَدِهِ)^(٢).

وَهُوَ الْمُحْمُودُ عَلَى النَّعَمِ كُلِّهَا فَهُوَ الَّذِي شَاءَهَا وَقَدَّرَهَا وَأَجْرَاهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نَّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾^(٣).

لكن يرد على حديث الباب حديثان : الأول حديث دعاء الاستخارة

ودُعَاءُ الاسْتِخَارَةِ ؛ ليس فيه تعليق للدعاء بل فيه تفويض العبد ربه في الاختيار وكذا في دعاء تمني الموت فإنَّ الْعَبْدَ لَا يَدْرِي عَاقِبَتَهَا وَلَا رُجْحَانِ نَفْعِهَا عَلَى ضَرَرِهَا ، فَإِنَّ كَمَالَ الْعُبُودِيَّةِ تَعْلِيْقُهَا ، وَتَفْوِيْضُ الرَّبِّ سُبْحَانَهُ فِي اخْتِيَارِ الْخَيْرِ لِلْعَبْدِ.

(١) المفهم (٢٩/٧).

(٢) أخرجه البخاري، باب قَوْلِهِ : (وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ) ، برقم : (٤٦٨٤).

(٣) سورة النحل الآية : ٥٣ .

امْتَنِعْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
والثاني دعاء عيادة المريض وفيه قول النبي ﷺ للأعرابي (لا بأس، طهور إن شاء الله) ومعناه ليس بك
بأس وهذا من باب تسلية المريض وطهرت ذنوبك بما أصابك فهي جملة خبرية ولولا قرنها بالمشيئة
لكانت جزم له بالطهور والعبد قد يحصل له التطهير بالمرض وقد لا يحصل له. وذلك إذا لم يصبر على
قدر الله فَإِنَّ الْجَزَعَ يَذْهَبُ أَجْرُ الْمَصِيبَةِ.



[٥٤]

بَابُ لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمْتِي

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنْ جَنْسِ الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْأَلْفَازِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعَمَ رَبِّكَ ، وَضَيَّ رَبِّكَ وَلَيَقُلْ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمْتِي وَلَيَقُلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغَلَامِي » (١) .]

لفظ الرب له ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون معرّفا بـ (ال) فهذا يختص بالله وحده كما في الحديث (فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعُظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ) (٢)

الحالة الثانية : أن يضاف لغير العاقل من المتاع والدواب فهذا جائز نحو قوله في ضالة الإبل : (حَتَّى يَجِدَهَا رَبُّهَا) (٣)

الحالة الثالثة : أن يضاف للإنسان سواء كان لضمير متكلم أو مخاطب أو غائب وهو ما جاء فيه حديث الباب (لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ أَطْعَمَ رَبِّكَ ، وَضَيَّ رَبِّكَ) لَا : نَاهِيَّةٌ ، وَالْأَصْلُ فِي النَّهْيِ التَّحْرِيمُ ، وَمِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى الْكَرَاهَةِ . وَ الْمَحْظُورُ فِي هَذَا اللَّفْظِ أَنَّ فِيهِ إِشْعَارًا لِلْعَبْدِ بِالذُّلِّ . فَإِذَا سَلِمَ مِنْ

(١) أخرجه البخاري في كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي (٢٥٥٢)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأداب وغيرها - باب حكم إطلاق لفظة العبد و الأمة و المولى والسيد (٢٢٤٩).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب العتق - باب كراهية التطاول على الرقيق وقوله: عبدي (٢٥٥٢)، ومسلم في كتاب الألفاظ من الأداب وغيرها - باب حكم إطلاق لفظة العبد و الأمة و المولى والسيد (٢٢٤٩).

(٣) أخرجه البخاري، باب ضَالَّةُ الْعَتَمِ، برقم: (٢٤٢٨)، ومسلم، كتاب اللقطة، برقم: (٤٥٩٩).

ذلك فهو. جائزٌ.، مثل قوله عليه الصلاة والسلام: (إِذَا وَلَدَتِ الْأُمَةُ رَبَّهَا) ^(١). كَقَوْلِ يَوْسُفَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - : ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ ^(٢).

قوله: (وَلْيُقَلِّ سَيِّدِي وَمَوْلَايَ) السَّيِّدُ : مِنَ السِّيَادَةِ وَهِيَ غُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ وَالشَّرَفِ وَالْجَاهِ ، وَالسَّيِّدُ مَعْرُوفٌ ب (ال) عَلَى وَجْهِ الْإِطْلَاقِ لَا يُقَالُ إِلَّا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَمَّا إِذَا أَضْيِفَ فَيَجُوزُ إِطْلَاقُهُ عَلَى غَيْرِهِ بِشَرْطَيْنِ الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ أَطْلَقَ عَلَيْهِ أَهْلًا لِدَلَالَةِ لِقَوْلِهِ: (لَا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدًا) ^(٣) مَفْهُومُهُ أَنَّهُ يَجُوزُ أَنْ تُقَالَ لِعَبْدٍ الْمُنَافِقِ سَيِّدًا . والثاني ألا يوقع القائل في الغلو تنبيهٌ :

اشْتَهَرَ عِنْدَ بَعْضِ النَّاسِ إِطْلَاقُ السَّيِّدَةِ عَلَى الْمَرْأَةِ ، وَهَذَا قَلْبٌ لِلْحَقَائِقِ ؛ لِأَنَّ السِّيَادَةَ حَقُّ الرِّجَالِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ ^(٤). أَفَادَهُ ابْنُ عُثَيْمِينَ . (وَمَوْلَايَ) هَذِهِ اللَّفْظَةُ لَهَا مَعَانٍ كَثِيرَةٌ مِنْهَا : النَّصِيرُ ، وَالْعَتِيقُ ، وَالسَّيِّدُ ، وَالْعَبْدُ ... قوله: (وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَّتِي) لَفْظُ الْعَبْدِ وَالْأَمَةِ لَهُ حَالَتَانِ :

الأولى : أَنْ يُضَيَّفَهُ إِلَى غَيْرِ الْمُتَكَلِّمِ فَهَذَا جَائِزٌ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾ ^(٥)، وَفِي الْحَدِيثِ: (لَيْسَ عَلَى الْمُسْلِمِ فِي عَبْدِهِ وَلَا فَرَسِهِ صَدَقَةٌ) ^(٦).

(١) أخرجه البخاري، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة...، برقم: (٥٠).

(٢) سورة يوسف الآية: ٢٣.

(٣) أخرجه أحمد، برقم: (٢٢٩٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم: (٧٤٠٥).

(٤) سورة النساء الآية: ٣٤.

(٥) سورة النور الآية: ٣٢.

(٦) أخرجه مسلم، باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه، برقم: (٢٣٢٠).

الثَّانِيَةُ : أَنَّ يُضَيِّقَهُ الْمُتَكَلِّمُ إِلَى نَفْسِهِ وَهَذَا مِنْهُي عَنْهُ سِيَمَا إِنْ أَشْعَرَ بِتَكَبُّرٍ أَوْ إِذْلَالٍ لِلْعَبْدِ . فَيَكُونُ حَرَامًا وَإِلَّا فَمَكْرُوه .

قوله : (وَلْيُقَلِّلْ فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي) فِيهِ : سَمَاحَةٌ هَذِهِ الشَّرِيعَةُ حَيْثُ أَنَّهَا تَرْفَعُ الْحَرَجَ فَمَا نَهَتْ عَنْ شَيْءٍ إِلَّا أَمَرَتْ بِأَحْسَنَ مِنْهُ .



[٥٥]

بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ هَذَا الْبَابَ فِيهِ تَعْظِيمُ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْفِعْلِ وَالْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْقَوْلِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ: فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ: فَأَعِيدُوهُ وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ: وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ: فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]

قَوْلُهُ: (مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ: فَأَعْطُوهُ) يَجِبُ إِعْطَاءُ السَّائِلِ مَا سَأَلَ إِذَا سَأَلَ مُعِينًا حَاجَةً مُعَيَّنَةً ، وَكَانَ سُؤْلُهُ لَا يَوْجِبُ إِنَّمَا ، وَكَانَتْ حَاجَتُهُ فِي قُدْرَةِ الْمَسْئُولِ. قَوْلُهُ: (وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ) أَيُّ : طَلَبَ مِنَ اللَّهِ الْعُذَّ. وَهُوَ الْحِمَايَةُ قَوْلُهُ: (فَأَعِيدُوهُ) فِعْلٌ أَمْرٌ ، أَيُّ : يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَدْفَعُوا عَنْهُ الشَّرَّ الَّذِي اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِاللَّهِ مَا لَمْ تَوْجِبِ اسْتِعَاذَتُهُ إِسْقَاطًا لَوَاجِبٍ ، كَمَنْ أَصَابَ حَدًّا ثُمَّ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ. قَوْلُهُ: (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ) ظَاهِرُ الْحَدِيثِ أَنَّ إِجَابَةَ الدَّعْوَةِ وَاجِبَةٌ مُطْلَقًا ، وَخَصَّهَا جَمْهُورُ أَهْلِ الْعِلْمِ بِوَلِيمَةِ الْعُرْسِ لِحَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ إِلَى وَلِيمَةِ عُرْسٍ، فَلْيُجِبْ»^(٢) وَاشْتَرَطُوا فِي وُجُوبِ إِجَابَتِهَا أَرْبَعَةً شُرُوطٍ :

١- أَلَّا تَشْتَمِلَ الدَّعْوَةُ عَلَى مُنْكَرٍ.

٢- أَنْ يَكُونَ الْمَدْعُو قَادِرًا ، فَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ بَعِيدًا أَوْ مَرِيضًا.

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة - باب عطية من سأل بالله (١٦٧٢)، والنسائي في كتاب الزكاة - باب من سأل بالله عز وجل

(٢٥٦٧)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢١).

(٢) أخرجه مسلم، باب الأمر بإجابة الداعي إلى دعوة برقم: (١٤٢٩).

٣- أَنْ يُخَصَّصَهُ بِالِدَّعْوَةِ ، فَلَا يَجِبُ الدَّعْوَةُ الْعَامَّةُ.

٤- أَنَّ يَكُونَ الدَّاعِي مُسْلِمًا ، فَلَا يَجِبُ دَعْوَةُ الْكَافِرِ لِحَدِيثِ (حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ) ^(١)

هَذِهِ الشُّرُوطُ أَفَادَهَا ابْنُ عُثَيْمِينَ فِي الْقَوْلِ الْمُفِيدِ ^(٢). قَوْلُهُ: (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ) إِنَّمَا شُرِعَتْ الْمُكَافَأَةُ ؛ لِأَنَّ الْقُلُوبَ جُبِلَتْ عَلَى حُبِّهِ مِنْ أَحْسَنِ إِلَيْهَا وَالْخُضُوعِ لَهُ ، فَإِنْ لَمْ يُكَافِئِ الْعَبْدُ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ بَقِيَ فِي الْقَلْبِ نَوْعٌ ذَلٌّ لِلْمُحْسِنِ ، فَشُرِعَتْ الْمُكَافَأَةُ تَحْقِيقًا لِلتَّوْحِيدِ ، وَهِيَ مِنْ أَخْلَاقِ الْكِرَامِ ، وَعَدَمُهَا مِنْ أَخْلَاقِ اللَّئَامِ ، وَمِنْ الْكِرَامِ مَنْ يُكَافِئُ عَلَى الْإِسَاءَةِ إِحْسَانًا ، وَمِنْ اللَّئَامِ مَنْ يُكَافِئُ عَلَى الْمَعْرُوفِ إِسَاءَةً (فَإِنْ لَمْ يَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ : فَأَدْعُوا لَهُ) فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعِ الْمُكَافَأَةَ لَزِمَهُ الدُّعَاءُ. (حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ) - بِالْفَتْحِ - أَيْ : حَتَّى تَعْلَمُوا ، وَبِالضَّمِّ أَيْ : حَتَّى تَتَّظَنُوا. وَفِي الْحَدِيثِ حِرْصُ الشَّرِيعَةِ عَلَى أَسْبَابِ الْإِلَافَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَفْضَلُ مَا يَقُولُهُ لَهُ مَا جَاءَتْ بِهِ السَّنَةُ عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [مَنْ اصْطَبَعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ] رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَإِسْنَادُهُ حَسَنٌ



(١) أخرجه البخاري، بَاب الْأَمْرِ بِاتِّبَاعِ الْجَنَائِزِ، برقم: (١٢٤٠)، ومسلم، بَاب مِنْ حَقِّ الْمُسْلِمِ لِلْمُسْلِمِ رَدُّ السَّلَامِ، برقم: (٥٧٧٦).

(٢) انظر القول المفيد، ٣٥١.

[٥٦]

بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : ظَاهِرَةٌ ، وَهِيَ أَنَّ هَذَا الْبَابَ مِنَ الْأَسْبَابِ وَالْبَابِ السَّابِقِ مُسَبَّبٌ عَنْهُ ، فَإِذَا كَانَ إِعْطَاءُ السَّائِلِ وَاجِبًا فَلَا يَجُوزُ لِلْسَّائِلِ أَنْ يُفْحِمَ غَيْرَهُ فِي الْوُجُوبِ ؛ لِأَنَّهُ قَدْ يَتَعَدَّرُ عَلَيْهِ امْتِنَالُهُ فَيَقَعُ فِي الْحَرَامِ.

. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ جَابِرٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ » ^(١)

رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .]

قَالَ الشَّيْخُ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : (فِي الْحَدِيثِ سُلَيْمَانُ بْنُ مَعَاذٍ ، قَالَ فِيهِ يَحْيَا بْنُ مَعِينٍ : " لَيْسَ بِشَيْءٍ ") . قَالَ الشَّيْخُ الْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَيَدُلُّ عَلَى تَحْرِيمِ السُّؤَالِ بِهِ تَعَالَى حَدِيثٌ : " لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ " ، وَلَكِنَّهُ ضَعِيفُ الْإِسْنَادِ ، كَمَا بَيَّنَّهُ الْمُنْذِرِيُّ وَغَيْرُهُ ، وَلَكِنَّ النَّظَرَ الصَّحِيحَ يَشْهَدُ لَهُ ، فَإِنَّهُ إِذَا ثَبَتَ وَجُوبُ الْإِعْطَاءِ لِمَنْ سَأَلَ بِهِ تَعَالَى كَمَا تَقَدَّمَ ، فَسُؤَالُ السَّائِلِ بِهِ قَدْ يُعَرِّضُ الْمَسْئُولَ لِلْوُقُوعِ فِي الْمُخَالَفَةِ وَهُوَ عَدَمُ إِعْطَائِهِ مَا سَأَلَ ، وَهُوَ حَرَامٌ ، وَمَا أَدَّى إِلَى مُحَرِّمٍ فَهُوَ مُحَرَّمٌ فَتَأْمَلْ !) ^(٢) .

وَهَذَا النَّظَرُ الصَّحِيحُ مِنَ الْعَلَامَةِ الْأَلْبَانِيِّ قَدْ وَافَقَ نَصًّا صَرِيحًا صَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي السِّلْسَلَةِ الصَّحِيحَةِ بِرَقْمٍ : (٢٢٩٠) وَلَمْ يَذْكُرْهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ : عَنْ أَبِي مُوسَى عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : (مَلْعُونٌ مَنْ سَأَلَ بِوَجْهِ اللَّهِ ، وَمَلْعُونٌ مَنْ يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ ثُمَّ مَنَعَ سَأَلَهُ مَا لَمْ يَسْأَلْهُ هُجْرًا) . رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ فِي الْمَعْجَمِ الْكَبِيرِ أَيُّ مَا لَمْ يَسْأَلْ شَيْئًا مُحَرَّمًا أَوْ بَاطِلًا . وَثَبَتَ فِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلَ قَوْلُهُ

(١) أخرجه أبو داود في كتاب الزكاة - باب كراهية المسألة بوجه الله تعالى (١٦٧١)، وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٥٠٦).

(٢) الصحيحة (٤٥٧/١).

﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾^(١)، قال: (أعوذُ بوجهك)^(٢). وَمِنْ هَذِهِ النُّصُوصِ الصَّحِيحَةِ الصَّرِيحَةِ نَسْتَفِيدُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ سُؤَالُ الْمَخْلُوقِ بِاللَّهِ وَلَا بِوَجْهِ اللَّهِ مُطْلَقًا ، وَفِيهَا : إِبْتِثَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ كَمَا يَلِيقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ ، وَلَا يَلْزَمُ مِنَ الْإِثْبَاتِ التَّمْثِيلُ . قَالَ نُعَيْمُ بْنُ حَمَّادٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (مَنْ شَبَّهَ اللَّهَ بِخَلْقِهِ فَقَدْ كَفَرَ ، وَمَنْ جَحَدَ مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فَقَدْ كَفَرَ وَلَيْسَ مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ ، وَلَا رَسُولُهُ تَشْبِيهًا)^(٣).



(١) سورة الأنعام الآية: ٦٥.

(٢) أخرجه البخاري، باب: (قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ) برقم: (٤٣٥٢).

(٣) رواه اللالكائي في شرح السنة (٩٣٦). والذهبي في "العلو" ص ١١٦ وصححه الألباني.

[٥٧]

بَابُ مَا جَاءَ فِي (لَوْ)

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَّحْذِيرِ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كِمَالَهُ ، فَإِنَّ لَفْظَ (لَوْ) اعْتِرَاضٌ عَلَى الْقَدْرِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ فِي اللَّفْظِ (لَوْ) ، وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - الْحُكْمَ فِي التَّرْجَمَةِ ؛ لِأَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدًا ، فَمِنْهَا الْمَشْرُوعُ : وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْفِعْلُ مُسْتَقْبَلًا لِتَمَيُّنِ الْخَيْرِ ، كَمَا فِي الْحَدِيثِ : (لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ وَيَتَنَّهُ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ)^(١) وَ مِنْهَا الْمَمْنُوعُ وَهُوَ مَا كَانَ فِي فِعْلٍ وَقَعَ فِي الْمَاضِي ؛ لِمَا فِيهِ مِنَ التَّحْسُّرِ وَالْإِعْتِرَاضِ عَلَى الْقَدْرِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا

هَهُنَا ﴾^(٢)]

قَوْلُهُ : (يَقُولُونَ) ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ ، (لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) الْأَمْرُ : وَاحِدُ الْأُمُورِ أَيُّ : الشَّأْنُ ، وَشَيْءٌ : أَيُّ : مَشُورَةٌ وَرَأْيٌ ، (مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا) أَيُّ : مَا قُتِلَ بَعْضُنَا فِي أَحَدٍ ، وَفِي هَذَا تَرْكِيبٌ لَأَنْفُسِهِمْ وَتَسْفِيَةٌ لِرَأْيِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَاعْتِرَاضٌ عَلَى الْقَدْرِ ، فَردَّ اللَّهُ قَوْلَهُمْ هَذَا بِقَوْلِهِ : ﴿ قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ ﴾ (لَبَرَزَ) أَيُّ : خَرَجَ ، (إِلَى مَضَاجِعِهِمْ) إِلَى مَصَارِعِهِمْ ، أَيُّ : هَذَا قَدْرٌ مُقَدَّرٌ مِنَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَحُكْمٌ لَا زِمَ لَا مَقَرَّ مِنْهُ ، فَمَنْ كُتِبَ عَلَيْهِ شَيْءٌ لَا بَدَأَ أَنْ يَنَالَهُ وَلَا يُعْنِي عَنْهُ قَوْلُ (لَوْ) إِلَّا الْحُسْرَةُ وَالنَّدَامَةُ ، وَالْوَاجِبُ فِي هَذِهِ

(١) أخرجه الترمذي، باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر، برقم: (٢٣٢٥)، وصححه الألباني في "صحيح سنن الترمذي".

(٢) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

الحَالِ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ ، وَالتَّعَزُّي بِقُدْرِهِ مَعَ مَا يَرْجُو مِنْ حُسْنِ ثَوَابِهِ ، وَذَلِكَ عَيْنُ الْفَلَاحِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ قَوْلَ (لَوْ) مِنْ خِصَالِ الْمُنَافِقِينَ ، وَأَنَّ مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ وَقَعَ وَلَوْ لَمْ تَقُمْ أَسْبَابُهُ .

. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَا إِخْوَانَهُمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ ^(١)] .

قَوْلُهُ (الَّذِينَ قَالُوا) هُمُ الْمُنَافِقُونَ ، (لَا إِخْوَانَهُمْ) هُمُ الْمُسْلِمُونَ الْمُجَاهِدُونَ ، وَتَوَمَّلُوا إِخْوَانَهُمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ ، وَقِيلَ : فِي النَّسَبِ . (لَوْ أَطَاعُونَا) أَيُّ : لَوْ سَمِعُوا مَشُورَتَنَا عَلَيْهِمْ بِعَدَمِ الْخُرُوجِ ، (مَا قُتِلُوا)

قَالَ تَعَالَى ﴿قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فَإِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ فَيَنْبَغِي أَلَّا تَمُوتُوا ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ ، فَادْفَعُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالَهُ ابْنُ كَثِيرٍ . ^(٢) فَقَوْلُ: (لَوْ) فِي مِثْلِ هَذَا الْمَقَامِ لَا يُجِدِي شَيْئاً إِذِ الْمُقَدَّرُ قَدْ وَقَعَ فَلَا سَبِيلَ لِدَفْعِهِ أَبَدًا . وَفِي الْآيَةِ مِنَ الْقَوَائِدِ : أَنَّ قَوْلَ (لَوْ) مِنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ . وَفِيهَا خُطُورَةُ أَهْلِ النِّفَاقِ فِي الْوَسْطِ الْمُؤْمِنِ ؛ إِذْ أَنْتُمْ يَحْدُلُونَهُمْ عَنِ الطَّاعَةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا ، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ: فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ » ^(٣)] . رَوَاهُ مُسْلِمٌ ، وَأَوَّلُ هَذَا الْحَدِيثِ : (الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ) . الْمُرَادُ بِالْقَوِيِّ هُنَا : قَوِيُّ الْإِيمَانِ ؛ لِأَنَّ الْقَوِيَّ وَصَفُ عَائِدٍ عَلَى الْمَوْصُوفِ وَهُوَ الْمُؤْمِنُ ، مَعَ أَنَّ قُوَّةَ الْبَدَنِ نِعْمَةٌ إِذَا اسْتَعْمِلَتْ فِي طَاعَةِ اللَّهِ . (خَيْرٌ) أَيُّ : فِي تَأْثِيرِهِ وَآثَارِهِ . (وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ) فِيهِ إِثْبَاتُ صِفَةِ الْمَحَبَّةِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَفِيهِ : تَفَاوُتُ الْإِيمَانِ . (وَفِي كُلِّ خَيْرٍ) هَذَا يُسَمَّى عِنْدَ الْبَلَاحِينَ احْتِرَازًا أَيُّ : لَا

(١) سورة آل عمران الآية: ١٦٨ .

(٢) تفسير ابن كثير، ٥٢٣/١ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب القدر - باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة (٢٦٦٤) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

تَظَنُّنَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ الضَّعِيفَ لَا حَيْرَ فِيهِ. (اَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ) الْحِرْصُ : هُوَ بَذْلُ الْوُسْعِ وَاسْتِغْرَافُ الْجُهْدِ لِإِدْرَاكِ أَمْرِ مَقْصُودٍ ، وَكَمَالُ الْإِنْسَانِ فِي مَجْمُوعِ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ : أَنْ يَكُونَ حَرِيصاً وَأَنْ يَكُونَ حِرْصُهُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ ، فَيَقْضِيهِ مِنَ الْكَمَالِ بِحَسَبِ مَا يَقْضِيهِ مِنْ هَذَيْنِ الْأَمْرَيْنِ . أَفَادَهُ ابْنُ الْقَيِّمِ ^(١) (وَاسْتَعِينَ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجَزَنَّ) الْاسْتِعَانَةُ : هِيَ طَلَبُ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ ، وَتَكُونُ بِاللِّسَانِ وَبِالْقَلْبِ ، بِأَنْ تَعْتَرِفَ بِقَلْبِكَ وَلِسَانِكَ أَنَّكَ بِحَاجَةٍ إِلَى رَبِّكَ ، أَيْ : لَا تَعْتَمِدْ عَلَى الْحِرْصِ فَقَطْ ، فَإِنَّكَ مَهْمَا بَدَلْتَ مِنَ الْأَسْبَابِ فَإِنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ. أَفَادَهُ الْقُفُوزَانُ ^(٢) ، (وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ) أَيْ : إِنْ وَقَعَ خِلَافُ مَقْصُودِكَ (فَلَا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا) كِنَايَةٌ عَنْ مُبْهَمٍ هُوَ مَفْعُولٌ فَعَلْتُ. (لَكَانَ كَذَا وَكَذَا) كِنَايَةٌ عَنْ مُبْهَمٍ هُوَ فَاعِلٌ كَانَ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ — رَحِمَهُ اللَّهُ — : (وَلَمَّا كَانَ حِرْصُ الْإِنْسَانِ وَفِعْلُهُ إِنَّمَا هُوَ بِمَعُونَةِ اللَّهِ وَمَشِيئَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ أَمَرُهُ أَنْ يَسْتَعِينَ بِاللَّهِ لِيَجْتَمِعَ لَهُ مَقَامُ { إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ } . فَإِنَّ حِرْصَهُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ عِبَادَةُ اللَّهِ تَعَالَى. وَلَا يَتِمُّ إِلَّا بِمَعُونَتِهِ فَأَمَرُهُ أَنْ يَعْبُدَهُ وَأَنْ يَسْتَعِينَ بِهِ. فَالْحِرْصُ عَلَى مَا يَنْفَعُهُ ، الْمُسْتَعِينُ بِاللَّهِ ضِدُّ الْعَاجِزِ. فَهَذَا إِرْشَادٌ لَهُ قَبْلَ وَقُوعِ الْمَقْدُورِ إِلَى مَا هُوَ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ حُصُولِهِ ، وَهُوَ الْحِرْصُ عَلَيْهِ مَعَ الْاسْتِعَانَةِ بِمَنْ أَرْمَتْهُ الْأُمُورُ بِيَدِهِ وَمُصْذِرُهَا مِنْهُ وَمَرْدُودُهَا إِلَيْهِ. فَإِنْ فَاتَهُ مَا لَمْ يَقْدِرْ لَهُ فَلَهُ حَالَتَانِ : عَجْزٌ. وَهُوَ مِفْتَاحُ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ، فَيُلْقِيهِ الْعَجْزُ إِلَى قَوْلٍ : " لَوْ " وَلَا فَائِدَةَ مِنْ " لَوْ " هَاهُنَا ، بَلْ هِيَ مِفْتَاحُ اللَّوْمِ وَالْعَجْزِ وَالسُّخْطِ وَالْأَسْفِ وَالْحَزَنِ ، وَذَلِكَ كُلُّهُ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ . فَنَهَاهُ ﷺ عَنِ افْتِتَاحِ عَمَلِهِ بِهَذَا الْافْتِتَاحِ ، وَأَمَرَهُ بِالْحَالَةِ الثَّانِيَةِ : وَهِيَ النَّظَرُ إِلَى الْقَدَرِ وَمُلاحَظَتِهِ ، وَأَنَّهُ لَوْ قَدَّرَ لَهُ لَمْ يَقْتَضِهِ وَلَمْ يَغْلِبْهُ عَلَيْهِ أَحَدٌ ، فَلَمْ يَبْقَ لَهُ هَاهُنَا أَنْفَعُ مِنْ شُهُودِ الْقَدَرِ ، وَمَشِيئَةِ الرَّبِّ النَّافِذَةِ الَّتِي تُوجِبُ وَقُوعَ الْمَقْدُورِ ، وَإِنْ انْتَفَتَ امْتَنَعَ وَجُودُهُ ؛ وَلِهَذَا قَالَ : " فَإِنْ غَلَبَكَ أَمْرٌ فَلَا تَقُلْ : لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ

(١) شفاء العليل، ١٣/٥، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

(٢) إعانة المستفيد شرح كتاب التَّوْحِيدِ، ص: ٢٣٣.

قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ " . فَأَرْشَدَهُ إِلَى مَا يَنْفَعُهُ فِي الْحَالَتَيْنِ : حَالَةِ حُصُولِ الْمَطْلُوبِ ، وَحَالَةِ فَوَاتِهِ ، فَلِهَذَا كَانَ هَذَا الْحَدِيثُ مِمَّا لَا يَسْتَعْنِي عَنْهُ الْعَبْدُ أَبَدًا ، بَلْ هُوَ أَشَدُّ إِلَيْهِ ضَرُورَةً ، وَهُوَ يَتَضَمَّنُ إِثْبَاتَ الْقَدَرِ وَالْكَسْبِ وَالْاخْتِيَارِ ، وَالْقِيَامَ بِالْعُبُودِيَّةِ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا فِي حَالَتِي حُصُولِ الْمَطْلُوبِ وَعَدَمِهِ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ ^(١) .

وَفِي الْحَدِيثِ غَيْرُ مَا ذَكَّرْنَا مِنَ الْقَوَائِدِ :

- ١- وَجُوبُ الْإِيمَانِ بِالْقَدَرِ .
- ٢- وَفِيهِ الْحُثُّ عَلَى الْقِيَامِ بِالْأَسْبَابِ وَعَدَمُ الْاعْتِمَادِ عَلَيْهَا .
- ٣- وَفِيهِ أَنَّ الشَّرِيعَةَ جَاءَتْ بِتَحْقِيقِ الْمَصَالِحِ وَتَكْمِيلِهَا .
- ٤- وَفِيهِ مَشْرُوعِيَّةُ الْأَخْتِجَاجِ بِالْقَدَرِ فِي الْمَصَائِبِ لَا الْمَعَائِبِ .



(١) شفاء العليل، ص: ١٩، الناشر : دار الفكر - بيروت ، ١٣٩٨ - ١٩٧٨ ، تحقيق : مُجَدِّدُ الْإِيمَانِ أَبُو فَرَّاسٍ النَّعْسَانِيُّ الْحَلَبِيُّ .

[٥٨]

بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي التَّحْقُظِ مِنَ الْأَقْوَالِ وَالْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ؛ إِذْ سَبُّ الرِّيحِ سَبٌّ لِمُرْسِلِهَا وَاعْتِرَاضٌ عَلَيْهِ، فَهُوَ يَشْبَهُ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الْأَعْتِرَاضِ عَلَى أَفْعَالِ اللَّهِ، وَالْوَاجِبِ الرِّضَا وَالتَّسْلِيمِ بِمَا قَضَى وَفَعَلَ سُبْحَانَهُ

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي بِنِ كَعْبٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ: فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ: فَقُولُوا االلَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أَمَرْتُ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أَمَرْتُ بِهِ»^(١) صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.] (أَبِي بِنِ كَعْبٍ): هُوَ ابْنُ قَيْسٍ بَنِ عُبَيْدٍ بَنِ زَيْدٍ التَّجَارِيُّ الْأَنْصَارِيُّ الْخَزَرَجِيُّ، أَبُو الْمُنْذِرِ، بِدَرِيٍّ مِنَ الْقُرَاءِ. (لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ) النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ. قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (... وَمَعَ تَحْرِيمِهِ فَإِنَّهُ حُمِقُ وَضَعَفُ فِي الْعَقْلِ وَالرَّأْيِ، فَإِنَّ الرِّيحَ مُصْرَفَةٌ مُدْبَّرَةٌ بِتَدْبِيرِ اللَّهِ وَتَسْخِيرِهِ، فَالسَّابُّ لَهَا يَقَعُ سُبُّهُ عَلَى مَنْ صَرَّفَهَا، وَلَوْلَا أَنَّ الْمُتَكَلِّمَ بِسَبِّ الرِّيحِ لَا يَخْطُرُ هَذَا الْمَعْنَى فِي قَلْبِهِ غَالِبًا لَكَانَ الْأَمْرُ أَفْطَحَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَكِنْ لَا يَكَادُ يَخْطُرُ بِقَلْبِ مُسْلِمٍ)^(٢).

فَالْوَاجِبُ التَّوْبَةُ وَاللُّجُوءُ إِلَى اللَّهِ عِنْدَ التَّضَرُّرِ بِهَا، وَهِيَ تَأْدِيبٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِعِبَادِهِ، وَلَيْسَ مِنْ سَبِّهَا وَضَعْفُهَا بِأَنَّهَا قَوِيَّةٌ أَوْ شَدِيدَةٌ. (فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ) أَيُّ: مِنْ شِدَّتِهَا وَحَرِّهَا أَوْ بُرُودَتِهَا. (فَقُولُوا االلَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ) فَالرُّجُوعُ إِلَى خَالِقِهَا وَآمَرِهَا هُوَ الدَّوَاءُ، فَمَا اسْتُجِلَّتْ نِعْمَةٌ بِمِثْلِ طَاعَتِهِ وَشُكْرِهِ، وَلَا اسْتُدْفِعَتْ نِقْمَةٌ بِمِثْلِ الْإِلْتِجَاءِ إِلَيْهِ وَالتَّعَوُّذِ بِهِ، (مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ) أَيُّ: مِنْ خَيْرِهَا فِي نَفْسِهَا

(١) أخرجه الترمذي في كتاب الفتن - باب ماجاء في النهي عن سب الرياح (٢٢٥٢)، وصححه الألباني في «مشكاة المصابيح»

(١٥١٨).

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد، ص: ١٨٨.

كَتَلُطَيْفِ الْجَوِّ ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ كَعْبٍ أَنَّهُ قَالَ : (لَوْ حَبَسَ اللَّهُ الرِّيحَ عَنِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ لَأُنتَنَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ) ^(١) (وَخَيْرٌ مَا فِيهَا) أَيُّ : خَيْرٌ مَا تَحْمِلُهُ مِنْ تَلْقِيحِ الثِّمَارِ وَالرَّوَائِحِ الطَّيِّبَةِ (وَخَيْرٌ مَا أَمَرْتُ بِهِ) مِنْ سَوِّقِ السَّحَابِ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ ، (وَنَعُودُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ) أَيُّ : تَحْتَمِي بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ فِي نَفْسِهَا ؛ كَقَلْعِ الْأَشْجَارِ وَنَحْوِهِ . (وَشَرٌّ مَا فِيهَا) أَيُّ : مَا تَحْمِلُهُ مِنَ الْاَوْبَةِ وَالْأَمْرَاضِ . (وَشَرٌّ مَا أَمَرْتُ بِهِ) مِنَ الْإِهْلَاكِ وَالتَّذْمِيرِ . وَوَرَدَتْ فِي الرِّيحِ أَحَادِيثُ أُخْرَى : فَفِيهَا : عَبْدِيَّةُ اللَّهِ وَطَاعَةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَتَعَرُّضُ لِفَضْلِ اللَّهِ وَنِعَمِهِ فَهَذَا حَالُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ خِلَافاً لِأَهْلِ الْفُسُوقِ وَالْعَصْيَانِ . وَفِي الْبَابِ أَيْضاً حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ الرِّيحُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ قَالَ سَلَمَةُ فُرُوحُ اللَّهِ تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسْبُوهَا وَسَلُّوْا اللَّهَ خَيْرَهَا وَاسْتَعِينُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَابْنُ مَاجَهَ وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ



(١) رَوَاهُ أَبُو نَعِيمٍ فِي حَلِيَةِ الْأَوْلِيَاءِ ٣٧٨/٥ .

[٥٩]

بَابُ

قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَطْنُونُ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخَفُّونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾^(١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ: أَنَّ الْأُبُوبَ السَّابِقَةَ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ أَقْوَالٍ وَأَفْعَالٍ تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ، ثُمَّ عَقَدَ هَذَا الْبَابَ فِي عَمَلٍ قَلْبِيٍّ، هُوَ مَصْدَرُ تِلْكَ الْأَقْوَالِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي لَا تَلِيْقُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَهُوَ سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَسُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ تَعَالَى مَرَاتِبُ لَأَنَّهُ قَدْ يُنَافِي أَصْلَ التَّوْحِيدِ وَقَدْ يُنَافِي كَمَالَهُ. قَوْلُهُ (يَطْنُونُ بِاللَّهِ) ضَمِيرُ الْفَاعِلِ يَعُودُ إِلَى الْمُنَافِقِينَ، وَ(غَيْرَ الْحَقِّ) هُوَ الْبَاطِلُ، وَ(ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ) عَطْفٌ بَيَانٍ عَلَى قَوْلِهِ: (غَيْرَ الْحَقِّ) وَالظَّنُّ هُنَا بِمَعْنَى الْأَعْتِقَادِ. (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) هَذَا الْقَوْلُ ثَمَرَةُ الظَّنِّ الْفَاسِدِ، أَيُّ: لَيْسَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ، وَلَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ لَمَا أَصَابَهُمُ الْقَتْلُ، فَأَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أَنْ يُخَبِّرَهُمْ بِقَوْلِهِ: (قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ) وَأَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا سَبَقَ بِهِ قَضَاؤُهُ وَقَدْرُهُ وَجَرَى بِهِ قَلَمُهُ وَكِتَابُهُ السَّابِقُ، فَبَيَّنَ الْآيَةُ: رَدُّ عَلَى الْقَدَرِيَّةِ التُّفَاقَةِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يَقَعُ فِي كَوْنِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَسَبَقَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ فِي بَابِ (لَوْ)، (وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ) أَيُّ: إِنَّمَا وَقَعَتِ الْهَزِيمَةُ لِحُكْمٍ مِنْهَا: لِيَمْتَحِنَ اللَّهُ مَا فِي الْقُلُوبِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالنِّفَاقِ، وَفِي هَذَا رَدُّ عَلَى مَنْ ظَنَّ أَنَّ أَفْعَالَ اللَّهِ لَيْسَتْ مُعَلَّلَةً وَهُمْ الْأَشَاعِرَةُ (وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ) أَيُّ: لِيَهْذِبَهَا وَيُطَهِّرَهَا مِنْ مِثْلِ النُّفُوسِ وَتَزَيِّنِ الشَّيْطَانِ، وَاسْتِيْلَاءِ الْعُقْلَةِ، فَإِنَّهَا لَوْ تَرَكْتُ فِي عَافِيَةٍ مُسْتَمِرَّةٍ وَنَصْرَةٍ دَائِمَةٍ لَمْ تَتَحَلَّصْ

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٤.

[٥٩] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُظَاهِرُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾

مِنْ هَذِهِ الْمَخَاطِرِ كَالْعُجْبِ وَنَحْوِهِ مِنَ الْأَمْرَاضِ ، فَلَهُ سُبْحَانَهُ النِّعْمَةُ التَّامَّةُ فِي النُّصْرَةِ وَالْهَزِيمَةِ ، (وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) أَيُ : بِمَا فِيهَا ، وَالْمَعْنَى أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا فِي الصُّدُورِ قَبْلَ أَنْ يَمْتَحِنَكُمْ ، لَكِنْ لِيُظْهِرَ لَكُمْ الْعَمَلَ الَّذِي تَقَعُ عَلَيْهِ الْمَجَازَةُ .

قال الإمام - رحمه الله - [وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَعَضَبُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَلَعْنُهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ ^(١)] .

(الظالمين بالله) نعتٌ لِلْمُشْرِكِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ ، قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (أَيُ : يَتَّهِمُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ ، وَيُظَنُّونَ بِالرَّسُولِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ أَنَّ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ) ^(٢) . (عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ) السَّوُّ الَّذِي ظَنُّهُ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ - أَنَّهُمْ لَنْ يَنْقَلِبُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا - هُوَ الْهَلَاكُ ، وَهُوَ مُحِيطٌ بِهِمْ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، قَوْلُهُ : (وَعَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ) فِيهِ : إِثْبَاتُ صِفَةِ الْعَضَبِ ، قَوْلُهُ : (وَلَعْنَهُمْ) أَبْعَدَهُمْ فَأَقْصَاهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ . قَوْلُهُ : (وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ) أَيُ : هَيَّأَهَا ، وَفِيهِ أَنَّ النَّارَ مَخْلُوقَةٌ الْأَن قَوْلُهُ : (وَسَاءَتْ مَصِيرًا) أَيُ : سَاءَتْ جَهَنَّمَ مَنْزِلًا يَصِيرُ إِلَيْهِ هَؤُلَاءِ ، وَفِي الْآيَةِ أَنَّ ظَنَّ السَّوِّ مِنْ صِفَاتِ الْمُشْرِكِينَ وَ الْمُنَافِقِينَ .

قال الإمام - رحمه الله - [قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ فِي الْآيَةِ الْأُولَى : (فَسَّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُولَهُ ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ ، فَفُسِّرَ بِانْكَارِ الْحِكْمَةِ وَانْكَارِ الْقَدْرِ وَانْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُولِهِ ﷺ) وَأَنَّ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوِّ الَّذِي ظَنَّهُ الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الْفَتْحِ ، وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنُّ السَّوِّ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرٍ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ . فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدْبِلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ إِدَالَةً

(١) سورة الفتح الآية: ٦ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ٤ / ٢٢٤ .

مُسْتَقِرَّةٌ يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الْحَقُّ أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ
بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الْحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ: فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا مِنَ النَّارِ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا أَلْسُوهُ فِيَمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيَمَا يَفْعَلُهُ بغيرِهِمْ وَلَا
يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ، فَلْيَعْتَنِ اللَّيْبُ النَّاصِحُ
لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتَّبِعْ إِلَى اللَّهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنًّا أَلْسُوهُ. وَلَوْ فَتَشَّتْ مَنْ فَتَشَّتْ لَرَأَيْتَ
عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وَكَذَا: فَمُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْبِرٌ، وَفَتِشَ
نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنَجَّ مِنْهَا تَنَجَّ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ *** وَإِلَّا فَإِنِّي لَا إِخَالَكَ نَاجِيًا^(١).

ذَكَرَ ابْنُ الْقَيْمِ هَذَا الْكَلَامَ فِي الْحِكْمِ الْمُسْتَفَادَةِ مِنْ غَزْوَةِ أُحُدٍ. (فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ
رَسُولَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ) وَلَا شَكَّ أَنَّ هَذَا سُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ، كَيْفَ يُسْلَمُ خَلِيلُهُ وَصَفِيُّهُ وَحَبِيبُهُ، وَلَوْ
ظَنَّ هَذَا الظَّنُّ بِأَحَادِ النَّاسِ لَكَانَ هَذَا سُوءُ ظَنٍّ بِهِ، (وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدْرِ اللَّهِ وَحِكْمَتِهِ .
فَمُسِّرَ بِإِنْكَارِ الْحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ الْقَدَرِ) وَهُوَ أَنْ يَقَعَ فِي كَوْنِهِ مَا لَا يُرِيدُهُ، وَلَا شَكَّ أَنَّهُ سُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ ؛
لَأنَّ هَذَا يَتَضَمَّنُ أَنْ يَكُونَ فِي مَلِكِهِ مَا لَا يُرِيدُ، وَلَوْ وَصَفَ مِنْ لَهُ الْقَوَامَةُ عَلَى بَيْتِهِ بِذَلِكَ لَكَانَ سُوءُ
ظَنٍّ بِهِ. (وَحِكْمَتِهِ) وَهَذَا وَصِفٌ لِأَفْعَالِ اللَّهِ بِالسَّفْهِ، وَأَنَّهُ يَفْعَلُ الْأَشْيَاءَ لِغَيْرِ حِكْمَةٍ، وَقَدْ نَزَّ اللَّهُ
نَفْسَهُ عَنْ ذَلِكَ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَلَّى اللَّهُ
الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١٦﴾ وَهَذَا هُوَ مَذْهَبُ الْجَهْمِيَّةِ وَالْجَبَرِيَّةِ أَنَّ اللَّهَ يُقَدِّرُ
الْأَشْيَاءَ بَلَا حِكْمَةٍ وَغَايَةٍ. (فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ الْبَاطِلَ عَلَى الْحَقِّ) أَيْ تَكُونُ الدَّوْلَةُ وَالْعَلْبَةُ لِلْبَاطِلِ

(١) انظر: «زاد المعاد» لابن القيم (٢٠٤/٣).

(٢) سورة المؤمنون الآية: ١١٥-١١٦.

===== [٥٩] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يُظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾

عَلَى الْحَقِّ مُطْلَقًا فَقَدْ أَسَاءَ الظَّنُّ بِاللَّهِ لِأَنَّ هَذَا الظَّنَّ خِلَافٌ وَعَدَ اللَّهُ لِلْمُتَّقِينَ فَإِنَّهُ قَدْ أَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْعَاقِبَةَ لَهُمْ. وَمِنْ الْحُكْمِ الَّتِي كَانَتْ فِي هَذِهِ أُحْدِ :

١- تَعْرِيفُ الصَّحَابَةِ سُوءَ عَاقِبَةِ الْفُشْلِ وَالتَّنَازُعِ.

٢- تَمْيِيزُ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمُنَافِقِينَ.

٣- تَهْذِيبُ نَفُوسِ الْمُؤْمِنِينَ

(وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ ظَنًّا السُّوءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ) فَمَنْ قَطَعَ مِنْ رَحْمَتِهِ وَأَيْسَ مِنْ رُوحِهِ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنًّا السُّوءِ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّ لَهُ وَلَدًا أَوْ شَرِيكًا، أَوْ أَنَّ أَحَدًا يَشْفَعُ عِنْدَهُ بِدُونِ إِذْنِهِ، أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَلْقِهِ وَسَائِطَ يَرْغُبُونَ حَوَائِجَهُمْ إِلَيْهِ، أَوْ أَنَّهُ نَصَبَ لِعِبَادِهِ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ يَتَقَرَّبُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَتَوَسَّلُونَ بِهِمْ إِلَيْهِ وَيَجْعَلُونَهُمْ وَسَائِطَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ فَيَدْعُونَهُمْ وَيُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّهِ وَيَخَافُونَهُمْ وَيَرْجُونَهُمْ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ أَقْبَحَ الظَّنِّ وَأَسْوَأَهُ. وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ إِذَا تَرَكَ شَيْئًا لِلَّهِ لَمْ يُعَوضْهُ خَيْرًا مِنْهُ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنًّا السُّوءِ ، وَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ إِذَا صَدَقَ فِي الرِّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ وَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ وَسَأَلَهُ وَاسْتَعَانَ بِهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنَّهُ يُخَيِّبُهُ فَقَدْ ظَنَّ بِهِ ظَنًّا السُّوءِ

(وَفِيمَا يَفْعَلُهُ بَعْضُهُمْ) فَمَنْ حَسَدَ صَاحِبَ نِعْمَةٍ فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنًّا السُّوءِ ، وَمَنْ رَأَى رَجُلًا صَالِحًا قَدْ أُبْتَلِيَ فَقَالَ : لَا يَسْتَحِقُّ ، فَقَدْ ظَنَّ بِاللَّهِ ظَنًّا السُّوءِ ، وَأَكْثَرُ مَنْ وَقَعَ فِي ذَلِكَ أَهْلُ الْبِدْعِ كَالْمَلَا حِدَةٍ كَاعْتِرَاضِهِمْ عَلَى رِزْقِ الْأَحْمَقِ وَكَوْنِ بَعْضِ الْعُقَلَاءِ فَقِيرًا كَقَوْلِ ابْنِ الرَّائِدِيِّ (١)

إِذَا كَانَ لَا يَخْطِئُ بِرِزْقِكَ عَاقِلٌ *** وَتَرْزُقُ مَجْنُونًا وَتَرْزُقُ أَحْمَقًا

فَلَا ذَنْبَ يَا رَبَّ السَّمَاءِ عَلَى امْرِئٍ *** رَأَى مِنْكَ مَا لَا يَنْتَهَى فَتَزَنَّدَفَا

فَعِلَاةُ الْقُدْرَةِ يَظُنُّونَ أَنَّهُ لَا يَعْلَمُ الْأَشْيَاءَ إِلَّا بَعْدَ وَقُوعِهَا ، وَالْجَبَرِيَّةُ يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ يُجْبِرُ الْعَبْدَ عَلَى فَعَلٍ مَا لَا يُرِيدُ ثُمَّ يُعَذِّبُهُ عَلَى مَا جَبَرَهُ عَلَيْهِ فَيَصِفُونَ اللَّهَ بِالظُّلْمِ ، وَالْخَوَارِجُ وَالْمُعْتَزِلَةُ ظَنُّوا أَنَّ اللَّهَ يُخْبِطُ

(١) هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن اسحق، الملحد عدو الدين.

طَاعَاتِ الْعُمَرِ الْمَدِيدِ الْخَالِصِ الصَّوَابِ بِكِبَرِهِ وَاحِدَةٍ ، وَالْجَهْمِيَّةُ ظُنُّوا أَنَّ اللَّهَ لَا سَمْعَ لَهُ وَلَا بَصَرَ وَلَا كَلَامَ وَلَا عِلْمَ وَلَا إِرَادَةَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ عَرْشِهِ فَمَعْبُودُهُمْ أَبْكَمَ أَعْمَى أَصَمَّ فِي كُلِّ مَكَانٍ طَيِّبٍ وَخَبِيثٍ ، وَكَذَلِكَ ظَنَّتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْأَشَاعِرَةِ أَنَّهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ . (وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللَّهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ) هَذَا هُوَ الدَّوَاءُ وَذَلِكَ هُوَ الدَّاءُ الَّذِي انْتَشَرَ . (وَلَوْ فَتَشَّتْ مَنْ فَتَشَّتْ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى الْقَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ) وَافْتِرَاحًا عَلَيْهِ خِلَافَ مَا جَرَى بِهِ ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ : (فَخَلِّصْ قَلْبَكَ مِنْ كُلِّ ظَنٍّ سُوءٍ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، فَلَا تَظُنَّنِي فِي أَمْرِ قَدَّرَ اللَّهُ وَجُودَهُ أَنَّ غَيْرَهُ أَفْضَلُ مِنْهُ ، وَأَنَّ عَدَمَ حُصُولِهِ أَصْلَحُ ، وَلَا فِي أَمْرِ قَدَّرَ اللَّهُ عَدَمَ كَوْنِهِ أَنَّ وَجُودَهُ أَوْلَى فَإِنَّ كُلَّ ذَلِكَ سُوءٌ ظَنٌّ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا)^(١).

(فَمُسْتَقِيلٌ وَمُسْتَكْبِرٌ) : مَبْتَدَأٌ خَبَرٌ كُلٌّ مِنْهُمَا مَحْذُوفٌ ، مُسْتَقِيلٌ مِنْ هَذَا وَمُسْتَكْبِرٌ مِنْهُ.



[٦٠]

بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدْرِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ إِنْكَارَ الْقَدْرِ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ بِاللَّهِ ، فَالْبَابُ السَّابِقُ أَعْمُ مِنْ هَذَا الْبَابِ .
وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ يَدْخُلُ فِي أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ الثَّلَاثَةِ . الْقَدْرُ لُغَةً : مَصْدَرٌ قَدَرَ يَقْدُرُ الشَّيْءُ إِذَا عِلِمَ بِمَقْدَارِهِ ، وَيُقَالُ أَيْضاً : قَدَرَ يَقْدِرُ تَقْدِيرًا ، وَالْقَدْرُ شَرْعًا : هُوَ إِحَاطَةُ اللَّهِ بِالْأَشْيَاءِ عِلْمًا وَكِتَابَةً وَخَلْقًا وَمَشِيئَةً . فَالْقَدْرُ أَرْبَعُ مَرَاتِبٍ :

١- الْعِلْمُ وَمَعْنَاهُ : أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا كَانَ وَمَا يَكُونُ وَمَا سَيَكُونُ وَمَا لَنْ يَكُونَ وَلَوْ كَانَ كَيْفَ يَكُونُ .
وَدَلِيلُ هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ^(١) .

٢- الْكِتَابَةُ وَمَعْنَاهَا: كِتَابَةُ ذَلِكَ الْمَعْلُومِ عِنْدَهُ فِي الْأَزْلِ، وَالْآيَةُ السَّابِقَةُ دَلِيلٌ عَلَى هَذِهِ الْمَرْتَبَةِ، وَمِنْ السَّنَةِ حَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ابْنِ الْعَاصِ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَقُولُ: (كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ) ^(٢) .

٣- الْمَشِيئَةُ وَمَعْنَاهَا: أَنَّهُ لَا خُرُوجَ لِكَائِنٍ عَنْ مَشِيئَتِهِ سُبْحَانَهُ كَمَا لَا خُرُوجَ لَهُ عَنْ عِلْمِهِ قَالَ تَعَالَى ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٣) .

٤- الْخَلْقُ وَدَلِيلُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ ^(٤) .
تَنْبِيْهُ: هُنَاكَ عِدَّةُ تَقْدِيرَاتٍ :

(١) سورة الحج الآية: ٧٠.

(٢) أخرجه مسلم، باب جِجَاجِ آدَمَ وَمُوسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، برقم: (٦٩١٩).

(٣) سورة التكوير الآية: ٢٩.

(٤) سورة الزمر الآية: ٦٢.

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
التقدير الأول: قبل أن يخلق السماوات والأرضَ بخمسين ألف سنة، وفيه حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما -.

التقدير الثاني: في كل عام، ودليله قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾^(١).
التقدير الثالث: تقدير عُمري يقع بعد أربعة أشهرٍ لكل مولودٍ في بطن أمه، ودليله حديث ابن مسعود في الصحيحين.

وَالنَّاسُ فِي الْقَدْرِ ثَلَاثَ طَوَائِفَ:

١ - القدرية: وهؤلاء غلّوا في إثبات المشيئة للمخلوق حتى نفّوا عن الله الخلق والعلم، وقالوا: إن الله لم يخلق كل شيء، بل خلق العبد فعّله بنفسه، فراراً وتنزيهاً من نسبة الشر إليه، وكلامهم باطل فالله تعالى يقول: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٢)، ويُقال لهم أيضاً: أن العبد يفعل الفعل بإرادة جازمة وقدر تامّة، والله تعالى هو الذي خلق فيه القدرة والإرادة، ولكن فعل العبد له تعلقان: المباشرة والخلق، فالله هو الخالق للفعل، والعبد هو المباشر للفعل فيحاسب العبد على مباشرة الشر الذي خلقه الله ونهاه عن مباشرته.

٢ - الجبرية: وهؤلاء غلّوا في إثبات القدر حتى نفّوا المشيئة والإرادة عن المخلوق، وقالوا: العبد كالريشة في مهبّ الريح، وهذا أيضاً باطل لأنّ العبد يدرك بالضرورة أنّ له مشيئة واختياراً لأنه يفعل ما يشاء ويترك ما يشاء قال تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣)
[سور التكويد]

(١) سورة الدخان الآية: ٤.

(٢) سورة الصفات الآية: ٩٦.

٣- أهل السنة والجماعة: وهؤلاء جمعوا بين الأدلة وسلكوا طريق خير ملة، فأثبتوا القدر لله تعالى وأثبتوا المشيئة للمخلوق، وهذا هو سبيل النجاة.

و اعلم أنَّ السنة ألا يخاض في هذا الباب، و يقول أهل العلم: القدر سرُّ الله في خلقه لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «إِذَا ذُكِرَ الْقَدَرُ فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ أَصْحَابِي فَأَمْسِكُوا، وَإِذَا ذُكِرَ النَّجْمُ فَأَمْسِكُوا»^(١)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أَحَدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْهُ، حَتَّى يُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ " ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرُهُ وَشَرُّهُ»^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

عن يحيى بن يعمر وحמיד بن عبد الرحمن كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِيِّ. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَحُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحِمَيْرِيُّ حَاجَّيْنِ أَوْ مُعْتَمِرَيْنِ فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ. فَوَفَّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَاسْتَفْتَاهُ أَنَا وَصَاحِبِي، أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكِلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ، إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قَبْلَنَا نَاسٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ. وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أَتَفْتُ. قَالَ: فَإِذَا لَقِيتَ أَوْلِيكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ.

وفيه:- أنَّ بدعة القدر من أول البدع ظهوراً . وفيه الرجوع إلى كبار أهل العلم عند الفتن. وفيه أدب طلبة العلم في سيرهم مع كبيرهم، ومخاطبتهم له. وفيه الإنصاف عند التحاكم، ولو كان الرجل من أهل البدع بخلاف مقام الجرح والتعديل؛ فإنه لا تصلح الموازنة هناك. قوله: (أني بريء منهم وأنهم براء مني)

(١) أخرجه اللالكائي في شرح أصول الاعتقاد وصححه الألباني في الصحيحة ٣٤.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان- باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان (٨).

امْتَنِعْ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

صريحٌ في كفر القدريّة، وقد قال بعض السلف: (ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصِمُوا وإن جحدوه كفروا). ثمّ استدل ابن عمر بحديث جبريل: وفيه: أنَّ ابن عمر لم يحكم بهذا الحكم من نفسه إنّما من السنة، فإنّ انتفاء ركن من أركان الإيمان انتفاءً للإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا ﴿١٥١﴾^(١).

والشاهد من الحديث قوله: (وَتُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ خَيْرَهُ وَشَرَّهُ)، أعاد الفعل لطول الفصل، وقيل: لأهمية المسألة لأنّ الإيمان بالقدر من الإيمان بالله، فذكر الخاص بعد العام يشعر بأهمية الخاص. قوله: (خيرهُ وشَرُّهُ) "الخير" هنا ما يلائم العبد كالغنى والعافية، و"الشر" ما لا يلائمه كالفقر والمرض.

وإذا قيل: كيف يقدر الله الشر؟ الجواب أن يقال: الشر في مقدرات الله وليس في تقديره؛ وذلك لأنّ الله يقدر الشرّ والمراد منه الخير، كقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾^(٢). فالقحط والبلاء وإن كان شرّاً إلا أنّ الله جل وعلا يريد منه الخير وهو الرجوع إليه والتضرع بين يديه، ومثال ذلك: فإنّهُ لو انكسر الولد وكواه الوالد بالنار لقليل: هذا أبٌ رحيم، ولا يقال: أبٌ قاسٍ نظراً للعاقبة والمآل والمقصد، وكما أنّ استمرار النعم بالمرء يحمله على البطر والعجب.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ يَا بُنَيَّ: إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبِكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ

(١) سورة النساء الآية: ١٥٠-١٥١.

(٢) سورة الروم الآية: ٤١.

يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ فَقَالَ لَهُ أَكْتُبْ فَقَالَ رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ أَكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»^(١). وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ أَكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ^(٢)).

قوله في حديث عبادة: (يا بني إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الْإِيمَانِ) : فيه: النصح للأبناء والتلطف معهم، وفيه أَنَّ لِلْإِيمَانِ حَلَاوَةً وَطَعْمًا مِنْ ذَاقَهَا تَسَلَّى بِهَا عَنِ الدُّنْيَا، (حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ) أي: ما أصابك من المصائب لا تعتقد أنه كان من الممكن ألا يصيبك، فَإِنَّ الْمَقْدَرَ وَاقِعٌ مَهْمَا بَدَلَتْ مِنْ أَسْبَابٍ. (وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ) أي: ما فاتك من النعم لم يكن لك أن تدركه؛ لِأَنَّ الْمَقْدَرَ وَاقِعٌ، وَهَاتَانِ الْجُمْلَتَانِ تَفْسِيرٌ لِعَمَلِي لِلْإِيمَانِ بِالْقَدْرِ، وَقَدْ جَاءَتْ مَرْفُوعَةً عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا فِي حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-.

قوله: (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللَّهُ الْقَلَمَ) : بين السلف وعلماء الخلف خلافاً في العرش والقلم أيهما خُلِقَ أولاً: فقد قال ابن القيم -رحمه الله-:

وَالنَّاسُ مُخْتَلِفُونَ فِي الْقَلَمِ الَّذِي *** كُتِبَ الْقَضَاءُ بِهِ مِنَ الدِّيَانِ
هَلْ كَانَ قَبْلَ الْعَرْشِ أَوْ هُوَ بَعْدَهُ *** قَوْلَانِ عَنْ أَبِي الْعَلَا الْهَمْدَانِيِّ

(١) أخرجه أبوداود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٧٠٠)، والترمذي في كتاب القدر- باب ماجاء في الرضا بالقضاء (٢١٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٠١٨).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣١٧/٥)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح»، وهذا الحديث ساقط من التيسير.

وجمهور أهل العلم على أَنَّ العرش خُلِقَ أولاً ومنهم شيخ الإسلام ^(١) وابن القيم، واستدلوا بحديث البخاري (قال: كان الله ولم يكن شيء غيره وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض)

وزهد الإمام كما في مسائله إلى أَنَّ القلم خلق أولاً، وبه قال الشيخ الألباني كما في الصحيحة ^(٢) تحت هذا الحديث.

(قَالَ: أَكْتُبُ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) : فيه: دليل على مرتبة العلم والكتابة. (مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي) أي: مَنْ مَاتَ وهو يعتقد أَنَّ الله لم يعلم ولم يكتب كل شيء فليس مني، أي: أنا بريء منه لكفره، وفي الحديث من الفوائد: أَنَّهُ ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها، وَأَنَّ كل ما يجري في الكون مكتوب، وفيه قبول توبة القدري إذا تاب قبل موته، وفيه ردُّ على من يقول: أول ما خلق الله النور المحمدي ويستدلون بحديث موضوع: (أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر) ^(٣).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ حَيْرَهُ وَشَرَّهُ أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ» ^(٤).] (ابن وهب) هو عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي مولاهم، الفقيه، ثقة إمام من أصحاب مالك، مات سنة ٩٧ هـ. (أَحْرَقَهُ اللَّهُ بِالنَّارِ) : لكفره إن أنكر الكتابة والعلم، ولبدعته إن أقرَّ بالعلم وأنكر الخلق.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي "الْمُسْنَدِ" و"السُّنَنِ" عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ: قَالَ: أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ: فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية، (١٨ / ٢١٣).

(٢) انظر السلسلة الصحيحة، برقم: (١٣٣).

(٣) كشف الخفاء للعجلوني، برقم: (٨٢٧)، والآثار المرفوعة في الأخبار الموضوعة لعبد الحي اللكنوي، ص: ٤٢.

(٤) أخرجه عبد الله بن وهب في «القدر» (٢٦)، ورواه أيضاً ابن أبي عاصم في السنة (١١١) وهو صحيح راجع تخريج السنة.

أُحْدِ ذَهَبًا، مَا قَبِلَهُ اللَّهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَاكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَالَ فَاتَّيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحَذِيفَةَ بْنَ أَلِيْمَانَ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ^(١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الْحَاكِمُ فِي "صَحِيحِهِ"^(٢).

(ابن الدَّيْلَمِيِّ) هو عبد الله بن فيروز، ثقة من كبار التابعين، ونسبته إلى جبل الديلم، وهو قاتل الأسود العنسي.

(أَتَيْتُ أَبِي بْنَ كَعْبٍ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ) فيه: الرجوع إلى أهل العلم عند ورود الشبهات.

(فَحَدَّثَنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللَّهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي) فيه: أَنَّ العلم شفاء لمرض الشبهات. (فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحَذِيفَةَ بْنَ أَلِيْمَانَ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ): هؤلاء الذين أتاهم ثلاثتهم من القراء، وحذيفة صاحب سر رسول الله ﷺ، (فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ): لأنهم يأخذون من مصدر واحد، وفيه: جواز سؤال أكثر من عالم في المسألة الواحدة إذا كان المقصود التثبت لا ضرب أقوال العلماء بعضها ببعض، ومن الأحاديث السابقة نعلم شناعة إنكار القدر؛ لشدة الوعيد مثل براءة رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، وعدم قبول عمله، وتوعده بالنار.



(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٢/٥)، وأبو داود في كتاب السنة- باب في القدر (٤٦٩٩)، وابن ماجه في كتاب المقدمة- باب في القدر (٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح ابن ماجه»، وفي تخريج السنة ص: ١٠٩.

(٢) فائدة: لعله سبق قلم من المؤلف فعزاه إلى الحاكم بدل ابن حبان، والدليل على أنه قال: "في صحيحه" وقد رواه ابن حبان في صحيحه (٧٢٧) ولم يروه الحاكم.

بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِينَ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي الْقَدَرِيَّةِ الَّذِينَ يَدَّعُونَ أَنَّ الْعَبْدَ خَالِقٌ فِعْلُهُ بِنَفْسِهِ ، وَهَذَا الْبَابُ فِي الْمُصَوِّرِينَ الَّذِينَ يَقْضُدُونَ مُشَاهِدَةَ خَلْقِ اللَّهِ ، وَكِلَا الْأَمْرَيْنِ تَنْقُصُ لِحْنَابِ الرُّبُوبِيَّةِ . وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ مِنَ الْوَعِيدِ الشَّدِيدِ فِي الْمُصَوِّرِينَ . قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ؛ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً) ^(١) أَخْرَجَاهُ .

هَذَا حَدِيثٌ إلهي . فِيهِ : إِبْثَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ تَعَالَى . قَوْلُهُ : (وَمَنْ أَظْلَمُ) مَنْ : اسْمُ اسْتِفْهَامٍ وَهُوَ اسْتِفْهَامٌ إِنْكَارِيٌّ بِمَعْنَى النَّفْيِ . قَوْلُهُ : (ذَهَبَ) بِمَعْنَى : قَصَدَ ، أَيِ : لَا أَحَدَ أَظْلَمُ مِمَّنْ قَصَدَ أَنْ يَخْلُقَ كَخَلْقِ اللَّهِ . قَوْلُهُ : (فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً) اللَّامُ لَامُ الْأَمْرِ ، وَالذَّرَّةُ وَاحِدَةُ الذَّرِّ وَهُوَ النَّمْلُ . قَوْلُهُ : (أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً) أَيْضاً اللَّامُ لَامُ الْأَمْرِ ، وَالْحَبَّةُ وَاحِدَةُ الْحَبِّ ، وَهِيَ الْبَذْرُ ، أَيِ : حَبَّةٌ فِيهَا خَصَائِصُ الْحَبِّ مِنَ الْإِنْبَاتِ وَالطَّعْمِ . قَوْلُهُ : (أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً) عَلَى حَقِيقَتِهَا فِيهَا خَصَائِصُ الشَّعِيرِ ، وَالْأَمْرُ هُنَا لِلتَّحْدِيثِ ، وَالْمُرَادُ بِهِ التَّعْجِيزُ . وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : بَيَانُ الْعِلَّةِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ التَّصَوِيرَ مِنْ أَجْلِهَا وَهِيَ الْمُضَاهَاةُ ، وَفِيهِ بَيَانُ قُدْرَةِ اللَّهِ وَغِنَاهُ وَفَقْرِ الْعَبْدِ وَعَجْزِهِ . وَفِيهِ أَنَّ التَّصَوِيرَ مِنَ الْكِبَائِرِ ؛ لِأَنَّهُ وَصَفَ صَاحِبَهُ بِالْأَظْلَمِ .

(١) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ التَّوْحِيدِ - بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَاتَعْمَلُونَ } (٧٥٥٩) ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ الْلبَاسِ وَالزَّيْنَةِ - بَابُ تَحْرِيمِ تَصْوِيرِ صُورَةِ الْحَيَوَانِ وَتَحْرِيمِ اتِّخَاذِ مَا فِيهِ صُورَةُ (٢١١١) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَاهُونُ بِخَلْقِ اللَّهِ)^(١)].

سَبَبُ هَذَا الْحَدِيثِ أَنَّ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قَالَتْ: (قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرَتْ بِقِرَامٍ لِي سَهْوَةً فِيهِ تَصَاوِيرٌ فَهَتَكُهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ) ثُمَّ ذَكَرَ الْحَدِيثَ. الْقِرَامُ: هُوَ ثَوْبٌ خَفِيفٌ، وَالسَّهْوَةُ: فَتْحَةٌ، فِي الْجِدَارِ وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ التَّصَوِيرَ كُلَّهُ حَرَامٌ مَا لَهُ ظِلٌّ وَمَا لَا ظِلَّ لَهُ. قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (وَأَجْمَعَ الْأُئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ وَالْجُمْهُورُ عَلَى أَنَّهُ مُحَرَّمٌ أَيْضًا كَالَّذِي لَهُ ظِلٌّ، وَهَذَا هُوَ الصَّوَابُ؛ لِأَنَّ الْإِحَادِيثَ نَعْمَ مَا كَانَ لَهُ ظِلٌّ وَمَا لَا ظِلَّ لَهُ، وَتَشْمَلُ التَّصَوِيرَ الشَّمْسِيَّ وَغَيْرَهَا)^(٢).
أي الفتوغرافي

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُمَا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ)^(٣)].
(كُلُّ مُصَوِّرٍ) لَفْظٌ عَامٌّ يَشْمَلُ كُلَّ مَنْ صَحَّ إِطْلَاقُ لَفْظِ الْمَصَوِّرِ عَلَيْهِ، سَوَاءً كَانَ تَصْوِيرُهُ لَهُ ظِلٌّ أَوْ لَا ظِلَّ لَهُ. وَقَدْ فَهِمْنَا أَنَّ عِلَّةَ التَّنْهِي هِيَ الْمُضَاهَاةُ وَهِيَ فِي التَّصَوِيرِ الْفُوتُوغْرَافِيِّ أَوْ الشَّمْسِيِّ أَظْهَرُ وَجُودًا مِنْ غَيْرِهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: (مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كَلِفَ أَنْ يَنْفَخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ)].

(١) أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب ما وطئ من التّصاوير (٥٩٥٤)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة - باب تحريم تصوير الحيوان (٢١٠٧).

(٢) شرح كتاب التّوحيد، ص: ١٥٥.

(٣) أخرجه البخاري في كتاب اللباس - باب من صور صورة كلف يوم القيامة أن ينفخ وما هو بنافخ (٥٩٦٣)، ومسلم في كتاب اللباس - باب تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١٠) واللفظ له.

امْتَنَعَ أَهْلُ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
هَذَا الْحَدِيثُ ذَكَرَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ لِسَبَبٍ هُوَ أَنَّهُ: (أَتَاهُ رَجُلٌ فَقَالَ يَا أَبَا عَبَّاسٍ إِنِّي إِنْسَانٌ إِنَّمَا مَعِيشَتِي مِنْ صَنْعَةِ يَدَيَّ وَإِلَيَّ أَصْنَعُ هَذِهِ التَّصَاوِيرَ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لَا أُحَدِّثُكَ إِلَّا مَا سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ: فذكر الحديث

(فَرَبَا الرَّجُلُ رُبُوءَ شَدِيدَةٍ وَاصْفَرَ وَجْهُهُ فَقَالَ وَيْحَكَ إِنْ أَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تَصْنَعَ فَعَلَيْكَ بِهَذَا الشَّجَرِ كُلِّ شَيْءٍ لَيْسَ فِيهِ رُوحٌ)^(١). هَذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ . وَفِي الْحَدِيثِ : أَنَّ الْمُحَرَّمَ مِنَ الصُّورِ ذَوَاتُ الْأَرْوَاحِ ؛ لِأَنَّ هَذَا فَهَّمُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَاوِي الْحَدِيثِ ، ثُمَّ بَيَّنَّ كَيْفِيَّةَ التَّعْذِيبِ بِقَوْلِهِ (كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ) فَيُلْزَمُ بِأَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، وَهَذَا تَأْتِي قَاعِدُهُ: (تَرُكُ الِاسْتِفْصَالِ فِي مَقَامِ الْإِحْتِمَالِ يُنْزِلُ مَنْزِلَةَ الْعُمُومِ فِي الْمَقَالِ) لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ لَمْ يَسْتَفْصِلْ هَلْ تَصَوُّرُهُ لَهُ ظِلٌّ أَمْ لَيْسَ لَهُ ظِلٌّ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيُّ أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ أَلَا تَدْعَ صُورَةَ إِلَّا طَمَسْتَهَا وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتَهُ^(٢)]. (أَبُو الْهَيَّاجِ) هُوَ حَيَّانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْكُوفِيُّ ، كَاتِبٌ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ . (أَلَا أَبْعَثُكَ) أَلَا : حَرْفُ عَرْضٍ ، أَبْعَثُكَ : أَرْسَلُكَ ، وَفِيهِ : التَّرْفُوقُ فِي التَّعْلِيمِ . (أَلَا تَدْعَ) أَي : لَا تَتْرُكْ . (صُورَةً) نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَتَعْمُ كُلُّ صُورَةٍ . (إِلَّا طَمَسْتَهَا) الطَّمَسُ : هُوَ إِخْفَاءُ الْمَعَالِمِ . (وَلَا قَبْرًا) أَيْضًا نَكْرَةً فِي سِيَاقِ النَّهْيِ فَتَعْمُ ، كُلُّ قَبْرٍ مُشْرِفٍ (مُشْرِفًا) أَي : عَالِيًا . وَفِي الْحَدِيثِ : تَحْرِيمُ اقْتِنَاءِ الصُّورِ ، وَفِي اقْتِرَانِ الْقُبُورِ مَعَ الصُّورِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُمَا مِنْ أَعْظَمِ وَسَائِلِ الشِّرْكِ .



(١) أخرجه البخاري - باب بَيْعِ التَّصَاوِيرِ الَّتِي لَيْسَ فِيهَا رُوحٌ وَمَا يُكْرَهُ مِنْ ذَلِكَ، برقم: (٢٢٢٥).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنائز - باب الأمر بتسوية القبر (٩٦٩).

[٦٢]

بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْخُلْفِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ التَّصْوِيرَ فِيهِ سُوءُ أَدَبٍ مَعَ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا حَيْثُ إِنَّهُ تَطَاوُلٌ عَلَى خَصَائِصِهِ بِالْفِعْلِ ، وَكَثْرَةُ الْخُلْفِ فِيهَا عَدَمُ تَعْظِيمِ اللَّهِ وَاسْتِهَانَةٌ بِاسْمِهِ فَهِيَ سُوءُ أَدَبٍ بِالْقَوْلِ مَعَهُ جَلَّ وَعَلَا .

وقول الله تعالى: ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ ^(١) .

(وَاحْفَظُوا) فَعْلٌ أَمْرٌ ، وَالْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ . (أَيْمَانَكُمْ) الْأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ ، وَهِيَ الْخُلْفُ .

وَحِفْظُهَا ثَلَاثُ مَرَاتِبٍ :

١ - حِفْظُهَا ابْتِدَاءً بِعَدَمِ الْخُلْفِ .

٢ - حِفْظُهَا وَسَطًا بِعَدَمِ الْحِنْثِ إِذَا حَلَفَ ، إِلَّا إِذَا رَأَى أَنَّ غَيْرَهَا خَيْرٌ مِنْهَا .

٣ - حِفْظُهَا انْتِهَاءً بِالْكَفَّارَةِ بَعْدَ الْحِنْثِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «الْخُلْفُ مَنْفَقَةٌ

لِلسِّلَعَةِ، مَحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ» ^(٢) أَخْرَجَاهُ .

قَوْلُهُ (الْخُلْفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلَعَةِ) أَيٌ : سَبَبٌ رَوَّاجَهَا وَخُرُوجَهَا مِنْ يَدِ بَائِعِهَا ، وَذَلِكَ لِتَعْظِيمِ النَّاسِ اللَّهَ جَلَّ

وَعَلَا ، وَثَقَّتِهِمْ بِمَنْ يَخْلِفُ بِاللَّهِ . (مَحَقَّةٌ لِلْكَسْبِ) أَيٌ : مَنْقَصَةٌ مُثْلِفَةٌ لِلْبَرَكَةِ . وَهَذَا التَّلَفُّ قَدْ يَكُونُ

حِسْبِيًّا بِأَنْ تُصِيبَ الْمَالُ آفَةٌ مِنَ الْآفَاتِ ، وَقَدْ يَكُونُ مَعْنَوِيًّا بِأَلَّا يَنْتَفِعَ صَاحِبُهُ بِهِ فِي دِينِهِ وَلَا فِي دُنْيَاهُ .

(١) سورة المائدة الآية: ٨٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب البيوع - باب يحق الله الربا ويرى الصدقات (٢٠٨٧) ، ومسلم في كتاب المساقاة - باب النهي عن الخلف في البيع (١٦٠٦) .

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ
 قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ سَلْمَانَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يُزَكِّيهِمْ
 وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَشِيمِطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ: لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا
 يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»^(١) رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.]

(سَلْمَانُ) هُوَ الْفَارِسِيُّ ، قَالَ عَنْهُ الدَّهْمِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (ابن الإسلام أَبُو عَبْدِ اللَّهِ كَانَ لَبِيئاً حَازِماً مِنْ
 عُقْلَاءِ الرِّجَالِ وَفُضْلَانِهِمْ وَنَبْلَانِهِمْ)^(٢) وَتَبَتَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : (لَوْ كَانَ الْإِيمَانُ عِنْدَ الثَّرِيَا لَنَالَهُ
 رَجُلٌ مِنْ هَؤُلَاءِ ، وَأَشَارَ إِلَى سَلْمَانَ) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ . قَوْلُهُ : (ثَلَاثَةٌ) لَيْسَ الْمُرَادُ الْحَصْرُ ، لَكِنَّ هَؤُلَاءِ
 اتَّفَقُوا فِي سَبَبِ الْعَذَابِ وَهُوَ اسْتِحْقَافُهُمْ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ . (لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ) أَيُّ : كَلَامٌ تَكْرِيمٍ وَرِضًا ؛
 لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي الصَّحِيحِ : (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ
 يَحْجُبُهُ)^(٣) . فَفِيهِ : إِبْتِاثُ صِفَةِ الْكَلَامِ ، (وَلَا يُزَكِّيهِمْ) أَيُّ : لَا يُنْثِي عَلَيْهِمْ ، وَفِي الْإِجْمَالِ قَبْلَ التَّفْصِيلِ
 تَشْوِيقٌ إِلَى مَعْرِفَتِهِمْ ، (أَشِيمِطُ زَانٍ) أَشِيمِطُ : تَصْغِيرُ أَشْمَطَ ، وَهُوَ مَنْ شَابَ رَأْسُهُ وَلَحِيتُهُ ، وَصَغُرَ
 النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ تَحْقِيرًا لَهُ ، وَخُصَّ مِنْ بَيْنِ الزَّانَةِ لِضَعْفِ دَاعِي الْمَعْصِيَةِ عِنْدَهُ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى
 حُبِّهِ لِلْمَعْصِيَةِ ، وَعَدَمُ خَوْفِهِ مِنَ اللَّهِ . (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ) الْعَائِلُ : الْفَقِيرُ الْمُتَرَفِّعُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ .
 وَخُصَّ مِنْ بَيْنِ الْمُتَكَبِّرِينَ لِضَعْفِ دَاعِي الْمَعْصِيَةِ عِنْدَهُ أَيْضًا . (وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بِضَاعَتَهُ) هَذَا مُوضِعُ
 الشَّاهِدِ ، - بِنَصْبِ الْأَسْمِ الشَّرِيفِ - وَهَذَا مُجْمَلٌ بَيْنَهُ قَوْلُهُ : (لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ
) أَيُّ : أَنَّهُ مُلَازِمٌ لِلْإِيمَانِ فِي بَيْعِهِ وَشِرَائِهِ ، فَهُوَ يُشَارِكُ الْأَوَّلِينَ فِي ضَعْفِ الدَّاعِي إِلَى الْخُلْفِ ، فَإِنْ كَانَ

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦١٢٤/٢٤٦/٦)، وفي «المعجم الأوسط» (٥٥٧٧/٣٦٧/٥)، وفي «المعجم الصغير»
 (٨٢١/٨٢/٢)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٨٥٢/٢٢٠/٤)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٦٣٣٥/١٣٧/٤)، وقال: «رواه
 الطبراني في معاجمه الثلاثة إلا أنه قال في الصغير والأوسط: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم وهم عذاب أليم». فذكره ورجاله رجال
 الصحيح».

(٢) سيرة أعلام النبلاء (٣٠٩/٣).

(٣) أخرجه البخاري.

فِي خَلْفِهِ صَادِقًا فَكَثَرَةُ الْخَلْفِ اسْتِخْفَافٌ بِاللَّهِ وَقَدْ تُؤَدِّي إِلَى الْخَلْفِ الْكَاذِبِ ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا فَهِيَ كَبِيرَةٌ عَلَى كَبِيرَةٍ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي "الصَّحِيح" عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ» (قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟) ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيُخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤْفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمْنُ» ^(١).

(عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ): هُوَ وَأَبُوهُ صَحَابَتَانِ. (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي) أُمَّةُ النَّبِيِّ ﷺ خَيْرُ الْأُمَمِ ، وَالصَّحَابَةُ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ فَهُمْ خَيْرُ النَّاسِ ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا صَرِيحًا فِي حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَكَيْفَ لَا يَكُونُونَ خَيْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَقَدْ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ وَنَصَرُوهُ وَشَاهَدُوا التَّنْزِيلَ وَتَلَقَّوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَلَّغُوهُ مَنْ بَعْدَهُمْ. (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) التَّابِعُونَ؛ لِأَنَّ الْإِسْلَامَ فِي عَهْدِهِمْ كَانَ ظَاهِرًا مَعَ كَثْرَةِ الدَّاعِي إِلَيْهِ وَالزَّاعِبِ فِيهِ، وَالْبِدْعَةُ وَأَهْلُهَا كَانُوا فِي غَايَةِ الدَّلِّ وَالْمَقْتِ ، بَلْ قُتِلَ مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ مِنَ الْمُبْتَدِعَةِ. (ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ) أَيِ : الْقَرْنُ الثَّلَاثُ دُونَ الْأَوَّلِينَ فِي الْخَيْرِيَّةِ بِظُهُورِ الْبِدْعِ لَكِنَّ الْعُلَمَاءَ كَانُوا مُتَوَافِرِينَ ، وَكَانَ الْإِسْلَامُ ظَاهِرًا وَالْجِهَادُ قَائِمًا. قَالَ عِمْرَانُ: (فَلَا أَدْرِي أَذْكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟) قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ بَارٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: (لَكِنَّ الْمَحْفُوظَ مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فِي الْمُسْنَدِ أَنَّهُ مَرَّتَيْنِ ، وَمِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ كَذَلِكَ كَمَا هُوَ هُنَا) ^(٢). (ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا): ضُبِطَ قَوْمٌ بِالرَّفْعِ عَلَى أَنَّهُ خَيْرٌ إِنْ وَاسَمَهَا ضَمِيرُ الشَّانِ مَحْذُوفٌ. (يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ) أَيِ : يَقُولُ أَحَدُهُمْ : أَشْهَدُ اللَّهَ مَا حَصَلَ كَذَا وَكَذَا ، أَوْ حَصَلَ كَذَا وَكَذَا ، عَلَى مَعْنَى الْيَمِينِ ، وَقَدْ جَاءَتْ الشَّهَادَةُ بِمَعْنَى الْيَمِينِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ فَشَهِدَهُ

(١) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات - باب لا يشهد على شهادة جور إذا شهد (٢٦٥١)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة - باب

فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم (٢٥٣٥).

(٢) شرح كتاب التوحيد، ص: ١٥٨-١٥٩.

أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ^(١) قَالَ مَعْنَى : يَخْلِفُونَ وَلَا يُسْتَحْلِفُونَ ؛ وَذَلِكَ لِقَلَّةِ دِينِهِمْ ، وَاسْتِحْقَافِهِمْ بِالْخُلْفِ . (وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ) أَي : لَأَنَّهُمْ أَهْلُ خِيَانَةٍ ، وَلَكَثَرَتْهَا عِنْدَهُمْ وَشَهَرَتْهُمْ بِهَا لَا يَأْتُمُهُمُ النَّاسُ . (وَيَنْذُرُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ) تَقَدَّمَ أَنَّ عَقْدَ النَّذْرِ مَكْرُوهٌ وَالْوَفَاءُ بِهِ وَاجِبٌ ، فَهُمْ يَفْعَلُونَ الْمَكْرُوهَ بِلَا الْمُحَرَّمَ وَيَتْرَكُونَ الْوَاجِبَ . (وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السِّمْنُ) هَذِهِ الْجُمْلَةُ مُحَلٌّ إِشْكَالٍ ؛ لِأَنَّ السِّمْنَ لَيْسَ مِنَ اخْتِيَارِ الْعَبْدِ ، فَكَيْفَ يُدْثَمُ الْعَبْدُ عَلَى مَا لَيْسَ مِنْ كَسْبِهِ ؟ قَالَ أَهْلُ الْعِلْمِ : (الْمُرَادُ الْأَعْتِنَاءُ بِأَسْبَابِ السِّمَنِ مِنَ الْمَطَاعِمِ وَالْمَشَارِبِ) . وَفِي الْحَدِيثِ : عَلِمَ مِنْ أَعْلَامِ التُّبُوَّةِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِيهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ » ^(٢)] . (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي) : هَذَا صَرِيحٌ فِي خَيْرِيَّةِ الصَّحَابَةِ عَلَى جَمِيعِ النَّاسِ ، فَهُمْ خَيْرٌ مِنْ حَوَارِي عِيسَى عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا الصَّلَاةُ السَّلَامُ وَخَيْرٌ مِنْ نُقَبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَفِيهِ : أَنَّ الْقُرُونَ الْمُفَضَّلَةَ ثَلَاثَةٌ . (ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ) قَالَ ابْنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَقِيلَ : الْمُرَادُ التَّسَرُّعُ إِلَى الشَّهَادَةِ وَالْيَمِينَ وَالْحَرِصُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى لَا يَنْدِرِي بِأَيِّهِمَا بَدَأَ لِقَلَّةِ مُبَالَاتِهِ) ^(٣) .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ : (كَانُوا يَضْرِبُونَنا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ) . (إِبْرَاهِيمُ) : هُوَ النَّحْعِي . وَالضَّمِيرُ (كَانُوا) يُعَوِّدُ إِلَى مَنْ يَصْلُحُ مِنْهُمْ ذَلِكَ كَأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالْمُرَبِّينَ . (كَانُوا يَضْرِبُونَنا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالْعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ) أَي : عَلَى التَّسَرُّعِ فِيهِمَا . وَفِيهِ مِنَ الْفَوَائِدِ : عِنَايَةُ

(١) سورة النور الآية: ٦ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات - باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد (٢٦٥٢)، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة - باب فضل الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثم الذين بلوهم (٢٥٣٣) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ١١ / ٥٤٤ ، الناشر : دار المعرفة - بيروت ، ١٣٧٩ ، للحافظ أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي .

السَّلَفِ بِتَرْبِيَةِ الْإِبْنَاءِ. وَعِظْمُ أَمْرِ الشَّهَادَةِ وَالْيَمِينِ؛ لِأَنَّهَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يُضْرَبُ عَلَيْهَا. وَأَنَّ الضَّرْبَ مِنْ وَسَائِلِ التَّرْبِيَةِ. وَيَشْتَرُطُ أَنْ يَكُونَ بِمَنْ يَصْلُحُ مِنْهُ ذَلِكَ، وَأَنْ يَكُونَ الْقَصْدُ التَّأْدِيبَ لَا الْإِنْتِقَامَ، وَأَنْ يَنْتَفِعَ بِهِ الصَّغِيرُ، وَالْأَيُّ يُرِيدُ عَنِ الْعَشْرَةِ؛ لِحَدِيثٍ: (لَا يُجْلَدُ أَحَدٌ فَوْقَ عَشْرِ جَلَدَاتٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ) ^(١).



(١) أخرجه البخاري-باب كَمْ التَّعْزِيرُ وَالْأَدَبُ؟، برقم: (٦٨٤٨)، ومسلم بلفظ: (لَا يُجْلَدُ أَحَدٌ فَوْقَ عَشْرِ أَسْوَاطٍ إِلَّا فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ)، باب قَدْرُ أَسْوَاطِ التَّعْزِيرِ، برقم: (٤٥٥٧).

[٦٣]

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ : أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ فِي حَالِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَهَذَا الْبَابُ فِي حَالِ مُعَامَلَةِ الْمُسْلِمِينَ الْكُفَّارَ فِي الْعُهُودِ وَالْمَوَاقِيقِ فَالْوَفَاءُ بِالْعَهْدِ لَا يَخْتَصُّ بِالْمُسْلِمِ بَلْ هُوَ مَعَ الْكُفَّارِ أَوْلَى لِيَدْعُوهُمْ ذَلِكَ لِلنَّظَرِ فِي عَدْلِ الْإِسْلَامِ وَسَمَاحَتِهِ وَأَنَّ ذَلِكَ لَا يَخْتَصُّ بِأَهْلِ الْإِسْلَامِ بَلْ مَعَ كُلِّ أَحَدٍ. وَمَعْنَى التَّرْجَمَةِ : بَابُ مَا جَاءَ فِي عَهْدِ اللَّهِ وَعَهْدِ رَسُولِهِ ﷺ مِنْ تَعْظِيمِهِمَا وَعَدَمِ إِخْفَارِهِمَا بَلْ وَعَدَمِ جَعْلِهِمَا لِلنَّاسِ ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ وَسِيلَةٌ لِإِخْفَارِهِمَا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ

بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ ^(١)

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ) الْأَمْرُ لِلْوُجُوبِ، وَعَهْدُ اللَّهِ: مُفْرَدٌ يَشْمَلُ عَهْدَ الْعَبْدِ مَعَ رَبِّهِ وَعَهْدَهُ مَعَ النَّاسِ، سَوَاءً قَالَ: عَهْدُ اللَّهِ عَلَيَّ، أَوْ قَالَ: أَعَاهِدُكَ، إِلَّا أَنَّ الْأَوَّلَ أَشَدُّ. (وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا) التَّنْقِضُ: هُوَ حُلُّ الْمَعْقُودِ، وَتَوْكِيدُهَا: يَكُونُ بِاسْمِ اللَّهِ.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا. فَقَالَ: «أَغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ أَغْزُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْتَلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ (أَوْ خِلَالٍ)، فَأَيُّتَهُنَّ مَا أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ

(١) سورة النحل الآية: ٩١.

أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسَأَلَهُمُ الْجَزِيَّةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَاسْتَعِنَ بِاللَّهِ وَقَاتِلَهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَى مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ، فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، فَلَا تُنْزِلُهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمُ اللَّهِ أَمْ لَا» ^(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.]

(بُزَيْدَةُ) هُوَ ابْنُ الْخَصِيبِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَسْلَمِيِّ. (أَمَرَ أَمِيرًا) أَي : نَصَبَ أَمِيرًا. (عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ) وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا فِي الْعَدَدِ. فَهِيَ دُونَ الْجَيْشِ عِدَدًا وَفِيهِ : أَنَّ تَجْيِيشَ الْجَيْشِ وَنَصَبَ الْأَمْرَاءِ مِنْ مَهَامِ الْإِمَامِ الْأَعْظَمِ ، وَلَيْسَ لِأَحَادِ النَّاسِ أَنْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنَ الْفَوْضَى. (أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللَّهِ) وَهِيَ التَّحَرُّزُ بِطَاعَةِ اللَّهِ مِنْ عُقُوبَتِهِ. (وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا) أَي : أَوْصَاهُ بِالرِّفْقِ بِهِمْ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِمْ. (فَقَالَ : اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ) أَي : مُسْتَعِينِينَ بِاللَّهِ مُتَوَكِّلِينَ عَلَيْهِ. (قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ) الْكُفْرُ هُوَ سَبَبُ الْقِتَالِ (اغْزُوا، وَلَا تَغْلُوا) مِنَ الْغُلُولِ : وَهُوَ أَخْذُ شَيْءٍ مِنَ الْغَنِيمَةِ قَبْلَ قِسْمَتِهَا ، وَهُوَ مِنَ الْكِبَائِرِ. (وَلَا تُمْتَلُوا) الْمُثْلَةُ : تَشْوِيَةُ الْقَتِيلِ بِقُطْعِ شَيْءٍ مِنْ جَسَدِهِ. (وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا) أَي : صَغِيرًا. (وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ) هَكَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ ، وَالصَّوَابُ إِسْقَاطُهَا كَمَا فِي سَنَنِ أَبِي دَاوُدَ. (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ) قَالَ النَّوَوِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : التَّحَوُّلُ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى الْمَدِينَةِ مُسْتَحَبٌّ ، لِأَنَّ دَارَهُمْ صَارَتْ أَرْضَ إِسْلَامٍ. (وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ) أَي : لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ. (وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ) أَي : عَلَيْهِمُ الدِّفَاعُ عَنْ أَرْضِ الْإِسْلَامِ. (فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ) أَي : لَيْسَ لَهُمْ نَصِيبٌ

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد والسير - باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ، ووصيته إياهم بأداب الغزو وغيرها (١٧٣١).

امْتَنَاعُ أَهْلِ التَّوْحِيدِ بِشَرْحِ كِتَابِ التَّوْحِيدِ

فِي الْعَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ. وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا أَنَّ الْعَنِيمَةَ مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ بِقِتَالٍ وَالْفَيْءُ مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ بِغَيْرِ قِتَالٍ (إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ) فَيَكُونُ لَهُمْ نَصِيبٌ فِي الْعَنِيمَةِ دُونَ الْفَيْءِ . (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا) أَيِ : الْإِسْلَامِ . (فَاسْأَلْتُمُ الْجَزِيَّةَ) وَهِيَ مَالٌ مَدْفُوعٌ مِنْ كَافِرٍ لِتَأْمِينِهِ وَإِقَامَتِهِ بِدَارِ الْمُسْلِمِينَ ، وَمِنْ حِكْمَتِهَا تَمَكُّنُ الْكُفَّارِ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَسَمَاحَتِهِ . وَبَيَّنَ أَهْلُ الْعِلْمِ خِلَافَ فِيمَنْ تُفَرِّضُ عَلَيْهِمُ الْجَزِيَّةَ ، فَقَدْ خَصَّهَا بَعْضُهُمْ بِأَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمَجُوسِ ، وَبَعْضُهُمْ يَرَى أَنَّهَا عَامَّةٌ فِي الْكُفَّارِ . (فَإِنْ هُمْ أَبَوْا) فِيهِ وَجُوبُ مُقَاتَلَةٍ مِنْ أَبِي الْإِسْلَامِ وَدَفْعُ الْجَزِيَّةِ بِشَرْطِهِ . (وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ) الْحِصَارُ : التَّضْيِيقُ ، وَحِصَارُ الْحِصْنِ تَطْوِيقُهُ مِنْ كُلِّ مُنْقَذٍ يَحِثُّ يُمْنَعُ مِنْ فِيهِ مِنَ الْخُرُوجِ ، وَهُوَ مِنَ الْخُطْطِ الْحَرْبِيَّةِ . قَوْلُهُ (فَأَرَادُوكَ أَنْ يَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) أَيِ : طَلَبُوا مِنْكَ ذَلِكَ . (فَلَا يَجْعَلُ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) هَذَا مَوْضِعُ الشَّاهِدِ مِنَ الْحَدِيثِ ، وَقَالَ ابْنُ عُثَيْمِينَ : (النَّهْيُ لِلتَّحْرِيمِ) ^(١) (وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّتَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَى مِنْ أَنْ تَخْفَرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ) قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (الْمَقْصُودُ مِنْ هَذِهِ التَّرْجِمَةِ : الْبُعْدُ وَالْحَذَرُ مِنَ التَّعَرُّضِ لِلْأَحْوَالِ الَّتِي يُخْشَى مِنْهَا نَقْضُ الْعُهُودِ وَالْإِخْلَالِ بِهَا ، بَعْدَمَا يَجْعَلُ لِلْأَعْدَاءِ الْمَعَاهِدِينَ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ . فَإِنَّهُ مَتَى وَقَعَ النَّقْضُ فِي هَذِهِ الْحَالِ كَانَ انْتِهَاكاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ لِذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ ، وَتَرَكَاً لِتَعْظِيمِ اللَّهِ ، وَارْتِكَاباً لِأكْبَرِ الْمَفْسَدَتَيْنِ كَمَا نَبَّهَ عَلَيْهِ ﷺ ، وَفِي ذَلِكَ أَيْضاً تَهْوِينٌ لِلدِّينِ وَالْإِسْلَامِ وَتَزْهِيدٌ لِلْكَفَّارِ بِهِ ، فَإِنَّ الْوَفَاءَ بِالْعُهُودِ خُصُوصاً الْمُؤَكَّدَةَ بِأَغْلَظِ الْمَوَاقِفِ مِنْ مَحَاسِنِ الْإِسْلَامِ الدَّاعِيَةِ لِلْأَعْدَاءِ الْمُنْصِفِينَ إِلَى تَفْضِيلِهِ وَاتِّبَاعِهِ) ^(٢) . (فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ ، فَلَا تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِكَ) أَيِ : إِنْ طَلَبُوا مِنْكَ حُكْمَ اللَّهِ فَأَنْزِلَهُمْ عَلَى اجْتِهَادِكَ ، فَإِنْ أَصَبْتَ فَمِنْ اللَّهِ وَإِنْ أَخْطَأْتَ فَمِنْ نَفْسِكَ وَلَا يُنْسَبُ الْخَطَأُ إِلَى اللَّهِ ، وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : الْحَذَرُ وَالْحَيْطَةُ مِنْ نِسْبَةِ الشُّؤْمِ إِلَى

(١) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ١٨٥.

(٢) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ، ص: ١٨٥.

اللَّهُ ، وَأَنَّ طَالِبَ الْعِلْمِ يَحْذَرُ الْإِسَاءَةَ حَتَّى لَا تُنْسَبَ إِلَى الْعِلْمِ وَأَهْلِهِ . (فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ
حُكْمَ اللَّهِ أَمْ لَا) وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُصِيبَ مِنَ الْمُجْتَهِدِينَ وَاحِدٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ مُجْتَهِدٍ مُصِيبًا . وَفِيهِ
وُجُوبُ وَرَعِ الْعَالِمِ فَيَقُولُ فِيمَا لَا نَصَّ فِيهِ هَذَا اجْتِهَادِي وَعِلْمِي ، وَفِيمَا فِيهِ النَّصُّ قَالَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ
وَالصَّوَابُ . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَشْرُوعِيَّةِ الاجْتِهَادِ . وَفِيهِ ارْتِكَابُ أَذَى الْمُفْسِدَتَيْنِ بِتَقْوِيَتِ أَعْلَاهُمَا . وَفِيهِ
أَنَّ حُكْمَ اللَّهِ حَقٌّ مُطْلَقًا ، وَحُكْمَ الْعُلَمَاءِ قَدْ يَكُونُ صَوَابًا وَقَدْ يَكُونُ خَطَأً . وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى قَاعِدَةِ سَدِّ
الدَّرَائِعِ .



[٦٤]

باب ما جاء في الإقسام على الله

(مُنَاسِبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ) أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَدَّثَ فِي الْبَابِ السَّابِقِ مِنْ إِعْطَاءِ الْكَفَّارِ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ لِمَا فِيهِ مِنْ مُنَافَاةٍ تَعْظِيمِ اللَّهِ ؛ لِأَنَّهُ وَسِيلَةٌ لِلْأَسْتِهَانَةِ بِهِ وَنِسْبَةِ السُّوءِ إِلَيْهِ ، وَهَذَا يُحَذِّرُ مِنَ الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ لِمَا فِيهِ - أَيْضاً - مِنَ الْأَسْتِهَانَةِ بِهِ وَالْجُرْأَةِ عَلَيْهِ . وَلَمْ يَذْكُرِ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - حُكْمَ الْإِقْسَامِ فِي التَّرْجِمَةِ ؛ لِأَنَّ الْإِقْسَامَ لَهُ حَالَتَانِ : الْأُولَى : أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللَّهِ لِقُوَّةِ رَجَائِهِ وَحُسْنِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ، مَعَ شِدَّةِ اقْتِفَارِهِ وَخُضُوعِهِ ، وَهَذَا يَقَعُ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَقَدْ وَقَعَ مِنْهُمْ فِي عَهْدِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : (إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَا بَرَّةَ مِنْهُمْ أَنْسُ بْنُ النَّضْرِ)^(١)

الثَّانِيَّةُ : أَنْ يُقْسِمَ عَلَى اللَّهِ عَلَى وَجْهِ الْحَجْرِ مَعَ سُوءِ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ وَاعْجَابِهِ بِنَفْسِهِ ، وَاسْتِغْفَارِهِ لِلآخَرِينَ ، وَهُوَ الْمَقْصُودُ فِي هَذَا الْبَابِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ ، فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟ إِنْ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ)^(٢) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .]

(قَالَ رَجُلٌ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ) : هَذَا الْقَوْلُ فِيهِ جُرْأَةٌ عَلَى اللَّهِ ، وَيَأْسٌ مِنْ رُوحِ اللَّهِ ، وَقَنُوطٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ وَاسْتِغْفَارٍ لِعِبَادِ اللَّهِ ، وَسُوءُ ظَنٍّ بِاللَّهِ . فَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : (مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ) فِيهِ : الْأَسْتِغْفَامُ هُنَا إِنْكَارِي أَيْ كَيْفَ تَتَأَلَّى عَلَيَّ ؟ وَأَنْتَ عَبْدٌ وَأَنَا رَبُّ أَفْعَلُ مَا أَشَاءُ وَفِيهِ إِثْبَاتُ الْقَوْلِ لِلَّهِ . وَالتَّأَلَّى : هُوَ الْخُلْفُ . (أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ ؟) الْمَغْفِرَةُ : هِيَ السِّتْرُ وَالتَّجَاوُزُ . (إِنْ قَدْ غَفَرْتُ لَهُ) فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى مَذْهَبِ أَهْلِ السُّنَّةِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ يَغْفِرُ الذَّنْبَ بِلَا تَوْبَةٍ . (وَأَخْبَطْتُ عَمَلَكَ) أَيَّ : أَبْطَلْتَهُ فَلَا ثَوَابَ لَكَ فِيهِ .

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٥٠٠/١٧) وأصله أخرجه البخاري - باب الصُّلْحِ فِي الدِّيَةِ وَغَيْرِهِ ، برقم : (٦٨٠٦)، و مسلم -

باب إِثْبَاتِ الْقَصَاصِ فِي الْأَسْنَانِ وَمَا فِي مَعْنَاهَا ، وَغَيْرِهِ ، برقم : (٤٤٦٧)

(٢) رواه مسلم في باب التَّهْيِي عَنْ تَغْيِيطِ الْإِنْسَانِ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ : « أَنَّ الْقَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ » قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ : « تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ » ^(١)] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ - ﷺ - يَقُولُ كَانَ رَجُلَانِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَاخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالْآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ فَكَانَ لَا يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الْآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ أَقْصِرْ . فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ أَقْصِرْ فَقَالَ خَلْنِي وَرَبِّي أُبْعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيًّا فَقَالَ وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لَا يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ . فَقَبَضَ أَرْوَاحَهُمَا فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ أَكُنْتُ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتُ عَلَى مَا فِي يَدَي قَادِرًا وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي وَقَالَ لِلْآخَرِ اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ . قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ .

وَفِي الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : التَّحْذِيرُ مِنَ النَّالِيِّ عَلَى اللَّهِ وَأَنَّهُ مُحِبٌّ لِلْعَمَلِ . وَأَنَّ الْجَنَّةَ أَقْرَبُ لَاحِدِنًا مِنْ شَرَاكِ نَعْلِهِ ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ ، فَقَدْ دَخَلَ الْجَنَّةَ الْمُذْنِبُ بِكَلِمَةٍ ، وَدَخَلَ النَّارَ الْمُنَافِقُ بِالْكَلِمَةِ نَفْسِهَا . قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ " فَهَذَا الرَّجُلُ الْفَاسِقُ أَنَاهُ خَيْرٌ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ ، وَقِيلَتْ فِي حَقِّهِ كَلِمَةٌ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ أَنَّهَا مُؤْذِيَةٌ لَهُ ، وَأَنَّ فِيهَا مِنَ الْاِحْتِقَارِ وَالْاِزْدِرَاءِ لَهُ مَا يَجْعَلُهُ فِي ضَعْفٍ بَيْنَ النَّاسِ ، حَيْثُ شَهِدَ عَلَيْهِ هَذَا الصَّالِحُ بِقَوْلِهِ : « وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ » ، فَكَانَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي سَاءَتْهُ وَآذَتْهُ فِيهَا مَصْلَحَةٌ عَظِيمَةٌ لَهُ بِأَنَّهُ عَفَرَ لَهُ ذَنْبُهُ " ^(٢) . وَقَدْ يَغْفِرُ اللَّهُ تَعَالَى الذَّنْبَ بِأَمْرِ مَكْرُوهِ لِلْعَبْدِ وَهُوَ هُنَا التَّائِبُ . وَفِيهِ وَجُوبُ الْحَذَرِ مِنْ مَزَالِقِ اللِّسَانِ . وَتَرْشِيدُ الْغَيْرَةِ بِالْعِلْمِ . وَالتَّحَفُّظُ فِي الْأَلْفَاظِ عِنْدَ إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ . وَعَدَمُ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ . وَفِيهِ : الْحَذَرُ مِنَ الْعُجْبِ . قَوْلُ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - : (أَوْبَقَتْ) أَيِ : أَهْلَكَتْ .



(١) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في النهي عن البغي (٤٩٠١)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود» .

(٢) التمهيد لشرح كتاب التوحيد (ص: ٥٧٥) .

[٦٥]

بَابٌ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ

(مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ) أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - لَا زَالَ يُحَذِّرُ مِنَ الْأَلْفَاظِ الَّتِي تُنْقِصُ التَّوْحِيدَ وَتُنَافِي كَمَالَهُ ، وَمِنْهَا أَنْ يُسْتَشْفَعَ بِاللَّهِ إِلَى عَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ . قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (وَأَمَّا الْإِسْتِشْفَاعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ فَهُوَ تَعَالَى أَعْظَمُ شَأْنًا مِنْ أَنْ يُتَوَسَّلَ بِهِ إِلَى خَلْقِهِ ؛ لِأَنَّ رُتْبَةَ الْمُتَوَسَّلِ بِهِ غَالِبًا دُونَ رُتْبَةِ الْمُتَوَسَّلِ إِلَيْهِ ، وَذَلِكَ مِنْ سُوءِ الْأَدَبِ مَعَ اللَّهِ ، فَيَتَعَيَّنُ تَرْكُهُ ، فَإِنَّ الشُّفْعَاءَ لَا يَشْفَعُونَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ، وَكُلُّهُمْ يَخَافُونَهُ ، فَكَيْفَ يُعْكَسُ الْأَمْرُ فَيُجْعَلَ هُوَ الشَّافِعُ ، وَهُوَ الْكَبِيرُ الْعَظِيمُ الَّذِي خَضَعَتْ لَهُ الرِّقَابُ ، وَذَلِكَ لَهُ الْكَائِنَاتُ بِأَسْرَها ؟)^(١)

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! تُهِكَّتِ الْأَنْفُسُ وَجَاعَ الْعِيَالُ ، وَهَلَكَتِ الْأَمْوَالُ ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ ، فَإِنَّا نَسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ ، وَبِكَ عَلَى اللَّهِ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « سُبْحَانَ اللَّهِ ! سُبْحَانَ اللَّهِ ! » فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ أَصْحَابِهِ ثُمَّ قَالَ وَيْحَكَ ! أَتَدْرِي مَا اللَّهُ ؟ إِنَّ شَأْنَ اللَّهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ .^(٢) وَذَكَرَ الْحَدِيثَ رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ .]

(فِيهِ بَكْرٌ بْنُ سُلَيْمَانَ مُدَلِّسٌ وَقَدْ عَنَّنَا) أَفَادَهُ الْأَلْبَانِي فِي الضَّعِيفَةِ



(١) القول السديد في مقاصد التَّوْحِيدِ ، ص : ١٨٩ .

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في الجهمية (٤٧٢٦) ، وضعفه الألباني في «ضعيف أبي داود» ، وهو في الضعيفة برقم : (٢٦٣٩) .

[٦٦]

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ.

(مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ) أَنَّهُ مِنْ جِنْسِ الْأَبْوَابِ السَّابِقَةِ فِي الْحَذَرِ مِنْ كُلِّ قَوْلٍ يُفْضِي إِلَى الشِّرْكِ ؛ لِأَنَّهُ لَا يَتِمُّ التَّوْحِيدُ إِلَّا بِتَرْكِهِ . قَالَ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ^(١) (تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ التَّرْجِمَةِ وَأَعَادَهَا الْإِمَامُ ؛ اهْتِمَامًا بِالْمَقَامِ ، فَإِنَّ التَّوْحِيدَ لَا يَتِمُّ وَلَا يُحْفَظُ وَلَا يُصَانُ إِلَّا بِاجْتِنَابِ جَمِيعِ الطُّرُقِ الْمُفْضِيَةِ إِلَى الشِّرْكِ ، وَالْفَرْقُ بَيْنَ الْبَابَيْنِ : أَنَّ الْأَوَّلَ : فِيهِ حِمَايَةُ التَّوْحِيدِ بِسَدِّ الطُّرُقِ الْفَعْلِيَّةِ ، وَهَذَا الْبَابُ : فِيهِ حِمَايَتُهُ وَسَدُّهُ بِالتَّأْدِبِ وَالتَّحْفُظِ بِالْأَقْوَالِ) . وَذَكَرَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ فَرْقًا آخَرَ وَهُوَ أَنَّ الْبَابَ السَّابِقَ فِي حِمَايَةِ ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ ، وَهَذَا فِي حِمَايَةِ الْحِمَى ، وَالْجَنَابُ جُزْءُ الشَّيْءِ ، وَالْحِمَى مَا كَانَ حَوْلَهُ ، فَهَذِهِ التَّرْجِمَةُ أَبْلَغُ مِنَ الْأُولَى . أَفَادَهُ ابْنُ بَارٍ ^(٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ] قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى» قُلْنَا وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِبَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ» ^(٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.]

(عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الشَّخِيرِ) ابْنُ عَوْفٍ بْنِ كَعْبِ الْعَامِرِيِّ . (انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ) كَانَ ذَلِكَ فِي عَامِ الْوُفُودِ وَهُوَ الْعَامُ التَّاسِعُ لِلْهَجْرَةِ . قَوْلُهُ: (فَقُلْنَا أَنْتَ سَيِّدُنَا) عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ إِذَا وَفَدُوا عَلَى كَبِيرِهِمْ ، مَدَحُوهُ بِالْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَاظِ الْعَظِيمَةِ . قَوْلُهُ: (السَّيِّدُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى) السَّيِّدُ : مِنَ السُّودِّ وَهُوَ الشَّرَفُ وَالْجَاهُ ، وَيُطْلَقُ عَلَى الْمَلِكِ وَمَنْ لَهُ التَّصَرُّفُ الْمُنْطَلَقُ . وَإِنَّمَا كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ قَوْلَهُمْ مِنْ جِهَتَيْنِ : الْأُولَى :

(١) القول السديد في مقاصد التوحيد، ص: ١٨٥ .

(٢) في شرحه لكتاب التوحيد، ص: ١٦٦ .

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب - باب في كراهية التماذج (٤٨٠٦)، وصححه الألباني في «صحيح أبي داود»، وفي المشكاة برقم:

(٤٩٠١) .

مِنْ جِهَةِ مُحَاطَبَتِهِمْ بِهِ ، فَقَدْ يُفْضِي ذَلِكَ فِي حَقِّ غَيْرِهِ إِلَى الْإِعْجَابِ وَالْعُرُورِ ، أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَهُوَ مَعْصُومٌ مِنْ ذَلِكَ. الثَّانِيَةُ : بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمْ قَدْ يُفْضِي بِهِمْ إِلَى الْعُلُوِّ لَا سِيَّمَا وَهُمْ حَدَثَاءُ عَهْدٍ بِإِسْلَامٍ. (قُلْنَا وَأَفْضَلْنَا فَضْلًا) أَيُ : مَنْزِلَةً وَرُتْبَةً. قوله: (وَأَعْظَمْنَا طَوْلًا) أَيُ : غِنًى وَشَرَفًا. قوله (فَقَالَ : « قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ) أَيُ : تَكَلَّمُوا بِمَا يَخْضُرُكُمْ مِنَ الْكَلَامِ وَلَا تَتَكَلَّفُوا. قوله: (لَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ) أَيُ : لَا يَتَّخِذْكُمْ الشَّيْطَانُ جَرِيًّا أَيُ : رُسُلًا وَوَكَلَاءَ تَنْطَفُونَ بِلِسَانِهِ ، وَقِيلَ : رُسُلًا : يَتَوَصَّلُ بِكُمْ إِلَى الْعُلُوِّ . وَقِيلَ : لَا يَسْتَجِرِّيَنَّكُمْ : لَا يَجْذُبُنْكُمْ لِلْكَلامِ الَّذِي لَا يَجُوزُ ، وَلَا تَعَارِضَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَعَانِي فَيُحْمَلُ الْحَدِيثُ عَلَى الْجَمِيعِ . وفيه : مَشْرُوعِيَّةٌ قَوْلِ : (السَّيِّدُ اللَّهُ) لِمَنْ قِيلَ لَهُ أَنْتَ سَيِّدُنَا.

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ نَاسًا قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ! يَا خَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١). رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.]

(يَا خَيْرِنَا وَابْنَ خَيْرِنَا) : هُوَ خَيْرُنَا نَسَبًا وَمَقَامًا وَحَالًا ، وَأَبُوهُ خَيْرُنَا نَسَبًا لَا مَقَامًا وَحَالًا . (وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا) كَذَلِكَ . (فَقَالَ : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ! قُولُوا بِقَوْلِكُمْ) أَيُ : تَكَلَّمُوا بِمَا يَخْضُرُكُمْ مِنَ الْكَلَامِ . (وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ) أَيُ : لَا يُقَوِّدَنَّكُمْ إِلَى الْهَاطِيَةِ (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ) وَصِفَانِ يَجْمَعَانِ غَايَةَ الْمَدْحِ وَالنَّائِ ، وَيَنْفِيَانِ كُلَّ ذَمٍّ وَجَفَاءٍ . وفيهما رَدٌّ عَلَى الْعَالِينَ وَالْجَافِينَ .

(مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ) هَذَا صَرِيحٌ فِي بُغْضِهِ لِمَا يَفْعَلُهُ الْغُلَاةُ بِرِغْمِ مَدْحِهِ ، وَأَنَّ الْمَنْزِلَةَ الَّتِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ هِيَ الْعُبُودِيَّةُ وَالرَّسَالَةُ . ورفعه فوق منزلته قد يكون محرماً وقد يكون

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤١/٣)، وقال شعيب الأرنؤوط: «حديث صحيح»، وصححه الشيخ المجدد الألباني - رحمه الله - في "التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان" (٧١/٩) والشيخ مقبل الوادعي في "الصحيح المسند" (١٠٣/١).

[66] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

كفراً وذلك إذا عادَ على منزلتِهِ وهي العبوديَّةُ بِالْإِبْطَالِ بأن يصيرُهُ معبوداً مع الله ^(١) وَإِنَّمَا كَرِهَ النَّبِيُّ ﷺ مَا نَطَقُوا بِهِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَنْطِقُوا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَمْ يَجْزُوا إِلَّا بِالصِّدْقِ سَدّاً لِلذَّرِيعَةِ ، وَخَشْيَةً أَنْ يُفْضِيَ بِهِمْ هَذَا الْمَدْحُ إِلَى مَا لَا يَجُوزُ ، أَوْ يُطْلَقُونَ هَذَا اللَّفْظَ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ . وَفِي الْإِحَادِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ : شَفَقَةُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَمَتِهِ وَتَحْذِيرُهَا مِنَ الْعُلُوِّ . وَفِيهَا مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ التَّوَضُّعِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَعَدَمُ رُؤْيَةِ النَّفْسِ ، وَهَذِهِ الْأَوْصَافُ لَا يَبْلُغُهَا إِلَّا مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ وَبَلَغَ كَمَالَهُ .

قَالَ الْعَلَامَةُ ابْنُ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - : (فَالْوَاجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ ، وَأَنْ يَفْتَصِدَ فِي قَوْلِهِ سِوَاءَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ مَعَ غَيْرِهِ وَعَلَيْهِ التَّأَدُّبُ بِالْآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَعْمَالِهِ مَعَ الرَّسْلِ وَالصَّالِحِينَ وَالْعُلَمَاءِ حَتَّى لَا يَقَعَ فِي الْعُلُوِّ) ^(٢) .

مَسْأَلَةٌ : اِخْتَلَفَ النَّاسُ فِي إِطْلَاقِ لَفْظِ السَّيِّدِ إِلَى ثَلَاثَةِ أَقْوَالٍ :

الْقَوْلُ الْأَوَّلُ : الْكَرَاهَةُ ؛ لِوُجُودِ أَحَادِيثٍ تُدُلُّ عَلَى الْجَوَازِ ، الْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ النَّهْيَ عَنِ الْمُخَاطَبَةِ فَقَطُّ .

الْقَوْلُ الثَّالِثُ : الْجَوَازُ ، وَرَجَحَهُ الْعَلَامَةُ ابْنُ عُثَيْمِينَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - ، بِشَرْطَيْنِ : الْأَوَّلُ أَنْ يَكُونَ مَنْ أُطْلِقَ عَلَيْهِ اللَّفْظُ أَهْلاً لِدَلِيلِكَ ، ثَانِيًا : أَلَّا يُفْضِيَ إِلَى مَحْظُورٍ ، كَأَنْ يُوقَعَ الْقَائِلَ فِي الْعُلُوِّ ، أَوْ يُوقَعَ الْمُخَاطَبَ فِي الْغُرُورِ .



(١) أفدته من شرح الشيخ العصيمي - حفظه الله - .

(٢) في شرحه لكتاب التَّوْحِيدِ ، ص: ١ .

[٦٧]

بَابُ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (١).

مُنَاسَبَةُ الْبَابِ لِلَّذِي قَبْلَهُ وَلِلْحَاتِمَةِ أَيْضًا : أَنَّ الْإِمَامَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - تَكَلَّمَ فِيمَا سَبَقَ فِي تَعْظِيمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا تَفْصِيلًا بِالْقَوْلِ وَالْفِعْلِ ، وَهُنَا يَتَكَلَّمُ عَنْ تَعْظِيمِ اللَّهِ جَلَّ وَعَلَا إجمالاً فَذَكَرَ النُّصُوصَ الدَّالَّةَ عَلَى عَظَمَةِ الرَّبِّ وَكِبَرِيَّائِهِ وَمَجْدِهِ وَجَلَالِهِ وَخُضُوعِ الْمَخْلُوقَاتِ بِأَسْرِهَا لِعَزِّهِ ؛ لِأَنَّ هَذِهِ التُّعُوتُ الْعَظِيمَةَ وَالْأَوْصَافَ الْكَامِلَةَ ، أَكْبَرُ الْأَدْلَةِ وَالْبَرَاهِينِ عَلَى أَنَّ الْمَعْبُودَ وَحْدَهُ وَالْمَحْمُودَ وَحْدَهُ الَّذِي يُبَدَّلُ لَهُ غَايَةُ الدُّلِّ ، وَغَايَةُ الْحُبِّ وَالتَّأَلُّهِ ، وَأَنَّهُ الْحَقُّ وَمَا سِوَاهُ بَاطِلٌ ، وَهَذِهِ هِيَ حَقِيقَةُ التَّوْحِيدِ وَرُوحُهُ وَسِرُّ الْإِحْلَاصِ - فَتَسْأَلُ اللَّهُ أَنْ يَمْلَأَ قُلُوبَنَا مِنْ مَعْرِفَتِهِ وَحُبِّهِ وَالْإِنَابَةَ إِلَيْهِ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ - . قَالَ الشَّنَقِيطِيُّ (٢) - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ : (أَيْ : مَا عَظُمُوهُ حَقَّ عَظَمَتِهِ) (٣) . وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ : (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ) يَعُودُ إِلَى كُلِّ مَنْ خَالَفَ الْأَمْرَ وَالتَّنْهِيَ وَهُمْ مُتَفَاتُونَ فِي عَدَمِ التَّقْدِيرِ الْوَاقِعِ مِنْهُمْ . - عَفَا اللَّهُ - بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ (وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ) أَيْ : بِعَظَمَتِهَا وَسَعَتِهَا بِمَا فِيهَا فِي قَبْضَةِ الرَّحْمَنِ . قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ (مطويات) الطَّيُّ ضِدُّ النَّشْرِ . (بِيَمِينِهِ) لِيُفْهَمَ أَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي الْيَدِ الْأُخْرَى ، (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى) أَيْ : تَنَزَّهَ وَتَرَفَّعَ (عَمَّا يَشْرَكُونَ) عَنِ الشِّرْكِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ] قَالَ جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الْأَخْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالْأَرْضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ،

(١) سورة الزمر الآية: ٦٧.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (٥/٢٩٩).

[٦٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

وَالْمَاءَ عَلَى إَصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إَصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إَصْبَعٍ، فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ (الآية^(١)). وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ «وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ عَلَى إَصْبَعٍ، ثُمَّ يَهْزُهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا اللَّهُ» (٢). وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَيَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إَصْبَعٍ، وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إَصْبَعٍ، وَسَائِرَ الْخَلْقِ عَلَى إَصْبَعٍ» (٣) أَخْرَجَاهُ (٤).

(حَبْرٌ) الْحَبْرُ: هُوَ الْعَالَمُ. (يَا مُحَمَّدُ) فِيهِ جَفَاءُ الْيَهُودِ وَعِنَادُهُمْ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَقُلْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ. (إِنَّا نَجِدُ) أَيُّ: فِي التَّوْرَةِ. (أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إَصْبَعٍ) فِيهِ عَظَمَةُ اللَّهِ وَعَظُمُ صِفَاتِهِ، وَفِيهِ: إثْبَاتُ صِفَةِ الْإِصْبَعِ. (فَيَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ) أَيُّ: وَحْدِي لَتَعْرِيفِ طَرَفِي الْإِسْنَادِ وَفِيهِ إثْبَاتُ صِفَةِ الْقَوْلِ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ (الضَّحِكُ يَكُونُ إِفْرَارًا وَإِنْكَارًا، وَلَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا إِلَّا الرَّائِي). (حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِدُهُ) أَوَائِلُ أَضْرَاسِهِ. (تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ) هَذَا بَيَانٌ مَنْ رَأَى ضَحْكَهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾. قِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ لِلآيَةِ بَعْدَ كَلَامِ الْحَبْرِ يُفْهَمُ مِنْهُ أَنَّ الْحَدِيثَ مُطَابِقٌ لِلآيَةِ. وَقَبْضَتُهُ لِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ قَبْضَةً حَقِيقَةً تَلِيْقُ بِجَلَالِهِ وَكَمَالِهِ لَا ثَمَانِيْلُ قَبْضَةِ الْمَخْلُوقِينَ، وَلَا تُحَرِّفُهَا بِأَنْ نَقُولَ مَعْنَاهَا: تَحْتَ تَصَرُّفِهِ وَقَهْرِهِ؛ إِذْ أَنْ تَصَرَّفَهُ وَقَهْرَهُ لَا يَخْتَصُّ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَقَالَتْ الْمُعْطِلَّةُ فِي قَوْلِهِ: (بِيَمِينِهِ) أَيُّ: بِقِسْمِهِ وَهُوَ تَحْرِيفٌ بَلَا دَلِيلٍ.

(١) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (٤٨١١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٢) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (٤٨١١).

(٤) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن - باب قوله: ﴿وما قدروا الله حق قدره﴾ (٤٨١١)، ومسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٦).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللَّهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِيَدِهِ الْيُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟»^(١)].

(أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟): الْجَبَّارُونَ جَمْعُ جَبَّارٍ وَهُوَ الْمُتَعَالِي عَلَى النَّاسِ بِالْقَهْرِ وَالظُّلْمِ. وَالْمُتَكَبِّرُونَ: جَمْعُ مُتَكَبِّرٍ وَهُوَ الْمُتَرْفِعُ عَنِ الْحَقِّ وَالْخَلْقِ. (ثُمَّ يَطْوِي الْأَرْضِينَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهَا بِشِمَالِهِ) حَكَمَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ عَلَى هَذِهِ الرِّوَايَةِ بِالشَّدُوذِ؛ لِأَنَّهُ قَدْ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ: (وَكَلَّمَا يَدَيْهِ يَمِينٌ)^(٢)، لَكِنَّ الْعَلَامَةَ ابْنَ بَازٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: (وَفِي هَذَا إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ لِلَّهِ، وَأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ يَمِينٌ وَشِمَالٌ، وَأَنَّ كَلِمَاتِ يَدَيْهِ يَمِينٌ كَمَا فِي الْحَدِيثِ الْآخِرِ، وَسَمَّى أَحَدَهُمَا يَمِينًا وَالْآخَرَ شِمَالًا مِنْ حَيْثُ الْأَسْمَاءُ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ الْمَعْنَى وَالشَّرَفِ، كَلَّمَا يَمِينٌ - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا نَقْصٌ)^(٣).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ^(٤)].

وَفِي هَذَا الْأَثَرُ إِثْبَاتُ الْكَفِّ لِلرَّحْمَنِ جَلَّ وَعَلَا، وَقَدْ جَاءَتْ أَحَادِيثُ مَرْفُوعَةٌ كَمَا فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ - «مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ - وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ - إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ وَإِنْ كَانَتْ تَمَرَةً فَتَرْتَبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي

(١) أخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (٢٧٨٨).

(٢) أخرجه مسلم، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر والحث على الرفق بالرعية والنهي عن إدخال المشقة عليهم، برقم: (١٨٢٧).

(٣) شرح كتاب التَّوْحِيدِ، ص: ١٩٦-١٧٠.

(٤) حديث حسن رواه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٣٠٢١٢) وفيه إسناده عمرو بن مالك بن عمر الراسبي الغبري وهو ضعيف عند ابن حجر وأبو الشيخ في العظمة (١٣٥).

===== [٦٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ»^(١) وَهِيَ كَفٌّ تَلِيْقٌ بِجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ لَيْسَتْ كَكَفِّ الْمَخْلُوقِ . قَوْلُهُ : (إِلَّا كَحَزْدَلَةٍ) الْحَزْدَلَةُ : وَاحِدَةُ الْحَزْدَلِ وَهِيَ نَبَاتٌ مَعْرُوفٌ يُضْرَبُ بِهِ الْمِثْلُ فِي الصِّغَرِ .

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ : حَدَّثَنِي يُونُسُ ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ ، قَالَ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : حَدَّثَنِي أَبِي ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةِ أَلْفَيْتٍ فِي ثُرْسٍ» قَالَ : وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : «مَا الْكُرْسِيُّ فِي الْعَرْشِ إِلَّا كَخَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أَلْفَيْتَ بَيْنَ ظَهْرِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ»^(٢) .]

ضعف إسناد هذا الحديث العلامة الألباني في السلسلة الضعيفة ، لكن ثبت له شاهد من حديث أبي ذر : (مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَخَلْقَةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ تِلْكَ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْخَلْقَةِ)^(٣) . وَلَعَلَّهُ هَذَا الشَّاهِدُ صَحَّحَهُ فِي التَّعْلِيْقِ عَلَى الطَّحَاوِيَةِ بَعْدَ مَا ضَعَّفَ إِسْنَادَهُ فِي الضَّعِيفَةِ . وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ مِنَ الْفَوَائِدِ :

١ - عِظَمُ الْكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ لِلْسَّمَاوَاتِ ، وَيَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضَ﴾^(٤) . أَنَّ الْعَرْشَ غَيْرُ الْكُرْسِيِّ .

٢ - وَأَنَّ الْكُرْسِيَ جُزْءٌ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ الْعِلْمُ .

٣ - وَأَنَّ الْعَرْشَ جُزْءٌ وَلَيْسَ مَعْنَاهُ السُّلْطَانُ .

٤ - وَفِيهِ سَعَةُ الْعَرْشِ بِالنِّسْبَةِ لِلْكُرْسِيِّ .

(١) رواه مسلم برقم ٢٣٨٩ . باب قبول الصدقة من الكسب الطيب .

(٢) أخرجه ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٥٧٩٥) ، وقال ابن كثير : (أول الحديث مرسل وعن أبي ذر منقطع) راجع البداية (١٣/١) وإسناده ضعيف ، راجع الضعيفة برقم : (٦١١٨) ، وقد حسن الألباني حديثاً بنحوه بمجموع طرق راجع الصحيحة برقم : (١٠٩) ، ٢٦٦٨ .

(٣) راجع الصحيحة برقم : (١٠٩) .

(٤) سورة البقرة الآية : ٢٥٥ .

٥- وفيه مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ مَا هُوَ ظَاهِرٌ ، قَالَ الشَّيْخُ صَالِحُ آلِ الشَّيْخِ : (وَهَذَا الْمُلْكُ الْعَظِيمُ يَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ أَيُّهَا الْعَبْدُ الْخَفِيرُ الْوَضِيعُ فَيَأْمُرُكَ بِعِبَادَتِهِ وَهِيَ شَرَفٌ لَكَ لَوْ شَعَرْتَ ، وَيَأْمُرُكَ بِتَقْوَاهِ وَهِيَ عِزٌّ لَكَ لَوْ عَقَلْتَ ، وَيَأْمُرُكَ بِطَاعَتِهِ وَهِيَ فُحْرٌ لَكَ لَوْ عَلِمْتَ)^(١).

قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، قَالَ: (بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَالْمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللَّهُ فَوْقَ الْعَرْشِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ)^(٢) أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيٍّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زَيْدٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ^(٣) وَرَوَاهُ بَنُحْوَةُ الْمَسْعُودِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَهُ الْخَافِضُ الدَّهْلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى قَالَ (وَلَهُ طُرُقٌ)^(٤)]

(السَّمَاءُ الدُّنْيَا) : هِيَ الْقَرِيبَةُ مِنَ الْأَرْضِ . وَعَلَى مَا ذَكَرَ مِنَ الْفُرُوقِ يَكُونُ بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالْمَاءِ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾^(٥) . وَهَذَا صَرِيحٌ فِي إثْبَاتِ غُلُوِّ اللَّهِ تَعَالَى غُلُوُّ ذَاتٍ ، وَقَدْ ذَكَرَ ابْنُ أَبِي الْعِزِّ : (أَنْ أَدْلَةَ الْعُلُوِّ تَزِيدُ عَلَى أَلْفٍ دَلِيلٍ) . وَيَنْقَسِمُ الْعُلُوُّ إِلَى : غُلُوِّ ذَاتٍ وَغُلُوِّ مَنْزِلَةٍ . أَمَّا غُلُوُّ الْمَنْزِلَةِ فَلَا يُنْكِرُهُ مُسْلِمٌ ، وَأَمَّا غُلُوُّ الذَّاتِ فَقَدْ أَنْكَرَتْهُ الْمُتَبَدِّعَةُ ، وَقَدْ انْقَسَمُوا إِلَى قِسْمَيْنِ : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَهَذَا ضَلَالٌ

(١) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ص: (٣٤٠/٢).

(٢) أخرجه الدارمي في «النقض على المريسي الجهمي العنيد» (٤٧١/١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٩٨٧/٢٠٢/٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٢٠)، والطبراني في الكبير (٢٠٢/٩)، وجود إسناده الألباني في مختصر العلو (ص: ١٠٤)، وقال الشيخ ابن عثيمين: (هذا الحديث موقوف على ابن مسعود لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها ، فيكون له حكم الرفع؛ لأن ابن مسعود لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات) أهد "القول المفيد: ٥٣٧/٢".

(٤) انظر: «العلو للعلي الغفار» للذهبي (ص ٤٥)، وهو أثر صحيح.

(٥) سورة هود الآية: ٧.

===== [٦٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾

بَعِيدٌ وَلَا زَمَهُ الْخُلُوفُ فِي الْعَبِيدِ. وهو كفر لا يجادل فيه إلا عنيد وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ فَوْقَ وَلَا تَحْتَ وَلَا يَمِينُ وَلَا شِمَالُ وَلَا مُتَّصِلًا بِالْعَالَمِ وَلَا مُنْفَصِلًا عَنْهُ وَلَا دَاخِلَهُ وَلَا خَارِجَهُ ، وَلَوْ قِيلَ لِأَحَدِهِمْ : صِفْ لَنَا الْعَدَمَ لَمْ يَجِدْ أَبْلَغَ مِنْ هَذَا الْوَصْفِ قَوْلُهُ : (لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ) فِيهِ إِبْتِاثُ كَمَالِ عِلْمِ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ مَعَ غُلُوِّهِ فَوْقَ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ الْعَظِيمَةِ مَطْلَعٌ عَلَى أَعْمَالِ الْجَوَارِحِ بَلْ خَوَاطِرِ الْقُلُوبِ

. قَالَ الْإِمَامُ - رَحِمَهُ اللَّهُ - [وَعَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «هَلْ تَذَرُونَ كَمَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ؟ قُلْنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَمِنْ كُلِّ سَّمَاءٍ إِلَى سَّمَاءٍ ، مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَكثُفَ كُلِّ سَّمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالْعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ » ^(١) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ .]

ضَعَفَهُ الذَّهَبِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِ الْعُلُوفِ ^(٢) ، وَالْأَلْبَانِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي الضَّعِيفَةِ ^(٣) .

تَمَّ بِحَمْدِ اللَّهِ وَتَوْفِيقِهِ إِمْلَاءُ شَيْخِنَا الشَّيْخِ : عَمَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَلَى بْنِ مُحَمَّدٍ خَيْرٍ لِيُشْرِحَ كِتَابَ التَّوْحِيدِ الَّذِي هُوَ حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعَبِيدِ لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ الْمُجَدِّدِ الْإِمَامِ : مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الْوَهَّابِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَلَمٍ : وَلَيْدِ بْنِ الْفَكَّيِّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، وَكَانَ الْفَرَاغُ مِنْهُ فِي مُنْتَصَفِ لَيْلَةِ الْخَمِيسِ الْمُوَافِقِ ٥ / رَبِيعِ الْأَوَّلِ / ١٤٣٤ هـ - ١٧ / ١ / ٢٠١٣ م ، وَذَلِكَ بِمَنْزِلِهِ بِالْفَادِي ، شَرْقَ النَّيْلِ / السُّودَانِ



(١) أخرجه أبو داود في كتاب السنة - باب في الجهمية (٧٤٢٣)، و الترمذي في كتاب تفسير القرآن - باب ومن سورة الحاقة (٣٣٢٠)، وابن ماجه في كتاب المقدمة - باب في ما أنكرت الجهمية (١٩٣). وضعفه الألباني في «ضعيف الجامع» (٦٠٩٣).

(٢) راجع كتاب العلو للذهبي (٥٠١/١).

(٣) راجع الضعيفة (٣/رقم: ١٢٤٧).

مسرّد الموضوعات

- ١..... مقدمة الشيخ الدكتور : خالد عبد اللطيف
- ٢..... مقدمة الشارح
- ٥..... ترجمة الإمام مُحمَّد بن عبد الوهاب — رحمه الله —
- ١٠..... قصة مدرس هندي مع كتاب التَّوْحِيدِ
- ١١..... ثناء العلماء على كتاب التَّوْحِيدِ
- ١٥..... [١] كِتَابُ التَّوْحِيدِ
- ٢٢..... [٢] بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكْفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ
- ٢٩..... [٣] بَابُ مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ
- ٣٥..... [٤] بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ
- ٤١..... [٥] بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
- ٤٧..... [٦] بَابُ تَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ
- ٥٢..... [٧] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الْخُلُقَةِ وَالْحَيْطِ وَتَحْوِيهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ
- ٥٧..... [٨] بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ
- ٦٤..... [٩] بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَتَحْوِيهِمَا
- ٦٩..... [١٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ اللَّهِ
- ٧٣..... [١١] بَابُ لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّهِ
- ٧٦..... [١٢] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ الْكُذْبُ لِغَيْرِ اللَّهِ
- ٧٨..... [١٣] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ الْإِسْتِعَادَةُ بِغَيْرِ اللَّهِ
- ٨١..... [١٤] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَعِيْثَ بِغَيْرِ اللَّهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

- [١٥] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ ٨٥
- [١٦] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ ٩١
- [١٧] بَابُ الشَّفَاعَةِ ٩٥
- [١٨] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ١٠٣
- [١٩] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْعُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ ١٠٧
- [٢٠] بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّعْلِيلِ فِيمَنْ عَبْدَ اللَّهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبْدَهُ؟ ١١٢
- [٢١] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْعُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ١١٨
- [٢٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابِ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ... ١٢٣
- [٢٣] بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ ١٢٨
- [٢٤] بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ ١٣٥
- [٢٥] بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ ١٤١
- [٢٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُفَّانِ وَنَحْوِهِمْ ١٤٥
- [٢٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ ١٥١
- [٢٨] بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطْيِيرِ ١٥٤
- [٢٩] بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ ١٦٢
- [٣٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ بِالْأَنْوَاءِ ١٦٥
- [٣١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ ١٧٠
- [٣٢] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ ١٧٦
- [٣٣] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ١٨١

- ١٨٥ [٣٤] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾
- ١٨٨ [٣٥] بَابُ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللَّهِ
- ١٩٣ [٣٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ
- ١٩٦ [٣٧] بَابُ مِنَ الشِّرْكِ إِزَادَةُ الْإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا
- ٢٠١ [٣٨] بَابُ مَنْ أَطَاعَ الْعُلَمَاءَ وَالْأُمَرَاءَ
- ٢٠٦ [٣٩] بَابُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾
- ٢١١ [٤٠] بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ
- ٢١٦ [٤١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾
- ٢٢٠ [٤٢] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾
- ٢٢٦ [٤٣] بَابُ مَا جَاءَ فِي مَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلْفِ بِاللَّهِ
- ٢٢٨ [٤٤] بَابُ قَوْلٍ: (مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ)
- ٢٣١ [٤٥] بَابُ مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللَّهَ
- ٢٣٣ [٤٦] بَابُ التَّسْمِيَةِ بِقَاضِي الْقَضَاةِ وَخَوِّهِ
- ٢٣٥ [٤٧] بَابُ إِحْتِرَامِ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرِ الْأَسْمَاءِ لِأَجْلِ ذَلِكَ
- ٢٣٧ [٤٨] بَابُ مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللَّهِ أَوْ الْقُرْآنِ أَوْ الرَّسُولِ
- ٢٤٠ [٤٩] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً مِنَّا﴾
- ٢٤٤ [٥٠] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَاحِبًا﴾
- ٢٤٨ [٥١] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾
- ٢٥١ [٥٢] بَابُ لَا يُقَالُ السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ

- ٢٥٢ [٥٣] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنْ شِئْتَ
- ٢٥٥ [٥٤] بَابُ لَا يَقُولُ عَبْدِي وَأَمْتِي
- ٢٥٨ [٥٥] بَابُ لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ
- ٢٦٠ [٥٦] بَابُ لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إِلَّا الْجَنَّةُ
- ٢٦٢ [٥٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي (لَوْ)
- ٢٦٦ [٥٨] بَابُ النَّهْيِ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ
- ٢٦٨ [٥٩] بَابُ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَطْشُونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾
- ٢٧٣ [٦٠] بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكَرِي الْقَدَرِ
- ٢٨٠ [٦١] بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمَصُورِينَ
- ٢٨٣ [٦٢] بَابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الْخَلْفِ
- ٢٨٨ [٦٣] بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ
- ٢٩٢ [٦٤] بَابُ مَا جَاءَ فِي الْإِقْسَامِ عَلَى اللَّهِ
- ٢٩٤ [٦٥] بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ
- ٢٩٥ [٦٦] بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ حَمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ
- ٢٩٨ [٦٧] بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾